مجمع البيان

في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

طبعة جديدة منقحة

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

شبكة الفكر
alfeker.net

مجمع البيان في تفسير القرآن

مجمع البيان في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

طبعة جديدة مُنقّحة

الجزء السادس

دار المرتضى
بيروت

دار المرتضى

طباعة ,نشر ,توزيع

لبنان -بيروت , ص.ب :١٥٥/٢٥ الغبيري

هاتف فاكس : ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢

E-mail:mortada14@hotmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing -Publishing -Distributing
Lebanon -Beirut
P O Box: 155/25 Ghobiery
Tel -Fax: 009611840392
E-mail:mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

جميع حقوق الطبع والاقتباس محفوظة
ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة طباعة
أو ترجمة الكتاب أو جزء منه إلا بإذن
خطي من المؤلف والناشر

الطبعة الأولى
1427 هجرية
2006 ميلادية

سُورَةُ الرَّعْدِ

مكية كلها، عن ابن عباس، وعطاء، وقال الكلبي ومقاتل: مكية إلا آخر آية منها نزلت في عبد الله بن سلام، وقال سعيد بن جبير: كيف تكون هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام والسورة كلها مكية، وقال الحسن وعكرمة، وقتادة: إنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ وما بعدها.

● **عدد آيها:** أربعون وسبع آيات شامي، وخمس بصري. أربع حجازي، ثلاث كوفي.

● **اختلافها:** خمس آيات ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورُ﴾ غير كوفي ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، و﴿سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ شامي ﴿مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ عراقي شامي.

● **فضلها:** أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: من قرأ سورة الرعد أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، وكان يوم القيامة من الموفين بعهد الله تعالى، وقال أبو عبد الله عليه السلام: من أكثر قراءة الرعد لم يصبه الله بصاعقة أبداً، وإن كان مؤمناً أدخل الجنة بغير حساب وشفع في جميع من يعرفه من أهل بيته وإخوانه.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه سورة يوسف بذكر قصص الأنبياء، افتتح هذه السورة بأن جميع ذلك آيات الكتاب، وأنَّ الذي أنزله هو الحق تعالى، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

ولم يعد أحد ﴿الٓمٓر﴾ آية، وعد الكوفيون ﴿طه ﴿١﴾﴾ و ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ آية، لأن ﴿طه﴾ مشاكلة لرؤوس الآي التي بعدها بالألف، مع أنه لا يشبه الاسم المفرد كما أشبه صاد وقاف ونون، لأنها بمنزلة باب ونوح.

● **اللغة:** العُمُد والعَمَد جميعاً بمعنى واحد، وهما جمع عمود وعِماد، إلا أن عُمُداً جمع عمود وعماد، وعُمُداً اسم للجمع، ومثله: أديم وأدم، مثل: إهاب وأُهب، وأَفيق وأُفق.

● **الإعراب:** ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ يجوز أن يكون موضعه رفعاً على الابتداء، ويجوز أن يكون رفعاً(١) بالعطف على «آيات الكتاب» ويكون ﴿ٱلْحَقُّ﴾ مرفوعاً على إضمار هو، ويجوز أن يكون

---

(١) [رفعاً].

في موضع جر بالعطف على الكتابِ وتقديره: تلك آيات الكتاب وآيات الذي أُنزل إليك من ربك، ويكون ﴿ٱلْحَقُّ﴾ مرفوعاً على الإضمار، ويجوز أن يكون ﴿ٱلْحَقُّ﴾ مجروراً صفة للذي إذا جعلته عطفاً على الكتاب، ولكنه لم يقرأ به أحد من القراء.

● **المعنى:** ﴿الٓمٓرۚ﴾ قد فسرناه في أول البقرة، وبيّنا ما قيل فيه، وروي أن معناه: أنا الله أعلم وأرى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه السورة هي آيات الكتاب التي تقدم الوعد بها ليست بمفتريات ولا بسحر، والكتاب: القرآن، عن ابن عباس، والحسن. وقيل: إن الكتاب عبارة عن التوراة والإنجيل، عن مجاهد، وقتادة، ويكون تقديره: تلك الأخبار التي قصصتها عليك آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة، والآيات: الدلالات العجيبة المؤدية إلى المعرفة بالله سبحانه، وأنه لا يشبه الأشياء ولا تشبهه ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني وهذا القرآن الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق، فاعتصم بالله واعمل بما فيه، وعلى القول الأول فإنه وصف القرآن بصفتين: أحدهما بأنه كتاب، والأخرى بأنه منزل.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بأنه منزل وأنه حق مع وضوحه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ لما ذكر الله سبحانه أنهم لا يؤمنون عرَّف الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق، ويريد بالعمد: السواري والدعائم. وقيل فيه قولان:

أحدهما: أن المراد رفع السماوات بغير عمد وأنتم ترونها كذلك، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والجبائي، وأبي مسلم، وهو الأصح. قال ابن عباس: يعني ليس من دونها دعامة تدعمها، ولا فوقها علاقة تمسكها، قال الزجّاج: وفي ذلك من القدرة والدلالة ما لا شيء أوضح منه، لأن السماء محيطة بالأرض متبرية منها بغير عمد.

والآخر: أن يكون ترونها من نعت العمد، فيكون المعنى: بغير عمد مرئية، فعلى هذا تعمدها قدرة الله عز وجل، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد مضى تفسيره، وإذا حملنا الاستواء على معنى الملك والاقتدار، فالوجه في إدخال ﴿ثُمَّ﴾ فيه، ولم يزل سبحانه كذلك: أن المراد اقتداره على تصريفه وتقليبه، وإذا كان كذلك فلا يكاد القديم سبحانه يوصف به إلا وقد وجد نفس العرش ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ذللهما لمنافع خلقه ومصالح عباده.

﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: كل واحد منهما يجري إلى وقت معلوم، وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التي تكوَّر عندها الشمس ويخسف القمر وتنكدر النجوم، عن الحسن. وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها ولا يجاوزانها، وللشمس مائة وثمانون منزلاً تنزل كل يوم منزلاً حتى تنتهي إلى آخر المنازل فلا تجاوزه وترجع إلى أول المنازل، وينزل القمر كل ليلة منزلاً حتى ينتهي إلى آخر منازله.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: يدبّر الله كل أمر من أمور السماوات والأرض وأمور الخلق على وجه توجبه الحكمة وتقتضيه المصلحة ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: يأتي بآية في أثر آية، فصلاً فصلاً مميزاً

بعضها عن بعض ليكون أمكن للاعتبار والتفكر. وقيل: معناه يبين الدلائل بما يحدثه في السماوات والأرض.

﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: لكي توقنوا بالبعث والنشور، وتعلموا أن القادر على هذه الأشياء قادر على البعث بعد الموت، وفي هذا دلالة على وجوب النظر المؤدّي إلى معرفة الله تعالى، وعلى بطلان التقليد، ولولا ذلك لم يكن لتفصيل الآيات معنى.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

● **القراءة:** قد ذكرنا الاختلاف في قوله: ﴿يُغْشِى﴾ في سورة الأعراف، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وحفص: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ جميعها بالرفع، والباقون: بالجر في الجميع، وقرأ حفص: ﴿صُِنْوَانٌ﴾ بضم الصاد، وكذلك رواية الحلواني عن القواس، وقرأ الباقون بكسر الصاد، وفي الشواذ قراءة الحسن، وقتادة: ﴿صِنْوَانٌ﴾ وقرأ ﴿يسقي﴾ بالياء ابن عامر، وزيد ورويس، عن يعقوب، وقرأ الباقون: ﴿تُسْقَىٰ﴾ بالتاء، وقرأ أهل الكوفة غير عاصم وروح، عن يعقوب: ﴿ويفضل﴾ بالياء، والباقون: بالنون.

● **الحجة:** قال أبو علي: من رفع قوله: ﴿وَزَرْعٌ﴾ فتقديره: وفي الأرض زرع ونخيل صنوان، فجعله محمولاً على قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ ولم يجعله محمولاً على ما في الجنات من الأعناب، والجنة على هذا تقع على الأرض التي فيها الأعناب دون غيرها، كما تقع على الأرض التي فيها الأعناب والنخيل دون غيرهما، ويقوي ذلك قول زهير:

كَأنَّ عَيْنَيَّ في غَرْبَيْ مُقَتَّلَةٍ   مِنَ النَّوَاضِحِ تَسْقي جَنَّةً سُحُقا(١)

فالمعنى: تسقي نخيل جنة. فأما من قرأ بالجر فإنه حمل النخيل والزرع على الأعناب، فكأنه قال: جنات من أعناب من زرع ونخيل، والدليل على أن الأرض إذا كان فيها النخل والكرم والزرع سمّيت جنة. قوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ فكما سمّيت الأرض ذات العنب والنخل والزرع جنة، كذلك يكون النخيل والزرع محمولين على الأعناب، فتكون الجنة من هذه الأشياء، ويقوي ذلك قوله:

---

(١) الغرب: الدلو العظيمة. والناضحة: الناقة التي تسقي الماء. والمقتلة: المذللة لعمل من الأعمال. والسحق جمع السحوق: النخلة الطويلة.

أقْـبَـلَ سَـيْـلٌ جـاءَ مِـنْ أمْـرِ الله يَـحْـرِدُ حَـرْدَ الـجَـنَّـةِ الـمُـغِـلَّهْ[١]

والغلة إنما هي ما يكال بالقفيز في أكثر الأمر. قال: والصنوان فيما يذهب إليه أبو عبيدة صفة للنخيل، والمعنى: أن يكون من أصل واحد، ثم يتشعَّب من الرؤوس فيصير نخلًا ونخلين. قال: وقال: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ لأنها تشرب من أصل واحد ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ وهي الثمر، وأجاز غيره أن يكون الصنوان من صفة الجنات، وكأنه يكون يراد به في المعنى ما في الجنات وإن جرى على لفظ الجنات، وعلى هذا يجوز أن ترفع وإن جررت النخيل، لأن الجنات مرفوعة، ولم يحك هذا في قراءة السبعة. وأما الكسرة التي في ﴿صِنْوَانٌ﴾ فليست التي كانت في صنو، كما أن الكسرة التي في قنو ليست التي في قنوان، لأن تلك قد حذفت في التكسير وعاقبتها الكسرة التي يجتلبها التكسير، وكذلك الكسرة التي في هجان، وأنت تريد الجمع، ليست الكسرة التي كانت في الواحد، ولكنه مثل الكسرة التي في ظراف إذا جمعت عليه ظريفاً. وأما من ضم الصاد من ﴿صِنْوَانٌ﴾ فإنه جعله مثل ذئب وذؤبان، وربما تعاقب فِعلان وفُعلان على البناء الواحد، نحو: حَش وحُشان وحِشان. وأما ﴿صِنْوَانٍ﴾ بفتح الصاد فليست من أمثلة الجمع المكسر، فإن صحَّ ذلك فإنه يكون اسماً للجمع، لا مثالًا له من أمثلة التكسير، فيكون بمنزلة الجامل والسامر، ومثل قولهم: السعدان والضَمران في الجمع. ومن قرأ: ﴿تَسْقَىٰ﴾ بالتاء، فالمراد تسقي هذه الأشياء. ومن قرأ بالياء: حمله على الزرع وحده.

● **المعنى**: لما ذكر سبحانه وتعالى في الآية من نعمائه وآلائه على عباده في رفع السماوات، وتسخير الشمس والقمر، ودلَّ بذلك على وحدانيته، عقبه بذكر الأرض وما فيها من الآيات، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بسطها طولًا وعرضاً لتتمكن الحيوانات من الثبات فيها والاستقرار عليها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا ثوابت لتمسك الأرض، ولو أراد أن يمسكها من غير جبال لفعل، إلا أنه أمسكها بالرواسي، لأن ذلك أقرب إلى إفهام الناس، وأدعى لهم إلى الاستدلال والنظر ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي: وشق فيها أنهاراً تجري فيها المياه، ولولا الأنهار لضاع أكثر المياه، ولما أمكن الشرب والسقي ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: وجعل في الأرض من كل الثمرات لمأكولهم ومطعومهم صنفين أسود وأبيض، وحلواً وحامضاً، وصيفياً وشتوياً، ورطباً ويابساً، عن ابن عباس. وقيل: الزوج قد يكون واحداً، وقد يكون اثنين، يقال: زوج نعل، وزوج نعلين، عن أبي عبيدة. وإنما قال اثنين للتأكيد. والزوج في الحيوانات عبارة عن الذكر والأنثى، وفي الثمار عبارة عن لونين. وقال الماوردي: واحد الزوجين ذكر وأنثى كفحول النخل وإناثها، وكذلك كل جنس من النبات وإن خفي الزوج الآخر حلو وحامض، أو عذب ومالح، أو أبيض وأسود، أو أحمر وأصفر، فإن كل جنس من النبات ذو نوعين فصارت كل ثمرة زوجين، هما أربعة أنواع ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يلبس ظلمة الليل ضياء النهار ـ عن الحسن. وقيل: يدخل الليل في النهار والنهار في الليل ـ عن ابن عباس.

---

(١) قائله: الراجز (اللسان): يريد: يقصد قصدها.

وقيل: معناه يأتي بالليل ليذهب بضياء النهار ويستره لتسكن الحيوانات فيه، ويأتي بضياء النهار ليمحو ظلام الليل وينصرف الناس فيه لمعايشهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما سبق ذكره ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: لدلالات واضحات على وحدانية الله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، فيستدلون منها على أن لهم صانعاً ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي: أبعاض متقاربات مختلفات في التفاضل منها جبل صلب لا ينبت شيئاً، ومنها سهل حر ينبته، ومنها سبخة لا تنبت، عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك. بيَّن الله سبحانه باختلاف هذه الأرضين مع تجاورها وتقارب بعضها من بعض في الهيئة والمنظر أنه قادر على كل شيء من الأصناف المختلفة والمؤتلفة. وقيل: إنها متجاورات بعضها عامر وبعضها غير عامر، عن الزجاج ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ أي: بساتين ﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ أي: نخلات من أصل واحد ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: نخلات من أصول شتى، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والصنو: الأصل. يقال: هذا صنوه، أي: أصله، عن ابن الأنباري. وقيل: إن الصنوان النخلة تكون حولها النخلات، وغير صنوان: النخل المتفرق، عن البراء بن عازب، وسعيد بن جبير. وقيل: الصنو: المثل، والصنوان: الأمثال. ومنها قوله ﷺ: عم الرجل صنو أبيه عن الجبائي ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ أي: يسقى ما ذكرناه من القطع المتجاورة والجنات والنخيل المختلفة بماء الأنهار أو بماء السماء ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ أي: ويفضل الله، ومن قرأ بالنون: فالمعنى نفضل نحن بعضها على بعض في الطعم واللون والطبع مع أن البئر واحدة والشرب واحد والجنس واحد حتى يكون بعضها حامضاً، وبعضها حلواً، وبعضها مرّاً، فلو كانت بالطبع لما اختلف ألوانها وطعومها مع كون الأرض والماء والهواء واحداً. وفي هذا أوضح دلالة على أن لهذه الأشياء صانعاً قادراً أحدثها وأبدعها ودبرها على ما تقتضيه حكمته، والأكل: الثمر الذي يؤكل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في اختلاف ألوانها وطعومها، ـ عن ابن عباس. وقيل: إن فيما تقدم ذكره ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: حججاً ودلالات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دلائل الله تعالى، ويتفكرون فيها، ويستدلون بها، وروي عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول لعلي عليه السلام: الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة، ثم قرأ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ الآية.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر ﴿إذا كنا﴾ بغير استفهام ﴿إنّا﴾ بهمزة واحدة مطولة، وكذلك يفعل بكل استفهامين يجتمعان في القرآن يستفهم بالثاني ولا يستفهم بالأول، إلا في سورة

الصافات والواقعة، وأما نافع ويعقوب وسهل فإنهم يستفهمون بالأول بهمزة واحدة غير مطولة، ولا يستفهمون بالثاني إلا في سورة النمل والعنكبوت، إلا أن قالون عن نافع، وزيداً عن يعقوب يمدان الهمزة مثل أبي جعفر، والكسائي أيضاً يستفهم بالأول ولا يستفهم بالثاني إلا في سورة النمل غير أنه يهمز بهمزتين، وابن عامر مثل أبي جعفر لا يستفهم في «إذا» في كل القرآن إلا في سورة الواقعة، فإنه يستفهم في أئذا وأئنا جميعاً بهمزتين بينهما مد «آإنا» يهمز ثم يمد ثم يهمز على وزن عاعنا، ولا يجمع بين استفهامين إلا هاهنا وفي سورة النمل يستفهم «أإذا» بهمزيتن، «إئننا» بنونين، والكسائي مثله في هذا الموضع، وأبو عمرو يستفهم فيهما جميعاً وفي جميع أشباههما بهمزة واحدة مطولة، وابن كثير يستفهم فيهما جميعاً بهمزة واحدة غير مطولة، وعاصم وحمزة وخلف يستفهمون فيهما بهمزتين همزتين، كل القرآن. وخالف بن كثير، وحفص عن عاصم، في حرف واحد في العنكبوت، وسنذكره هناك إن شاء الله.

● **الحجة:** قال أبو علي: من استفهم في الجملتين فموضع ﴿أَءِذَا﴾ نصب بفعل مضمر يدل عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ لأن هذا الكلام يدل على نبعث ونحشر، فكأنه قال: أنبعث إذا كنا تراباً، ومن لم يدخل الاستفهام في الجملة الثانية كان موضع ﴿أَءِذَا﴾ أيضاً نصباً بما دل عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ فكأنه قال: أنبعث إذا كنا تراباً، وما بعد إن في ﴿أنه﴾ لا يجوز أن يعمل فيما قبله بمنزلة الاستفهام، فكما قدرت هذا الناصب لإذا مع الاستفهام، لأن الاستفهام لا يعمل فيما قبله، كذلك تقدره في إن، لأن ما بعدها أيضاً لا يعمل فيما قبلها. ومن قرأ ﴿إذا كنا﴾ من غير استفهام ﴿أَءِنَّا﴾ ينبغي أن يكون على مضمر، كما حمل من تقدم على ذلك، لأن ما بعد الاستفهام منقطع مما قبله.

● **اللغة:** العجب والتعجب: هجوم ما لا يعرف سببه على النفس. والغل: طوق تشد به اليد إلى العنق. والاستعجال: طلب التعجيل بالأمر. والتعجيل: تقديم الأمر قبل وقته. والسيئة: خصلة تسوء النفس، ونقيضها الحسنة، وهي خصلة تسر النفس. والمثلات: العقوبات، واحدها مَثُلة، بفتح الميم وضم الثاء، ومن قال في الواحد مُثْلة، بضم الميم وسكون الثاء، قال في الجمع مُثُلات، بضمتين نحو: غرفة وغرفات. وقيل في جمعها: مُثْلات ومثَلات أيضاً، قال الشاعر:

ولـمّـا رَأَوْنـا بـادِيـاً رُكَـبـاتـنـا ... عَلى مَوْطِنٍ لا تَخْلِطُ الجِدَّ بالهزْلِ

رووه: بفتح الكاف في ركباتنا.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الأدلة على أنه سبحانه قادر على الإنشاء والإعادة، عقبه بالتعجب من تكذيبهم بالبعث والنشور، فقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمد من قول هؤلاء الكفار في إنكارهم البعث، مع إقرارهم بابتداء خلق الخلق، فقد وضعت التعجب موضعه، لأن هذا قول عجب، ومعناه: عجب للمخلوقين، فإن معني العجب في صفات الله لا يجوز، لأن العجب أن يشتبه عليه سر أمره فيستطرفه ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: فقولهم عجب ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ أي: أنبعث ونعاد بعدما صرنا تراباً، وهذا مما لا يمكن، وهذا منهم نهاية في

الأعجوبة. فإن الماء إذا حصل في الرحم استحال علقة ثم مضغة ثم لحماً، فإذا مات ودفن استحال تراباً، فإذا جاز أن يتعلق الإنشاء بالاستحالة الأولى فلم لا يجوز تعلقه بالاستحالة الثانية؟ وسمَّى الله تعالى الإعادة خلقاً جديداً. واختلف المتكلمون فيما يصح عليه الإعادة فقال بعضهم: كل ما يكون مقدوراً للقديم سبحانه خاصة ويصح عليه البقاء يصح عليه الإعادة، ولا يصح الإعادة على ما لا يقدر على جنسه غيره تعالى، وهذا قول أبي علي الجبائي. وقال آخرون: كل ما كان مقدوراً له وهو مما يبقى يصح عليه الإعادة، وهو قول أبي هاشم ومن تابعه. فعلى هذا يصح إعادة أجزاء الحياة. ثم اختلفوا فيما يجب إعادته من الحي، فقال أبو القاسم البلخي: يعاد جميع أجزاء الشخص. وقال أبو هاشم: تعاد الأجزاء التي بها يتميز الحي من غيره، ويعاد التأليف، ثم رجع عن ذلك وقال: تعاد الحياة مع البنية. وقال القاضي أبو الحسن: تعاد البنية وما عدا ذلك يجوز فيه التبديل، وهذا هو الأصح ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنكرون للبعث ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أي: جحدوا قدرة الله تعالى على البعث ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ في الآخرة. وقيل: أراد به أغلال الكفر، أي: كفرهم أغلال في أعناقهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مضى تفسيره ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: يستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعذاب قبل الرحمة، عن ابن عباس، ومجاهد، أي: بالعقاب الذي توعدوا به على التكذيب قبل الثواب الذي وعدوا به على الإيمان، وذلك حين قالوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وقيل: يستعجلونك بالعذاب الذي توعدهم به قبل الإحسان بالإنظار، فإن إنظار من وجب عليه العقاب إحسان إليه كإنظار من وجب عليه الدَّين، وسماها سيئة لأنها جزاء السيئة ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ﴾ أي: مضت من قبلهم ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي العقوبات التي يقع بها الاعتبار، وهو ما حل بهم من المسخ والخسف والغرق، وقد سلك هؤلاء طريقتهم فكيف يتجاسرون على استعجالها. وقيل: هي العقوبة الفاضحة التي تسير بها الأمثال. وتقديره: وقد خلت المثلات بأقوام، أو خلا أصحاب المثلات، فحذف المضاف ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ قال المرتضى رضي الله عنه: في هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة، لأنه سبحانه دلَّنا على أنه يغفر لهم مع كونهم ظالمين، لأن قوله: ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ إشارة إلى الحال التي يكونون عليها ظالمين، ويجري ذلك مجرى قول القائل: أنا أود فلاناً على غدره. وأصله: على هجره ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن استحقه. وروي عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش، ولولا وعيد الله وعقابه لاتكل كل واحد. وتلا مطرف يوماً هذه الآية فقال: لو يعلم الناس قدر رحمة الله وعفو الله وتجاوز الله لقرَّت أعينهم، ولو يعلم الناس قدر عذاب الله وبأس الله ونكال الله ونقمة الله ما رقأ لهم دمع، ولا قرت أعينهم بشيء ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ مثل الناقة والعصا، عن ابن عباس. وقال الزجاج: طلبوا غير الآيات التي أتي بها، فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام، فأعلم الله أن لكل قوم هادياً. والمعنى: أنه سبحانه بيَّن سوء طريقتهم في اقتراح الآيات، كما في قوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ وكما قالوا: اجعل الصفا

لنا ذهباً حتى نأخذ منه ما نشاء، وإنما لم يظهر الله تعالى تلك الآيات، لأنه لو أجاب أولئك لاقترح قوم آخرون آية أخرى، وكذلك كل كافر فكان يؤدي إلى غير نهاية ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ فيه أقوال:

أحدها: إن معناه: إنما أنت منذر، أي: مخوِّف وهاد لكل قوم، وليس إليك إنزال الآيات، عن الحسن، وأبي الضحى، وعكرمة، والجبائي. وعلى هذا فيكون أنت مبتدأ ومنذر خبره وهاد عطف على منذر، وفصل بين الواو والمعطوف بالظرف.

والثاني: إن المنذر هو محمد، والهادي هو الله تعالى، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير والضحاك، ومجاهد.

والثالث: إن معناه: إنما أنت منذر يا محمد، ولكل قوم نبي يهديهم، وداع يرشدهم، عن ابن عباس في رواية أخرى وقتادة والزجاج وابن زيد.

والرابع: إن المراد بالهادي كل داع إلى الحق، وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: لما نزلت الآية قال رسول الله: «أنا المنذر وعلي الهادي من بعدي، يا علي! بك يهتدي المهتدون» وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل بالإسناد عن إبراهيم بن الحكم بن ظهير، عن أبيه، عن حكم، بن جبير، عن أبي بردة الأسلمي، قال: دعا رسول الله ﷺ بالطهور، وعنده علي بن أبي طالب، فأخذ رسول الله بيد علي بعدما تطهر فألزمها بصدره، ثم قال: إنما أنت منذر، ثم ردها إلى صدر علي، ثم قال: ولكل قوم هاد، ثم قال: إنك منارة الأنام، وغاية الهدى، وأمير القرى، وأشهد على ذلك أنك كذلك. وعلى هذه الأقوال الثلاثة يكون ﴿هَادٍ﴾ مبتدأ ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ﴾ خبره على قول سيبويه ويكون مرتفعاً بالظرف على قول الأخفش.

●●●

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

● **القراءة**: في الشواذ قراءة أبي البرهسم[1]: **﴿له معاقيب من بين يديه ورقباء من خلفه يحفظونه بأمر الله﴾** وروي عن أبي عبد الله عليه السلام: **﴿له معقبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله﴾** وروي عن علي عليه السلام، وابن عباس، وعكرمة، وزيد بن علي: يحفظونه بأمر الله.

(١) أبي البرهسم كسفرجل هو عنوان بن عثمان الزبيدي الشامي، صاحب القراءات الشاذة كما عن (القاموس).

● **الحجة:** يجب أن يكون ﴿**معاقيب**﴾ تكسير مُعَقِّبة، غير أنه لما حذف أحد القافين عوض منها الياء. وقوله: ﴿**يحفظونه بأمر الله**﴾ فمعناه: يحفظونه مما أذره بأمر الله، والمفعول هنا محذوف. قال ابن جني: وأما قراءة الجماعة: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ فتقديره: له معقبات من أمر الله يحفظونه مما يخافه، فمن على هذا مرفوعة الموضع، لأنها صفة للمرفوع الذي هو معقبات، وليس هذا على معنى يحفظونه من أمر الله أن ينزل به، لأنه لو كان كذلك لكانت منصوبة الموضع، كقولك: حفظت زيداً من الأسد. والذي ذكرته رأي أبي الحسن. فإن قلت: فهلا كان تقديره على يحفظونه من أمر الله بأمر الله، ويستدل على إرادة الباء هنا بقراءة علي عليه السلام: يحفظونه بأمر الله، وجاز أن يكون يحفظونه بأمر الله، لأن هذه المصائب كلها في علم الله وبإقداره فاعليها عليها، فيكون هذا كقولك: هربت من قضاء الله بقضاء الله. قيل: تأويل أبي الحسن أذهب في الاعتداد عليهم، وذلك لأنه سبحانه وكَّل بهم من يحفظهم من حوادث الدهر ومخاوفه التي لا يعتد عليهم بتسليطها عليهم، فهذا أسهل طريقاً وأرسخ في الاعتداد بالنعمة عليهم عرفاً.

● **اللغة:** الغيض: ذهاب المائع في جهة العمق، وغاضت المياه: نقصت وغَيَّضته: نقصته. قال:

غَيَّضْنَ مِنْ عَبَراتِهِنَّ، وقُلْنَ لي ماذا لَقَيْتَ مِنَ الهَوَى، ولَقِينا

المتعالي والعالي واحد، وتعالى أي: جل عن كل ثناء. وقيل: المتعالي: المقتدر على وجه يستحيل أن يساويه غيره. والسارب: الساري الجاري بسرعة، والسرب، بفتح السين والراء، الماء السائل من المزادة، قال ذو الرمة:

ما بالُ عَيْنِكَ منها الماءُ يَنْسَكِب كأنه مِنْ كُلى مَفْرِيَةٍ سَرَبُ(١)

وقيل: السارب: الذاهب في الأرض، ومنه قول قيس بن الحطيم:

إني سربت وكنت غير سروب

ويقال: خل سربه، أي: طريقه، والمعقبات: المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلًا منه، وأصل التعقيب أن يكون الشيء عقيب آخر، والمعقب: الطالب دينه مرة بعد مرة، قال الشاعر:

حتى تَهَجَّرَ في الرَّواحِ، وهاجَها طَلَبَ المُعَقِّبِ حَقَّهُ المظلومُ(٢)

---

(١) كلية الاداوة: الرقعة التي تحت عروتها. وجمعها الكلى. والمفرية: المنشقة.

(٢) هذا بيت من قصيدة للبيد بن ربيعة، في وصف حمار وحش واتانه، شبه به ناقته. وتهجّر أي: سار في الهاجرة وفي نصف النهار عند اشتداد الحر. والرواح: من زوال الشمس إلى الليل. وهاجها أي: أثارها وازعجها. يعني هذا الحمار يسوق اتانه أمامه سوقاً عنياً، وهو ملازم لها من خلفها، كطالب دين مظلوم. والمظلوم نعت للمعقب ومرفوع باعتبار محله الذي هو الرفع بالفاعلية.

ومنه العِقاب، لأنه يستحَقُّ عقيب الجرم، والعُقاب: لأنها تعقب الصيد: تطلبه مرة بعد مرة. وقيل: إن واحد المعقبات معقب، والجمع معقبة، ومعقبات جمع الجمع، كما قالوا: رجالات، عن الفراء.

● **الإعراب:** ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تَحْمِلُ﴾، ﴿وَمَا تَغِيضُ﴾، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ استفهامية، وموضعها نصب بالفعل الذي بعدها، معناه: أي شيء تحمل، والجملة معلقة بيعلم. قال الزجاج: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ موضع من رفع بسواء. وكذلك ﴿وَمَنْ﴾ الثانية، يرتفعان جميعاً بسواء، لأن سواء يطلب اثنين، تقول: سواء زيد وعمرو، في معنى ذو سواء، لأن سواء مصدر، فلا يجوز أن يرتفع ما بعده إلا على الحذف، تقول: عدل زيد وعمرو، والمعنى: ذو عدل زيد وعمرو، لأن المصادر ليست بأسماء الفاعلين، وإنما ترفع الأسماء أوصافها، فإذا رفعتها المصادر فهي على الحذف، كما قالت الخنساء:

تَرتع ما رتعت حتى إذا ادَّكرت فإنما هي إقبال وإدبار[1]

أي: ذات إقبال وإدبار، وكذلك زيد إقبال وإدبار، وهذا مما كثر استعماله، أعني: سواء، فجرى مجرى أسماء الفاعلين، ويجوز أن يرتفع على أن يكون في موضع مستوى، إلا أن سيبويه يستقبح ذلك، لا يجيز مستو زيد وعمرو، لأن أسماء الفاعلين عنده إذا كانت نكرة لا يبتدأ بها لضعفها عن الفعل فلا يبتدأ بها، ويجريها مجرى الفعل.

● **المعنى:** ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: يعلم ما في بطن كل حامل من ذكر أو أنثى، تام أو غير تام، ويعلم لونه وصفاته ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي: يعلم الوقت الذي تنقصه الأرحام من المدة التي هي تسعة أشهر ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ على ذلك، عن أكثر المفسرين. وقال الضحاك: الغيض: النقصان من الأجل، والزيادة: ما يزداد على الأجل، وذلك أن النساء لا يلدن لأجل واحد. وقيل: يعني بقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ الولد الذي تأتي به المرأة لأقل من ستة أشهر ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ الولد الذي تأتي به المرأة لأقصى مدة الحمل، عن الحسن. وقيل: معناه ما تنقص الأرحام من دم الحيض، وهو انقطاع الحيض ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ بدم النفاس بعد الوضع، عن ابن عباس بخلاف، وابن زيد ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ﴾ أي: وكل شيء من الرزق أو الأجل، أو ما سبق ذكره من الحمل ﴿عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بقدر واحد لا يجاوزه ولا يقصر عنه على ما توجبه الحكمة ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: عالم بما غاب عن حسّ العباد، وبما يشاهده العباد، لا يغيب عنه شيء. وقيل: عالم بالمعدوم والموجود، والغيب هو المعدوم. وقيل: عالم السر والعلانية، عن الحسن. والأولى أن يحمل على العموم ويدخل في هاتين الكلمتين كل معلوم. نبّه سبحانه بذلك على أنه عالم بجميع المعلومات الموجودات منها والمعدومات منها ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ وهو السيد المالك القادر على جميع الأشياء. وقيل: هو الذي كل شيء دونه، لكمال صفاته، ولكونه عالماً لذاته، قادراً لذاته، حياً لذاته. وقيل: هو الذي

---

(١) مر البيت في الجزء الخامس.

كبر عن شبه المخلوقين ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ وهو الذي علا كل شيء بقدرته، فلا يساويه قادر. وقيل: هو المنزه عما لا يجوز عليه في ذاته وفعله، وعما يقوله المشركون ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ معناه: سواء عند الله وفي علمه من أسرَّ القول في نفسه وأخفاه، ومن أعلنه وأبداه ولم يضمره في نفسه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ومن هو مستتر متوار بالليل، ومن هو سالك في سربه، أي: في مذهبه، ماضٍ في حوائجه بالنهار. معناه: أنه يرى ما أخفته ظلمة الليل، كما يرى ما أظهره ضوء النهار، بخلاف المخلوقين الذين يخفى عليهم الليل أهوال أهله. وقال الحسن: معناه ومن هو مستتر بالليل ومن هو مستتر بالنهار، وصحح الزجاج هذا القول، لأن العرب تقول: انسرب الوحش إذا دخل في كناسه ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾. اختلف في الضمير الذي في ﴿لَهُۥ﴾ على وجوه:

أحدها: أنه يعود إلى من في قوله: ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾.

والآخر: أنه يعود إلى اسم الله تعالى وهو عالم الغيب والشهادة.

وثالثها: أنه يعود إلى النبي ﷺ في قوله: إنما أنت منذر، عن ابن زيد. واختلف في المعقبات على أقوال:

أحدها: أنها الملائكة يتعاقبون تعقب ملائكة الليل ملائكة النهار، وملائكة النهار ملائكة الليل، وهم الحفظة يحفظون على العبد عمله، عن الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومجاهد، والجبائي. وقال الحسن: هم أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر، وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ وقد روي ذلك عن أئمتنا عليهم السلام أيضاً.

والثاني: أنهم ملائكة يحفظونه من المهالك حتى ينتهوا به إلى المقادير، فيحيلون بينه وبين المقادير، عن علي عليه السلام، وابن عباس. وقيل: هم عشرة أملاك على كل آدمي يحفظونه.

والثالث: أنهم الأمراء والملوك في الدنيا الذين يمنعون الناس عن المظالم، وتكون لهم الأحراس والشرط والمواكب يحفظونه، عن عكرمة، والضحاك، وروي أيضاً عن ابن عباس. وتقديره: ومن هو سارب بالنهار، له أحراس وأعوان قدر أنهم يحرسونه، ولم يتجه لحراسه من الله ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: يطوفون به، كما يطوف الموكل بالحفظة. وقيل: يحفظون ما تقدم من عمله وما تأخر إلى أن يموت فيكتبونه، عن الحسن. وقيل: يحفظونه من وجوه المهالك والمعاطب، ومن الجن والإنس والهوام. وقال ابن عباس: يحفظونه مما لم يقدر نزوله، فإذا جاء المقدر بطل الحفظ. وقيل: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمر الله، عن الحسن، ومجاهد، والجبائي، وروي ذلك عن ابن عباس، وهذا كما يقال: هذا الأمر بتدبير فلان، ومن تدبير فلان. وقيل: معناه يحفظونه عن خلق الله، فتكون ﴿مِنْ﴾ بمعنى عن، كما في قوله: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ أي: عن خوف. قال كعب: لولا أن الله وكَّل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفنكم الجن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والحال الجميلة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الطاعة فيعصون ربهم ويظلم بعضهم بعضاً. قال ابن عباس: إذا أنعم الله نعمة على قوم فشكروها زادهم، وإذا كفروها سلبهم إياها، وإلى

هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: إذا أقبلت عليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ أي: عذاباً، وإنما سماه سوءاً لأنه يسوء ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي: لا مدفع له. وقيل: معناه إذا أراد الله بقوم بلاء من مرض وسقم فلا مرد لبلائه ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يلي أمرهم ويمنع العذاب عنهم.

● **النظم:** اتصلت الآية الأولى بقوله: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ الآية، فإنه احتجاج للبعث. والمعنى: أن من كان بهذه الصفة في القدرة والعلم فإنه يقدر على البعث. وقيل: إنها اتصلت بقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ وقوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ يعني: أن من يعلم غوامض الأمور فهو أعلم بالمصالح، ولو علم الصلاح في إنزال العذاب أو الآية لفعل، عن البلخي، وأبي مسلم. وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾ يتصل بقوله: ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، عن الجبائي. وقيل: يتصل بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ و﴿يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: كما يعلمهم جعل عليهم حفظة يحفظونهم. وقيل: يتصل بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ﴾ يعني أنه عليه السلام محفوظ بالملائكة. واتصل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ إلى آخره. بقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ يعني: أنه لا ينزل العذاب إلا بمن يعلم من جهتهم التغير، حتى لو علم أن فيهم من يؤمن في المستقبل أو يعقب مؤمناً لا ينزل العذاب. وقيل: بل اتصلت بالسارب. بمعنى: أنه إذا أتى بالمعصية بطل به حفظه وحاق به عقابه. وقيل: بل هو على الإطلاق والعموم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ: قراءة الأعرج: ﴿شَدِيدُ ٱلۡمَحَالِ﴾ بفتح الميم. وقراءة أبي مجلز: ﴿بالغدو والإيصال﴾.

● **الحجة:** قال ابن جني: المحال مِفْعَل من الحيلة. قال أبو زيد: يقال: ما له حيلة ولا محالة، فيكون تقديره: شديد الحيلة، وتفسيره قوله سبحانه: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ والإيصال: مصدر آصلنا، أي: دخلنا في وقت الأصيل ونحن موصلون.

● **اللغة:** يقال: أراه يريه إراءة، وهو أن يجعله على صفة الرؤية بإظهار المرئي له أو يجعله على صفة يرى. والسحاب: جمع سحابة، ولذلك قال: الثقال ولو قيل: الثقيل لجاز. والصواعق: جمع صاعقة، وهي نار تسقط من السماء. والرعد والبرق ذكرنا معناهما في أول

البقرة. والمحال: الأخذ بالعقاب هٰهنا، فقال: ماحله مماحلة ومحالاً إذا قاواه حتى يتبين أيهما أشد، ومحلت به محلاً، قال الأعشى:

فـرْعِ نـبْـعٍ يـهـتـز فـي غُـصُـنِ الـمـجـدِ غـزيـرُ الـنـدى، شـديـدُ الـمـحـال(١)

والاستجابة والإجابة بمعنى، غيرَ أن في الاستجابةِ معنى الطلب، قال: (فلم يستجبه عند ذاك مجيب)(٢) والظلال: جمع الظل، وهو ستر الشخص ما بإزائه. والظل الظليل: وهو ستر الشمس اللازم. وأما الفيء: فهو الذي يرجع بعد ذهاب ضوئه، ومنه الظلة لسترها. والآصال: جمع أُصُل، وأُصُل جمع أصيل، فهو جمع الجمع مأخوذ من الأصل، فكأنه أصل الليل الذي ينشأ منه، وهو ما بين العصر إلى مغرب الشمس، وقد يقال في جمعه: أصائل. قال أبو ذؤيب:

لَعَـمْـرِي لأنـتَ الـبـيـتُ أكـرمُ أهـلـه وأقـعـد فـي أفـنـائـه بـالأصـائـل

● **الإعراب:** ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ لا ينتصبان على الغرض، لأن ما ينتصب لذلك يجب أن يكون فاعله وفاعل الفعل الأول واحداً، وهٰهنا الخائف والطامع ليسا بالذي يُرى البرق، وهما في قوله: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ ينتصبان على الغرض، لأن الخائف والطامع هناك هو الداعي، فأعلمه فإنه جيد مفيد. والمعنى هٰهنا: يخوفكم بما يريكم خوفاً ويطمعكم طمعاً، فالمصدر وقع موقع الحال ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ جاز أن تكون هذه الواو واو الحال، أي: يصيب بها من يشاء في حال جدالهم في الله، لأنه جاء في التفسير: أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فجادله فقال: يا محمد! ممَّ ربك؟ أمن نحاس، أم من حديد، أم من لؤلؤ، أم من ياقوت، أم من ذهب، أم من فضة، فأرسل الله عليه صاعقة ذهبت بقحفه(٣)، وهو قول أنس بن مالك، ومجاهد. ويجوز أن يكون: لما تمم الله أوصاف ما يدل على توحيده وقدرته، قال بعد ذلك: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ﴾ والكاف من قوله: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ يتعلق بصفة مصدر، تقديره: إلا استجابة كائنة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء، هذا إذا كان الكاف حرفاً، وإذا كان اسماً محضاً فالتقدير: إلا استجابة مثل استجابة باسط كفيه إلى الماء، فلا يكون في الكاف ضمير، أي: كما يستجيب الماء باسطَ كفيه إليه. واللام في قوله: ﴿لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ يتعلق بباسط كفيه ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي: ما الماء ببالغ فاه. وقيل: ما فوه ببالغ الماء. وقيل: ما باسط كفيه إلى الماء ببالغ الماء ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ مصدران وضعا موضع الحال.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن كمال قدرته، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ أي: تخويفاً وإطماعاً، فأقام الخوف والطمع مقام التخويف والأطماع، وذكر فيه وجوه:

أحدها: أن المعنى: خوفاً من الصواعق التي يكون معها، وطمعاً في الغيث الذي يزيل القحط، عن الحسن، وأبي مسلم.

---

(١) النبع: شجر تتخذ من أغصانه القسي والسهام.

(٢) قائله: كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار. وقبله: «وداع دعا يا من يجيب إلى الندى».

(٣) القحف - بالكسر - ما انفلق من الجمجمة.

والثاني: خوفاً للمسافر من أن يضل الطريق، فلا يمكنه المسير، وطمعاً للمقيم في نمو الزرع والخير الكثير، عن قتادة، والضحاك، والجبائي.

والثالث: خوفاً لمن يخاف ضر المطر، لأنه ليس كل بلد ينتفع فيه بالمطر، وطمعاً لمن يرجو الانتفاع به، عن الزجاج.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي: ويخلق السحاب الثقال بالماء يرفعها من الأرض فيجريها في الجو ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ تسبيح الرعد دلالته على تنزيه الله تعالى ووجوب حمده، فكأنه هو المسبح. وقيل: إن الرعد هو الملك الذي يسوق السحاب ويزجره بصوته، وهو يسبح الله ويحمده. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: إن ربكم سبحانه يقول: لو أن عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد، وكان ﷺ إذا سمع صوت الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده». وكان ابن عباس يقول: سبحان الذي سبحت له. وروى سالم بن عبد الله عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك. وقال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعليَّ ديته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي: ويسبح الملائكة من خيفة الله تعالى وخشيته. قال ابن عباس: إنهم خائفون من الله تعالى ليس كخوف ابن آدم لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شيء ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ ويصرفها عمن يشاء، إلا أنه حذف. وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أن الصواعق تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب ذاكراً ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني أن هؤلاء الجهال مع مشاهدتهم لهذه الآيات يخاصمون أهل التوحيد ويحاولون فتلهم[1] عن مذاهبهم بجدالهم، لأن معنى الجدال: فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج. روى الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه عني بذلك أن زيد بن قيس أخا لبيد بن ربيعة العامري لأمه، وعامر بن الطفيل، وذلك أنهما أتيا النبي ﷺ يجادلانه ويريدان الفتك به، وكان عامر أوصى إلى زيد إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف، فجعل عامر يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه الكلام، فدار زيد خلف رسول الله ﷺ ليضربه، فاخترط من سيفه شبراً، ثم حبسه الله عنه فلم يقدر على سلّه، وجعل عامر يومي إليه. فالتفت رسول الله ﷺ فرأى زيداً وما يصنع بسيفه، فقال: اللهم اكفنيهما بما شئت، فأرسل الله على زيد صاعقة في يوم صاح، صائف، فأحرقته وولى عامر هارباً وقال: يا محمد! دعوت ربك فقتل أربداً، والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً، وفتياناً مرداً، ولأربطن بكل نخلة فرساً. فقال ﷺ: الله يمنعك من ذلك، فنزل بيت امرأة من سلول، وخرج على ركبتيه في الوقت غدة عظيمة، فكان يقول: غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية، حتى قتلته. وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة يرثي أخاه أربداً:

---

(١) أي: صرفهم.

أخْشَى على أربد الحتوف، ولا أرهبُ نَوْءَ السِّماك، والأسد
فجَّعني البرقُ، والصواعقُ بالـ فارس يومَ الكريهة النجد[١]

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: شديد الأخذ، عن علي عليه السلام. وقيل: شديد القوة، عن قتادة، ومجاهد. وقيل: شديد النقمة، عن الحسن. وقيل: شديد القدرة والعذاب، عن الزجاج. وقيل: شديد الكيد للكفار، عن الجبائي ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لله سبحانه دعوة الحق، واختلف في معنى دعوة الحق على أقوال:

أحدها: إنها كلمة الإخلاص: شهادة أن لا إله إلا الله، عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد.

والثاني: إن الله تعالى هو الحق، فدعاؤه دعوة الحق، ومن دعاه دعا الحق، عن الحسن.

والثالث: إنها الدعوة التي يُدْعَى بها الله على إخلاص التوحيد، عن الجبائي. والمعنى: أن من دعاه على جهة الإخلاص فهو يجيبه، فله سبحانه من خلقه دعوة الحق ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: والذين يدعوهم المشركون من دون الله لحاجاتهم من الأوثان وغيرها ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ هذا مثل ضربه الله لكل من عبد غير الله ودعاه رجاء أن ينفعه. يقول: إن مثله كمثل رجل بسط كفيه إلى الماء من مكان بعيد ليتناوله ويسكن به غلته، وذلك الماء لا يبلغ فاه لبعد المسافة بينهما، فكذلك ما كان يعبده المشركون من الأصنام لا يصل نفعها إليهم ولا يستجيب دعاءهم، عن ابن عباس. وقيل: كباسط كفيه إلى الماء، أي: كالذي يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه الماء، عن مجاهد. وقيل: كالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فمات قبل أن يبلغ الماء فاه، عن الحسن. وقيل: إنه تمثيل العرب لمن يسعى فيما لا يدركه، فيقول: هو كالقابض على الماء، عن أبي عبيدة، والبلخي، وأبي مسلم. قال الشاعر:

فأصبحتُ مما كان بيني وبينها من الود مثل القابضِ الماء باليدِ

وقال الآخر:

فإني، وإياكم، وشوقاً إليكم كقابض ماءٍ لم تَسَعْه أنامله

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ليس دعاؤهم الأصنام من دون الله إلا في ذهاب عن الحق والصواب. وقيل: في ضلال عن طريق الإجابة والنفع. ثم بيَّن سبحانه كمال قدرته وسعة مملكته، فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني الملائكة وسائر المكلفين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ اختلف في معناه على قولين:

أحدهما: أن معناه: أنه يجب السجود لله تعالى، إلا أن المؤمن يسجد له طوعاً والكافر يسجد له كرهاً بالسيف، عن الحسن، وقتادة، وابن زيد.

---

(١) النوء: النجم. والسماك: كوكب. والأسد: برج معروف. ورجل نجد: شجاع ماض في الأمور.

والثاني: أن المعنى: ولله يخضع من في السماوات والأرض، إلا أن المؤمن يخضع له طوعاً، والكافر يخضع له كرهاً، لأنه لا يمكنه أن يمتنع من الخضوع لله لما يحل به من الآلام والأسقام، عن الجبائي.

﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أي: ويسجد ظلالهم لله ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: العشيات. قيل: إن المراد بالظل الشخص، فإن من يسجد يسجد ظله معه. قال الحسن: يسجد ظل الكافر ولا يسجد الكافر، ومعناه عند أهل التحقيق: أنه يسجد شخصه دون قلبه، لأنه لا يريد بسجوده عبادة ربه من حيث إنه يسجد للخوف. وقيل: إن الظلال على ظاهرها. والمعنى في سجودها: تمايلها من جانب إلى جانب، وانقيادها بالتسخير بالطول والقصر.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾.

● **القراءة**: قرأ أهل الكوفة غير حفص: ﴿**أم هل يستوي الظلمات**﴾ بالياء. والباقون: بالتاء.

● **الحجة**: من قرأ بالتاء فإنه مسند إلى مؤنث لم يفصل بينه وبين فاعله بشيء، كقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾، ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ وقد جاء في مثل ذلك التذكير، كقوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ ومن قرأ بالياء: فإنه مؤنث غير حقيقي.

● **المعنى**: لما بيَّن سبحانه في الآية الأولى أنه المستحق للعبادة، وأن له من في السماوات والأرض، عقبه بما يجري مجرى الحجة على ذلك، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من مدبرهما ومصرفهما على ما فيهما من البدائع؟ فإذا استعجم عليهم الجواب، ولا يمكنهم أن يقولوا الأصنام ﴿فَقُلْ﴾ أنت لهم: رب السماوات والأرض وما بينهما من أنواع الحيوان والنباتات والجماد ﴿ٱللَّهُ﴾ فإذا أقروا بذلك ﴿قُلْ﴾ لهم على وجه التبكيت والتوبيخ لفعلهم ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ توجهون عبادتكم إليهم، فالصورة صورة الاستفهام، والمراد به التقريع. ثم بيَّن أن هؤلاء الذين اتخذوهم من دونه أولياء ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ومن لا يملك لنفسه ذلك فالأولى والأحرى أن لا يملك لغيره، ومن كان كذلك فكيف يستحق العبادة.

وإذا قيل: كيف يكون هو السائل والمجيب والملزم بقوله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ فالجواب: أنه إذا كان القصد بالحجاج ما يبيّنه من بَعْد لم يمتنع ذلك. فكأنه قال: الله الخالق فلماذا اتخذتم من دون الله أولياء، لأن الأمر الظاهر الذي لا يجيب الخصم إلا به لا يمتنع أن يبادر السائل إلى ذكره، ثم يورد الكلام عليه تفادياً من التطويل، ويكون تقدير الكلام: أليس الله رب السماوات والأرض فلم اتخذتم من دونه أولياء؟ ثم ضرب لهم سبحانه مثلاً بعد إلزام الحجة، فقال: ﴿قُلْ

﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير كذلك لا يستوي المؤمن والكافر، لأن المؤمن يعمل على بصيرة، ويعبد الله الذي يملك النفع والضر، والكافر يعمل على عمي، ويعبد من لا يملك النفع والضر، ثم زاد في الإيضاح، فقال: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أي: هل يستوي الكفر والإيمان، أو الضلال والهدى، أو الجهل والعلم ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ أي: هل جعل هؤلاء الكفار لله شركاء في العبادة خلقوا أفعالاً مثل خلق الله تعالى من الأجسام والألوان والطعوم والأراييح والقدرة والحياة، وغير ذلك من الأفعال التي يختص سبحانه بالقدرة عليها ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فاشتبه لذلك عليهم ما الذي خلق الله، وما الذي خلق الأوثان، فظنوا أن الأوثان تستحق العبادة، لأن أفعالها مثل أفعال الله، فإذا لم يكن ذلك مشتبهاً إذ كان ذلك كله لله تعالى لم يبقَ شبهة أنه الإله لا يستحق العبادة سواه ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يستحق به العبادة من أصول النعم وفروعها ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ ومعناه: أنه يستحق من الصفات ما لا يستحقه غيره، فهو قديم لذاته، قادر لذاته، عالم لذاته، حي لذاته، غني، لا مثل له، ولا شبه. وقيل: الواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يتبعض. وقيل: هو الواحد في الإلهية، لا ثاني له في القدم ﴿الْقَهَّارُ﴾ الذي يقهر كل قادر سواه، ولا يمتنع عليه شيء، واستدلت المجبرة بقول الله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على أن أفعال العباد مخلوقة لله، لأن ظاهر العموم يقتضي دخول أفعال العباد فيه. وبقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ قالوا: لأنه أنكر أن يكون خالق خلقَ كخلقه. وأجيب عن ذلك: بأن الآية وردت حجة على الكفار، إذ لو كان المراد ما قالوا: لكان فيها حجة لهم على الله، لأنه إذا كان الخالق لعبادتهم الأصنام هو الله فلا يتوجه التوبيخ إلى الكفار ولا يلحقهم اللوم بذلك، بل يكون لهم أن يقولوا: إنك خلقت فينا ذلك، فلم توبخنا على فعل فعلته فينا، فيبطل حينئذ فائدة الآية، وأيضاً فإن أكثر أصحابنا لا يطلقون على غيره سبحانه أنه يخلق أصلاً فضلاً عن أن يقولوا أنه يخلق كخلق الله، ولكن يقولون: إن العباد يفعلون ويحدثون، ومعنى الخلق عندهم الاختراع، ولا يقدر العباد عليهم، ومن جوَّز منهم إطلاق لفظ الخلق في أفعال العباد فإنه يقول: إنه سبحانه إنما نفى أن يكون أحد يخلق مثل خلقه، ونحن لا نقول ذلك، لأن خلق الله اختراع وإبداع، وأفعال غيره مفعولة في محل القدرة عليها مباشراً أو متولداً في الغير بسبب حال في محل القدرة، ولا يقدر على اختراع الأفعال في الغير على وجه من الوجوه إلا الله سبحانه الذي أبدع السموات والأرض وما فيهما، وينشىء الأجناس من الأعراض التي لا يقدر عليها غيره، فكيف يشبه الخلق مع هذا التمييز الظاهر على أن عندهم كل حركة هي كسب للعبد وفعل لله تعالى ولا يتميز فقد حصل التشابه هنا، ونحن نقول: إن أحدنا يفعل بقدرة محدثة يفعلها الله تعالى فيه، والله يفعل لكونه قادراً لذاته، فالفرق والتمييز ظاهران، فعلمنا أن المراد بقوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ما قدمناه من أنه خالق كل شيء يستحق لخلقه العبادة.

●●●

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ

فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ
﴿١٨﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر: ﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياء، والباقون: بالتاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ بالتاء: فلِما قبله من الخطاب، وهو قوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم﴾ ويجوز أن يكون خطاباً عاماً يراد به الكافة، كأن المعنى: ومما توقدون عليه أيها الموقدون زبد مثل زبد الماء الذي يحمله السيل. ومن قرأ بالياء: فلأن ذكر الغيبة قد تقدم في قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ ويجوز أن يراد به جميع الناس، ويقوي ذلك قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ فكما أن الناس يعم المؤمنين والكافرين، كذلك الضمير في ﴿يُوقِدُونَ﴾ وقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ فجعل الظرف متعلقاً بيوقدون، لأنه قد يوقد على ما ليس في النار، كقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فهذا إيقاد يقال على ما ليس في النار، وإن كان يلحقه وهجها ولهبها.

● **اللغة:** الوادي: سفح الجبل العظيم المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر، ومنه: اشتقاق الدية، لأنه جمع المال العظيم الذي يؤدى عن القتيل. والقدَر: اقتران الشيء بغيره من غير زيادة ولا نقصان، والوزن يزيد وينقص، فإذا كان مساوياً فهو القدر. وقرأ الحسن: ﴿بِقَدْرِهَا﴾، بسكون الدال، وهما لغتان، يقال: أعطى قدَر شبر وقدر شبر، والمصدر بالتخفيف لا غير، وهم يختصمون في القدر معاً بالسكون والحركة، قال:

ألا يـا لـقـوم لـلنـوائـب والـقـدْرِ ... وللأمر يأتي المرءَ من حيثُ لا يدري

والاحتمال: رفع الشيء على الظهر بقوة الحامل له. ويقال: علا صوته على فلان فاحتمله ولم يغضبه، والزبد وضر الغليان وهو خبث الغليان، ومنه زبد القدر، وزبد السيل. والجفاء: ممدود مثل الغثاء، وأصله الهمز، يقال: جفا الوادي جفاء. قال أبو زيد: يقال: جفأت الرجل إذا صرعته، وأجفأت القدر بزبدها إذا ألقت زبدها عنها، قال الفراء: كل شيء ينضم بعضه إلى بعض فإنه يجيء على فعال، مثل: الحطام والقماش والغثاء والجفاء. والإيقاد: إلقاء الحطب في النار واستوقدت النار واتقدت وتوقدت. والمتاع: ما تمتعت به. والمكث: الكون في المكان على مرور الزمان. يقال: مكَث ومكث وتمكث، أي: تلبث.

● **الإعراب:** قال جامع العلوم البصير: قوله: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ متعلق بمحذوف في موضع الحال من الضمير المجرور بقوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: ومما توقدون عليه ثابتاً في النار ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: مبتغين حلية، فهو مصدر في موضع الحال من الضمير في يوقدون، ولا يجوز أن يكون قوله: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ من صلة يوقدون، لأن المعنى ليس على ذلك، فالمعنى أنهم يوقدون على الذهب في حال كونه في النار، فافهمه من كلام أبي علي ولم يهتد إليه غيره. وقوله: ﴿زَبَدٌ﴾

مبتدأ، ومثله: نعت له، والظرف الذي هون قوله: مما توقدون خبره، على قول سيبويه، وهو مرتفع بالظرف على قول الأخفش. وموضع جفاء: نصب على الحال، أي: يذهب على هذه الحالة، قال الشاعر:

إذا أكَلْتُ سَمَكاً وفَرْضاً ذَهَبْتُ طُولاً وَذَهَبْتُ عَرضاً

أي: ذهبت على هذه الحالة. والفرض: نوع من التمر.

● **المعنى:** ثم ضرب سبحانه مثلين للحق والباطل.

أحدهما: الماء وما يعلوه من الزبد.

والآخر: ما توقد عليه النار من الذهب والفضة وغيرهما، وما يعلوه من الزبد على ما رتّبه فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ يعني: فاحتمل الأنهار الماء، كل نهر بقدره، الصغير على قدر صغره، والكبير على قدر كبره، فسالت كل نهر بقدره، عن الحسن، وقتادة، والجبائي، وقيل: بقدرها بما قدر لها من مائها، عن الزجاج ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي: طافياً عالياً فوق الماء، شبه سبحانه الحق والإسلام بالماء الصافي النافع للخلق، والباطل بالزبد الذاهب باطلاً. وقيل: إنه مثل القرآن النازل من السماء، ثم تحتمل القلوب حظها من اليقين والشك على قدرها فالماء مثل اليقين والزبد مثل الشك، عن ابن عباس، ثم ذكر المثل الآخر فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ وهو الذهب والفضة والرصاص وغيره مما يذاب ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: طلب زينة يتخذ منه كالذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ معناه أو ابتغاء متاع ينتفع به، وهو مثل جواهر الأرض يتخذ منها الأواني وغيرها ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: مثل زبد الماء. فإن هذه الأشياء التي تستخرج من المعادن وتوقد عليها النار ليتميز الخالص من الخبيث لها أيضاً زبد وهو خبثها ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: مثل الحق والباطل، وضرب المثل تسييره في البلاد حتى يتمثل به في الناس ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أي: باطلاً متفرقاً بحيث لا ينتفع به ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ وهو الماء الصافي والأعيان التي يتقدم بها ﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فينتفع به الناس، فمثل المؤمن واعتقاده كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياة كل شيء به وكمثل نفع الذهب والفضة وسائر الأعيان المنتفع بها، ومثل الكافر وكفره كمثل هذا الزبد الذي يذهب جفاء وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الذهب والفضة الذي لا ينتفع به ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ في أمر دينهم، قال قتادة: هذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد شبه نزول القرآن بالماء الذي ينزل من السماء وشبه القلوب بالأودية والأنهار، فمن استقصى في تدبره وتفكّر في معانيه أخذ حظاً عظيماً منه، كالنهر الكبير الذي يأخذ الماء الكثير، ومن رضي بما أداه إلى التصديق بالحق على الجملة كان أقل حظاً منه كالنهر الصغير فهذا مثل، ثم شبه الخطوات ووساوس الشيطان بالزبد يعلو على الماء، وذلك من خبث التربة لا عين الماء، كذلك ما يقع في النفس من الشكوك فمن ذاتها لا من ذات الحق، يقول: فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقي صفوة الماء كذلك يذهب مخايل الشك هباء باطلاً ويبقى الحق، فهذا مثل ثان، والمثل الثالث قوله ومما توقدون عليه في النار إلى آخره فالكفر مثل هذا الخبث الذي لا ينتفع به،

والإيمان مثل الماء الصافي الذي ينتفع به، وتم الكلام عند قوله: ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾، ثم استأنف بقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، عن الحسن، والبلخي، وقيل: بل يتصل بما قبله لأن معناه أن الذي يبقى مثل الذين استجابوا لربهم، والذي يذهب جفاء مثل الذي لا يستجيب، والمراد به للذين استجابوا لربهم، والذي يذهب جفاء مثل الذي لا يستجيب، والمراد به للذين استجابوا دعوة الله وآمنوا به وأطاعوه الحسنى وهي الجنة، عن الحسن، والجبائي، وقيل: معناه الخصلة الحسنى والحالة الحسنى وهي الجنة، عن أبي مسلم ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ أي: لله فلم يؤمنوا به ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾ أي: جعلوا ذلك فدية أنفسهم من العذاب لم يقبل ذلك منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ قيل: فيه أقوال.

أحدها: إن سوء الحساب أخذهم بذنوبهم كلها من دون أن يغفر لهم شيء منها، عن إبراهيم النخعي. ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث: «ومن نوقش الحساب عذب» فيكون سوء الحساب المناقشة.

والثاني: هو أن يحاسبوا للتقريع والتوبيخ فإن الكافر يحاسب على هذا الوجه والمؤمن يحاسب ليسرّ بما أعدّ الله تعالى له، عن الجبائي.

والثالث: هو أن لا يقبل لهم حسنة ولا يغفر لهم سيئة، عن الزجاج، وروي ذلك، عن أبي عبد الله عليه السلام.

والرابع: إن سوء الحساب هو سوء الجزاء فسمي الجزاء حساباً لأن فيه إعطاء المستحق حقه ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم إلى جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: وبئس ما مهدوا لأنفسهم والمهاد الفراش الذي يوطأ لصاحبه وتسمى النار مهاداً لأنها موضع المهاد لهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

● **اللغة**: الألباب العقول، ولب الشيء أجل ما فيه وأخلصه وأجوده، ولب الإنسان عقله، لأنه أجل ما فيه، ولب النخلة قلبها، والميثاق العهد الواقع على أحكام، والوصل ضم الثاني إلى الأول من غير فاصلة، والخوف، والخشية، والفزع، نظائر، وهو انزعاج النفس بما يؤمن منه من الضرر. والسوء: ورود ما يشق على النفس. والحساب: إحصاء ما على العامل وله، وهو هٰهنا إحصاء ما على المجازي له، والسر هو إخفاء المعنى في النفس، ومنه السرور،

لأنه لذة تحصل للنفس، ومنه السرير، لأنه مجلس سرور. والدرء: الدفع، والعدْن: الإقامة الطويلة، وعدن بالمكان يعدن عدنا، ومنه المعدن. والصلاح استقامة الحال، والمصلح من فعل الصلاح الذي يدعو إليه العقل والشرع: والصالح المستقيم الحال في نفسه، والعقبى: فعلى من العاقبة، وهو الإنهاء الذي يؤدي إليه الابتداء من خير أو شر.

● **الإعراب:** موضع ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾ رفع، لأنه صفة لقوله: ﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وقيل: إنه صفة لمن يعلم. و﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ نصب، لأنه مفعول له. و﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من ﴿عُقْبَى﴾، ﴿وَمَن صَلَحَ﴾: موضعه «رفع عطفاً» على الواو في قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، وجائز أن يكون نصباً بأنه مفعول معه، كما تقول: قد دخلوا وزيداً، أي: مع زيد والباء في قوله: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ يتعلق بمعنى ﴿سَلَٰمٌ﴾، لأنه دل على السلامة لكم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف على تقدير هذه الكرامة لكم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، وما في قوله ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ مصدرية تقديره بصبركم. وقيل: إنه بمعنى الذي، كأنه قال بالذي صبرتم على فعل طاعاته، وتجنب معاصيه.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه الفرق بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عنه، أخرج الكلام مخرج الاستفهام، والمراد به الإنكار، أي: لا يكونان مستويين، فإن الفرق بينهما هو الفرق بين الأعمى والبصير، لأن المؤمن يبصر ما فيه رشده فيتبعه، والكافر يتعامى عن الحق فيتبع ما فيه هلاكه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إنما يتفكر فيه ويستدل به ذوو العقول والمعرفة، قال علي بن عيسى: وفي هذا حث على طلب العلم وإلزام له، لأنه إذا كانت حال الجاهل كحال الأعمى وحال العالم كحال البصير، وأمكن هذا الأعمى أن يستفيد بصراً فما الذي يقعده عن طلب العلم الذي يخرجه عن حال العمى بالجهل إلى حال البصير.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يؤدون ما عهد الله إليهم، وألزمهم إياه عقلاً وسمعاً فالعهد العقلي ما جعله في عقولهم من اقتضاء صحة أمور وفساد أمور أخر، كاقتضاء الفعل للفاعل، وأن الصنائع لا بد أن ترجع إلى صانع غير مصنوع، وإلا أدى إلى ما لا يتناهى، وأن للعالم مدبراً لا يشبهه، والعهد الشرعي ما أخذه النبي ﷺ على المؤمنين من الميثاق المؤكد باليمين أن يطيعوه ولا يعصوه ولا يرجعوا عما التزموه من أوامر شرعه ونواهيه، وإنما كرر ذكر الميثاق، وإن دخل جميع الأوامر والنواهي في لفظ العهد لئلا يظن ظان أن ذلك خاص فيما بين العبد وربه فأخبر أن ما بينه وبين العباد من المواثيق كذلك في الوجوب واللزوم، وقيل: إنه كرهه تأكيداً ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به الإيمان بجميع الرسل والكتب، كما في قوله لا نفرق بين أحد من رسله وقيل: هو صلة محمد ومؤازرته ومعاونته والجهاد معه، عن الحسن، وقيل: هو صلة الرحم، عن ابن عباس.

وروى أصحابنا أن أبا عبد الله عليه السلام لما حضرته الوفاة قال: أعطوا الحسن بن الحسين بن علي بن الحسين وهو الأفطس سبعين ديناراً فقالت له أم ولد له: أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفر؟ فقال لها: ويحك! أما تقرئين قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ الآية،

وقيل: هو ما يلزم من صلة المؤمنين بأن يتولوهم وينصروهم ويذبوا عنهم، ويدخل فيه صلة الرحم وغير ذلك، عن الجبائي، وأبي مسلم. وروى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: برُّ الوالدين وصلة الرحم يهوِّنان الحساب، ثم تلا هذه الآية. روى محمد بن الفضيل عن موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام في هذه الآية قال: صلة آل محمد صلى الله عليه وآله معلقة بالعرش تقول: اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني، وهي تجري في كل رحم. وروى الوليد بن أبان عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قلت له: هل على الرجل في ماله سوى الزكاة قال: نعم، أين ما قال الله: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ الآية. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: ويخافون عقاب ربهم في قطعها ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ قد بيَّنا ما قيل فيه. وروى هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سوء الحساب أن يحسب عليهم السيئات ولا يحسب لهم الحسنات، وهو الاستقصاء.

وروى حماد بن عثمان، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لرجل: يا فلان! مالك ولأخيك. قلت: جعلت فداك لي عليه شيء فاستقصيت حقي عنه. قال أبو عبد الله عليه السلام: أخبرني عن قول الله سبحانه، ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أتراهم خافوا أن يجور عليهم أو يظلمهم، لا والله، ولكن خافوا الاستقصاء والمداقة. ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: الذين صبروا على القيام بما أوجبه الله عليهم، وعلى بلاء الله من الأمراض والعقوبة وغير ذلك، وعن معاصي الله سبحانه لطلب ثواب الله تعالى، لأن ابتغاء وجه الله هو ابتغاء الله، وابتغاء الله يكون ابتغاء ثوابه، تقول العرب في تعظيم الشيء: هذا وجه الرأي وهذا نفس الرأي، للرأي المعظم، فكذلك وجه ربهم هو نفسه المعظم، فلا شيء أعظم منه، ولا شيء يساويه في العظم، وقيل: إن ذكر الوجه هنا عبارة عن الإخلاص وترك الرياء ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدوها بحدودها وقيل: داوموا على فعلها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: ظاهراً وباطناً ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بفعل الطاعة المعصية، قال ابن عباس: يدفعون بالعمل الصالح السيِّئ من العمل، كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لمعاذ بن جبل: «إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها»، وقيل: معناه: يدفعون إساءة من أساء إليهم بالإحسان والعفو ولا يكافئون كقوله سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾، عن قتادة، وابن زيد، والقتيبي، قال الحسن: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا. وقيل: معناه يدفعون بالتوبة معرة الذنب، عن ابن كيسان ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني أن هؤلاء الذين هذه صفاتهم ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: ثواب الجنة، فالدار الجنة وثوابها عقباها التي هي العاقبة المحمودة، عن ابن عباس، والحسن، ثم وصف الدار فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: بساتين إقامة تدوم ولا تفنى وقيل: هي الدرجة العليا وسكانها الشهداء والصديقون، عن ابن عباس، وقيل: هي مدينة في الجنة فيها الأنبياء والأئمة والشهداء، عن الضحاك، وقيل: قصر من ذهب لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حاكم عدل، عن الحسن، وعبد الله بن عمر. ثم بيَّن سبحانه ما يتكامل به سرورهم من اجتماع قومهم معهم، فقال: ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي: أولادهم يعني من آمن منهم وصدق بما صدقوا به، وذلك أن الله سبحانه جعل من ثواب المطيع سروره بما يراه في أهله من إلحاقهم به في الجنة كرامة له، كما قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، عن ابن عباس ومجاهد ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من

أبواب الجنة الثمانية، وقيل: من كل باب من أبواب البر، كالصلاة والزكاة والصوم، وقيل: من أبواب قصورهم وبساتينهم بالتحية من الله سبحانه والتحف والهدايا، عن ابن عباس. ويقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ والقول محذوف لدلالة الكلام عليه. والسلام: التحية والبشارة منهم بالسلامة والكرامة وانتفاء كل أمر تشوبه مضرة، أي: سلمكم الله من الأهوال والمكاره بصبركم على شدائد الدنيا ومحنها في طاعة الله تعالى ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: نعم عاقبة الدار ما أنتم فيه من الكرامة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾﴾.

● **اللغة:** الإنابة: الرجوع إلى الحق بالتوبة، انتاب فلان القوم، أتاهم مرة بعد مرة، ويقال: ناب ينوب نوبة: إذا رجع مرة بعد مرة، وطوبى: فُعلى من الطيب، وهو تأنيث الأطيب، ولم يغيروا طوبى بأن يقولوا: طيبي، كما قالوا ضيزى، فقلبوا الواو ياء والضمة كسرة، لأن طوبى اسم، وضيزى صفة، فرقوا بين الاسم والصفة.

● **الإعراب:** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في موضع نصب رداً على من. المعنى يهدى إليه الذين آمنوا. و﴿أَلَا﴾حرف تنبيه وابتداء. ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ عطف على ﴿طُوبَىٰ﴾، لأن ﴿طُوبَىٰ﴾ في موضع رفع.

● **المعنى:** لما ذكر سبحانه الذين يوفون بعهد الله، ووصفهم بالصفات التي يستحقون بها الجنة، عقبه بذكر من هو على خلاف حالهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ قد ذكرنا معنى عهد الله وميثاقه، وصلة ما أمر الله به أن يوصل. ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالدعاء إلى غير الله، عن ابن عباس، وقيل: بقتال النبي ﷺ والمؤمنين، عن الحسن، وقيل: بالعمل فيها بمعاصي الله والظلم لعباده وإخراب بلاده، وهذا أعم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ وهي: الإبعاد من رحمة الله والتبعيد من جنته: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: عذاب النار والخلود فيها: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء من عباده بحسب ما يعلم من المصلحة، ويضيقه على آخرين إذا كانت المصلحة في التضييق: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: فرحوا بما أوتوا من حطام الدنيا فرح البطر ونسوا فناءه وبقاء أمر الآخرة، وتقديره وفرح الذين بسط لهم في الرزق في الحياة الدنيا: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ أي: ليست هذه الحياة الدنيا بالإضافة إلى الحياة الآخرة إلا قليل ذاهب، لأن هذه فانية وتلك دائمة باقية، عن مجاهد،

وقيل: إنه مذكور على وجه التعجب، أي: عجباً لهم أن فرحوا بالدنيا الفانية وتركوا النعيم الدائم، والدنيا في جنب الآخرة متاع لا خطر له ولا بقاء له، مثل القدح والقصعة والقدر يتمتع به زماناً ثم ينكسر. عن ابن عباس ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي: هلا أنزل على محمد معجزة من ربه يقترحها، ويجوز أنهم لم يتفكروا في الآيات المنزلة، فاعتقدوا أنه لم ينزل عليه آية، ولم يعتدوا بتلك الآيات فقالوا هذا القول جهلًا منهم بها: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ عن طريق الجنة بسوء أفعاله وعظم معاصيه، وقد مضى القول في وجه الإضلال والهدى فلا معنى لإعادته ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ أي: رجع إليه بالطاعة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ معناه: الذين اعترفوا بتوحيد الله على جميع صفاته ونبوة نبيه وقبول ما جاء به من عند الله، وتسكن قلوبهم بذكر الله وتأنس إليه، والذكر حصول المعنى للنفس، وقد يسمى العلم ذكراً، والقول الذي فيه المعنى الحاضر للنفس أيضاً يسمى ذكراً، وقد وصف الله المؤمن ههنا بأنه يطمئن قلبه إلى ذكر الله، ووصفه في موضع آخر بأنه إذا ذكر الله وجل قلبه، لأن المراد بالأول أنه يذكر ثوابه وإنعامه وآلاءه التي لا تحصى وأياديه التي لا تجازى فيسكن إليه، وبالثاني أنه يذكر عقابه وانتقامه فيخافه ويوجل قلبه: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ وهذا حث للعباد على تسكين القلب إلى ما وعد الله به من النعيم والثواب والطمأنينة إليه، فإن وعده سبحانه وتعالى صادق، ولا شيء تطمئن النفس إليه أبلغ من الوعد الصادق، وهو اعتراض وقع بين الكلامين إذا كان قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ في موضع رفع بالإبتداء، ويكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بدلًا منه، وقوله: ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ جملة في موضع الرفع بأنه خبر المبتدأ، وإذا كان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الأول في موضع نصب على ما تقدم ذكره، فيكون و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مبتدأ مستأنفاً؛ و﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ خبره؛ ومعناه أن الذين يؤمنون بالله ويعملون ما يجب عليهم من الطاعات ﴿طوبى لهم﴾ وفيها أقوال:

أحدها: إن معناه فرح لهم وقرة عين، عن ابن عباس.

والثاني: غبطة لهم، عن الضحاك.

والثالث: خير لهم وكرامة، عن إبراهيم النخعي.

والرابع: : الجنة لهم، عن مجاهد.

والخامس: معناه العيش المطيب لهم، عن الزجاج، والحال المستطابة لهم، عن ابن الأنباري، لأنه فعلى من الطيب، وقيل: أطيب الأشياء لهم وهو الجنة، عن الجبائي.

السادس: هنيئاً بطيب العيش لهم.

السابع: حسنى لهم، عن قتادة.

الثامن: نعم ما لهم، عن عكرمة.

التاسع: طوبى لهم دوام الخير لهم.

العاشر: إن طوبى شجرة في الجنة أصلها في دار النبي ﷺ وفي دار كل مؤمن منها

غصن، عن عبيد بن عمير، ووهب، وأبي هريرة، وشهر بن حوشب، ورواه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام قال: لو أن راكباً مجداً سار في ظلها مائة عام ما خرج منها ولو أن غراباً طار من أصلها ما بلغ أعلاها حتى يبيض هرماً ألا في هذا فارغبوا، إن المؤمن نفسه منه في شغل والناس منه في راحة، إذا جن عليه الليل فرش وجهه وسجد لله يناجي الذي خلقه في فكاك رقبته ألا فهكذا فكونوا. وروى علي بن إبراهيم عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن علي بن رئاب، عن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي عبد الله عليه السلام كان رسول الله صلى الله عليه وآله يكثر تقبيل فاطمة عليها السلام، فأنكرت عليه بعض نسائه ذلك فقال صلى الله عليه وآله: إنه لما أسري بي إلى السماء دخلت الجنة وأدناني جبرائيل عليه السلام من شجرة طوبى، وناولني منها تفاحة، فأكلتها، فحوَّل الله ذلك في ظهري ماء فهبطت إلى الأرض وواقعت خديجة، فحملت بفاطمة، فكلما اشتقت إلى الجنة قبلتها، وما قبلتها إلا وجدت رائحة شجرة طوبى، فهي حوراء إنسية. وروى الثعلبي بإسناده عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: طوبى شجرة أصلها في دار علي عليه السلام في الجنة، وفي دار كل مؤمن منها غصن، ورواه أبو بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن موسى بن جعفر عليه السلام، عن طوبى. قال: شجرة أصلها في داري وفرعها على أهل الجنة، ثم سئل عنها مرة أخرى فقال: في دار علي عليه السلام فقيل: في ذلك فقال: إن داري ودار علي في الجنة بمكان واحد ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي: ولهم حسن مآب، أي: مرجع.

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ الآية بما قبله، أنه بيَّن أن نقضهم للعهد إنما كان لحب الرئاسة، والمنافسة في الدنيا، وزهدهم في المنافسة، وأخبر بأنه يبسط الرزق لمن يرى صلاحه فيه، ويرزق مقدار الكفاية من علم أن صلاحه فيه، ثم لما ذكر سبحانه سوء عاقبة الكفار، عقب ذلك بذكر ما اقترحوه من الآيات وترك تفكرهم فيما أنزل من الآيات الخارقة للعادات، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ولما استعجلوا العذاب، بيَّن سبحانه أنه يضل من يشاء، أي: يهلك من يشاء معجلًا، ويؤخر عذاب من يشاء، عن أبي مسلم قال: والمراد بقوله: ﴿ءَايَةٌ﴾ آيات العذاب. وقيل: إنهم لما اقترحوا الآيات بين أنهم إنما لم يجابوا إلى ذلك، لأن في المعلوم أنهم لا يؤمنون وأنه يهلكهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ علي وابن عباس، وعلي بن الحسين عليه السلام، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد وابن أبي مليكة، وعكرمة، والجحدري، وأبو زيد المزني: ﴿**أفلم يتبين**﴾(١) والقراءة المشهورة: ﴿**ييا يئس**﴾.

● **الحجة:** قال ابن جَني: هذه القراءة فيها تفسير، قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ وروي عن علي بن عياش أنها لغة فخذ من النخع، قال:

ألـم يَـيْـأَس الأقـوامُ أنـي أنـا ابـنـه ... وإن كـنـتُ عـن أرضِ الـعـشـيـرةِ نـائـيـا

وقال سحيم بن وثيل:

أقـول لأهـل الـشَّـعـب إذ يـأسِـرُونـنـي ... ألـم يـيـأسـوا أنـي ابـنُ فـارسِ زهْـدم(٢)

وروي: إذ ييسرونني، أي: يقسمونني، أي: ألم تعلموا. قال: ويشبه عندي أن يكون هذا أيضاً راجعاً إلى معنى اليأس، وذلك أن المتأمل للشيء، المتطلب لعلمه ذاهب بفكره في جهات تعرفه إياه، فإذا ثبت نفسه على شيء اعتقده، وأضرب عما سواه، فلم ينصرف إليه، كما ينصرف اليائس عن الشيء عنه، ولا يلتفت إليه، هذا طريق الصنعة فيها.

● **اللغة:** المتاب: التوبة، تاب يتوب توباً ومتاباً. والتوبة: الفعلة الواحدة. والتسيير: تصيير الشيء بحيث يسير، يقال: سار يسير سيراً وسيَّره غيره. والتقطيع: تكثير القطع، والقطع: تفصيل المتصل، والحلول: حصول الشيء في الشيء، كحصول العرض في الجوهر، وحصول الجوهر في الوعاء، والأصل الأول، والثاني مشبه به. والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر، ومنه سميت القيامة قارعة، وأصله القرع، وهو الضرب، ومقارعة الأبطال: ضرب بعضهم بعضاً، وقوارع القرآن: الآيات التي من قرأها أمن من الشيطان، كأنها تضرب الشياطين إذا قرئت.

● **النزول:** نزلت الآية الأولى في صلح الحديبية، حين أرادوا كتاب الصلح، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، اكتب باسمك اللهم. وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اكتب: هذا ما صالح محمد رسول الله. فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح محمد بن عبد الله، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: دعنا نقاتلهم، قال: لا، ولكن اكتبوا كما يريدون، فأنزل الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ الآية، عن قتادة، ومقاتل، وابن جريج. وقيل: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾؟، عن الضحاك، عن ابن عباس. ونزلت الآية الأخرى في نفر من مشركي مكة، منهم:

---

(١) وحكي عن ابن عباس أنه قال: كتب الكاتب «أفلم ييأس الذين آمنوا» وهو ناعس.

(٢) زهدم: اسم فرس. وقيل: اسم فرس سحيم. وقائل البيت: ولده جابر بن سحيم. وروي: «أني ابن قاتل زهدم». وزهدم: رجل من عبس. فعليه يصح أن يكون الشعر لسحيم. وفي رواية أُخرى: «أني ابن فارس لازم».

أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية المخزومي، جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى النبي ﷺ فأتاهم، فقال له عبد الله بن أمية: إن سرَّك أن نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنا حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً، حتى نغرس ونزرع، فلست كما زعمت أهون على ربك من داود عليه السلام، حيث سخر له الجبال تسبح معه، أو سخر لنا الريح فنركبها إلى الشام فنقضي عليها مسيرتنا وحوائجنا، ثم نرجع من يومنا، فقد كان سليمان سخرت له الريح، فكما زعمت لنا، فلست أهون على ربك من سليمان. وأحي لنا جدك قصياً أو من شئت من موتانا، لنسأله أحق ما تقول أم باطل؟ فإن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى، ولست بأهون على الله منه، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الآية.

● **المعنى:** لما ذكر سبحانه النعمة على من تقدم ذكره بالثواب وحسن المآب، عقَّبه بذكر النعمة على من أرسل إليه النبي ﷺ فقال: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي: كما أنعمنا على المذكورين بالثواب في الجنة أنعمنا على المرسل إليهم بإرسالك. وقيل: إن معنى التشبيه: إنا كما أرسلنا الأنبياء في الأمم قبلك أرسلناك ﴿فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي: في جماعة قد مضت من قبلها قرون وجماعات ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ بيَّن الغرض في إرساله، وهو أن يقرأ عليها القرآن ليتدبروا آياته ويتعظوا بها ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: وقريش يكفرون بالرحمن، أي: ويقولون قد عرفنا الله ولا ندري ما الرحمن، كما أخبر عنهم بأنهم قالوا: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟، عن الحسن، وقتادة. وقيل: معناه أنهم يجحدون الوحدانية ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ رَبِّى﴾ أي: الرحمن الذي أنكرتموه ربي، أي: خالقي ومدبري ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: إليه فوضت أمري، متمسكاً بطاعته راضياً بحكمه ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: مرجعي. وقيل: معناه إلى الرحمن توبتي ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: تجعل به الجبال سائرة، فأذهبت من مواضعها وقلعت من أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أو شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أو أحيي به الموتى حتى يعيشوا ويتكلموا، وحذف جواب لو، لأن في الكلام دليلًا عليه. والتقدير: لكان هذا القرآن، لعظم محله، وعلو أمره، وجلالة قدره. قال الزجاج: والذي أتوهم وقد قال بعضهم أن المعنى: لو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لما آمنوا، ودليله قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ وحذف جواب لو يكثر في الكلام. قال امرؤ القيس:

فلو أنها نفسٌ تموت سويّة ... ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا[(١)]

وهو آخر القصيدة[(٢)]. وقال:

وجدّك لو شيء أتانا رسوله ... سِواك، ولكنْ لم نجد لك مدْفعا[(٣)]

---

(١) مر البيت بمعناه في الجزء الخامس فراجع.

(٢) أي ليس بعده بيت يكون فيه جواب لو، بل هذا آخر القصيدة.

(٣) أي لو أتانا غيرك لدفعناه.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ معناه: إن جميع ما ذكر من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وإحياء الموتى، وكل تدبير يجري هذا المجرى لله، لأنه لا يملكه سواه، ولا يقدر عليه غيره، ولكنه لا يفعل، لأن فيما أنزل من الآيات مقنعاً، وكفاية للمنصفين، والأمر ما يصح أن يؤمر به وينهى عنه، وهو عام. وأصله: الأمر نقيض النهي ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: أفلم يعلموا ويتبينوا، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير، وأبي مسلم. وقيل: معناه أفلم يعلم الذين آمنوا علماً ييأسوا معه من أن يكون غير ما علموه، عن الفراء. وقيل: معناه أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله عز وجل بأنهم لا يؤمنون، عن الزجاج قال: لأنه قال: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي: أن الله لو أراد أن يهدي الخلق كلهم إلى جنته لهداهم، لكنه كلفهم، لينالوا الثواب بطاعاتهم على وجه الاستحقاق. وقيل: أراد به مشيئة الإلجاء، أي: لو أراد أن يلجئهم إلى الاهتداء لقدر على ذلك، لكنه ينافي التكليف، ويبطل الغرض به ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي: نازلة وداهية تقرعهم، ومصيبة شديدة من الحرب والجدب والقتل والأسر عليهم على جهة العقوبة، للتنبيه والزجر. وقيل: أراد بالقارعة سرايا النبي ﷺ كان يبعثها إليهم. وقيل: أراد بذلك ما مرَّ ذكره من حديث زيد وعامر. ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ وقيل: إن التاء في «تحلّ» للتأنيث، والمعنى: أو تحلُّ تلك القارعة قريباً من دارهم فتجاورهم حتى يحصل لهم المخافة منه، عن الحسن، وقتادة، وأبي مسلم، والجبائي. وقيل: إن التاء للخطاب، والمعنى: أو تحلُّ أنت يا محمد نفسك قريباً من دارهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما وعد الله من فتح مكة، عن ابن عباس قال: وهذه الآية مدنية. وقيل: حتى يأتي يوم القيامة، عن الحسن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ظاهر المعنى.

● **النظم:** اتصلت الآية الأخيرة بقوله ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ والتقدير: أن مثل هذا القرآن أنزل عليهم وهم يطلبون آيات أخر، عن الجبائي. وقيل: اتصلت بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ الآية، لأن المفهوم من قوله: ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ﴾ أنه قرأ عليهم القرآن وأنهم كفروا به.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، ويعقوب: ﴿وَصُدُّواْ﴾ بضم الصاد، وكذلك في: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ المؤمن، والباقون: ﴿وَصَدُّواْ﴾ بفتح الصاد.

● **الحجة:** قال أبو الحسن: صدَّ وصددته، مثل رجع ورجعته، قال:

صدَّتْ كما صدَّ عما لا يحلُّ له ساقي نصارى قبيل الفصح صوّام(١)

قال عمرو بن كلثوم:

صدَدْتِ الكأسَ عنا أمَّ عمروٍ وكان الكأسُ مجراها اليمينا(٢)

وحجةُ من أسند الفعل إلى الفاعل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفي موضع آخر: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فلما أسند الفعل إلى الفاعل في هذه الآية، فكذلك في هذه الآية، أي: صدوا الناس عن النبي ﷺ. ومن بنى الفعل للمفعول به جعل فاعل الصد غواتهم والعتاة منهم في كفرهم، وقد يكون على نحو ما يقال: صد فلان عن الخير وصد عنه، بمعنى أنه لم يفعل خيراً، ولا يراد به أن مانعاً منعه.

● **اللغة:** الاستهزاء: طلب الهزؤ. والهزؤ: إظهار خلاف الإضمار للاستصغار. والإملاء: التأخير، وهو من الملاوة. والملوان: الليل والنهار قال ابن مقبل:

ألا يا دِيارَ الحيِّ بالسبعَان ألحَّ عليها بالبِلى الملَوان(٣)

وقال في التهنئة: إلبس جديداً وتملَّ حبيباً أي: لتطل أيامك معه. والواقي: المانع، فاعل من الوقاية، وهو الحجر بما يدفع الأذى والمكروه.

● **المعنى:** ثم عزّى سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ هؤلاء بك: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: فأمهلتهم وأطلت مدتهم، ليتوبوا ولتتم عليهم الحجة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أهلكتهم وأنزلت عليهم عذابي، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف حلَّ عقابي بهم؟ وهو إشارة إلى تفخيم ذلك العقاب وتعظيمه. ثم عاد سبحانه إلى الحِجاج مع الكفار: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ معناه: أفمن هو قائم بالتدبير على كل نفس، وحافظ على كل نفس أعمالها يجازيها. وقيل: أفمن هو قائم عليها برزقها وحفظها والدفع عنها، كمن ليس بهذه الصفات من الأصنام، التي لا تنفع ولا تضر، ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ يعني أن هؤلاء الكفار جعلوا لله شركاء في العبادة، من الأصنام التي لا تقدر على شيء مما ذكرنا ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿سَمُّوهُمْ﴾ أي: سموهم بما يستحقون من الصفات، وإضافة الأفعال إليهم إن كانوا شركاء لله، كما يوصف الله بالخالق والرازق والمحيي والمميت، ويعود المعنى إلى أن الصنم لو كان إلهاً لتصور منه أن يخلق الرزق فيحسن حينئذ أن يسمى بالخالق والرازق، وقيل: سموهم بالأسماء التي هي صفاتهم، ثم انظروا هل تدل صفاتهم على جواز عباداتهم واتخاذهم آلهة، وقيل: معناه أنه ليس لهم اسم له مدخل في استحقاق الإلهية، وذلك استحقار لهم، وقيل: سموهم ماذا خلقوا؟ وهل ضروا أو نفعوا؟ وهو مثل قوله:

---

(١) الفِصح - بالكسر -: فطر النصارى، وهو عيد لهم.

(٢) أي أنا في اليمين، وعليك أن تسقيني أولاً.

(٣) السبعان: موضع في ديار قيس. وقد ينسب هذا البيت إلى ابن الأحمر.

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾، عن الحسن: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا استفهام منقطع مما قبله، أي: بل أتخبرون الله بشريك له في الأرض وهو لا يعلمه، على معنى: أنه ليس، ولو كان لعلم: ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ أي: أم تقولون مجازاً من القول وباطلًا لا حقيقة له، عن مجاهد، وقتادة، والضحاك، وعلى هذا: فالمعنى أنه كلام ظاهر، ليس له في الحقيقة باطن ومعنى، فهو كلام فقط، وقيل: أم بظاهر كتاب أنزل الله تعالى سميتم الأصنام آلهة، فبيَّن أنه ليس هٰهنا دليل عقلي ولا سمعي يوجب استحقاق الأصنام الإلهية، عن الجبائي. ثم بيَّن سبحانه بطلان قولهم، فقال: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ أي: دع ذكر ما كنا فيه، زين الشيطان لهم الكفر، لأن مكرهم بالرسول كفر منهم، عن ابن عباس، وقيل: بل زين لهم الرؤساء والغواة كذبهم وزورهم: ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: وصدوا الناس عن الحق، أو صدوا بأنفسهم عن الحق وعن دين الله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ سبق معناه في مواضع: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي والأسر، وقيل: بالمصائب والأمراض ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي: أغلظ وأبلغ في الشدة على النفس، لدوامه وخلوصه وكثرته: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: ما لهم من دافع يدفع عنهم عذاب الله تعالى.

●●●

قوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

● **اللغة:** الأنهار: جمع نهر ونَهر كفرد وأفراد وجمل وأجمال، والنهر: المجرى الواسع من مجاري الماء على وجه الأرض، وأصله الإتساع، ومنه النهار لاتساع الضياء فيه، وأنهرت الدماء: وسعت مجراها وقال:

ملكت بها كفي فانهرت فتقها[1]

أي: وسَّعته. والأكل بضم الهمزة: المأكول، والأحزاب: جمع الحزب، وهم: الجماعة التي تقوم بالنائبة يقال: تحزّب القوم إذا صاروا حزباً، وحزبهم الأمر يحزبهم أي: نالهم بمكروه.

● **الإعراب:** ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي﴾ فيها أقوال:

أحدها: إنه بمعنى الشبه، وخبره محذوف، وتقديره مثل الجنة التي هي كذا أجل مثل.

---

(١) قائله قيس بن الحطيم، يصف طعنة وبعده: «يرى قائم من دونها ما وراءها».

والثاني: إن تقديره فيما نقص عليكم مثل الجنة، أو مثل الجنة فيما نقص عليكم، فهو مرفوع أيضاً على الابتداء، وخبره محذوف، وهو قول سيبويه، واختاره أبو علي الفارسي.

والثالث: إن معناه صفة الجنة التي وعد المتقون ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فتجري من تحتها الأنهار مع ما بعده خبر المبتدأ الذي هو مثل الجنة، قالوا: وقوله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ معناه: الصفة العليا ولم يرتض أبو علي هذا القول.

● **المعنى**: لما تقدم ذكر ما أعد الله للكافرين، عقّبه سبحانه بذكر ما أعده للمؤمنين، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: شبهها، عن مقاتل، وقيل: صفتها وصورتها، عن الحسن. قال ابن قتيبة: المثل الشبه في أصل اللغة، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته، يقال: مثلت لك كذا أي: صورته ووصفته، وقيل: إن مثل مقحم، والتقدير الجنة التي وعد المتقون: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ يعني: أن ثمارها لا تنقطع كثمار الدنيا وظلها لا يزول ولا تنسخه الشمس، عن الحسن، وقيل: معناه نعيمها لا ينقطع بموت ولا آفة، عن ابن عباس وقيل: لذتها في الأفواه باقية، عن إبراهيم التيمي ﴿وَظِلُّهَا﴾ أيضاً دائم لا يكون مرة شمساً، ومرة ظلًا كما يكون في الدنيا: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: تلك الجنة عاقبة المتقين فالطريق إليها التقوى: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ أي: وعاقبة أمر الكفار النار، ولما تقدم ذكر الوعد والوعيد أخبر سبحانه عن المتقين والكافرين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يريد أصحاب النبي ﷺ الذين آمنوا به وصدقوه، أعطوا القرآن وفرحوا بإنزاله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ يعني: اليهود والنصارى والمجوس، أنكروا بعض معانيه وما يخالف أحكامهم، عن الحسن، وقتادة، ومجاهد، وقيل: الذين آتيناهم الكتاب هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه، فرحوا بالقرآن لأنهم يصدقون به، والأحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين، عن ابن عباس قال: لأن عبد الله بن سلام وأصحابه أساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فأنزل الله قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ففرحوا بذلك، وكفر المشركون بالرحمن، وقالوا ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. ويريد بالأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالمعاداة، ومن ينكر بعضه يعني: ذكر الرحمن، وهو قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي: أمرت أن أوجه عبادتي إلى الله ولا أشرك به في عبادته أحداً: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ يعني: إلى الله، أو إلى الإقرار بتوحيده وصفاته وتوجيه العبادة إليه وحده أدعو: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: إليه مرجعي ومصيري، أي: أرجع وأصير إلى حيث لا يملك الضر والنفع إلا هو وحده، فإنه لا يملك يوم القيامة الأمر أحداً من عباده كما ملكهم في الدنيا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: كما أنزلنا الكتب إلى من تقدم من الأنبياء بلسانه، أنزلنا إليك حكمة عربية، أي: جارية على مذاهب العرب في كلامهم يعني: القرآن فالحكم هٰهنا بمعنى الحكمة، كما في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ وقيل: إنما سماه حكماً لما فيه من الأحكام في بيان الحلال والحرام، وسماه عربياً لأنه أتى به نبي عربي ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ خطاب للنبي ﷺ والمراد به الأمة أي: لئن وافقت وطلبت أهواء الذين كفروا، والأهواء: جمع الهوى وهو ميل الطباع إلى شيء بالشهوة:

﴿بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بالله تعالى، لأن ما آتيناك من الدلالات والمعجزات موجب للعلم الذي يزول معه الشبهات: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي: ناصر يعينك عليه ويمنعك من عذابه: ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك منه، من ولي في موضع رفع، ومن مزيدة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة، وابن كثير، وعاصم: ويثبِت بالتخفيف، وقرأ الباقون: ويثبت بالتشديد.

● **الحجة:** قال أبو علي: المعنى يمحو ما يشاء ويثبته، فاستغنى بتعدية الأول من الفعلين عن تعدية الثاني، ومثل ذلك: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ وزعم سيبويه: إن من العرب من يعمل الأول من الفعلين ولا يعمل الثاني، في شيء من كلامهم، كقولهم: متى رأيت أو قلت زيداً منطلقاً، قال الكميت:

بأيِّ كتاب، أم بأيةِ سُنَّةٍ، ترى حُبَّهُم عاراً عليَّ وتحسِبُ

فلم يعمل الثاني، وهذا، والله أعلم، فيما يحتمل النسخ والتبديل من الشرائع الموقوفة على المصالح على حسب الأوقات، فأما غير ذلك فلا يمحى ولا يبدل، وحجة من قال: ﴿يُثَبِّتُ﴾ قوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ وحجة من قرأ ﴿يُثْبِتُ﴾ ما روي عن عائشة كان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أثبتها وقوله ثابت[1] لأن ثبت مطاوع أثبت.

● **النزول:** قال ابن عباس: عيّروا رسول الله ﷺ بكثرة تزويج النساء وقالوا لو كان نبياً لشغلته النبوة عن تزويج النساء، فنزلت الآية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾.

● **المعنى:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي: نساء وأولاداً أكثر من نسائك وأولادك؛ وكان لسليمان ثلاثمائة امرأة مهيرة؛ وسبعمائة سرية؛ ولداود مائة امرأة، عن ابن عباس، أي: فلا ينبغي أن يستنكر منك أن تتزوج؛ ويولد لك؛ وروي أن أبا عبد الله عليه السلام قرأ هذه الآية؛ ثم أومى إلى صدره فقال نحن والله ذرية رسول الله ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم يكن لرسول يرسله الله أن يجيء بآية ودلالة إلا بعد أن يأذن الله في ذلك ويطلق له فيه. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ذكر فيه وجوه:

(١) حيث قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾.

أحدها: إن معناه لكل أجل مقدر، كتاب أثبت فيه، ولا تكون آية إلا بأجل قد قضاه الله في كتاب على وجه ما يوجبه التدبير، فالآية التي اقترحوها لها وقت أجله الله، لا على شهواتهم واقتراحاتهم، عن البلخي.

والثاني: لكل أمر قضاه الله كتاب كتبه فيه فهو عنده كأجل الحياة والموت وغير ذلك، عن أبي علي الجبائي.

والثالث: إنه من المقلوب، والمعنى: لكل كتاب ينزل من السماء أجل ينزل فيه، عن ابن عباس، والضحاك، ومعناه: لكل كتاب وقت يعمل به، فللتوراة وقت، وللإنجيل وقت، وكذلك القرآن.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ قيل في المحو والإثبات أقوال:

أحدها: إن ذلك في الأحكام من الناسخ والمنسوخ، عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وابن جريج، وهو اختيار أبي علي الفارسي.

والثاني: إنه يمحو من كتاب الحفظة المباحات وما لا جزاء فيه، ويثبت ما فيه الجزاء من الطاعات والمعاصي، عن الحسن، والكلبي، والضحاك، عن ابن عباس، والجبائي.

والثالث: إنه يمحو ما يشاء من ذنوب المؤمنين فضلًا، فيسقط عقابها، ويثبت ذنوب من يريد عقابه عدلاً، عن سعيد بن جبير.

والرابع: إنه عام في كل شيء، فيمحو من الرزق ويزيد فيه، ومن الأجل، ويمحو السعادة والشقاوة ويثبتهما، عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وأبي وائل، وقتادة. وأم الكتاب: أصل الكتاب الذي أثبت فيه الحادثات والكائنات، وروى أبو قلابة عن ابن مسعود أنه كان يقول: اللهم إن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء واثبتني في السعداء فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. وروي مثل ذلك عن أئمتنا عليهم السلام في دعواتهم المأثورة. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: هما كتابان: كتاب سوى أم الكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وأم الكتاب لا يغير منه شيء، ورواه عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وآله، وروى محمد بن مسلم عن أبي جعفر قال: سألته عن ليلة القدر، فقال: ينزل الله فيها الملائكة والكتبة إلى السماء الدنيا، فيكتبون ما يكون من أمر السنة وما يصيب العباد، وأمر ما عنده موقوف له فيه المشيئة، فيقدم منه ما يشاء، ويؤخر ما يشاء، ويمحو ويثبت وعنده أم الكتاب. وروى الفضيل قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: العلم علمان: علم علمه ملائكته ورسله وأنبياءه، وعلم عنده مخزون لم يطلع عليه أحد يحدث فيه ما يشاء، وروى زرارة عن حمران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هما أمران: موقوف ومحتوم، فما كان من محتوم أمضاه، وما كان من موقوف فله فيه المشيئة يقضي فيه ما يشاء.

والخامس: إنه في مثل تقتير الأرزاق والمحن والمصائب يثبته في أم الكتاب ثم يزيله بالدعاء والصدقة، وفيه حثٌّ على الانقطاع إليه سبحانه.

والسادس: إنه يمحو بالتوبة جميع الذنوب، ويثبت بدل الذنوب حسنات، يبيِّنه قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾، عن عكرمة.

والسابع: إنه يمحو ما يشاء من القرون، ويثبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ وقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ وروي ذلك عن علي عليه السلام.

والثامن: إنه يمحو ما يشاء يعني القمر، ويثبت يعني الشمس، وبيانه: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، عن السدي، وأم الكتاب: هو اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل، لأن الكتب المنزلة انتسخت منه، فالمحو والإثبات إنما يقع في الكتب المنتسخة لا في أصل الكتاب، عن أكثر المفسرين. وقيل: إن ابن عباس سأل كعباً عن أم الكتاب؟ فقال: علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً فكان كتاباً. وقيل: إنما سمي أم الكتاب لأنه الأصل الذي كتب فيه أولاً سيكون كذا وكذا لكل ما يكون، فإذا وقع كتب أنه قد كان ما قيل أنه سيكون، والوجه في ذلك ما فيه من المصلحة والاعتبار لمن تفكر فيه، من الملائكة الذين يشاهدونه إذا قابلوا ما يكون بما هو مكتوب فيه، وعلموا أن ما يحدث على كثرته قد أحصاه الله تعالى وعلمه قبل أن يكون، مع أن ذلك أهول في الصدور وأعظم في النفوس، حتى كان من تصوره وفكر فيه شاهداً له.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: نعد هؤلاء الكفار من نصر المؤمنين عليهم بتمكينك منهم بالقتل والأسر واغتنام الأموال ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: ونقبضنك إلينا قبل أن نريك ذلك، وبيَّن بهذا أنه يكون بعض ذلك في حياته وبعضه بعد وفاته، أي: فلا تنتظر أن يكون جميع ذلك في أيام حياتك، وأن يكون مما لا بد أن تراه ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي: عليك أن تبلغهم ما أرسلناك به إليهم، وتقول بما أمرناك بالقيام به، وعلينا حسابهم ومجازاتهم والانتقام منهم، إما عاجلاً وإما آجلاً. وفي هذه دلالة على أن الإسلام سيظهر على سائر الأديان، ويبطل الشرك في أيامه وبعد وفاته، وقد وقع المخبر به على وفق الخبر.

● **النظم**: اتصلت الآية الأولى بما تقدمها من قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فبيَّن سبحانه أنه بشر، كما أن الرسل الذين كانوا قبله كانوا بشراً، والبشر لا يقدر على الآيات، بل إنما يأتي الله سبحانه بها إذا اقتضت المصلحة ذلك، عن أبي مسلم. وقيل: إنه لما تقدم ذكر إرساله بيَّن سبحانه أنه أرسل قبله بشراً كما أرسله، فحاله مثل حالهم، عن القاضي. وإنما اتصلت الآية الثانية بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لأن الظاهر اقتضى أن يكون كل مكتوب لا يجوز محوه، فبيَّن سبحانه أنه يمحو ما يشاء ويثبت، لئلا يتوهم أن المعصية مثبتة مع التوبة، كما أنها كذلك قبل التوبة، عن علي بن عيسى. وقيل: لما نزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قالت قريش: ما نراك يا محمد تملك شيئاً، فلقد فرغ من الأمر، فأنزل هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم، إنا لو شئنا أحدثنا من أمرنا ما شئنا ونمحو ونثبت في ليلة القدر ما نشاء من أرزاق الناس ومصائبهم، عن مجاهد. وإنما اتصل قوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ الآية، بما قبله من وعيد الله بالعذاب، فبيَّن سبحانه أنه يفعل ذلك لا محالة، إما في حياته أو بعد وفاته بشارة له. وقيل:

إنه لما تقدم أن لكل أجل كتاباً بين أن لعذابهم وقتاً سيفعله فيه لا محالة، إما في حياته أو بعد وفاته.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو: ﴿**وسيعلم الكافر**﴾ على لفظ الواحد. والباقون: ﴿ٱلْكُفَّٰرُ﴾ على الجمع. وفي الشواذ قراءة النبي ﷺ وعلي، وابن عباس وسعيد بن جبير، وعكرمة، وابن أبي إسحاق، والضحاك، والحكم بن عيينة: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ بكسر الميم والدال، وقراءة، علي والحسن، وابن السميفع: ﴿عُلِمَ الكتاب﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: العلم في قوله: ﴿**وسيعلم الكافر**﴾ هو المتعدي إلى مفعولين، بدلالة تعليقه ووقوع الاستفهام بعده، تقول: علمت لمن الغلامُ، فتعلقه مع الجار كما تعلقه مع غيره، في نحو: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ﴾ وموضع الجار مع المجرور نصب، من حيث سد الكلام الذي هو فيه مسد المفعولين لا من حيث حكمه في نحو: مررت بزيد بأن موضعه نصب، ولكن اللام الجارة كانت متعلقة في الأصل بفعل، فكان مثل: علمت بمن تمر، في أن الجار يتعلق بالمرور، والجملة التي هي منها في موضع نصب وقد علق الفعل عنها، فأما من قرأ: الكافر، فإنه جعل الكافر اسماً شائعاً، كالإنسان في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ وزعموا أن لا إلف فيه، وهذا الحذف إنما يقع في كل فاعل، نحو خالد وصالح، ولا يكاد الحذف في فعال، وزعموا أن في بعض الحروف ﴿**وسيعلم الذين كفروا**﴾ فهذا يقوي الجمع، قد جاء فاعل يراد به اسم الجنس، أنشد أبو زيد:

إن تـبـخـلي يـا جُـمْـلُ أو تـعـتـلي ... وتـصـبـحـي فـي الـظـاعـن الـمـولِّي

فهذا إنما يكون في الكثرة، وليس المراد على كل كافر واحد، والجمع الذي هو الكفار المراد في الآية لا إشكال فيه، فأما من قرأ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فمعناه: ومن فضله ولطفه علم الكتاب، ومن قرأ: ﴿ومن عنده عُلم الكتابُ﴾ فالمعنى مثل ذلك، إلا أن الجار ههنا يتعلق «بعُلم» وفي الأول بمحذوف و﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مبتدأ ومرفوع بالظرف على ما تقدم ذكره في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾.

● **اللغة:** النقص: أخذ الشيء من الجملة، ثم يستعمل في نقصان المنزلة. والطرف: منتهى الشيء، وهو موضع من الشيء ليس وراءه ما هو منه. وأطراف الأرض: نواحيها. والتعقيب: رد الشيء بعد فصله، ومنه: عقب العقاب على صيده إذا ردَّ الكرور عليه بعد فصله عنه، ومنه قول لبيد:

(طلب المعقب حقه المظلوم)[١]

والمكر: الفتل عن البغية بطريق الحيلة. والشهيد والشاهد واحد، إلا أن في شهيد مبالغة. والشهادة: البينة على صحة المعنى من طريق المشاهدة.

● **الإعراب:** ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ جملة منصوبة والموضع على الحال، وكذلك قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ والباء في قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ زائدة، قال علي بن عيسى: دخلت لتحقيق الإضافة من وجهين: جهة الفاعل، وجهة حرف الإضافة، وذلك أن الفعل لما جاز أن يضاف إلى غير فاعله، بمعنى أنه أمر به أزيل هذا الاحتمال بهذا التأكيد، ونظيره في تأكيد الإضافة قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه ما يكون للكفار كالبينة على الاعتبار، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا﴾ أي: نقصدها ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ واختلف في معناه على أقوال:

أحدها: أولم يرَ هؤلاء الكفار أنا ننقص أطراف الأرض بإماتة أهلها، ومجازه ننقص أهلها من أطرافها، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: أفلا يخافون أن نفعل مثل ذلك بهم، عن ابن عباس، وقتادة، وعكرمة.

وثانيها: ننقصها بذهاب علمائها وفقهائها وخيار أهلها، عن عطاء، ومجاهد، والبلخي، وروي نحو ذلك عن ابن عباس وسعيد بن جبير، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال عبد الله بن مسعود: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار.

وثالثها: أن المراد نقصد الأرض ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين معناه: فننقص من أهل الكفر ونزيد في المسلمين، يعني ما دخل في الإسلام من بلاد الشرك، عن الحسن، والضحاك، ومقاتل. قال الضحاك: أولم ير أهل مكة أنا نفتح لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ما حولها من القرى. وقال الزجاج: علم الله تعالى أن بيان ما وعد المشركون من قهرهم قد ظهر، أي: أفلا يخافون أن نفتح لمحمد أرضهم كما فتحنا له غيرها، وقد روي ذلك أيضاً عن ابن عباس، قال القاضي: وهذا القول أصح، لأنه يتصل بما وعده من إظهار دينه ونصرته.

ورابعها: أن معناه: أولم يروا ما يحدث في الدنيا من الخراب بعد العمارة، والموت بعد الحياة، والنقصان بعد الزيادة، عن الجبائي ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ أي: يفصل الأمر لا معقب لحكمه[٢] ولا راد لقضائه، عن ابن عباس. ومعناه: لا يعقب أحد حكمه بالرد والنقض ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: سريع المجازاة على أفعال العباد على الطاعات بالثواب، وعلى المعاصي بالعقاب.

ثم بيَّن سبحانه أن مكرهم يضمحل عند نزول العذاب بهم، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يريد أن الكفار الذين كانوا قبل هؤلاء قد مكروا بالمؤمنين واحتالوا في كفرهم ودبروا في

---

(١) مر البيت في ما سبق

(٢) [أي لا ناقض لحكمه].

تكذيب الرسل بما في وسعهم، فأبطل الله مكرهم، كذلك يبطل مكر هؤلاء ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: له الأمر والتدبير جميعاً، فيرد عليهم مكرهم بنصب الحجج لعباده. وقيل: معناه فالله يملك الجزاء على المكر، عن أبي مسلم. وقيل: يريد بالمكر ما يفعل الله تعالى بهم من المكروه، عن الجبائي. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فلا يخفى عليه ما يكسبه الإنسان من خير وشر، لأنه عالم بجميع المعلومات. وقيل: يعلم ما يمكرونه في أمر الرسول، فيبطل أمرهم ويظهر أمره ودينه ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ هذا تهديد لهم بأنهم سوف يعلمون من تكون له عاقبة الجنة حين يدخل المؤمنون الجنة والكافرون النار. وقيل: معناه وسيعلمون لمن العاقبة المحمودة لكم أم لهم إذا أظهر الله دينه ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لك يا محمد ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ من جهة الله تعالى إلينا ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كفى الله شاهداً بيني وبينكم بما أظهر من الآيات، وأبان من الدلالات على نبوتي ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: أن من عنده علم الكتاب هو الله، عن الحسن، والضحاك، وسعيد بن جبير، واختاره الزجاج قال: ويدل عليه قراءة من قرأ: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾.

والثاني: أن المراد به مؤمنو أهل الكتاب، منهم عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، واختاره الجبائي، وأنكر الأولون هذا القول بأن قالوا: السورة مكية وهؤلاء أسلموا بعد الهجرة.

والثالث: أن المراد به علي بن أبي طالب وأئمة الهدى عليهم السلام، عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليهما السلام. وروي عن يزيد بن معاوية عن أبي عبد الله أنه قال: إيانا عنى، وعلي أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله. وروى عنه عبد الله بن كثير أنه وضع يده على صدره ثم قال: عندنا والله علم الكتاب. ويؤيد ذلك ما روي عن الشعبي أنه قال: ما أحد أعلم بكتاب الله بعد النبي من علي بن أبي طالب عليه السلام ومن الصالحين من أولاده. وروى عاصم بن أبي النجود عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: ما رأيت أحداً أقرأ من علي بن أبي طالب عليه السلام للقرآن. وروى أبو عبد الرحمن أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: لو كنت أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله مني لأتيته. قال: فقلت له: فعلي، قال: أولم آته؟

سُورَةُ إبراهِيم

قال ابن عباس، وقتادة، والحسن: هي مكية إلا آيتان نزلتا في قتلى بدر من المشركين ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

● **عدد آيها:** خمس وخمسون آية شامي، أربع حجازي، آيتان كوفي، آية بصري.

● **اختلافها:** سبع آيات إلى النور في الموضعين حجازي شامي، وعاد وثمود حجازي بصري و﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ كوفي شامي، والمدني الأول ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ غير المدني الأول. ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ غير البصري ﴿عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ شامي.

● **فضلها:** أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ سورة إبراهيم عليه السلام والحجر، أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام، وبعدد من لم يعبدها. وروى عيينة بن مصعب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة إبراهيم والحجر في ركعتين جميعاً في كل جمعة لم يصبه فقر ولا جنون ولا بلوى.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سورة الرعد بإثبات الرسالة وإنزال الكتاب، افتتح هذه السورة ببيان الغرض في الرسالة والكتاب، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

● **القراءة:** ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ بالرفع، مدني وشامي، والباقون: بالجر.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ بالجر جعله بدلاً من ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ ولم يكن صفة، لأن الاسم وإن كان مصدراً في الأصل، والمصادر يوصف بها كما يوصف بأسماء الفاعلين، فكذلك كان هذا الاسم في الأصل الإله، ومعناه: ذو العبادة، أي: العبادة تجب له. قال أبو زيد: التأله: التنسك، وأنشد لرؤبة:

(سبَّحْن واسترجعن عن تألُّهي)[1]

(١) وقبله: «لله در الغانيات المدّه».

فهذا في أنه في الأصل مصدر قد وصف به مثل السلام والعدل، إلا أن هذا الاسم غلب حتى صار في الغلبة لكثرة استعمال هذا الاسم كالعلم، وقد يغلب ما أصله الصفة فيصير بمنزلة العلم، قال:

ونابغة الجعدي بالرمل بيته عليه صفيح من تراب وجندل

والأصل النابغة، ولما غلب نزع منه الألف واللام، كما ينزع من الأعلام نحو: زيد وجعفر، وربما استعمل في هذا النحو الوجهان، قال:

تُقَعِّدُهُمْ أعراقُ جِذْيَمَ بَعْدَما رجا الهُتْمُ إدراكَ العُلى والمكارِمِ(١)

وقال:

«وجِلَّت عن وجوه الأهاتم»(٢)

ومن قرأ بالرفع قطعه من الأول، وجعل ﴿ٱلَّذِى﴾ الخبر أو جعله صفة، وأضمر الخبر، ومثل ذلك في القطع: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ من قطع ورفع جعل قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ خبراً لقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ومن جرَّ أجرى ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ صفة على الأول، وعلى هذا يجوز ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: إن شئت جعلت هذا صفة لقوله: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ وأضمرت خبراً لقوله: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وإن شئت جعلت قوله: ﴿هَٰذَا﴾ ابتداء، و ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ خبراً.

● **اللغة:** العزيز: القادر على الأشياء الممتنع بقدرته من أن يضام، والحميد: المحمود على كل حال. والاستحباب: طلب محبة الشيء بالتعرض لها، والمحبة: إرادة منافع المحبوب، وقد يستعمل بمعنى ميل الطباع والشهوة والبغية. والابتغاء: الطلب.

● **المعنى:** ﴿الٓر﴾ قد ذكرنا معاني الحروف المقطعة في أوائل السور، وذكرنا اختلاف الأقاويل فيه في أول البقرة ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن نزل به جبرائيل عليه السلام من عند الله تعالى، أي: هذا كتاب منزل إليك يا محمد صلى الله عليه وآله ليس بسحر ولا بشعر ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: جميع الخلق ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بإطلاق الله ذلك وأمره به، وفي هذا دلالة على أنه سبحانه يريد الإيمان من جميع المكلفين، لأن اللام لام الغرض، ولا يجوز أن يكون لام العاقبة، لأنه لو كان ذلك لكان الناس كلهم مؤمنين، والمعلوم خلافه.

ثم بيّن سبحانه ما النور، فقال: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى طريق الله المؤدي إلى معرفة الله المنيع في سلطانه، المحمود في فعاله ونعمه التي أنعم بها على عباده ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي: له التصرف فيهما على وجه لا اعتراض

---

(١) يعني: يمنع قبيلة هتم عن إدراك المكارم نسبتهم إلى جِذيم وهو اسم رجل.

(٢) شطر من بيت الفرزدق، وقد مر.

عليه ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أخبر أن الويل للكافرين الذين يجحدون نعم الله ولا يعترفون بوحدانيته من عذاب تتضاعف آلامه. ثم وصف الكافرين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي: يختارون المقام في هذه الدنيا العاجلة على الكون في الآخرة، وإنما دخلت على لهذا المعنى، وذمَّهم سبحانه بذلك لأن الدنيا دار انتقال وفناء، والآخرة دار مقام وبقاء ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعون غيرهم من اتباع الطريق المؤدي إلى معرفة الله، ويجوز أن يريد أنهم يعرضون بنفوسهم عن اتباعها ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون للطريق عوجاً، أي: عدولاً عن الاستقامة، والسبيل يذكر ويؤنث. وقيل: معناه يلتمسون الدنيا من غير وجهها، لأن نعمة الله لا تستمد إلا بطاعته دون معصيته ﴿أُولَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في عدول عن الحق بعيد عن الاستقامة والصواب.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ اللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

● **اللغة:** التذكير: التعريض للذكر، الذي هو خلاف السهو. والصبّار: كثير الصبر.

● **الإعراب:** ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ يحتمل أن تكون: أن بمعنى أي على وجه التفسير، ويصلح أن تكون ﴿أن﴾ التي توصل بالأفعال، إلا أنها وصلت ههنا بالأمر، والتأويل الخبر، كما تقول: أنت الذي فعلت، والمعنى: أنت الذي فعل ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ﴾ جملة في موضع الحال.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه أنه إنما يرسل الرسل إلى قومهم بلغتهم، ليكون أقرب إلى الفهم وأقطع للعذر، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: لم يرسل فيما مضى من الأزمان رسولاً إلا بلغة قومه، حتى إذا بيَّن لهم فهموا عنه، ولا يحتاجون إلى من يترجمه عنه، وقد أرسل الله تعالى نبينا محمداً ﷺ إلى الخلق كافة، بلسان قومه وهم العرب، بدلالة قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ قال الحسن: امتن الله على نبيه محمد ﷺ أنه لم يبعث رسولاً إلا إلى قومه، وبعثه خاصة إلى جميع الخلق، وبه قال مجاهد. وقيل: إن معناه أنّا كما أرسلناك إلى العرب بلغتهم لتبين لهم الدين، ثم إنهم يبينونه للناس، كذلك أرسلنا كل رسول بلغة قومه، ليظهر لهم الدين، ثم استأنف فقال: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ عن طريق الجنة إذا كانوا مستحقين للعقاب ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ إلى طريق الجنة.

وقيل: يلطف لمن يشاء ممن له لطف، ويضل عن ذلك من لا لطف له، فمن تفكر وتدبر اهتدى وثبته الله، ومن أعرض عنه خذله الله ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ظاهر المعنى.

ثم ذكر سبحانه إرساله موسى، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: بالمعجزات والدلالات ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أخرج قومك ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ مرَّ معناه، أي: أمرناه بذلك، وإنما أضاف الإخراج إليه، لأنهم بسبب دعائه خرجوا من الكفر إلى الإيمان ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: إن معناه: وأمرناه بأن يذكر قومه وقائع الله في الأمم الخالية، وإهلاك من أهلك منهم، ليحذروا ذلك، عن ابن زيد، والبلخي، ويعضده قول عمرو بن كلثوم:

وأيّـامٍ لـنـا غُـرٍّ طـوالٍ   عـصـيـنـا الـملـكَ فـيـهـا أنْ نـديـنـا[1]

فيكون المعنى: الأيام التي انتقم الله فيها من القرون الأولى.

والثاني: إن المعنى: ذكرهم بنعم الله سبحانه في سائر أيامه، عن ابن عباس، وأبي بن كعب، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

والثالث: إنه يريد بأيام الله سننه وأفعاله في عباده من إنعام وانتقام، وكنى بالأيام عنهما، لأنها ظرف لهما جامعة لكل منهما، عن أبي مسلم، وهذا جمع بين القولين المتقدمين.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التذكير ﴿لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: دلالات لكل من كانت عادته الصبر على بلاء الله، والشكر على نعمائه، إنما جمع بينهما لأن حال المؤمن لا يخلو من نعمة يجب شكرها، أو محنة يجب الصبر عليها، فالشكر والصبر من خصال المؤمنين، فكأنه قال لكل مؤمن، ولأن التكليف لا يخلو من الصبر والشكر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ والتقدير: واذكر يا محمد إذ قال موسى لهم ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم﴾ أي: في الوقت الذي أنجاكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ أي: يذيقونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يستبقوهن أحياء للاسترقاق ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ والآية مفسرة في سورة البقرة[2] قال الفراء: وإنما دخلت الواو هنا للعطف، لأنهم كانوا يعذبون أنواعاً من العذاب سوى الذبح، فجاز العطف، فإذا حذفت الواو كان ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ تفسيراً للعذاب.

● ● ●

---

(١) هذا بيت من معلقته يريد أيام الوقائع التي نصروا فيها على أعدائهم، ويذكر قصة تحاكمهم إلى الملك عمرو بن المنذر، وقوله: «أن ندينا» أي: كراهية أن ندين، أو لئلا ندين، فحذف لا.

(٢) راجع الجزء الأول من هذا التفسير.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

● **اللغة:** التأذن: الإعلام، يقال: أذَنَ وتأذَّن، ومثله: أوْعَد توعَّد، قال الحرث بن حلزة:

آذنــتــنــا بِــبَــيْــنِــهــا أســمــاءُ رُبَّ ثـاوٍ يُـمـلُّ مـنـه الـثـواءُ[1]

والنبأ: الخبر عما يعظم شأنه، يقال: لهذا الأمر نبأ عظيم، أي: شأن. ونبأ الله محمداً. وتنبأ مسيلمة الكذاب: ادعى النبوة. والريب: أخبث الشك. والمريبُ: المتهم، وهو الذي يأتي بما فيه التهمة، يقال: أرابَ يُريبُ، إذا أتى بما يوجب الريبة.

● **الإعراب:** ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما بعده مجرور، بأنه بدل من قوله: ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ و ﴿فَاطِرِ﴾ مجرور، بأنه صفة لله في قوله: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ و ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ للتبغيض، وقيل: إن ﴿مِّن﴾ زائدة، عن أبي عبيدة، وأنكر سيبويه زيادتها في الإيجاب.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر النعمة أتبعه سبحانه بذكر ما يلزم عليها من الشكر، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ التقدير: واذكر إذ أعلم ربكم، عن الحسن، والبلخي. وقيل: معناه وإذ قال لكم ربكم، عن ابن عباس، وقيل: أخبر ربكم، عن الجبائي ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شكرتم لي على نعمي لأزيدنكم في النعم ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: جحدتم نعمتي ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ لمن كفر نعمتي. وقال أبو عبد الله عليه السلام في هذه الآية: «أيما عبد أنعمت عليه نعمة فأقر بها بقلبه، وحمد الله عليها بلسانه، لم ينفد كلامه حتى يأمر الله له بالزيادة». ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا﴾ أي: تجحدوا نعم الله سبحانه ﴿أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الخلق لم تضروا الله شيئاً، وإنما يضركم ذلك بأن تستحقوا عليه العقاب ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم ﴿حَمِيدٌ﴾ في أفعاله، وقد يكون كفر النعمة بأن يشبه الله بخلقه، أو يجور في حكمه، أو يرد على نبي من أنبيائه، فإن الله سبحانه قد أنعم على خلقه في جميع ذلك، بأن أقام الحجج

---

(١) هذا أول بيت من معلقته الشهيرة، يعني أعلمتنا أسماء بعزمها على فراقها ايانا، ولم نمل من معاشرتها ولم نعن غيرها.

الواضحة، والبراهين الساطعة على صحته، وعرض بالنظر فيها للثواب الجزيل ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ قيل: إن هذا الخطاب متوجه إلى أمة نبينا ﷺ فذكرت بأخبار من تقدمها من الأمم، وقيل: إنه من قول موسى عليه السلام، لأنه متصل به في الآية المتقدمة، والمعنى: ألم يجئكم ﴿نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: أخبار من تقدمكم ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يعلم تفاصيل أحوالهم وعددهم وما فعلوه، وفعل بهم من العقوبات إلا الله، قال ابن الأنباري: إن الله تعالى أهلك أمماً من العرب وغيرها، فانقطعت أخبارهم وعفت آثارهم فليس يعرفهم أحد إلا الله، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون، وقيل: إن النبي ﷺ كان لا يجاوز في انتسابه معد بن عدنان. فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ مبتدأ وخبراً ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالأدلة والحجج والأحكام والحلال والحرام ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ اختلفوا في معناه على أقوال:

أحدها: إن معناه: عضوا على أصابعهم من شدة الغيظ، لأنه ثقل عليهم مكان الرسل، عن ابن مسعود، وابن عباس، والجبائي.

وثانيها: إن معناه: جعلوا أيديهم في أفواه الأنبياء تكذيباً لهم، ورداً لما جاؤوا به، فالضمير في ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ للكفار، وفي ﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾ للأنبياء، فكأنهم لما سمعوا وعظ الأنبياء وكلامهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل تسكيتاً لهم، عن الحسن، ومقاتل.

وثالثها: إن معناه: وضعوا أيديهم على أفواههم مومين بذلك إلى الرسل أن اسكتوا عما تدعوننا إليه، كما يفعل الواحد منا مع غيره إذا أراد تسكيته، عن الكلبي، فيكون على هذا القول الضميران للكفار.

ورابعها: إن كلا الضميرين للرسل، أي: أخذوا أيدي الرسل فوضعوها على أفواههم ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم فيسكتوا عنهم لما يئسوا منهم، هذا كله إذا حمل معنى الأيدي والأفواه على الحقيقة.

ومن حملها على التوسع والمجاز فاختلفوا في معناه، فقيل: المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج، والمعنى: فردوا حججهم من حيث جاءت، لأن الحجج تخرج من الأفواه، عن أبي مسلم، وقيل: إن المعنى: ردوا ما جاءت به الرسل وكذبوهم، عن مجاهد، وقتادة، وقيل: معناه تركوا ما أمروا به وكفروا عن قبول الحق، عن أبي عبيدة، والأخفش. قال القتيبي: ولم يسمع أحد أن العرب تقول: رد يده في فيه، بمعنى ترك ما أمر به، وإنما المعنى: أنهم عضوا على الأيدي حنقاً وغيظاً، كقول الشاعر:

(يـرُدُّونَ فـي فِـيـهِ عَـشْـرَ الـحـسـودِ)

يعني أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه العشر، وقال آخر:

قـد أفـنـى أنـامِـله أزمُـهُ ... فـأضحـى يَـعَـضُّ عـليَّ الـوظِـيـفـا(١)

---

(١) الأزم: شدة العض بالفم كله، وأزمُه في البيت كأنه فاعل أفنى. وفي بعض النسخ «أزمة» والوظيف: مستدر الذراع والساق.

وقيل: المعنى: ردوا بأفواههم نعم الرسل، أي: وعظهم وبيانهم، فوقع ﴿فِي﴾ موقع الباء، عن مجاهد. قال الفراء: أنشدني بعضهم:

وأرغَبُ فيها عنْ لقيطٍ ورهطِه ولكنني عن سِنْبِسٍ لَسْتُ أرْغَبُ(١)

قال: أراد أرغب بها، يعني بنتاً له، يقول: أرغب بها عن لقيط وقبيلته، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا﴾ أي: جحدنا ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: برسالاتكم ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من الدين ﴿مُرِيبٍ﴾ منهم، أي: يوقعنا في الريب بكم أنكم تطلبون الرئاسة وتفترون الكذب.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ حينئذ لهم ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ مع قيام الأدلة على وحدانيته وصفاته ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومنشئهما لا يقدر على ذلك غيره، فوجب أن يعبد وحده ولا يشرك به من لا يقدر على اختراع الأجسام ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يدعوكم إلى الإيمان به لينفعكم لا ليضركم، وقال: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ بمعنى ليغفر لكم بعض ذنوبكم، لأنه يغفر ما دون الشرك ولا يغفر الشرك، وقال الجبائي: دخلت ﴿مِّن﴾ للتبعيض، ووضع البعض موضع الجميع توسعاً ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يؤخركم إلى الوقت الذي ضربه الله لكم أن يميتكم فيه، ولا يؤاخذكم بعاجل العقاب ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال لهم قومهم ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: خلق مثلنا ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾ أي: تمنعونا ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة واضحة على صحة ما تدعونه وبطلان ما نحن فيه، وإنما قالوا ذلك لأنهم اعتقدوا أن جميع ما جاءت به الرسل من المعجزات ليست بمعجزة ولا دلالة، وقيل: إنهم طلبوا معجزات مقترحات سوى ما ظهرت فيما بينهم.

وفي هذه الآية دلالة على أنه سبحانه لا يريد الكفر والشرك، وإنما يريد الخير والإيمان، وأنه إنما بعث الرسل إلى الكفار رحمة وفضلاً وإنعاماً عليهم ليؤمنوا، فإنه قال: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه جواب الرسل للكفار، فقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الصورة والهيئة ولسنا ملائكة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: ينعم عليهم بالنبوة ويثبتهم بالمعجزة، فلقد منَّ الله علينا واصطفانا وبعثنا أنبياء ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي بحجة عل صحة دعوانا ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمره وإطلاقه لنا في ذلك

(١) سنبس - كزبرج: قبيلة من طي.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المصدِّقون به وبأنبيائه ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ معناه: وأي: شيء لنا إذا لم نتوكل على الله ولم نفوض أمورنا إليه، وعلى هذا تكون ﴿مَا﴾ للاستفهام، وقيل: إن معناه: ولا وجه لنا ولا عذر لنا في ألا نتوكل على الله ولا نثق به فتكون ﴿مَا﴾ للنفي، وإذا كانت للاستفهام فمعناه النفي أيضاً ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أي: عرفنا طريق التوكل، وقيل: معناه هدانا إلى سبيل الإيمان، ودلنا على معرفته، ووفقنا لتوجيه العبادة إليه، وألا نشرك به شيئاً، وضمن لنا على ذلك جزيل الثواب. والمراد: أنا إذا كنا مهتدين فلا ينبغي لنا ألا نتوكل على الله ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ فإنه تعالى يكفينا أمركم وينصرنا عليكم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وإنما قص هذا وأمثاله في القرآن على نبينا ليقتدي بمن كان قبله من المرسلين في تحمل أذى المشركين، والصبر على ذلك، والتوكل. وروى الواقدي بإسناده عن أبي مريم، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: إذا آذاك البراغيث فخذ قدحاً من الماء، فاقرأ عليه سبع مرات ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية، وقل: فإن كنتم آمنتم بالله فكفوا شركم وأذاكم عنا، ثم ترش الماء حول فراشك، فإنك تبيت تلك الليلة آمناً من شرها.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ: قراءة ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن ﴿واستَفتِحُوا﴾ وقراءة ابن أبي إسحاق ﴿في يومِ عاصفٍ﴾ بالإضافة.

● **الحجة:** قوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ معطوف على ما سبق من قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: وقال لهم: استفتحوا، أي: استنصروا الله عليهم واستقضوه بينكم، وفي الحديث: كان ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين، أي يستنصر بهم، وقيل: معناه أنه يقدّمهم. ويبدأ أمره بهم، وكأنه إنما سمَّوْا القاضيَ فتاحاً، لأنه يفتح باب الحق الذي هو مسند فيعمل عليه.

وأما قوله: في يومِ عاصفٍ، فمعناه: في يوم ريح عاصف، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، وكذلك في قراءة الجماعة: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ العاصف هو الريح لا اليوم.

● **اللغة:** الاستفتاح: طلب الفتح بالنصر، والخيبة: إخلاف ما قدر به المنفعة، وضده النجاح، وهو إدراك الطَّلبة. والجبرية: طلب علو المنزلة بما ليس له غاية في الوصف، وإذا وصف العبد بأنه جبار كان ذماً، وإذا وصف الله سبحانه به، كان مدحاً، لأن له علو المنزلة بما

ليس وراءه غاية في الصفة. والعنيد: مبالغة العاند، والعناد: الامتناع من الحق مع العلم به كبراً أو بغياً، قال:

إذا نـزلـتُ فـاجـعـلانـي وَسـطـاً ... إنـي كـبـيـرٌ لا أطـيـقُ الـعُـنَـدَا

والوراء والخلف واحد. وهو الجهة المقابلة لجهة القدام، وقد يكون وراء بمعنى قدام، قال:

أَيَرجو بَنو مَرْوانَ سَمْعي وَطاعتي، ... وَقَـومـي تَـمـيـمٌ، وَالـفَـلاةُ وَرائِـيـا

قال الزجاج: الوراء: ما يوارى عنك وليس من الأضداد، قال النابغة:

حَـلَفْـتُ وَلَمْ أَتْـرُكْ لِنَـفْـسـي رِيـبَـةً ... وَلَيْـسَ وَراءَ الـلَّـهِ لِلْمَـرءِ مَـذْهَـبُ

والصديد: القيح يسيل من الجرح، أخذ من أنه يُصَد عنه تكرهاً له، والقيح: دم مختلط بمدة.[1] وقوله: ﴿صَدِيدٍ﴾ بيان للماء الذي يُسقَوْن، فلذلك أعرب بإعرابه. والتجرع: تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار. والإساغة: إجراء الشراب في الحلق، يقال: ساغ الشيء وأسغته أنا. والاشتداد: الإسراع بالحركة على عظم القوة، يقال: اشتد به الوجع من هذا لأنه أسرع إليه على قوة ألمه. ويوم عاصف: شديد الريح، والعصف: شدة الريح، وإنما جعل العصف صفة لليوم، لأنه يقع فيه، كما يقال: ليل نائم ويوم ماطر، ويجوز أن يكون المراد يوم عاصف ريحه، ومثله: جحر ضب خرب، أي: خرب جحره.

● **الإعراب:** ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ بمعنى: إلا أن، كما يقال: لا أكلمك أو تدعوني، وقال الفراء: لا يكاد: يستعمل فيما يقع وفيما لا يقع، فما يقع مثل قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ وما لم يقع مثله قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ لأن المعنى لم يرها ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تقديره: فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا بربهم، فيكون رفعاً بالابتداء، ويجوز أن يكون ﴿مَّثَلُ﴾ مقحماً كأنك قلت: الذين كفروا بربهم، فيكون رفعاً بالابتداء، وأعمالهم رفع على البدل، وهو بدل الاشتمال، وكرماد الخبر.

● **المعنى:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ أي: من بلادنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي: إلا أن ترجعوا إلى أدياننا ومذاهبنا التي نحن عليها ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فأوحى الله إلى رسله لما ضاقت صدورهم بما لقوا من قومهم إنا نهلك هؤلاء الظالمين الكافرين ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: نسكننكم أرضهم من بعدهم، يريد اصبروا فإني أهلك عدوكم وأورثكم أرضهم، وفي معناه: ما جاء في الحديث من آذى جاره ورثه الله داره: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: ذلك الفوز لمن خاف وقوفه للحساب والجزاء بين يدي في الموضع الذي أقيمه فيه، وأضاف المقام إلى نفسه لأنهم يقومون بأمره ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: عقابي.

وإنما قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ وهم لم يكونوا على ملّتهم قط، إما لأنهم توهموا على غير حقيقة أنهم كانوا على ملتهم، وإما لأنهم ظنوا بالنشوء أنهم كانوا عليها.

---

(١) المدة: ما يجتمع في الجرح من القيح.

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ أي: طلبت الرسل الفتح والنصر من قبل الله تعالى على الكفار، عن مجاهد، وقتادة، وقيل: هو سؤالهم أن يحكم الله بينهم وبين أممهم، لأن الفتح الحكم، والفتاح الحاكم، عن الجبائي ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: خسر كل متكبر معاند مجانب للحق دافع له، وقيل: معناه واستفتح الكفار العذاب الذي توعدهم به الأنبياء على جهة التكذيب لهم ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: جهنم بين يدي هذا الجبار، عن الزجاج، أي: له مع الخيبة نار جهنم بين يديه، وقيل: معناه من خلفه وإنما جاز في الزمان أن يسمى الأمام وراء وإن لم يجز في غيره، لأن الزمان المستقبل كأنه خلفهم، لأنه يأتي فيلحقهم، كما يلحق الإنسان من خلفه ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ أي: ويسقى مما يسيل من الدم والقيح من فروج الزواني في النار، عن أبي عبد الله عليه السلام وأكثر المفسرين، أو لونه لون الماء وطعمه طعم الصديد. وروى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ قال: يقرب إليه فيكرهه، فإذا أدنى منه شوي وجهه، ووقعت فروة رأسه(١)، فإذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره، يقول الله عز وجل: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ ويقول: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يوماً، فإن مات وفي بطنه شيء من ذلك كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة خبال(٢) وهو صديد أهل النار، وما يخرج من فروج الزناة، فيجتمع ذلك في قدور جهنم، فيشربه أهل النار ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ رواه شعيب بن واقد عن الحسين بن زيد عن الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عنه صلى الله عليه وآله.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يشرب ذلك الصديد جرعة جرعة ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي لا يقارب أن يشربه تكرهاً له وهو يشربه، والمعنى: أن نفسه لا تقبل لحرارته ونتنه، ولكن يُكرَه عليه ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي: تأتيه شدائد الموت وسكراته من كل موضع من جسده ظاهره وباطنه، حتى تأتيه من أطراف شعره، عن إبراهيم التيمي، وابن جريج، وقيل: يحضره الموت من كل موضع، ويأخذه من كل جانب، من فوقه ومن تحته، وعن يمينه وشماله، ومن قدامه وخلفه، عن ابن عباس، والجبائي. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾ أي: ومع إتيان أسباب الموت والشدائد التي يكون معها الموت من كل جهة، وأنواع العذاب التي كان يموت بدونها في الدنيا لا يموت فيستريح، وهذا كقوله: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾. ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي: وراء هذا الكافر ﴿عذابٌ غليظٌ﴾ وهو الخلود في النار، وقيل: معناه ومن بعد هذا العذاب الذي سبق ذكره عذاب أشد وأوجع مما تقدم، عن الكلبي.

ثم أخبر سبحانه عما ينال الكفار من الحسرة فيما تكلفوه من الأعمال، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ وقيل: إن معناه مثل أعمال الذين كفروا بربهم، فحذف المضاف اعتماداً

---

(١) الفروة: جلدة الرأس.
(٢) الخبال: عصارة أهل النار ذكره في (النهاية). وفي (اللسان) وطينة الخبال: ما سال من جلود أهل النار.

على ذكره بعد المضاف إليه، عن الفراء، وقيل: معناه مما نقصُّ عليك مثل الذين كفروا، عن سيبويه ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ في قلة انتفاعهم بها ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: ذرته ونسفته ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: شديد الريح، فكما لا يقدر أحد على جمع ذلك الرماد المتفرق والانتفاع به، فكذلك هؤلاء الكفار ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: لا يقدرون على الانتفاع بأعمالهم، ومثل قوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ يعني أن عملهم ذلك هو الذهاب البعيد عن النفع، وقيل: الخطأ البعيد عن الصواب، عن ابن عباس.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على بطلان قول المجبرة لأنه أضاف العمل إليهم، ولو كان مخلوقاً له سبحانه لما صح إضافته إليهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ﴿خالق السماوات﴾ ههنا وفي النور أهل الكوفة غير عاصم والباقون: ﴿خَلَقَ﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿خَلَقَ﴾ فلأن ذلك فعل ماض فأخبر عنه بلفظ الماضي. ومن قرأ ﴿خَٰلِقُ﴾ على اسم الفاعل جعله مثل ﴿فاطر السماوات﴾ لأن فاطر بمعنى خالق.

● **اللغة:** البروز: خروج الشيء عما كان ملتبساً به إلى حيث يقع عليه الحس، يقال: برز للقتال إذا ظهر له. الضعفاء: جمع ضعيف، والضعف: نقصان القوة، يقال: أضعفه فضعف. والاستكبار والتكبر والتجبر واحد، وهو رفع النفس فوق مقدارها في الوصف. والتبع: جمع تابع، كالغيب جمع غائب. قال الزجاج: ويجوز أن يكون مصدراً وصف به، فيكون بمعنى ذوي تَبع. وأغنى عنه: أي: دفع عنه فأغناه، أي: نفى الحاجة عنه بما فيه كفايته. وحاص يحيص حيصاً وحيوصاً مثل حاد، والحيد: الزوال عن المكروه. والجزع: انزعاج النفس بورود ما يغم، ونقيضه الصبر، قال:

فإن تَصْبِرا فالصَّبْرُ خَيْرُ مَغَبَّةٍ[1] ... وَإِنْ تَجْزَعا فالأَمْرُ ما تَرَيانِ

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه أنه إنما خلق الخلق ليعبدوه، وليؤمنوا به لا ليكفروا، فقال: ﴿أَلَمْ

(١) مغبة الأمر: عاقبته وقد مضى البيت.

تَرَ﴾ أي: ألم تعلم، لأن الرؤية قد تكون بمعنى العلم كما تكون بمعنى الإدراك للبصر، وههنا لا يمكن أن يكون بمعنى الرؤية بالبصر، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به الأمة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ على ما تقتضيه الحكمة. والخلق: فعل الشيء على تقدير وترتيب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بقوله الحق. وقيل: أراد للحق أي: للغرض الصحيح والأمر الحق، وهو الدين والعبادة، أي: ليعبدوه فيستحقوا به الثواب، عن ابن عباس، والجبائي. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: إن يشأ يهلككم، ويفنكم، ويخلق قوماً آخرين مكانكم، لأن من قدر على بناء الشيء كان على هدمه أقدر، إذ لم يخرج عن كونه قادراً. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: وما إهلاككم والإتيان بخلق جديد بممتنع ولا متعذر على الله تعالى.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أخبر سبحانه أن الخلق يبرزون يوم القيامة لله، أي: يظهرون من قبورهم ويخرجون منها لحكم الله، فاللفظ للماضي والمراد به الاستقبال للتحقيق وصحة الوقوع. وقيل: معناه سيبرزون لله جميعاً القادة والأتباع، عن ابن عباس، وهو يتصل بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ لما تقدم ذلك الوعيد بين صفة ذلك اليوم ما يجري بين الأتباع والمتبوعين من المجادلة، وقال: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ أي: تكبروا عن الإيمان فلم يؤمنوا وهم القادة في الدنيا الذين هم الأكابر والرؤساء، والقادة في الدين الذين هم علماء السوء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في الكفر على وجه التقليد ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: هل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله الذي قد نزل بنا إن لم تقدروا على دفع الكل؟ و ﴿مِن﴾ للتبعيض ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ أي: قال المتبوعون للأتباع لو هدانا الله إلى طريق الخلاص من العقاب، والوصول إلى النعيم والثواب، لهديناكم إلى ذلك، والمعنى: لو خلصنا لخلصناكم أيضاً، لكن لا مطمع فيه لنا ولكم، عن الجبائي، وأبي مسلم. وقيل: معناه: لو هدانا الله إلى الرجعة إلى الدنيا فنصلح ما أفسدناه لهديناكم. وقيل: لو هدانا الله بإجابتنا إلى الطلب لهديناكم بالمسألة له سبحانه، ذكر هذين الوجهين القاضي عبد الجبار في تفسيره ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ يعني أن الصبر والجزع سيان مثلان، ليس لنا محيص ولا مهرب من عذاب الله، أي: انقطعت حيلتنا ويئسنا من النجاة.

حثَّ الله سبحانه في هذه الآية على النظر، وحذر من التقليد، وإلى هذا أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام في قوله للحارث الهمداني: «يا حار الحق لا يُعرف بالرجال اعرف الحق تعرف أهله».

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة وحده: ﴿بمصرخيِ﴾ بكسر الياء، والباقون بفتحها.

● **الحجة:** قال أبو علي: قال الفراء في كتابه في التصريف: هو قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب، قال: وزعم القاسم بن معن أنه صواب قال: وكان ثقة بصيراً، وزعم قطرب أنه لغة من بني يربوع، يزيدون على ياء الإضافة ياء، وأنشد:

ماضٍ إذا ما همَّ بالمضيّ قال لها: هل لَكِ يا تافيِّ
قالت له: ما أنت بالمَرضِيِّ

وأنشد الفراء ذلك أيضاً. ووجه ذلك من القياس: أن الياء ليست تخلو من أن تكون في موضع النصب أو الجر، فالياء في النصب والجر كالهاء فيهما، وكالكاف في أكرمتك، وهذا لك. فكما أن الهاء قد لحقتها الزيادة في هذا كهو وألحقت أيضاً الكاف الزيادة في قول من قال: أعطيتكاه، وأعطتكيه، فيما حكاه سيبويه، وهما اختا الياء، كذلك ألحقوا الياء الزيادة في المد، فقالوا: فييّ، ثم حذفت الياء الزائدة على الياء، كما حذفت الزيادة من الهاء في قول من قال: [له أرقان][1] وزعم أبو الحسن أنها لغة، فكما حذفت الزيادة من الكاف في قول من قال: أعطيتكه وأعطيتُكِه كذلك حذفت الياء اللاحقة للياء، وبالجملة حذفت الزيادة من الياء كما حذفت من أختيها، وأقرت الكسرة التي كانت تلي الياء المحذوفة، فبقيت الياء على ما كانت عليها من الكسرة، وكما لحقت الكاف والهاء والياء الزيادة، كذلك لحقت التاء الزيادة نحو [رميتيه فأصميتيه، وما أخطأت الرّمية] فإذا كانت هذه الكسرة في الياء على هذه اللغة، وإن كان غيرها أفشى منها، وعضده من القياس ما ذكرناه، لم يجز لقائل أن يقول: إن القراءة بذلك لحن، لاستفاضة ذلك في السماع والقياس.

قال البصير: كسر الياء ليكون طبقاً لكسرة همزة قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ لأنه أراد الوصل دون الوقف والابتداء بـ ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ لأن الابتداء بـ ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ محال، فلما أراد هذا المعنى كان كسر الياء أدل على هذا من فتحها.

● **اللغة:** الإصراخ: الإغاثة بإجابة الصارخ، ويقال: استصرخني فلان فأصرخته، أي: استغاث بي فأغثته.

● **المعنى:** لما تقدم وعيد الكافر، وصفة يوم الحشر، وما يجري فيه من الجدال بين الأتباع والمتبوعين، عقب ذلك سبحانه بكلام الشيطان في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وهو إبليس باتفاق المفسرين، يقول لأوليائه الذين اتبعوه ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: فُرغ من الحكم بين الخلائق، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، عن ابن عباس والحسن وقالا: إنه لم يخاطبهم بذلك. قال الحسن: وهو أحقر وأذل من أن يخاطب لولا أن الله أذن فيه توبيخاً لأهل النار، وقيل: إنه يوضع له منبر في النار فيرقاه، ويجتمع الكفار عليه باللائمة، عن مقاتل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ من البعث والنشور والحساب والثواب والعقاب. ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ ألا

(١) هذا شطر من بيت مر في الجزء الخامس من هذا الكتاب فراجع.

بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، وقيل: ووعدتكم الخلاص من العقاب بارتكاب المعاصي ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: كذبتكم، وقيل: لم أوف لكم بما وعدتكم ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ أي: وما كان لي عليكم سلطان بالإكراه والإجبار على الكفر والمعاصي، وإنما كان لي سبيل الوسوسة والدعوة ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بسوء اختياركم، وقيل: معناه ما أظهرت لكم حجة احتج بها عليكم إلا أن دعوتكم، فيكون هذا من الاستثناء المنقطع، ومعناه: لكن دعوتكم إلى الضلال وأغويتكم فصدقتموني وأجبتموني وقبلتم مقالتي بسوء اختياركم لأنفسكم، فلا تلوموني على ما حلَّ بكم من العقاب بسوء اختياركم ﴿وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم﴾ حيث عدلتم عن أمر الله إلى اتباعي من غير دليل وبرهان ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: ما أنا بمغيثكم ولا معينكم وما أنتم بمغيثي ولا معيني ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: كفرت الآن بما كان من إشراككم إياي مع الله في الطاعة، أي: جحدت أن أكون شريكاً لله تعالى فيما أشركتموني فيه من قبل هذا اليوم، وقال الفراء وجماعة: تقديره: إني كفرت بما أشركتموني به، أي: بالله، ويعني بقوله ﴿مِن قَبْلُ﴾ في وقت آدم عليه السلام حين أمر بالسجود فأبى واستكبر ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل: إنه من تمام قول الشيطان لأهل النار، وقيل: إنه ابتداء وعيد من الله تعالى لهم، وهو الأظهر.

وفي هذه الآية دلالة على أن الشيطان لا يقدر على أكثر من الدعاء والإغواء، وأنه ليس عليه إلا عقاب الدعوة فحسب.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة الحسن: ﴿وادخلُ الذين آمنوا﴾ برفع اللام.

● **الحجة:** قال ابن جني: هذه القراءة على أن ﴿وَأُدْخِلَ﴾ من كلام الله، كأنه قطع الكلام واستؤنف، فقال الله: وأنا أدخلُ المؤمنين جنات، وعلى هذا فقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بإذني، إلا أنه أعاد ذكر الرب ليضيفه إليهم، فيكون أذهب في الإكرام والتقريب منه لهم.

● **اللغة:** التحية: التلقي بالكرامة في المخاطبة، وأما قوله: ﴿**التحيات لله**﴾ فإن في ذلك ثلاثة أقوال:

أولها: المعنى: أن المُلك لله، يقال: حياك الله، أي: ملَّكك.

وثانيها: البقاء لله، يقال: حياك الله، أي: أبقاك الله، فيكون بمعنى: أحياك الله، كما يقال: وصَّى وأوصى ومهَّل وأمهل.

وثالثها: أن ذلك بمعنى السلام. قال القتيبي: وإنما جمع لأنه كان في الأرض ملوك يحيون بتحيات مختلفة، فيقال لبعضهم: أبيت اللعن، ولبعضهم: أسلم وأنعم، ولبعضهم: عش ألف سنة. فقيل لنا: قولوا: التحيات لله، أي: كل الألفاظ التي يُحيَّا بها الملوك هي لله. والاجتثاث: اقتلاع الشيء من أصله، يقال: جثه واجتثه، والجثة أخذت منه.

● **المعنى**: لما تقدم وعيد الكافرين عقبه سبحانه بالوعد للمؤمنين، فقال: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدقوا الله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الطاعات ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ قد سبق معناه ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمر ربهم. وإطلاقه ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ مرَّ تفسيره في سورة يونس[1]. ثم ضرب الله سبحانه مثلاً يقرب من أفهام السامعين ترغيباً للخلق في اتباع الحق. فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم ترَ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: بيَّن الله شبهاً ثم فسر ذلك المثل، فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي كلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله، عن ابن عباس، وقيل: هي كل كلام أمر الله تعالى به من الطاعات، عن أبي علي قال: وإنما سماها طيبة لأنها زاكية، نامية لصاحبها بالخيرات والبركات ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: شجرة زاكية نامية راسخة، أصولها في الأرض عالية أغصانها وثمارها في السماء، وأراد به المبالغة في الرفعة، والأصل سافل، والفرع عال، إلا أنه يتوصل من الأصل إلى الفرع.

وروى أنس عن النبي ﷺ إن هذه الشجرة الطيبة هي النخلة وقيل: إنها شجرة في الجنة، عن ابن عباس. وروى ابن عقدة عن أبي جعفر عليه السلام إن الشجرة رسول الله ﷺ، وفرعها علي عليه السلام، وعنصر الشجرة فاطمة، وثمرتها أولادها، وأغصانها وأوراقها شيعتنا، ثم قال عليه السلام: إن الرجل من شيعتنا ليموت فيسقط من الشجرة ورقة، وإن المولود من شيعتنا ليولد فيورق مكان تلك الورقة ورقة.

وروي عن ابن عباس قال: قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: أنت الشجرة، وعلي غصنها، وفاطمة ورقها، والحسن والحسين ثمارها. وقيل: أراد بتلك شجرة هذه صفتها وإن لم يكن لها وجود في الدنيا، لكن الصفة معلومة. وقيل إن المراد بالكلمة الطيبة الإيمان، وبالشجرة الطيبة المؤمن.

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾ أي: تخرج هذه الشجرة ما يؤكل منها ﴿كُلَّ حِينٍۭ﴾ أي: في كل ستة أشهر، عن ابن عباس، وأبي جعفر عليه السلام، وقال الحسن وسعيد بن جبير: أراد بذلك أنه يؤكل ثمرها في الصيف وطلعها في الشتاء، وما بين صرام النخلة إلى حملها ستة أشهر، وقال مجاهد وعكرمة: كل حين: أي: كل سنة، لأنها تحمل في كل سنة مرة، وقال سعيد بن المسيب: في كل شهرين، لأن

---

(١) في الجزء الخامس من هذا التفسير.

من وقت ما يطعم النخل إلى صرامه يكون شهرين، وقيل: لأن من وقت أن يصرم النخل إلى حين يطلع يكون شهرين، وقال الربيع عن أنس: كل حين: أي كل غدوة وعشية، وروى ذلك عن ابن عباس أيضاً، وقيل: معناه: في جميع الأوقات، لأن ثمر النخل يكون أولاً طلعاً، ثم يصير بلحاً، ثم بسراً، ثم رطباً، ثم تمراً، فيكون ثمره موجوداً في كل الأوقات، ويدل على أن الحين بمنزلة الوقت قول النابغة في صفة الحية والملدوغ:

تُـبـاذِرُهـا الـرّاقـون مـن سـوءِ سَـمِّـهـا تُـطـلِّقـه حـيـنـاً، وحـيـنـاً تُـراجِـعُ[1]

يعني أن السم يخف ألمه وقتاً، ويعود وقتاً. وقيل: إنه سبحانه شبه الإيمان بالنخلة لثبات الإيمان في قلب المؤمن كثبات النخلة في منبتها، وشبه ارتفاع علمه إلى السماء بارتفاع فروع النخلة، وشبه ما يكسبه المؤمنون من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت وحين بما ينال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها من الرطب والتمر، وقيل: إن معنى قوله: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ ما يفتي به الأئمة من آل محمد ﷺ وشيعتهم في الحلال والحرام. ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي يتدبروا فيعرفوا الغرض بالمثل.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الكفر والشرك، عن ابن عباس، وغيره، وقيل: هو كل كلام في معصية الله تعالى، عن أبي علي ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ غير زاكية وهي شجرة الحنظل، عن ابن عباس، وأنس، ومجاهد، وقيل: إنها شجرة هذه صفتها، وهو أنه لا قرار لها في الأرض، عن الحسن، وقيل: إنها الكشوثُ[2]، عن الضحاك. وروى أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام أن هذا مثل بني أمية ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: اقتطعت واستؤصلت واقتلعت جثته من الأرض ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ أي: ما لتلك الشجرة من ثبات، فإن الريح تنسفها وتذهب بها، فكما أن هذه الشجرة لا ثبات لها ولا بقاء ولا ينتفع بها أحد، فكذلك الكلمة الخبيثة لا ينتفع بها صاحبها ولا يثبت له منها نفع ولا ثواب، وروي عن ابن عباس أيضاً أنها شجرة لم يخلقها الله بعد، وإنما هو مثل ضربه بهذا، وهذا القول حسن، لأن الحنظل وغيره قد ينتفع به في الأدوية.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾.

---

(١) تباذرها أي: أنذر بعضهم بعضاً. وراقون جمع الراقي: من يصنع الرقية وهي العوذة. وفي الديوان وشرح الأشموني «تطلقه طوراً وطوراً تراجع». ويروى أيضاً من «سوء سمعها».

(٢) الكشوث: نبات يلتف على الشوك، لا أصل له في الأرض، ولا ورق.

● **اللغة:** الإحلال: وضع الشيء في محل، إما بمجاورةٍ إن كان من قبيل الأجسام، أو بمداخلة إن كان من قبيل الأعراض. والبوار: الهلاك، يقال: بار الشيء يبور بوراً إذا هلك. ورجل بور أي: هالك، وقوم بور أيضاً، قال ابن الزبعرى:

يا رسولَ المليكِ إنَّ لساني راتِقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُورُ

والأنداد: الأمثال المنادُّون، قال:

تُهدَى رؤوسُ المترفين الأنداذْ إلى أميرِ المؤمنين الممْتاذْ[1]

● **الإعراب:** ﴿جَهَنَّمَ﴾ انتصب على البدل من قوله: ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ و﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿قَوْمَهُمْ﴾ وإن شئت كان حالًا من ﴿جَهَنَّمَ﴾ وإن شئت فمنها كقوله: ﴿تَحْمِلُهُ﴾ بعد قوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا﴾.

● **المعنى:** لما قدَّم سبحانه ذكر الكلمة الطيبة، عقبه بذكر ما يحصل لصاحبها من المثوبة والكرامة، فقال ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: يثبتهم في كرامته وثوابه بالقول الثابت الذي وجد منهم وهو كلمة الإيمان، لأنه ثابت بالحجج والأدلة، وقيل: معناه: يثبت الله المؤمنين بسبب كلمة التوحيد وحرمتها في الحياة الدنيا حتى لا يزلوا ولا يضلوا عن طريق الحق، ويثبتهم بها حتى لا يزلوا ولا يضلوا عن طريق الجنة، وقيل: معناه: يثبتهم بالتمكين في الأرض والنصرة والفتح في الدنيا، وبإسكانهم الجنة في الآخرة، عن أبي مسلم. وقال أكثر المفسرين: إن المراد بقوله: ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في القبر، والآية وردت في سؤال القبر، وهو قول ابن عباس وابن مسعود، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام.

وروى محمد بن يعقوب الكليني في كتاب الكافي بإسناده عن سويد بن غفلة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: إن ابن آدم إذا كان في آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة مثل له ماله وولده وعمله، فيلتفت إلى ماله فيقول: والله إنْ كنت عليك لحريصاً شحيحاً، فَمَا لي عندك؟ فيقول: خذ مني كفنك، فيلتفت إلى ولده فيقول: والله إنْ كنت لكم لمحباً وعليكم لمحامياً فماذا لي عندكم؟ فيقولون: نؤديك إلى حفرتك، نواريك فيها. قال: فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إنْ كنت فيك لزاهداً، وإن كنت عليّ لثقيلًا، فماذا لي عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتى أعرض أنا وأنت على ربك. قال: فإن كان لله ولياً أتاه أطيب الناس ريحاً، وأحسنهم منظراً، وأحسنهم رياشاً، فقال: أبشر بروح وريحان وجنة نعيم، ومقدمك خير مقدم، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح ارتحل من الدنيا إلى الجنة، وإنه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجله، فإذا أدخل قبره أتاه ملكا القبر، يجران أشعارهما ويخدان الأرض بأنيابهما، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: الله ربي، وديني الإسلام، ونبيي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فيقولان:

---

(١) مر البيت في ماسبق في الجزء الخامس في سورة هود.

ثبتك الله فيما تحب وترضى، وهو قوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ثم يفسحان له في قبره مدَّ بصره، ثم يفتحان له باباً إلى الجنة، ثم يقولان له: نم قرير العين نوم الشاب الناعم، فإن الله يقول: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

قال: وإذا كان لربه عدواً فإنه يأتيه أقبح خلق الله زياً، وأنتنه ريحاً، فيقول: أبشر بنزل من حميم، وتصلية جحيم، وإنه ليعرف غاسله، ويناشد حملته أن يحتبسوه فإذا أدخل القبر أتاه ملكا القبر، فألقيا أكفانه، ثم يقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان له: لا دريت ولا هديت! فيضربان نافوخه بمرزبة معهما ضربة ما خلق الله من دابة إلا تذعر لها، ما خلا الثقلين. ثم يفتحان له باباً إلى النار، ثم يقولان له: نم بشرِّ حال، فيه من الضيق مثل ما فيه القناة من الزج، حتى أن دماغه ليخرج من بين ظفره ولحمه، ويسلط الله عليه حيات الأرض وعقاربها وهوامها فتنهشه حتى يبعثه الله من قبره، وإنه ليتمنى قيام الساعة مما هو فيه من الشر، نعوذ بالله من عذاب القبر.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: ويضلهم عن هذا التثبيت في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من الإمهال، والانتقام، وضغطة القبر، ومساءلة منكر ونكير، لا اعتراض عليه في ذلك، ولا قدرة لأحد على منعه، هذا من تمام الترغيب والترهيب.

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ يحتمل أن يكون المراد: ألم تر إلى هؤلاء الكفار، عرفوا نعمة الله بمحمد ﷺ، أي: عرفوا محمداً ثم كفروا به، فبدلوا مكان الشكر كفراً، وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: نحن والله نعمة الله التي أنعمها أنعم بها على عباده، وبنا يفوز من فاز، ذكره علي بن إبراهيم في تفسيره. ويحتمل أن يكون المراد جميع نعم الله على العموم، بدلوها أقبح التبديل، إذ جعلوا مكان شكرها الكفر بها.

واختلف في المعني بالآية، فروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك، ومجاهد، أنهم كفار قريش، كذبوا نبيهم ونصبوا له الحرب والعداوة، وسأل رجل أمير المؤمنين علياً عليه السلام عن هذه الآية فقال: هم الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو أمية فمتعوهم إلى حين، وأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وقيل: إنهم جبلة بن الأيهم ومن اتبعوه من العرب، تنصروا ولحقوا بالروم ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ أي: أنزلوا قومهم دار الهلاك بأن أخرجوهم إلى بدر، وقيل: معناه: أنزلوهم دار الهلاك، وهي النار بدعائهم إياهم إلى الكفر بالنبي وإغوائهم إياهم ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ وهذا تفسير لدار البوار، يعني أن تلك الدار هي جهنم يدخلونها وبئس القرار قرار من قراره النار ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: وجعل هؤلاء الكفار الذين بدلوا نعمة الله كفراً لله نظراء وأمثالاً في العبادة زيادة على كفرهم وجحدهم ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: ليكون عاقبة أمرهم إلى الضلال الذي هو الهلاك، وليست هذه اللام لام الغرض، لأنهم لم يعبدوا الأوثان من دون الله وغرضهم أن يهلكوا.

ومن قرأ: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء فمعناه: ليَضل الناسُ عن سبيل الله. ثم قال سبحانه لنبي ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكفار الذين وصفناهم ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ وانتفعوا بما تهوُون من عاجل هذه الدنيا، والمراد به التهديد وإن كان بصورة الأمر ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ أي: مرجعكم ومآلكم ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ والكون فيها وكان قد يكون.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ زيد عن يعقوب: ﴿من كُلٍّ ما سألتموه﴾ بالتنوين، وهو قراءة ابن عباس والحسن ومحمد بن علي الباقر عليه السلام، وجعفر بن محمد الصادق عليه السلام، والضحاك وعمرو بن قائد، وقرأ سائر القراء: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بالإضافة.

● **الحجة:** أما القراءة بالتنوين فإن المفعول فيها ملفوظ به، أي: وآتاكم ما سألتموه من كل شيء سألتموه أن يؤتيكم منه، وقال الضحاك: إن ﴿مَا﴾ للنفي ومعناه: وآتاكم من كل شيء لم تسألوه إياه. أما القراءة على الإضافة فالمفعول فيها محذوف، أي: وآتاكم سؤالكم من كل شيء سألتموه.

● **اللغة:** الخلال مصدر خاللته مخاللة وخلالاً، أي: صادقته، قال امرؤ القيس:

صرفتُ الهوى عنهنَّ من خَشيةِ الردَى ولست بِمَقْليِّ الخِلالِ ولا قالِ[1]

وقد يكون الخلال جمع خُلة، ويكون مثل قُلة وقلال. والدؤوب: مرور الشيء في العمل على عادة جارية فيه، يقال: دأب يدأب دأباً ودؤوباً فهو دائب.

● **الإعراب:** ﴿يُقِيمُواْ﴾ جزم من ثلاثة أوجه:

أحدها: إنه جواب الأمر الذي هو ﴿قُلْ﴾ لأن المعنى في ﴿قُلْ﴾ أن تقل لهم يقيموا الصلاة.

والثاني: إنه جواب أمر محذوف، وتقديره: قل لعبادي أقيموا الصلاة يقيموا الصلاة.

والثالث: إنه على حذف لام الأمر، كأنه قال: قل لعبادي ليقيموا الصلاة، وإنما جاز

(١) المقلى: المبغوض. والقالي: الباغض.

حذف اللام هنا، لأن في الكلام دليلًا على المحذوف، ألا ترى أن لفظ الأمر بـ ﴿قُل﴾ قد دلَّ على الغائب، تقول: قل لزيد: ليضرب عمراً، وإن شئت قلت: قل لزيد: يضرب عمراً، ولا يجوز أن تقول: يضربْ زيد عمراً بالجزم حتى تقول: ليضرب، لأن لام الغائب ليس هنا عوض منها إذا حذفتها. وقوله: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ إن شئت رفعت البيع والخلال جميعاً، وإن شئت فتحتهما، وإن شئت فتحت أحدهما ورفعت الآخر. وقد شرحنا ذلك فيما مضى.

● **المعنى:** ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: اعترفوا بتوحيد الله وعدله، عنى به أصحاب النبي ﷺ، عن ابن عباس. وقيل: أراد به جميع المؤمنين، عن الجبائي ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يؤدوا الصلوات الخمس لمواقيتها، فإن الصلاة لا تصير قائمة إلا بإقامتهم ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: وقل لهم ينفقوا من أموالهم في وجوه البر من الفرائض والنوافل، ينفقون في النوافل سراً ليدفعوا عن أنفسهم تهمة الرياء، وفي الفرائض علانية ليدفعوا تهمة المنع ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ يعني يوم القيامة، والمراد بالبيع: إعطاء البدل ليتخلص به من النار، لا أن هناك مبايعة ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي: ولا مصادقة، وهذا مثل قوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ ثم بيَّن سبحانه أنه المستحق للإلهية فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أنشأهما من غير شيء، وبدأ بذكرهما لعظم شأنهما في القدرة والنعمة ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: غيثاً ومطراً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يعني أن الغرض في ذلك أن يؤتيكم أرزاقكم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بأمر الله، لأنها تسير بالرياح، والله هو المنشىء للرياح ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ التي تجري بالمياه التي ينزلها من السماء، ويجريها في الأودية، وينصب منها في الأنهار ﴿وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ذلَّل لمنافعكم الشمس والقمر في سيرهما، لتنتفعوا بضوء الشمس نهاراً، وبضوء القمر ليلاً، وليبلغ بهما الثمار والنبات في النضج الحد الذي عليه تتم النعمة فيهما ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ أي: دائمين لا يفتران في صلاح الخلق والنباتات ومنافعهم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: ذلَّلهما لكم ومهدهما لمنافعكم لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا في النهار من فضله.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ معناه: إن الإنسان قد يسأل الله العافية فيعطى، ويسأله النجاة فيعطى، ويسأله الغنى فيعطى، ويسأله الولد والعز فيعطى، ويسأله تيسير الأمور وشرح الصدور فيعطى، فهذا في الجملة حاصل في الدعاء لله تعالى، ما لم يكن فيه مفسدة في الدين أو على غيره، فأين يذهب به مع هذه النعم التي لا تحصى كثرة عن الله الذي هو في كل حال محتاج إليه؟ وهو مُظاهِره بالنعم عليه، ودخلت ﴿مِّن﴾ للتبعيض، لأنه لو قال: وآتاكم كل ما سألتموه، لاقتضى أن جميع ما يسأله العبد يعطيه الله تعالى، والأمر بخلافه، لأن ما فيه مفسدة لا يعطيه الله إياه، وتقديره: وآتاكم من كل ما سألتم شيئاً، وقيل: معناه: وآتاكم من كل ما بكم إليه حاجة، فما من شيء يحتاج إليه العباد إلا وهو موجود فيما بينهم، وهو كقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ولم يخصص كل واحد من الخلق بإيتاء كل ما سأله، وقيل: معناه: وآتاكم من كل شيء سألتموه، ولم تسألوه، فـ ﴿مَا﴾ ههنا نكرة موصوفة والجملة صفة له،

وحذف الجملة المعطوفة، وهي لم تسألوه، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ والمعنى: وتقيكم البرد، وإن فيما أبقى دليلًا على ما ألقى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي: لا تقدروا على إحصائها لكثرتها، والنعمة هنا اسم أقيم مقام المصدر، ولذلك لم يجمع، فبيَّن سبحانه أنه هو المنعم على الحقيقة، وأنه المستحق للعبادة، ويروى عن طليق بن حبيب أنه قال: إن حق الله تعالى أثقل من أن يقوم به العباد، فإن نعم الله أكثر من أن تحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ أي: كثير الظلم لنفسه ﴿كَفَّارٌ﴾ أي: كثير الكفران لنعم ربه، وقيل: معناه: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع، ولم يرد بالإنسان هٰهنا العموم، بل هو مثل ما في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

● **النظم:** اتصل قوله سبحانه: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بما تقدم من قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فإنه عقب ذلك بالأمر للمؤمنين بما يوجب النعيم المقيم، ومرافقة الأبرار، ليكون قد عقب الوعيد بالوعد، والعقاب الثواب واتصلت الآية الثانية بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ فإنه سبحانه لما ذكر ما هم عليه من اتخاذ الأنداد لله سبحانه بيَّن بعده أن واجب الوجود المستحق للإلهية الذي يحق له العبادة، هو الله الذي خلق السموات والأرض، الآية.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة الجحدري، والثقفي، وأبي الجحجاح ﴿**وأَجْنِبْني**﴾ بقطع الهمزة، وقرأ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأبو جعفر الباقر عليه السلام، وجعفر بن محمد عليه السلام، ومجاهد ﴿**تهوَى إليهم**﴾ بفتح الواو، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وهبيرة، عن حفص ﴿**وتقبل دعائي ربنا**﴾ بإثبات الياء في الوصل، وفي رواية البزي عن ابن كثير أنه يصل ويقف بياء. وقال قبيل: إنه يُشم الياء في الوصل، ولا يثبتها ويقف عليها بالألف، والباقون: ﴿دُعَآءِ﴾ بغير ياء، وقرأ الحسن بن علي عليه السلام وأبو جعفرو محمد بن علي عليه السلام، والزهري، وإبراهيم النخعي: ﴿**ولولديَّ**﴾ وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿**ولَوَلدي**﴾ وقرأ سعيد بن جبير: ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾.

● **الحجة:** يقال: جنبتُ الشيء أجنُبه جنوباً، ومن العرب من يقول: أجْنَبته أجْنِبُه، أي: تجنَّبته عن الشيء، وكان معنى قوله: ﴿**أجنِبْني وبني أن نعبد الأصنام**﴾ أصرفني وإياهم عن عبادة الأصنام، ومعنى أجنبني: اجعلني كالجنيب عن ذلك، وأما قوله: ﴿**تَهوَى إليهم**﴾ بفتح الواو، فهو من هوِيتُ الشيء أهْواه إذا أحببته، وإنما جاز تعديته بإلى لأن معنى هويتُ الشيء ملتُ إليه، فكأنه قال: تميل إليهم فهو محمول على المعنى، ومثله قوله سبحانه: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ**﴾ فعدَّ الرفث بإلى، وأنت لا تقول: رفثت إلى فلانة، وإنما تقول: رفثت بها أو معها، ولكنه لما كان معنى الرفث هنا معنى الإفضاء، عدَّاه بإلى، فكأنه قال: أحل لكم الإفضاء إلى نسائكم.

قال ابن جَني: المعنى في قراءة الجماعة: ﴿**تهوى إليهم**﴾ تميل إليهم، أي: تحبهم، فهذا في المعنى كقولهم: هو ينحطُّ في هواك، أي: يخلد إليه ويقيم عليه، وذلك أن الإنسان إذا أحبَّ الشيء أكثر من ذكره وأقام عليه، وإذا كرهه خف إلى سواه. وقولهم: هَوِيت فلاناً من لفظ هوِيَ إلى الشيء يهوَى، إلا أنهم خالفوا بين المثالين لاختلاف ظاهر الأمرين، وإن كانا على معنى واحد متلاقيين.

وأما من وصل ﴿**دعائي**﴾ بياء فهو القياس، ومن ثم الياء في الوصل ولا يثبتها فلدلالة الكسرة على الياء، قال أبو علي: حذف الياء في الوقف أقيس من حذفها في الوصل، لأن الوقف موضع تغيير، يغير فيه الحرف الموقوف عليه كثيراً، قال الأعشى:

فهل يَمنعنّي ارتيادِي البِلا ... دَ من حذَرِ الموتِ أن يأتين

وقال:

ومن شانِىءٍ كاسِفٍ وَجْهُهُ ... إذا ما انتَسَبْتُ لَهُ أنْكَرَن

ومن قرأ: ﴿**لوَلدَيَّ**﴾ فإنه يعني إسماعيل وإسحاق، ومن قرأ: ﴿**لوُلدي**﴾ فإن الوُلدَ قد يكون واحداً وجمعاً، تقول العرب: وُلدُكِ من دمي عقِبيك، ومعناه: وُلدك مَنْ ولدته فسال دمُك على عقبَيكِ عند ولادته، لا من اتخذته ولداً، وإذا كان جمعاً فيجوز أن يكون جمع وَلد، فهو كأسد وأسد، ويجوز أن يكون جمع وُلد أيضاً، فيكون مثل: الفُلك، في أنه جمع الفُلك.

● **اللغة:** الوادي: سفح الجبل العظيم، ومنها قيل للأنهار العظام: أودية، لأن حافاتها كالجبال لها، ومنه الدية، لأنه مال عظيم يحتمل في أمر عظيم.

● **المعنى:** ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ**﴾ معناه: واذكر يا محمد إذ قال إبراهيم ﴿**رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا**﴾ يعني مكة وما حولها من الحرم، وقيل: إن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة، دعا بهذا الدعاء، وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة[1]، وإنما قال هناك: ﴿**بَلَدًا ءَامِنًا**﴾ وقال هنا: ﴿**هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا**﴾ معرفاً، لأن النكرة إذا تكررت وأعيدت صارت معرفة، ومثله في التنزيل:

---

(١) راجع الجزء الأول من هذا التفسير.

﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ﴾ فاستجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام، حتى كان الإنسان يرى قاتل أبيه فيها فلا يتعرض له، ويدنو الوحش فيها من الناس فيأمن منهم ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ أي: والطف لي ولبنيَّ لطفاً نتجنب به عن عبادة الأصنام، ودعاء الأنبياء لا يكون إلَّا مستجاباً، فعلى هذا يكون سؤاله ذلك مخصوصاً بمن علم الله من حاله أن يكون مؤمناً لا يعبد إلا الله، ويكون الله سبحانه قد أذن له في الدعاء لهم، واستجاب دعاءه فيهم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ معناه: ضلَّ بسببهن وعبادتهن كثير من الناس، كما يقال: فتنتني فلانة، يعني افتتنت بحبها لا لأنها عملت شيئاً، وكما في قول الشاعر:

هَبوني امرأً منكُم أضلَّ بعيرَه   له ذِمةٌ إن الذِّمامَ كبيرُ

وإنما أراد ضلَّ بعيره، لأن أحداً لا يُضِل بعيرَه قاصداً إلى إضلاله ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ يريد: فمن تبعني من ذريتي الذين أسكنتهم هذا البلد على ديني في عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، فإنه من جملتي وحاله كحالي ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: ساتر على العباد معاصيهم رحيم بهم في جميع أحوالهم، منعم عليهم. ثم حكى سبحانه تمام دعاء إبراهيم عليه السلام وأنه قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: أسكنت بعض أولادي، ولا خلاف أنه يريد إسماعيل عليه السلام مع أمه هاجر، وهو أكبر ولده، وروي عن الباقر عليه السلام أنه قال: نحن بقية تلك العترة. وقال: كانت دعوة إبراهيم عليه السلام لنا خاصة ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ يريد وادي مكة وهو الأبطح، وإنما قال: ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ لأنه لم يكن بها يومئذ ماء ولا زرع ولا ضرع، ولم يذكر مفعول ﴿أَسۡكَنتُ﴾ لأن ﴿مِن﴾ يفيد بعض القوم، كما يقال: قتلنا من بني فلان، وأكلنا من الطعام، وكما قال سبحانه: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ وتقديره: أسكنت من ذريتي أناساً أو ولداً، عن البلخي ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ إنما أضاف البيت إليه سبحانه، لأنه مالكه لا يملكه أحد سواه، وما عداه من البيوت قد ملكه غيره من العباد، ويُسأل فيقال: كيف سماه بيتاً ولم يبنه إبراهيم عليه السلام بعد؟ والجواب من وجهين:

أحدهما: أنه لما كان من المعلوم أنه يبنيه سماه بيتاً، والمراد: عند بيتك الذي مضى في سابق علمك كونه.

والثاني: أن البيت قد كان قبل ذلك، وإنما خربه طسم وجديس(١)، وقيل: إنه رفعه الله إلى السماء أيام الطوفان، وإنما سماه المحرَّم لأنه لا يستطيع أحد الوصول إليه إلا بالإحرام، وقيل: لأنه حرم فيه ما أحل في غيره من البيوت من الجماع والملابسة بشيء من الأقذار والدماء، وقيل: معناه: العظيم الحرمة ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أسكنتهم هذا الوادي ليداوموا على الصلاة، ويقيموها بشرائطها، واللام تتعلق بقوله: ﴿أَسۡكَنتُ﴾ وفصل بينه وبين ما تعلق بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ لأن الفصل بالنداء مستحب في هذا، وإذا جاء نحو قوله:

---

(١) طسم وجديس: قبيلتان من العرب سكنتا مكة فانقرضوا. وقيل: حيان من عاد.

على حينَ ألهى الناسَ جُلُّ أمورِهم فندلا زُريقُ، المالَ نَدْلَ الثَّعالِبِ(١)

أي: أندل المال يا زريق، ففصل بالنداء بين المصدر وما تعلق به كان هذا أولى ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ هذا سؤال من إبراهيم عليه السلام، أن يجعل الله قلوب الخلق تحنُّ إلى ذلك الموضع، ليكون في ذلك أنس لذريته بمن يرد عليهم من الوفود، وليدر أرزاقهم على مرور الأوقات، ولولا لطفه سبحانه بإمالة قلوب الناس إليه، إما للدين كالحج والعمرة، وإما للتجارة، لما صح أن يعيش ساكنوه، قال سعيد بن جبير: لو قال: أفئدة الناس، لحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ فهم المسلمون. وروى مجاهد أنه قال: إن إبراهيم عليه السلام لو قال: أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم. وروى الفضل بن يسار وغيره عن الباقر عليه السلام أنه قال: إنما أمر الناس أن يطوفوا بهذه الأحجار ثم ينفروا إلينا، فيُعلمونا ولايتهم، ويعرضوا علينا نصرهم، ثم قرأ هذه الآية. وقيل: إن معنى ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تنزع إليهم وتميل، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: معناه: وينزل ويهبط إليهم، لأن مكة في غور، عن أبي مسلم.

﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي يشكروا لك ويعبدوك.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ هذا اعتراف من إبراهيم عليه السلام لله سبحانه بأنه يعلم ما يبطن الخلق وما يظهرونه، وأنه لا يخفى عليه شيء مما في الأرض والسماء، وقيل: إن قوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إنما هو إخبار منه سبحانه بذلك، وابتداء كلام من جهته، لا على سبيل الحكاية عن إبراهيم عليه السلام، بل هو اعتراض، عن الجبائي. قال: ثم عاد إلى حكاية كلام إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وهذا اعتراف منه بنعم الله سبحانه وحمد له على إحسانه، بأن وهب له على الكبر، كبر سنه، ولدين. قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم عليه السلام إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: قابله ومجيبه، عن ابن عباس، ويؤيده قوله: ﴿سمع الله لمن حمده﴾.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ تقديره: واجعل من ذريتي مقيم الصلاة، فحذف الفعل لأن ما قبله يدل عليه، وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام من الله تعالى بأن يلطف له اللطف الذي عنده، يقيم الصلاة، ويتمسك بالدين، وأن يفعل مثل ذلك بجماعة من ذريته، وهم الذين أسلموا منهم، فسأل لهم مثل ما سأل لنفسه ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي: وأجب دعائي، فإن قبول الدعاء إنما هو الإجابة، وقبول الطاعة الإثابة ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ واستدل أصحابنا بهذا على ما ذهبوا إليه من أن أبوي إبراهيم عليه السلام لم يكونا كافرين، لأنه إنما يسأل المغفرة لهما

---

(١) قيل: إن قائل البيت هو أعشى همدان يهجو به لصوصاً. وندلاً: هو هنا الأخذ باليدين أو هو الخطف. والثعلب يضرب به المثل في الأخذ، لأنه يدخر لنفسه، ويأتي على ما يعدو عليه من الحيوان وفي المثل «هو أكسب من ثعلب» وزريق: اسم قبيلة.

يوم القيامة، فلو كانا كافرين لما سأل ذلك، لأنه قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فصحّ أن أباه الذي كان كافراً إنما هو جده لأمه أو عمه على الخلاف فيه.

ومن قال: إنما دعا لأبيه لأنه كان وعده أن يسلم، فلما مات على الكفر تبرأً منه على ما روى الحسن، فقوله فاسد، لأن إبراهيم عليه السلام إنما دعا بهذا الدعاء بعد الكبر، وبعد أن وهب له إسماعيل وإسحاق، وقد تبيَّن له في هذا الوقت عداوة أبيه الكافر لله، فلا يجوز أن يقصده بدعائه ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: واغفر للمؤمنين أيضاً يوم يقوم الخلق للحساب. وقيل: معناه: يوم يظهر وقت الحساب، كما يقال: قامت السوق.

● **النظم:** اتصلت الآيات بما قبلها، لأن النهي عن عبادة الأصنام والأمر بعبادة الله سبحانه قد تقدم، فبيَّن الله سبحانه عقيب ذلك ما كان عليه إبراهيم عليه السلام من التشدد في إنكار عبادة الأصنام، والدعاء بما دعا به، وقيل: إنه معطوف على ما تقدم من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وقيل: إنه لما قال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بيَّن عقيبه ما دعا به إبراهيم عليه السلام وسأله إياه، وإجابته لدعائه وسؤاله.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

● **اللغة:** الإهطاع: الإسراع، قال:

فـي مَـهْـطِـعٍ سَـرِعٍ كَـأَنَّ زِمـامَـه ... فـي رَأْسِ جِـذْعٍ مِـنْ أَراكٍ مُـشَـذَّبِ[1]

وقال آخر:

بِـدَجْـلـة أهـلُـهـا، ولـقـد أراهـم ... بـدجـلـة مُـهـطِـعـيـن إلـى الـسَّـمـاع

أي: مسرعين، وقيل: إن الإهطاع: مد العنق، والهَطْعُ: طول العنق. قال أحمد بن يحيى: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع، لا يقلع بصره. والإقناع: رفع الرأس، قال الزجاج: المقْنِع: الرافع، والمقنَع: المرتفع. قال الشماخ:

يُـبـاكِـرن الـعِـضـاهَ بـمـقـنَـعـاتٍ ... نـواجـذهُـنَّ كـالـحـدَإِ الـوقـيـعِ[2]

---

(١) جذع مشذب أي: مقشر، إذا قشرت ما عليه من الشوك.

(٢) العضاه: كل شجر يعظم وله شوك. والمقنع: الفم الذي يكون عطف أسنانه إلى داخل الفم، وذلك القوي الذي يقطع له كل شيء. والحدأ جمع الحدأة: الفأس ذات الرأسين. وسكين وقيع أي: حديد.

أي: كالفؤوس المحدبة، يصف إبلًا ترعى الشجر. والطَّرف: مصدر طَرَفت عينُ فلان إذا نظرت، وهو أن ينظر ثم يُغمِض، والطرف: العين أيضاً. وأفئدتهم هواء أي: متجوفة لا تعي شيئاً، للخوف والفزع، شبهها بهواء الجو، قال حسان:

ألا أبْـلِـغ أبـا سُـفـيـانَ عَـنّـي فَـأَنْـتَ مُـجَـوَّفٌ نَـخِـبٌ هـواءُ(١)

وقال زهير:

كـأن الـرَّحْـلَ مـنـهـا فـوْق صَـعْـل مـن الـظِّـلـمـان جُـؤجُـؤهُ هَـواءُ(٢)

والأجل: الوقت المضروب لانقضاء الأمد.

● **الإعراب:** ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ﴾ نصب على أنه مفعول به، والعامل فيه ﴿وانذر الناس﴾ ولا يكون على الظرف، لأنه لم يؤمر بالإنذار في ذلك اليوم ﴿فَيَقُولُ﴾ عطف على ﴿يأتيهم﴾ وليس جواب الأمر، لأنه لو كان جواباً له لجاز فيه النصب والرفع، فالنصب مثل قول الشاعر:

يـا نـاقَ سِـيـري عَـنَـقـاً فـسـيـحـاً إلـى سُـلـيـمـانَ فـنـسـتـريـحـا

والرفع على الاستئناف ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ فاعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ محذوف أي: تبيَّن لكم فعلنا بهم، ولا يكون الفاعل ﴿كَيْفَ﴾ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، ولأن كيف لا يخبر عنه وإنما يخبر به، و ﴿كَيْفَ﴾ هنا منصوب بقوله: ﴿فَعَلْنَا﴾.

● **المعنى:** لما ذكر سبحانه يوم الحساب، وصفه وبيَّن أنه لا يمهل الظالمين عن غفلة، لكن لتأكيد الحجة قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وفي هذا وعيد للظالم وتعزية للمظلوم، ومعناه: ولا تظنن الله ساهياً عن مجازاة الظالمين على أعمالهم. وقيل: إن تقديره: ولا تحسبن الله لا يعاقب الظالمين على أفعالهم ولا ينتصف للمظلومين منهم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ومعناه: إنما يؤخر عقابهم ومجازاتهم إلى يوم القيامة، وهو اليوم الذي تكون فيه الأبصار شاخصة عن مواضعها لا تغمض، لهول ما ترى في ذلك اليوم، ولا تطرف، عن الجبائي. وقيل: تشخص أبصارهم إلى إجابة الداعي حين يدعوهم، عن الحسن. وقيل: تبقى أبصارهم مفتوحة لا تنطبق للتحيُّر والرعب ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، عن الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة. وقيل: يريد دائمي النظر إلى ما يرون لا يطرفون، عن ابن عباس، ومجاهد. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعي رؤوسهم إلى السماء حتى لا يرى الرجل مكان قدمه من شدة رفع الرأس، وذلك من هول يوم القيامة، وقال مؤرج: معناه: ناكسي رؤوسهم بلغة قريش. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا ترجع إليهم أعينهم ولا يطبقونها ولا يغمضونها، وإنما هو نظر دائم. ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: قلوبهم خالية من كل شيء فزعاً وخوفاً، عن ابن عباس. وقيل: خالية من كل سرور وطمع في الخير، لشدة ما يرون من الأهوال، كالهواء الذي بين السماء والأرض.

---

(١) رجل نخب أي: جبان.

(٢) الظلمان جمع الظليم: الذكر من النعامة. والصعل: الدقيق الرأس.

وقيل: معناه: وأفئدتهم زائلة عن مواضعها قد ارتفعت إلى حلوقهم، لا تخرج ولا تعود إلى أماكنها بمنزلة الشيء الذاهب في جهات مختلفة المتردد في الهواء، عن سعيد بن جبير، وقتادة. وقيل: معناه: خالية عن عقولهم، عن الأخفش.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ معناه: ودُمْ يا محمد على إنذارك الناس، وهو عام في كل مكلف، عن الجبائي، وأبي مسلم. وقيل: معناه: وخوِّف أهل مكة بالقرآن، عن ابن عباس، والحسن ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة، أو يأتيهم العذاب عذاب الاستئصال في الدنيا. وقيل: هو يوم المعاينة عند الموت، والأول أظهر. ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ نفوسهم بارتكاب المعاصي ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ أي: ردَّنا إلى الدنيا واجعل ذلك مدة قريبة نجب دعوتك فيها ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ أي: نتبع رسلك فيما يدعوننا إليه، فيقول الله تعالى مخاطباً لهم أو يقول الملائكة بأمره: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم﴾ أي: حلفتم ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ في دار الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ أي: ليس لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، عن مجاهد. وقيل: معناه: من زوال من الراحة إلى العذاب، عن الحسن.

وفي هذه دلالة على أن أهل الآخرة غير مكلفين. خلافاً لما يقول النجار وجماعة، لأنهم لو كانوا مكلفين لما كان لقولهم ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ وجه، ولكان ينبغي لهم أن يؤمنوا فيتخلصوا من العقاب، إذا كانوا مكلفين.

﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾ هذه زيادة توبيخ لهم وتعنيف، أي: وسكنتم ديار من كذَّب الرسل قبلكم فأهلكهم الله، وعرفتم ما نزل بهم من البلاء والهلاك والعذاب المعجل، عن ابن عباس، والحسن، ومساكنهم: دورهم وقراهم. وقيل: إنهم عاد وثمود. وقيل: هم المقتولون ببدر ﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ وبيَّنا لكم الأشباه وأخبرناكم بأحوال الماضين قبلكم لتعتبروا بها فلم تعتبروا ولم تتعظوا. وقيل: الأمثال ما ذكر في القرآن مما يدل على أنه تعالى قادر على الإعادة كما هو قادر على الإنشاء والابتداء. وقيل: هي الأمثال المنبهة على الطاعة، الزاجرة عن المعصية، عن الجبائي.

وفي هذه الآيات دلالة على أن الإيمان من فعل العبد، إذ لو كان من فعل الله تعالى لم يكن لتمني العود إلى الدنيا معنى.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ الكسائي وحده: ﴿لتزول﴾ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، والباقون: ﴿لِتَزُولَ﴾ بكسر اللام الأولى ونصب الثانية. وفي الشواذ عن علي عليه السلام، وعمرو بن مسعود، وأُبي بن كعب: **﴿وإن كاد مكرهم لتزول﴾**. وقرأ زيد عن يعقوب: **﴿من قطرٍ آنٍ﴾** على كلمتين منونتين، وهو قراءة أبي هريرة، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والكلبي، وقتادة، وعيسى الهمداني، والربيع، وقرأ سائر القراء ﴿قَطِرَانٍ﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿لِتَزُولَ﴾ بالنصب، فإن ﴿إن﴾ هي النافية، فيكون مثل قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ فمعناه: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، والجبال كأنه أمر النبي صلى الله عليه وآله وإعلامه ودلائله، أي: ما كان مكرهم ليزول منه ما هو مثل الجبال في امتناعه ممن أراد إزالته. ومن قرأ: ﴿لتزول﴾ كانت ﴿إن﴾ هي المخففة من الثقيلة على تعظيم أمر مكرهم، بخلاف القراءة الأولى، فيكون كقوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ أي: قد كان مكرهم لعظمه وكبره يكاد يزيل ما هو مثل الجبال في الامتناع على من أراد إزالتها وثباتها، ومثل هذا في التعظيم للأمر قول الشاعر:

أَلَمْ تَـرَ صَـدْعـاً فـي الـسـمـاءِ مُـبـيـنـاً ... عـلـى ابـن لُبَـيْـنـى الـحـارثِ بْـنَ هِـشـامِ

وقال:

بكى الحارثُ الجُولانُ مِن فَوْتِ رَبِّه، ... وحـورانُ مـنـه خـاشـعٌ مـتـضـائـلُ[1]

وقال أوس:

ألـم تَـكْـسِـفِ الـشـمـسُ شَـمْـسَ الـنـهـار ... مـع الـنـجـم والـقـمـرِ الـواجِـبِ[2]

ويدلُّ على أن الجبال يعني بها أمر النبي صلى الله عليه وآله قوله بعد: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ أي: فقد وعد الظهور عليهم والغلبة لهم في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ وقوله للذين كفروا: ﴿سَتُغۡلَبُونَ﴾ وقد استعمل لفظ الجبال في غير هذا الموضع في تعظيم الشيء وتفخيمه، قال ابن مقبل:

إذا مِـتُّ عـن ذكـرِ الـقـوافـي فـلـن تـرى ... لـهـا شـاعـراً مـثـلي أطـبَّ، وأشـعـرا
وأكـثـر بـيـتـاً شـاعـراً ضَـرِبَـتْ بـه ... بـطـونُ جـبـال الـشـعـر حـتـى تـيـسَّـرا

ومن قرأ: **﴿وإن كاد مكرهم لتزول﴾** فهي مخففة من الثقيلة أيضاً، فتقديره: وإنه كاد مكرهم لتزول منه الجبال. قال ابن جني: القطْر: الصُّفر والنحاس، وهو أيضاً الفلز، رويناه عن قطرب، وهو أيضاً الصَّاد، ومنه: قدور الصَّاد، أي: قدور الصفر. والآني: الذي قد أنى وأدرك، أنى الشيء يأني أُنياً وأناً مقصور، ومنه قوله عزَّ سبحانه: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: بلوغه وإدراكه. قال أبو علي: ومنه: الإناء، لأنه الظرف الذي قد بلغ غايته المرادة منه من حرز وصياغة، ونحو ذلك قول أمية:

---

(١) الجولان والحوران: موضعان بالشام. ومتضائل أي: حقير. وفي رواية الحموي: «من فقد ربه».
(٢) الواجب بمعنى الساقط.

وسليمان إذ يسيل له القِطْر   على مُلكِه ثلاثَ ليالِ

وأما ﴿قَطِرَانٍ﴾ ففيه ثلاث لغات: قَطِران على فَعِلان، وقَطْران، بفتح القاف وإسكان الطاء، وقِطْران، بكسر القاف وإسكان الطاء، والأصل فيهما: قَطِران فأسْكنا على ما يقال في كَلِمة: كَلْمة، وكِلْمة لغة تميمية، قال أبو النجم:

جونٌ كأنَّ العرقَ المنتُوحا   أَلْبَسَهُ القَطِران والمُسوحا(١)

وقال:

كأنَّ قَطِراناً إذا تلاها   ترمي به الريحُ إلى مجراها

● **اللغة:** البروز: الظهور. والأصفاد: جمع الصَّفَد وهو الغل الذي يُقرن به اليد إلى العنق، ويجوز أن يكون السلسلة التي يقع بها التقرين، والتقرين جمع الشيء إلى نظيره، والقِرانُ: الحبل يقرن به شيئان، يقال: صفدته بالحديد وأصفدته وصفدته، قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنِّهاب، وبالسبايا   وَأُبْنا بالملوكِ مُصفَّدينا

ومنه: أصفدته إصفاداً إذا أعطيته مالاً، والصَّفد العطية، وهو من الأول، لأن العطية تصفد المودة وتقيِّدها، وإلى هذا المعنى أشار المتنبي بقوله:

(ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً)

والاختبار في الحديد صفدتُه، وفي العطية أصْفدتُه، قال الأعشى:

تضيَّفته يوماً فقرَّب مجلسي   وأصْفدني على الزَّمانة قائداً

ومعناه: وأعطاني قايداً. وقال النابغة في الصفد الذي هو العطية:

هذا الثناء فإن تسمع لقائله   فما عرضْتُ - أَبَيْتَ اللعنَ - للصفد

والسربال: القميص، قال امرؤ القيس:

ومِثلِكَ بَيْضاءُ العوارضِ طِفلةً   لعوبٌ تُنَسِّيني إذا قُمْتُ سِربالي(٢)

والبلاغ: الكفاية، ومنه البلاغة وهو البيان الكافي، والبليغ هو الذي يبلغ بلسانه كنه ما في ضميره.

● **الإعراب:** ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ إضافة ﴿مُخْلِفَ﴾ إلى ﴿وَعْدِهِۦ﴾ إضافة غير محضة، لأنها في تقدير الانفصال. و﴿وَعْدِهِۦ﴾ وإن كان مجروراً في اللفظ فإنه منصوب في المعنى، لأنه مفعول في المعنى، فإن الإخلاف يقتضي مفعولين، يقال: أخلفت زيداً وعده، فعلى هذا يكون تقديره: مخلفاً وعده رسله. وقيل: إنه قرىء في الشواذ: ﴿مخلف وعده﴾ بالنصب ﴿رُسُلِهِۦ﴾ بالجر، وهي رديئة للفصل بين المضاف والمضاف إليه، وأنشدوا في ذلك:

---

(١) الجون: الأسود المشرب حمرة والمنتوح: الجاري من العرق.

(٢) الطفلة: الرخصة الناعمة.

فـــزجـــجـــتُـــهـــا بِـــمِـــزجَّـــةٍ زجَّ الـــقـــلـــوصَ أبـــي مـــزاده[١]

ومعناه: فزججتها زج أبي مزادة القلوص، والعامل في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ قوله: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ﴾ أو ﴿ٱنتِقَامٍ﴾ أي: ينتقم ذلك اليوم، أو يكون محذوفاً على تقدير: واذكر يوم تبدل الأرض، وإن شئت جعلته نعتاً لقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ و﴿الأرضُ﴾ مرفوعة على ما لم يسم فاعله، و﴿غَيرَ﴾ منصوب على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، تقول: بُدِّل الخاتم خاتماً آخر، إذا كُسر وصيغ صيغة أخرى، وقد تقول: بُدل زيدٌ، إذا تغيرحاله.

● **المعنى:** ثم أبان سبحانه عن مكر الكفار، ودفعه ذلك عن رسله ﷷ، تسلية لنبينا ﷺ، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ أي: وقد مكروا بالأنبياء قبلك ما أمكنهم من المكر كما مكروا بك، فعصمهم الله من مكرهم كما عصمك. وقيل: عنى به كفار قريش الذين دبروا في أمر النبي ﷺ، واحتالوا عليه، ومكروا بالمؤمنين وخدعوهم ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: جزاء مكرهم، فحذف المضاف كما حذف من قوله: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: جزاؤه، يريد: وقد عرف الله مكرهم فهو يجازيهم عليه ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: ولم يكن مكرهم ليبطل حجج القرآن، وما معك من دلائل النبوات، فإن ذلك ثابت بالدليل والبرهان، والمعنى: لا تزول منه الجبال فكيف يزول منه الدين الذي هو أثبت من الجبال، وعلى القراءة الأخرى فالمعنى: إن مكرهم وإن بلغ كل مبلغ، فلا يزيل دين الله تعالى، على ما تقدم بيانه، ولا يضر ذلك أنبياءه، ولا يزيل أمرهم، ولا سيما أمر محمد ﷺ، فإنه أثبت من الجبال، وقد قيل: إن المراد به نمرود بن كوش بن كنعان، حين أخذ التابوت، وأخذ أربعة من النسور، فأجاعها أياماً، وعلّق فوقها لحماً، وربط التابوت إليها، وطارت النسور بالتابوت، وهو ووزيره فيه، إلى أن بلغت حيث شاء الله تعالى، وظنَّ أنه بلغ السماء، ففتح باب التابوت من أعلاه، فرأى بُعد السماء منه كبعدها حين كان في الأرض، وفتح باباً من أسفل التابوت فرأى الأرض قد غابت عنه، فهاله الأمر فصوّب النسور وسقط التابوت، وكانت له وجبة، عن ابن عباس، وابن مسعود، وجماعة. ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ أي: فلا تظنن الله عز اسمه، مخلفاً رسله ما وعدهم به، من النصر والظفر بالكفار والظهور عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: ممتنع بقدرته من أن ينال باهتضام وهو من الكفار ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قيل فيه قولان:

أحدهما: أن المعنى: تبدل صورة الأرض وهيئتها، عن ابن عباس. فقد روي عنه أنه قال: تبدل آكامها وآجامها وجبالها، وأشجارها، والأرض على حالتها وتبقى أرضاً بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، وتبدل السماوات فيذهب بشمسها وقمرها ونجومها، وكان ينشد:

---

(١) زججتها، أي: طعنتها بالزج - بضم الزاي -: وهي الحديدة التي تركب في أسفل الرمح. والمزجة: الرمح القصير. والقلوص: الناقة الشابة. وأبي مزادة: كنية رجل.

فما الناسُ بالناسِ الذين عهدتُهم ولا الدار بالدارِ التي كنتُ أعرفُ

ويعضده ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: يبدل الله الأرض غير الأرض والسماوات فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم في هذه المبدّلة مثل مواضعهم من الأولى، ما كان في بطنها كان في بطنها، وما كان على ظهرها كان على ظهرها.

والآخر: أن المعنى: تبدل الأرض وتنشأ أرض غيرها والسماوات كذلك، تبدل بغيرها وتفنى هذه، عن الجبائي، وجماعة من المفسرين. وفي تفسير أهل البيت عليهم السلام بالإسناد عن زرارة، ومحمد بن مسلم، وحمران بن أعين، عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليه السلام قالا: تبدل الأرض خُبزة نقية، يأكل الناس منها حتى يفرغ من الحساب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ وهو قول سعيد بن جبير، ومحمد بن كعب.

وروى سهل بن سعد الساعدي عن النبي ﷺ أنه قال: يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء، عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها مَعْلم لأحد.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: تبدل الأرض بنار، فتصير الأرض كلها يوم القيامة ناراً، والجنة من ورائها، يرى كواعبها وأكوابها، ويلجم الناس العرق، ولم يبلغ الحساب بعد. وقال كعب: تصير السماوات جناناً، ويصير مكان البحر النار، وتبدل الأرض غيرها.

وروي عن أبي أيوب الأنصاري قال: أتى النبي ﷺ حبر من اليهود فقال: أرأيت إذ يقول الله تعالى في كتابه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: أضياف الله فلن يعجزهم ما لديه. وقيل: تبدل الأرض لقوم بأرض الجنة، ولقوم بأرض النار. وقال الحسن: يحشرون على الأرض الساهرة، وهي أرض غير هذه، وهي أرض الآخرة، وفيها تكون جهنم، وتقدير الكلام وتبدل السماوات غير السماوات إلا أنه حذف لدلالة الظاهر عليه.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ أي: يظهرون من أرض قبورهم للمحاسبة لا يسترهم شيء، وجعل ذلك بروزاً لله لأن حسابهم معه، وإن كانت الأشياء كلها بارزة له لا يسترها عنه شيء ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾ الذي لا شبه له ولا نظير ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ المالك الذي لا يضام، يقهر عباده بالموت الزؤام(١) ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني الكفار، عن ابن عباس والحسن، وهو الظاهر لأنه تقدم ذكرهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم اقيامة ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: مجمعين في الأغلال، قرنت أيديهم بها إلى أعناقهم. وقيل: يقرن بعضهم إلى بعض، عن الجبائي. وقيل: مشدودين في قرَن، أي: حبْل من الأصفاد والقيود، عن أبي مسلم. وقيل: يقرن كل كافر مع شيطان كان يضله في غل من حديد، عن ابن عباس، والحسن، ويبينه قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: قرناءهم من الشياطين. وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾. ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قُميصهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو ما يطلى به

---

(١) موت زؤام: عاجل. وقيل سريع مجهز. وقيل: كريه.

الإبل: شيء أسود لزج منتن، يطلون به فيصير كالقميص عليهم، ثم يرسل النار فيهم: لتكون أسرع إليهم، وأبلغ في الاشتعال، وأشد في العذاب، عن الحسن، والزجاج. وقيل: نحاس أو صُفْر مذاب قد انتهى حرّه، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وجوَّز الجبائي على القراءتين أن يُسربَلوا سربالين: أحدهما من القطران، والآخر من القطْر الآني ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: وتصيب وجوههم النار لا قطران عليها ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ اللام تعلقت بما تقدم، أخبر سبحانه أنه إنما فعل ذلك بهم لتجزى كل نفس بما كسبت. إن كسبت خيراً بأن آمنت وأطاعت، أثابها الله بالنعيم المقيم، وإن كسبت شراً بأن كفرت وجحدت، عاقبها بالعذاب الأليم في نار الجحيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: سريع المجازاة، وقد سبق بيانه.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ هو إشارة إلى القرآن، عن ابن عباس، والحسن، وابن زيد، وغيرهم، أي: هذا القرآن عظة للناس بالغة كافية. وقيل: هو إشارة إلى ما تقدم ذكره، أي: هذا الوعيد كفاية لمن تدبره من الناس، والأول هو الصحيح. ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: أنزل ليبلّغوا وينذَروا به، وليخوَّفوا بما فيه من الوعيد. ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له ؛ بالنظر في أدلة التوحيد التي بيّنها الله في القرآن ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وليتعظ به أهل العقول، وذوو النهى.

وفي هذه الآية دلالة على أن القرآن كاف في جميع ما يحتاج الناس إليه في أمور الدين، لأن جميع أمور الدين إجمالها وتفاصيلها يعلم بالقرآن، إما بنفسه، وإما بواسطة، فيجب على المؤمن المجتهد المهتم بأمور الدين أن يشمر عن ساق الجد في طلب أمور القرآن، ويصدق عنايته بمعرفة ما فيه من بدائع الحكمة، ومواضع البيان مكتفياً به عما سواه، لينال السعادة في دنياه وعقباه، وفي قوله: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ دلالة على أنه سبحانه أراد من الناس علم التوحيد، خلافاً لأهل الجبر في قولهم: إنه سبحانه أراد من النصارى إثبات التثليث، ومن الزنادقة القول بالتثنية. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وفي قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ دلالة على أنه أراد من الجميع التدبر والتذكر، وعلى أن العقل حجة، لأن غير ذوي العقول لا يمكنهم الفكر والاعتبار.

● **النظم:** اتصلت الآية الثانية بقوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: فلا تحسبوا أن الله يخلف وعده، بل يجازيهم وينصر رسله. وقيل: اتصلت بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: فلا تحسبوه مخلف وعده في العقوبة للكفار، بل إن شاء أخّر وإن شاء عجَّل. واتصل قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ بقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ أي: لا يخلفهم وعده لا في الدنيا ولا في الآخرة، عن أبي مسلم. وقيل: المراد به أنه ذو انتقام من الكفار ذلك اليوم. واتصل قوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ بقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾.

سُورَةُ الحِجْرِ

مكية في قول قتادة، ومجاهد. وقال الحسن: إلا قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ وقوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ وهي تسع وتسعون آية بالإجماع.

● **فضلها:** أُبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين، والأنصار، والمستهزئين بمحمد ﷺ.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه سورة إبراهيم عليه السلام بذكر القرآن، وأنه بلاغ وكفاية لأهل الإسلام، افتتح هذه السورة بذكر القرآن وأنه مبيِّن للأحكام، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟
مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا
مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة، وعاصم: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ﴾ خفيفة الباء. والباقون: بالتشديد. وروى محمد بن حبيب الشموني، عن الأعشى، عن أبي بكر: ربتما، بالتاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: أنشد أبو زيد:

مَاوِيَّ بَلْ رُبَّتَمَا غَارةٍ ... شَعْواءِ كَالَّلذعةِ بِالمِيسَمِ(١)

وأنشد أيضاً:

يا صاحباً رُبَّتَ إنسانٍ حسنٍ ... يَسْأَلُ عنكَ اليومَ أَوْ تَسْأَلُ عَنْ

وقال السكري: رُبَما، ورُبَّتما، ورَبما، ورُبتما، ورُبَّ، ورُبَ، ست لغات. قال سيبويه: رُبَّ حرف، ويلحقها ﴿مَآ﴾ على وجهين:

أحدهما: أن يكون نكرة بمعنى شيء، وذلك كقوله:

ربَّما تكره النفوس من الأمرِ ... له فرجةٌ كحلِّ العقالِ(٢)

---

(١) غارة شعواء: فاشية متفرقة. والميسم: اسم للآلة التي يوسم بها. وفي (اللسان) و(تفسير التبيان): «ماوى ياربتما. اهـ».

(٢) البيت مذكور في (جامع الشواهد).

فـ«ما» في هذا البيت اسم لما يقدر من حذف الضمير إليه من الصفة، والمعنى: رب شيء تكرهه النفوس، وإذا عاد إليه الهاء كان اسماً، ولم يجز أن يكون حرفاً، كما أن قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ لما عاد إليه الذكر علمت بذلك أنه اسم، وقوله: فرجة يرتفع بالظرف في قول الناس جميعاً، ولا يرتفع بالابتداء، وقد يقع أيضاً لفظة من بعد رُبّ في مثل قوله:

ألا رُب مَـن تـغـتـشُّـه لـك نـاصـح ومُـؤتَـمَـنٍ بـالـغـيـبِ غـيـرُ أمـيـنِ(١)

فكما دخلت رُبَّ على من وكانت نكرة في معنى شيء، كذلك تدخل على مَا.

والآخر: أن تدخل كافة كما في الآية، ونحو قول الشاعر:

ربَّـمـا أوفـيـتُ فـي عَـلـمٍ تَـرْفَـعَـن ثـوبـي شِـمـالاتُ(٢)

والنحويون يسمون مَا هذه كافة، يريدون أنها بدخولها كفت الحرف عن العمل الذي كان له، وهيأته لدخوله على ما لم يكن يدخل عليه، ألا ترى أن رُب إنما تدخل على الاسم المفرد نحو: رُب رجل كريم يقول ذلك، وربَّه رجلًا يقول ذلك، ولا يدخل على الفعل، فلما دخلت مَا عليها سوغت لها الدخول على الفعل، فمن ذلك قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فوقع الفعل بعدها في الآية، وهو على لفظ المضارع، ووقع في قوله:

(ربـمـا أوفـيـت فـي عـلـم)

على لفظ الماضي، وهكذا ينبغي في القياس، لأنها تدل على أمر قد مضى، وإنما وقع في الآية على لفظ المضارع، لأنه حكاية لحال آتية، كما أن قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ حكاية لحال آتية، ومن حكاية الحال قول القائل:

جـاريـةٌ فـي رمـضـان الـمـاضـي تـقـطِّـع الـحـديـثَ بـالإيـمـاضِ(٣)

ومن زعم أن الآية على إضمار كان، وتقديره: ربما كان يود، فقد خرج بذلك عن قول سيبويه، ألا ترى أن كان لا يُضمره. ولم يجز: عبد الله المقتول، وأنت تريد: كن عبد الله المقتول. فأما إضمارها بعد إن في قولهم؛ إن خيراً فخير، فإنما جاز ذلك لاقتضاء الحرف له، فصار اقتضاء الحرف له كذكره، فأما ما أنشده ابن حبيب لنبهان بن مسور:

لـقـد رُزِيـتَ كـعـبُ بنُ عـوفٍ، ورُبَّـمـا فَـتىً لـم يـكـن يـرضَـى بـشـيءٍ يَـضـيـمُـهُ

---

(١) قوله تغتشه أي: تظن به الغش. وفي قوله «ناصح» يجوز الرفع والجر، فالرفع على الخبرية، والجر على أنه صفة لمن، يتبعه في الوجهين «مؤتمن» وكذا «غير».

(٢) الشعر في (جامع الشواهد) أيضاً.

(٣) أو مضت المرأة: سارقت النظر أي: إذا تبسمت قطع الناس حديثهم، ونظروا إلى ثغرها. وقيل: يعني أن الناس كانوا يتحدثون فنظرت إليهم فاشتغلوا لحسن نظرها عن الحديث.

فإن قوله: «فتى» في «ربما فتى» يحتمل ضروباً:

أحدها: أن يكون لما جرى ذكر «رُزِيتَ» استغنى بجرى ذكره من أن يعيده، فكأنه قال: ربما رزيت فتى، فيكون انتصاب فتى برزيت هذه المضمرة كقوله: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ فاستغنى بذكر آمنت له المتقدم عن إظهاره بعد.

وقد يجوز أن ينتصب فتى برزيت هذه المذكورة، كأنه قال: لقد رزيتَ كعب بن عوف فتى، وربما لم يكن يرضى، أي: رُزِئتَ فتىً لم يكن يضام، ويكون هذا الفصل في أنه أجنبي بمنزلة قوله:

(أبـو أمِّـه حـيٌّ أبـوه يُـقـاربـه)(١)

وقد يجوز أن يكون مرتفعاً بفعل مضمر، كأنه قال: ربما لم يرض فتى كقوله:

(وقلّما وصالٌ على طول الصُّدودِ يدومُ)(٢)

ويجوز أن يكون «ما» نكرة بمنزلة شيء، فيكون «فتى» وصفاً لها، لأنها لمَّا كانت كالأسماء المبهمة في إبهامها، وُصفت بأسماء الأجناس، كأنه قال: رب شيء فتى لم يكن كذا.

فهذه الأوجه كلها ممكنة.

ويجوز في الآية أن يكون ﴿مَّا﴾ بمنزلة شيء، و﴿يَوَدُّ﴾ صفة له، لأن ﴿مَّا﴾ لعمومها يقع على كل شيء، فيجوز أن يعني بها الود، كأنه قال: رُبّ ودٍّ يودُّه الذين كفروا، ويكون يودُّ في هذا الوجه أيضاً حكاية حال. ألا ترى أنه لم يكن بعدُ، وهذه الآية في المعنى كقوله: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ وكقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ وكتمنيهم الرد في قوله: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾.

وأما قول من قال: «ربما» بالتخفيف فلأنه حرف مضاعف، والحروف المضاعفة قد تحذف، وإن لم يحذف غير المضاعف، فمن المضاعف الذي حذف: أنَّ وإنَّ ولكنَّ، وليس كل المضاعف يحذف، ولم أعلم الحذف في ثم(٣).

وأما دخول التاء في ربتما، فإن من الحروف ما يدخل عليها حرف التأنيث، نحو: ثمَّ وثمت، ولا ولات، قال:

ثُـمَّـتَ لا يَـجـزونـنـي عـنـد ذاكـمُ، ولـكـن سيـجـزِيـنـي الـمـلـيـكُ فـيـعْـقِـبـا

فكذلك ألحقت التاء في قولهم: رُبَّتما. وأنشد الزجاج في تخفيف رُبَّ قول الحادرة:

أَسُـمَـيَّ مـا يـدريـكِ أنْ رُبَ فِـتْـيَـةٍ بَـاكَـرْتُ لَذَّتَـهُـمْ بِـأَدْكَـنَ مُـتْـرَعِ(٤)

---

(١) قائله الفرزدق وقبله: «وما مثله في الناس إلا مملكا» والشعر مذكور في (جامع الشواهد).

(٢) تمام البيت: «صددت فأطولت الصدود وقلما * وصال (اه) وهو من شواهد كتب سيبويه.

(٣) وفي (التبيان): «لأني لا أعلم الحذف في ثم».

(٤) سمي مرخم سمية: اسم امرأة. والدكنة: السواد.

قال: وقد يسكنون في التخفيف يقولون: ربْ رجلٍ جاءني، وأنشدوا بيت الهذلي:

أَزُهَيْرُ إِنْ يَشِبِ القَذالُ فإنَّني رُبْ هَيْضَلٍ مَرِسٍ لَفَفْتُ بِهَيْضَلِ(١)

ويقولون: رَبتَ رجل وربْتَ رجلٍ، بفتح الراء. ورَبَّ رجلٍ وربما رجلٍ جاءني، وربْتما رجل فيفتحون، حكى ذلك قطرب.

● **الإعراب:** «قرآن» عطف على «الكتاب» وإنما عطفه عليه وإن كان الكتاب هو القرآن، لاختلاف اللفظين وما فيهما من الفائدتين، وإن كانا لموصوف واحد، لأن وصفه بالكتاب يفيد أنه مما يكتب ويدوَّن، ووصفه بالقرآن يفيد أنه مما يؤلف ويجمع بعض حروفه إلى بعض، كما قال الشاعر:

إلى الملك القرْمِ، وابن الهمامِ، ولَيْثِ الكتيبةِ في المزدحَمِ
وذي الرأي حين تَغُمُّ الأمورُ بذاتِ الصليلِ وذاتِ اللُّجمِ

ويقال: لم جاز ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ورب للتقليل؟ وجوابه على وجهين:

أحدهما: أنه أبلغ في التهديد، كما تقول: ربما ندمت على هذا، وأنت تعلم أنه يندم ندماً طويلًا، أي: يكفيك قليل الندم، فكيف كثيره.

والثاني: أنه يشغلهم العذاب عن تمني ذلك إلا في أوقات قليلة.

● **المعنى:** ﴿الٓر﴾ قد تقدَّم الكلام في هذه الحروف وأقوال العلماء فيها ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وآيات قرآن مميِّز بين الحق والباطل. وقيل: المبين البيِّن الواضح، عن أبي مسلم. وقيل: هو المبين للحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والأدلة، وغير ذلك. وقيل: المراد بالكتاب التوراة والإنجيل، عن مجاهد. وقيل: المراد به الكتب المنزلة قبل القرآن، عن قتادة ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ أي: ربما يتمنى الكفار الإسلام في الآخرة إذا صار المسلمون في الجنة، والكفار إلى النار، ويجوز أن يتمنوا ذلك وقت اليأس. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: ما يزال الله يدخل الجنة ويرحم ويشفع حتى يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة، فحينئذ يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين. وقال الصادق عليه السلام: ينادي مناد يوم القيامة يسمع الخلائق أنه لا يدخل الجنة إلا مسلم، فثَمَّ يودُّ سائر الخلائق أنهم كانوا مسلمين. وروي مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من يشاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيسمع الله عزَّ وجل ما قالوا، فأمر من كان في النار من أهل الإسلام فأخرجوا منها، فحينئذ يقول الكفار: يا ليتنا كنا مسلمين ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ معناه: دعهم يأكلوا في دنياهم أكل الأنعام، ويتمتعوا فيها بما يريدون، والتمتع التلذذ، وهو

(١) القذال جماع مؤخر الرأس في الإنسان. والهيضل: جماعة متسلحة أمرهم في الحرب واحد.

طلب اللذة حالًا بعد حال ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي: وتشغلهم آمالهم الكاذبة عن اتباع النبي ﷺ والقرآن، يقال: ألهاه الشيء، أي: شغله وأنساه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وبال ذلك فيما بعد، حين يحلُّ بهم العذاب يوم القيامة، وصاروا إلى ما يجحدون به.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن الإنسان يجب أن يكون مقصور الهمة على أمور الآخرة، مستعداً للموت، مسارعاً إلى التوبة، ولا يأمل الآمال المؤدية إلى الصد عنها. وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى، وطول الأمل، فإن اتباع الهوى يصدُّ عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾ معناه: ولم نهلك أهل قرية فيما مضى على وجه العقوبة إلا كان لهم أجل مكتوب لا بد أن سيبلغونه، يريد: فلا يغرن هؤلاء الكفار إمهالي إياهم، إنما ينزل العذاب بهم في الوقت المكتوب المقدر لذلك ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: لم تكن أمة فيما مضى تسبق أجلها فنهلك قبل ذلك، ولا تتأخر عن أجلها الذي قدر لها، بل إذا استوفت أجلها أهلكها الله.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: ﴿مَا نُنَزِّلُ﴾ بنونين ﴿الملائكة﴾ بالنصب. وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿ما تُنَزَّلُ﴾ بضم التاء ﴿الملائكة﴾ بالرفع. وقرأ الباقون: ﴿ما تنزل﴾ بفتح التاء والنون والزاي ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ بالرفع. وقرأ ابن كثير ﴿سكرت﴾ بالتخفيف. والباقون: بالتشديد. وفي الشواذ قراءة الزهري: ﴿سَكِرَتْ﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ: ﴿تَنَزَّلُ﴾ قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ وحجة من قرأ: ﴿نُنَزِّلُ﴾ قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾. وحجة من قرأ ﴿تُنَزَّلُ﴾ قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ ووجه التثقيل في ﴿سُكِّرَتْ﴾ أن الفعل مسند إلى جماعة، فهو مثل: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ ووجه التخفيف أن هذا النحو من الفعل المسند إلى جماعة قد يخفف، قال:

(مـا زلـت أفـتـح أبـوابـاً وأغـلقـهـا)(١)

اللغة: الشيع: الفِرق، عن الزجاج، وكل فرقة شيعة، وأصله من المشايعة وهي المتابعة، يقال: شايع فلان فلاناً على أمره، أي: تابعه عليه، ومنه شيعة علي عليه السلام، وهم الذين تابعوه على أمره، ودانوا بإمامته، وفي حديث أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وآله: شيعة علي هم الفائزون يوم القيامة. وسلك وأسلك بمعنى، والمصدر السَّلكُ والسُلوكُ، قال عدي بن زيد:

وكـنـتُ لـزاز خـصـمِـكَ لـم أُعَـرِّدْ، وقـد سَـلَـكـوكَ فـي يـومٍ عـصـيـبِ(٢)

وقال آخر:

حـتـى إذا أَسْـلَـكـوهُـم فـي قـتـائـده شـلّاً كـمـا تـطـرُدُ الـجَـمّـالَةُ الـشُّرُدا(٣)

والعروج: الصعود في الدرج، والمضارع يَعرُج ويعرَج. أبو عبيدة: سُكِّرت أبصارنا: غشِّيت. قال أبو علي: فكأن معناه: لا ينفذ نورها ولا يدرِك الأشياءَ على حقيقتها، ومعنى الكلمة: انقطاع الشيء عن سننه الجاري، فمن ذلك: سَكرُ الماءِ، وهو ردُّه عن سننه في الجري. وقالوا: التسكير في الرأي قبل أن يعزم على الشيء، وإذا عزم على أمر ذهب التسكير، ومنه السُّكر في الشراب، إنما هو أن ينقطع عما هو عليه من المصافي حال الصحو، فلا ينفذ رأيه ونظره على حد نفاذه في صحوه، وقالوا: سكران لا يثبت، فعبَّروا عن هذا المعنى فيه. قال الزجاج: فسَّروا سُكِّرت أغشيت، وسَكِرت تحيرت، وسكنت عن أن تنظر، والعرب تقول: سكرت الريح سكنت، وكذلك سكر الحرُّ، قال الشاعر:

جـاءَ الـشـتـاءُ، واجـثـألَّ الـقُـبَّـرُ، وجَـعَـلَـتْ عـيـنُ الـحَـرورِ تَـسْـكَـرُ(٤)

والبرج: أصله الظهور، ومنه البرج من بروج السماء، وبرج الحصن، ويقال: تبرَّجت المرأة إذا أظهرت زينتها. والرجيم: المرجوم. والرجم: الرمي بالشيء بالاعتماد من غير آلة مهيأة للإصابة، فإن القوس يرمي عنها ولا يُرجم بها، ورجَمته: شتمته. والشهاب: القطعة من النار. قال الزجاج: والشهب المنقضة من آيات النبي صلى الله عليه وآله، والدليل على أنها كانت بعد مولد النبي صلى الله عليه وآله، أن شعراء العرب الذين كانوا يمثلون في السرعة بالبرق، وبالسيل، وبالأشياء المسرعة، لم يوجد في أشعارهم بيت واحد فيه ذكر الكواكب المنقضة، فلما حدثت بعد مولد النبي صلى الله عليه وآله استعملت الشعراء ذكرها، قال ذو الرمة:

كَـأَنَّـهُ كَـوْكَـبٌ فـي إثْـرِ عِـفْـرِيَّـةٍ مُـسوَّمٌ في سـوادِ الـلـيـلِ مـنـقـضِـب(٥)

---

(١) منسوب إلى الفرزدق وبعده: «حتى أتيت أبا عمرو بن عمار».

(٢) مضى البيت في سورة هود في الجزء الخامس من هذا الكتاب.

(٣) قائله عبد مناف الهذلي. وقتائدة: عقبة معروفة. والشرد بضمتين: جمع شارد من شرد البعير. نفر. قال ابن منظور ويروى الشرداء - بفتحتين - مثل خادم وخدم. وجواب إذا محذوف دل عليه قوله (شلا) كأنه قال: شلوهم شلا.

(٤) قائله المثنى الطهوي. واجثأل: اجتمع وتقبض. والحرور: الريح الحارة.

(٥) يصف ثوراً وحشياً. وعفرية: خبيث منكر. وقوله منقضب: أي منقض من مكانه.

● **الإعراب:** ﴿لَّوْ مَا﴾ دعاء إلى الفعل وتحريض عليه، وهو بمعنى: لولا وهلّا، وقد جاءت ﴿لَّوْ مَا﴾ في معنى «لولا» التي لها جواب، قال ابن مقبل:

لو ما الحياءُ، ولولا الدين عِبْتُكما ببَعْضِ ما فيكُما إذ عِبْتُما عَوَري

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ استثناء منقطع، والمعنى: لكن من استرق السمع يتبعه شهاب. وقال الفراء: هو استثناء صحيح، لأن الله تعالى لم يحفظ السماء ممن يصعد إليها ليسترق السمع، لكنْ إذا سمعه وأداه إلى الكهنة، أتبعه شهاب.

● **المعنى:** ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: قال المشركون للنبي ﷺ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي: القرآن في زعمه ودعواه ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ في دعواك أنه نزل عليك، وفي توهمك أنا نتبعك ونؤمن بك ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ يشهدون لك على صدق قولك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فيما تدعيه، عن ابن عباس، والحسن. ثم أجابهم سبحانه بالجواب المقنع فقال: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لا ننزل الملائكة إلا بالحق الذي هو الموت، لا يقع فيه تقديم ولا تأخير فيقبض أرواحهم، عن ابن عباس. وقيل: لا ينزلون إلا بعذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا، عن الحسن، ومجاهد، والجبائي. وقيل: ما ينزلون في الدنيا إلا بالرسالة، عن مجاهد. ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا﴾ أي: حين ننزل الملائكة ﴿مُّنظَرِينَ﴾ مؤخرين مُمهلين، أي لا يمهلون ساعة، ثم زاد سبحانه في البيان فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ عن الزيادة والنقصان، والتحريف والتغيير، عن قتادة، وابن عباس، ومثله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وقيل: معناه: متكفل بحفظه إلى آخر الدهر على ما هو عليه، فتنقله الأمة وتحفظه عصراً بعد عصر إلى يوم القيامة، لقيام الحجة به على الجماعة، من كل من لزمته دعوة النبي ﷺ، عن الحسن. وقيل: يحفظه من كيد المشركين ولا يمكنهم إبطاله، انتهى. ولا يندرس ولا ينسى، عن الجبائي. وقال الفراء: يجوز أن يكون الهاء في ﴿لَهُۥ﴾ كناية عن النبي ﷺ، فكأنه قال: إنا نزّلنا القرآن وإنا لمحمد ﷺ لحافظون، وفي هذه الآية دلالة على أن القرآن محدث، إذ المنزل والمحفوظ لا يكون إلا محدثاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد رسلاً، عن ابن عباس، فحذف المفعول لدلالة الإرسال عليه ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: في فرق الأولين، عن الحسن، والكلبي. وقيل: في الأمم الأولين، عن عطاء، عن ابن عباس ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ وهذا تسلية للنبي ﷺ، إذ أخبره أن كل رسول كان مبتلى بقومه، واستهزاؤهم بالرسل إنما حملهم على ذلك استبعادهم ما دعوهم إليه، واستيحاشهم منه، واستنكارهم له، حتى توهموا أنه مما لا يكون ولا يصح، مع مخالفته لما وجدوا عليه أسلافهم ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه: إنا نسلك الذكر الذي هو القرآن في قلوب الكفار، بإخطاره عليها وإلقائه فيها، وبأن نفهمهم إياه وأنهم مع ذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ماضين على سنة من تقدمهم في تكذيب الرسل كما سلكنا دعوة الرسل في قلوب من سلف من الأمم، عن البلخي، والجبائي، والمراد أن إعراضهم عن القرآن لا يمنعنا من أن ندخله في قلوبهم تأكيداً للحجة عليه.

والآخر: إن المعنى: نسلك الاستهزاء في قلوبهم عقوبة لهم على كفرهم، والأول هو الصحيح.

قد رووا عن جماعة من المفسرين أن المراد: نسلك الشرك في قلوب الكفار، وذلك لا يصح لأنه لم يجر للشرك ذكر، وقد جرى ذكر الذكر وهو القرآن، ولأنه قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾. ولو عاد الضمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ إلى الشرك لكان الكفار محمودين، إذ كانوا لا يؤمنون بالشرك، ولا خلاف أن الآية وردت على سبيل الذم لهم، ولو كان الله سبحانه قد سلك الكفر في قلوبهم، لسقط عنهم الذم، ولما جاز أن يقول لهم: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾، ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾. وكيف ينكر عليهم هذا الإنكار وهو الواضع لذلك في قلوبهم؟ وكيف يأمرهم بإخراجه من حيث وضعه فيه، تعالى وتقدس عن ذلك.

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت طريقة الأمم المتقدمة بأن كانت رسلهم تدعوهم إلى كتب الله المنزلة ثم لا يؤمنون. وقيل: مضت سنة الأولين بأن عوجلوا بعذاب الاستئصال، عند الإتيان بالآيات المقترحة مع إصرارهم على الكفر، عن أبي مسلم. وقيل: مضت سنتهم في التكذيب، كما أن قومك كذبوك، عن ابن عباس. ثم قال بعد ما تقدم ذكر اقتراحهم للآيات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: على هؤلاء المشركين ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ينظرون إليه ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي: فظلت الملائكة تصعد وتنزل في ذلك الباب، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: فظل هؤلاء المشركون يعرجون إلى السماء من ذلك الباب، وشاهدوا ملكوت السماوات، عن الحسن، والجبائي، وأبي مسلم ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ أي: سدت وغطيت، عن مجاهد. وقيل: أغشيت وعميت، عن ابن عباس، والكلبي، وأبي عمرو، والكسائي. وقيل: تحيَّرت وسكنت عن أن تنظر ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ سحرنا محمد ﷺ، فلا ننظر ببصر، ويخيل الأشياء إلينا على خلاف حقيقتها، ثم ذكر سبحانه دلالات التوحيد، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾ أي: خلقنا وهيَّأنا ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: منازل الشمس والقمر ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ بالكواكب النيِّرة، عن أبي عبد الله عليه السلام، وهي اثنا عشر برجاً. وقيل: البروج النجوم، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾ أي: وحفظنا السماء ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: مرجوم مرمي بالشهب، عن أبي علي الجبائي، وأبي مسلم. وقيل: رجيم ملعون مشؤوم، عن ابن عباس، وحفظ الشيء جعله على ما ينفى عنه الضياع، فمن ذلك حفظ القرآن بدرسه حتى لا ينسى، وحفظ المال بإحرازه حتى لا يضيع، وحفظ السماء من الشيطان بالمنع حتى لا يدخلها، ولا يبلغ إلى موضع يتمكن فيه من استراق السمع بما أعد له من الشهاب ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ والسرقة عند العرب أن يأتي الإنسان إلى حرز خفية فيأخذ ما ليس له، والمراد بالسمع هنا المسموع، والمعنى: إلا من حاول أخذ المسموع من السماء في خفية ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ أي: لحقه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي: شعلة نار، ظاهر لأهل الأرض بيِّن لمن رآه، ونحن في رأي العين نرى كأنهم يرمون بالنجوم، والشهاب عمود من نور يضيء ضياء النار لشدة ضيائه. وروي عن ابن عباس أنه قال: كان في الجاهلية كهنة، ومع كل واحد شيطان، فكان يقعد من السماء مقاعد

للسمع، فيستمع من الملائكة ما هو كائن في الأرض، فينزل ويخبر به الكاهن فيفشيه الكاهن إلى الناس، فلما بعث الله عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات. ولما بعث محمد ﷺ منعوا من السماوات كلها، وحرست السماء بالنجوم. فالشهاب من معجزات نبينا محمد ﷺ لأنه لم يُر قبل زمانه. وقيل: إن الشهاب يحرق الشياطين ويقتلهم، عن الحسن. وقيل: إنه يَخبِل ويحرق ولا يقتل، عن ابن عباس.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة وحده: ﴿**الريح لواقح**﴾ والباقون: ﴿ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾.

● **الحجة:** قال أبو عبيدة: لا أعرف لذلك وجهاً إلا أن يريد أن الريح تأتي مختلفة من كل وجه، فكانت بمنزلة الرياح. وحكى الكسائي: أرض أغفال وأرض سباسب. قال المبرد: يجوز ذلك على أن يجعل الريح جنساً، وليس بجيد، لأن الرياح ينفصل بعضها عن بعض، ومعروفة كل واحدة منها، والأرض ليست كذلك لأنها بساط واحد.

● **اللغة:** الرواسي: الثوابت، واحدها راسية. والمراسي: ما يثبت به. والوزن: وضع أحد الشيئين بإزاء الآخر على ما يظهر به مساواته في المقدار وزيادته. والمعايش: جمع معيشة، وهي طلب أسباب الرزق مدة الحياة، وقد يطلبها الإنسان لنفسه بالتصرف والتكسب، وقد يطلب له، فإن أتاه أسباب الرزق من غير طلب فذلك العيش الهنيء. واللواقح: الرياحِ التي تلقَحُ السحاب حتى يحمل الماء، أي: يُلقِي إليه ما يحمل به الماء، يقال: لقِحَت الناقة إذا حملت، وألقَحها الفحل، فاللواقح في معنى الملقِحات، وقيل في علة ذلك قولان:

أحدهما: أنه في معنى ذات لقاح، ومثله همٌّ ناصب، أي: ذو نصَب، قال النابغة:

كليني لهمٍّ يا أمَيمةُ ناصبِ ... وليلٍ أقاسِيه بطيءِ الكواكبِ[1]

أي: منصِب. وقال نهشل بن جري:

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ... ومختبطٌ مما تُطيح الطَّوائحُ[2]

---

(١) مر البيت في سورة التوبة في الجزء الخامس من الكتاب.

(٢) الشعر في (جامع الشواهد) وقد مر أيضاً في الجزء الثاني من هذا التفسير.

أي: المطاوح.

والآخر: أن الرياح لاقحة بحملها الماء، ملقِحة بإلقائها إياه إلى السحاب.

ويقال: سقيته فيما يشربه بشفته، وأسقيته بالألف فيما تشربه أرضه. قال علي بن عيسى: وقد يجيء أحدهما بمعنى الآخر كقوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾. وقال ذو الرمة:

وقفت على ربعِ لِمَيَّةَ ناقتي[١] فما زلتُ أبكي عنده وأخاطِبُهْ
وأسقيه حتى كادَ مما أبثُّه تُكلمني أحجاره وملاعبُه

● **الإعراب:** ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ منصوب بفعل مضمر، تقديره: ومددنا الأرض ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ أي: وقدرنا القمر قدرناه ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ ﴿مَن﴾ في موضع نصب عطفاً على ﴿مَعَٰيِشَ﴾ والمراد به العبيد والإماء والأنعام والدواب، عن مجاهد. وقال الفراء: العرب لا تكاد تجعل ﴿مَن﴾ إلا في الناس خاصة، فإن كان مع الدواب العبيد حسن حينئذ، قال: وقد يجوز أن يكون ﴿مَنْ﴾ في موضع جر عطفاً على الكاف والميم في ﴿لَكُمْ﴾ وقال المبرد: والظاهر المخفوض لا يعطف على المضمر المخفوض، نحو: مررت بك وزيد، إلا أن يضطر شاعر، وأنشد الفراء:

تُعلَّق في مثلِ السَّواري سُيوفُنا وما بينها، والكَعبِ غُوطٌ نفانفُ[٢]

فردَّ الكعب على الهاء في بينها، وقال:

هلَّا سألتِ بذِي الجماجِم عَنهُمُ وَأبي نَعيمِ ذي اللواءِ المحرقِ[٣]

فرد أبا نعيم على هم في عنهم، قال: ويجوز أن يكون ﴿مَن﴾ في موضع رفع لأن الكلام قد تمّ، ويكون التقدير على قوله: ولكم فيها من لستم له برازقين. قال الزجاج: والأجود من الأقوال الأول. وجاز أن يكون عطفاً على تأويل لكم، لأن معنى قوله: و﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أعشناكم ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أي: رزقناكم ومن لستم له برازقين ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿مِّن﴾ مزيدة وشيء مبتدأ، و ﴿عِندَنَا﴾ خبر له، و ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ مرفوع بالظرف، لأن الظرف جرى خبراً على المبتدأ، لا خلاف في هذا بين سيبويه، والأخفش.

● **المعنى:** لما تقدَّم ذكر السماء وما فيها من الأدلة والنعم، أتبعه بذكر الأرض، فقال:

---

(١) الربع: الدار.

(٢) البيت منسوب إلى مسكين الدارمي، يصف نفسه وقومه بالطول والسمو، والعظم والشجاعة. السواري: جمع السارية وعنى بها أعنان الرجال. والكعب: كل مفصل للعظام. والغوط: الأرض المطمئنة. والنفائف جمع نفنف: الهواء بين الشيئين، ويقول: إن الرجل منهم لطوله وضخامته، كالسارية، وإذا وضع السيف بحمائله على عاتقه، فكأنما علقه على سارية وبين السيف وكعب الرجل مكان بعيد.

(٣) ذي الجماجم: موضع. وأبو نعيم: هو النعمان بن المنذر، وسمي المحرق - كمحدث - لأنه كان يحرقه العرب في ديارهم واسكن الراء في الشعر للضرورة.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها وجعلنا لها طولًا وعرضاً ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: طرحنا فيها جبالًا ثابتة ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي: مقدر معلوم، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد. وقيل: من كل شيء يوزن في العادة، كالذهب والفضة والصفر والنحاس ونحوها، عن الحسن. وقيل: يعني بذلك كل ما تخرجه الأرض، عن أبي مسلم. قال: وإنما خص الموزون بالذكر دون المكيل لوجهين:

أحدهما: أن غاية المكيل تنتهي إلى الوزن، لأن جميع المكيلات إذا صار طعاماً دخل في الوزن، فالوزن أعم.

والآخر: أن في الوزن معنى الكيل، لأن الوزن هو طلب المساواة، وهذا المعنى ثابت في الكيل، فخص الوزن بالذكر لاشتماله على معنى الكيل.

وردَّ عليه السيد الأجل المرتضى قدس الله روحه، فقال: ظاهر لفظ الآية يشهد بغير ما قاله، فإن المراد بالموزون المقدار الواقع بحسب الحاجة، فلا يكون ناقصاً عنها ولا زائداً عليها زيادة مضرة، داخلة في باب العبث، ونظير ذلك قولهم: كلام فلان موزون وأفعاله موزونة، والمراد ما ذكرناه، وعلى هذا المعنى تأول المفسرون ذكر الموازين في القرآن على أحد التأويلين، وأنها التعديل والمساواة بين الثواب والعقاب.(١)

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي: خلقنا لكم في الأرض معايش من زرع أو نبات، عن ابن عباس، والحسن. وقيل: معايش أي: مطاعم ومشارب تعيشون بهما. وقيل: هي التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ يعني العبيد والدواب يرزقهم الله ولا ترزقونهم، ومعناه يدور على ما تقدم ذكره في الإعراب، وأتى بلفظة ﴿مَن﴾ دون لفظة ﴿مَآ﴾ لأنه غلب العقلاء على غيرهم ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ أي: وليس من شيء ينزل من السماء وينبت من الأرض ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ معناه: إلا ونحن مالكوه والقادرون عليه، وخزائن الله سبحانه مقدوراته، لأنه تعالى يقدر أن يوجد ما شاء من جميع الأجناس، ويقدر من كل جنس على ما لا نهاية له. وقيل: المراد به الماء الذي منه النبات، وهو مخزون عنده إلى أن ينزله، ونبات الأرض وثمارها إنما تنبت بماء السماء. وقال الحسن: المطر خزائن كل شيء ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي: وما ننزل المطر ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ تقتضيه الحكمة. وقيل: إنه سبحانه استعار الخزائن للقدرة على إيجاد الأشياء، وعبَّر عن الإيجاد بالإنزال، لأن الإنزال في معنى الإعطاء والرزق، والمعنى: أن الخير كله من عند الله، لا يوجد ولا يعطى إلا بحسب المصلحة والحاجة، ثم بيَّن سبحانه كيفية الإنزال فقال ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي: أجرينا الرياح لواقح، أي: مُلْقِحة للسحاب محملة

---

(١) قال بعض علماء أهل العصرب: إن من الأسرار التي كشف عنها الوحي الإلهي، ما في هذه الآية، حيث انها دلت على أن كل ما ينبت في الأرض له وزن خاص، وقد ثبت أخيراً أن كل نوع من أنواع النبات مركب من أجزاء خاصة على وزن مخصوص، بحيث لو زيد في بعض أجزائه، أو نقص، لكان ذلك مركباً آخر، وان نسبة الأجزاء إلى بعض من الدقة، بحيث لا يمكن ضبطها تحقيقاً بأدق الموازين المعروفة للبشر.

بالمطر[1]. ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مطراً ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: فأسقيناكم ذلك الماء ومكناكم منه ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي: وما أنتم أيها الناس له بحافظين ولا محرزين، بل الله يحفظه ثم يرسله من السماء، ثم يحفظه في الأرض، ثم يخرجه من العيون بقدر الحاجة، ولا يقدر أحد على إحراز ما يحتاج إليه من الماء في موضع ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أخبر سبحانه أنه يحيي الخلق إذا شاء، ويميتهم إذا أراد ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الأرض ومن عليها، أخبر أنه يرث الأرض، لأنه إذا أفنى الخلق ولم يبق أحد كانت الأشياء كلها راجعة إليه يتفرد بالتصرف فيها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: أن معناه: ولقد علمنا الماضين منكم ولقد علمنا الباقين، عن مجاهد والضحاك، وقتادة.

وثانيها: علمنا الأولين منكم والآخرين، عن الشعبي.

وثالثها: علمنا المستقدمين في صفوف الحرب والمتأخرين عنها، عن سعيد بن المسيب.

ورابعها: علمنا المتقدمين في الخير والمبطئين عنه، عن الحسن.

وخامسها: علمنا المتقدمين إلى الصف الأول في الصلاة والمتأخرين عنه، فإنه كان يتقدم بعضهم إلى الصف الأول ليدركوا فضيلته، وكان يتأخر بعضهم. فنزلت الآية فيهم، عن ابن عباس.

وسادسها: أن النبي ﷺ حثَّ الناس على الصف الأول في الصلاة، وقال: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها». وقال ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على الصف المتقدم»، فازدحم الناس، وكانت دُورُ بني عذرة بعيدة عن المسجد، فقالوا: لنبيعن دورنا ولنشترين دوراً قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم! فنزلت هذه الآية، عن الربيع بن أنس. فعلى هذا يكون المعنى إنا نجازي الناس على نياتهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ معناه: إن ربك يا محمد، أو أيها السامع، هو الذي يجمعهم يوم القيامة، ويبعثهم بعد إماتتهم للمجازاة، والمحاسبة ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ بما استحق كل منهم.

● **النظم**: إنما اتصل قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ وما بعده بما ذكره فيما قبل من أنواع النعم، فبيَّن سبحانه أنه يرثهم كل ما خولهم من ذلك تزهيداً في الدنيا، وترغيباً في الآخرة، عن أبي مسلم، وقيل: إنه لما بيَّن أنواع نعمه، عرفهم بعد أنه لم يخلق ذلك للبقاء، وإنما أنعم به عليهم، ليكون طريقاً إلى نعم الآخرة، عن القاضي. وقيل: إنه لما ذكَّرهم نعم

---

(١) وربما يقال إن الرياح لا تحمل السحاب، وإنما تدفعه من مكان إلى مكان آخر. ولو سلم فليس في التنبيه على هذا المعنى كبير اهتمام، بل النظرة الصحيحة في معنى الآية، بعد ملاحظة ما اكتشفه علماء النبات، تفيدناسراً دقيقاً لم ندركه كما في المشمش والصنوبر، والرمان والقطن، ونباتات الحبوب. فإذا نضجت حبوب الطلع، انتفخت الأكياس وانتثرت خارجها، محمولة على أجنحة الرياح، فتسقط على مياسم الأزهار الأخرى عفواً.

الدنيا، نبَّه بالإحياء والإماتة، وعلمه بجميع الأشياء، وحشر الخلق على وجوب الانقطاع إليه: والعبادة والطاعة له.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ
مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ
حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا
لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ
﴿٣٥﴾﴾.

● **اللغة:** الصلصال: الطين اليابس، أخذَ من الصَّلصَلة: وهي القعقعة، ويقال لصوت الحديد ولصوت الرعد: صلصلة، وهي صوت شديد متردد في الهواء، وصلَّ يصلُّ إذا صوَّت، قال:

رَجعتُ إلى صوتٍ كَجَرَّة حنتمٍ إذا قُرعَت صِفراً من الماء صَلَّت(١)

ويقال: الصلصال: المنتن، أخذ من صلَّ اللحم وأصَلَّ: إذا أنتن. والحمأ جمع حَمْأة: وهو الطين المتغير إلى السواد، يقال: حمئت البئر وأحمأتها أنا. والمسنون: المصبوب، من سَننْتُ الماء على وجهه، أي: صبَبْتُه، ويقال: سننت، بالسين غير معجمة، أرسلت الماء، وشننت بالشين معجمة، صببت. وقيل إنه المتغير من قولهم: سننت الحديد على المسنِّ إذا غيرتها بالتحديد، وأصلها الاستمرار في جهة، من قولهم: هو على سنن واحد، والسُّنة: الطريقة. وسُنَّةُ الوجه: صورته، قال ذو الرمة:

تُريك سُنَّةَ وَجْهٍ غيرَ مُقرفةٍ مَلساءَ ليس بها خالٌ، ولا ندَبُ(٢)

قال سيبويه: جمع الجان جنان، فهو مثل حائط وحيطان، وراع ورُعيان. والسموم: الريح الحارة أخذ من دخولها بلطفها في مسام البدن، ومنه السم القاتل، يقال: سمَّ يومُنا يسمُّ إذا هبَّت فيه ريح السموم.

● **الإعراب:** من جعل ﴿ٱلْجَآنَّ﴾ جمعاً قال: ولم يقل: خلقناها، كما قال: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾، و﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ وقوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿مَا﴾ مبتدأ و ﴿لَكَ﴾ خبره،

---

(١) الحنتم: جرار خضر، تضرب إلى الحمرة. والصفر: بمعنى الخالي.
(٢) وجه مقرف: غير حسن. والندب: أثر الجرح.

والتقدير: أي شيء ثابت لك؟ وألا تكون تقديره: في ألا تكون، فحذف ﴿فِي﴾ وهي متعلقة بالخبر أيضاً، فلما حذفت ﴿فِي﴾ انتصب موضع ألا تكون على قول سيبويه، وبقي على الجر على قول الخليل. وأبو الحسن حمل ﴿أَن﴾ على الزيادة، و ﴿لَا تَكُونَ﴾ في موضع الحال، قال: وتقديره: مالك خارجاً عن الساجدين.

● **المعنى:** لما ذكر سبحانه الإحياء والإماتة والنشأة الثانية، عقَّبه ببيان النشأة الأولى، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني آدم ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي: من طين يابس، يسمع له عند النقر صلصلة، أي: صوت، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وأكثر المفسرين. وقيل: طين صلب يخالطه الكثيب، عن الضحاك. وقيل: منتن، عن مجاهد، واختاره الكسائي ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ أي: من طين متغير ﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي: مصبوب، كأنه أفرغ حتى صار صورة، كما يصب الذهب والفضة. وقيل: إنه الرطب، عن ابن عباس. وقيل: مسنون مصور، عن سيبويه. قال: أُخِذ من سُنةِ الوجه ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ وهو إبليس، عن الحسن، وقتادة. وقيل: هو أبو الجن كما أن آدم أبو البشر، عن ابن عباس. وقيل: هم الجن نسل إبليس، وهو منصوب بفعل مضمر، معناه: وخلقنا الجان ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل خلق آدم ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: من نار لها ريح حارة تقتل. وقيل: هي نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها. وروى أبو روق عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار. وقيل: السموم النار الملتهبة، عن أبي مسلم. وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان لا يفضل بأصله، وإنما يفضل بدينه وعلمه وصالح عمله، وأصل آدم عليه السلام كان من تراب، وذلك قوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ ثم جعل التراب طيناً، وذلك قوله: ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ثم ترك ذلك الطين حتى تغير واسترخى، وذلك قوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ثم ترك حتى جف، وذلك قوله: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ فهذه الأقوال لا تناقض فيها، إذ هي إخبار عن حالاته المختلفة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تقديره: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾ أي: سأخلق ﴿بَشَرًا﴾ أي: آدم، وسمي بشراً لأنه ظاهر الجلد، لا يواريه شعر ولا صوف ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ مرّ معناه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ بإتمام خلقته وإكمال خلقه. وقيل: معناه: عدلت صورته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ والنفخ إجراء الريح في الشيء باعتماد، فلما أجرى الله سبحانه الروح في آدم على هذه الصفة، كان قد نفخ الروح فيه، وإنما أضاف روح آدم إلى نفسه تكرمة له وتشريفاً، وهي إضافة الملك ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي: اسجدوا له، قال الكلبي: أي: فخروا له ساجدين ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ هذا توكيد بعد توكيد عند سيبويه وقال المبرد: ويدل قوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ على اجتماعهم في السجود، أي: فسجدوا كلهم في حالة واحدة، قال الزجاج: وقول سيبويه أجود، لأن ﴿أَجْمَعُونَ﴾ معرفة فلا يكون حالاً ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: امتنع أن يكون معهم فلم يسجد معهم، وقد سبق القول في أن إبليس هل كان من الملائكة أو لم يكن، واختلاف العلماء فيه، وما لكل واحد من الفريقين من الحجج، وذكرنا ما يتعلق

بذلك من الكلام في سورة البقرة، فلا معنى للإعادة، و ﴿أَن يَكُونَ﴾ في محل نصب، أي: أبى الكون مع الساجدين.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ قال الزجاج: معناه: أي شيء يقع لك في ألا تكون مع الساجدين، فموضع ﴿أَن﴾ نصب بإسقاط ﴿فِي﴾ وإفضاء الناصب إلى ﴿أَن﴾ وهذا خطاب من الله سبحانه لإبليس، ومعناه: لم لا تكون مع الساجدين فتسجد كما سجدوا؟ وإنما قال سبحانه بنفسه على جهة الإهانة له، كما يقول لأهل النار: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وقال الجبائي: إنما قال سبحانه ذلك على لسان بعض رسله، لأنه لا يصح أن يكلمه الله بلا واسطة في زمان التكليف ﴿قَالَ﴾ أي: قال إبليس مجيباً لهذا الكلام: ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ أي: ما كنت لأسجد. وقيل: معناه: ما كان ينبغي أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ لأني أشرف أصلاً منه، ولم يعلم أن التفاضل بالدين والأعمال لا بالأصل ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ أي: من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ أي: مشؤوم مطرود ملعون. وقيل: معناه: اخرج من السماء، عن أبي مسلم. وقيل: من الأرض فألحقه بالبحار، لا يدخل الأرض إلا كالسارق. وقيل: رجيم مرجوم، أي: إن رجعت إلى السماء رُجمتَ بمثل الشهب التي يرجم بها الشياطين، عن الجبائي ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ وإن عليك مع ذلك اللعنة، أي: الإبعاد من رحمة الله، ولذلك لا يجوز أن تلعن بهيمة. ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء وهو يوم القيامة، والمراد: أن الله سبحانه قد لعنك، وأهلُ السماء والأرض يلعنونك لعنة لازمة لك إلى يوم القيامة، ثم يحصل بعد ذلك على الجزاء بعذاب النار، وفيه بيان أنه لا يؤمن قط. وقال بعض المحققين: إنما قال سبحانه هنا: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ بالألف واللام، وقال في سورة ﴿صٓ﴾: ﴿لَعۡنَتِيٓ﴾ بالإضافة، لأن هناك يقول: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ مضافاً فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ على المطابقة، وقال هنا: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وساق الآية على اللام في قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ وقوله: ﴿وَٱلۡجَآنَّ﴾ فأتى باللام أيضاً في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: ﴿صراط علي﴾ بالرفع، وهي قراءة أبي رجا، وابن سيرين، وقتادة، والضحاك، ومجاهد، وقيس بن عبادة، وعمرو بن ميمون، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام، والباقون من القراء قرأ: ﴿عَلَيَّ﴾.

● **الحجة:** قال ابن جني: ﴿عليٌّ﴾ هنا كقولهم: كريم شريف، وليس المراد به علوّ الشخص والنصبة، وقال أبو الحسن في قراءة الجماعة: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ وهو كقولك: الدلالة اليوم عليَّ، أي: هذا صراط في ذمتي وتحت ضماني، كقولك صحة هذا المال عَليّ وتوفية عدته عليّ، وليس معناه عنده. ﴿مستقيم عَلَيّ﴾ كقولنا: قد استقام عليَّ الطريقُ، واستقر عليّ كذا، وما أحسن ما ذهب إليه أبو الحسن فيه.

● **اللغة:** الإغواء: الدعاء إلى الغي، والإغواء خلاف الإرشاد، وهذا أصله، وقد يكون بمعنى الحكم بالغيِّ على وجه الذم. والتزيين: جعل الشيء متقبلاً في النفس، من جهة الطبع والعقل، بحق أو بباطل. وإغواء الشيطان: تزيينه الباطل حتى يدخل صاحبه فيه.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه ما سأله إبليس عند إياسه من الآخرة، فقال عزَّ اسمه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ أي: فأمهلني وأخرني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: يحشرون للجزاء، استنظره إبليس إلى يوم القيامة لئلا يموت، إذ يوم القيامة لا يموت فيه أحد، فلم يجبه الله تعالى إلى ذلك بل ﴿قَالَ﴾ له ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ الذي هو آخر أيام التكليف، وهو النفخة الأولى حين يموت الخلائق، عن ابن عباس. وقيل: الوقت المعلوم يوم القيامة، أنظرَهُ الله سبحانه في رفع العذاب عنه إلى يوم القيامة، عن الحسن، والجبائي، وأبي مسلم. وقيل: هو الوقت الذي قدر الله أجله فيه، وهو معلوم لله سبحانه غير معلوم لإبليس، فأبهم، ولم يبين لأن في بيانه إغراء بالمعصية، عن البلخي. واختلف في تجويز إجابة دعاء الكافر، قال الجبائي: لا يجوز، لأن في إجابة الدعاء تعظيماً له. وقال ابن الإخشيد: يجوز ذلك، لأن الإجابة كالنعمة في احتمالها أن يكون ثواباً وتعظيماً، وأن يكون استصلاحاً ولطفاً ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: أن الإغواء الأول والثاني بمعنى الإضلال، أي: كما أضللتني لأضلنهم، وهذا لا يجوز، لأن الله سبحانه لا يضل عن الدين، إلا أن يحمل على أن إبليس كان معتقداً للخير.

وثانيها: أن الإغواء الأول والثاني بمعنى التخييب، أي: بما خيبتني من رحمتك لأخيبنهم بالدعاء إلى معصيتك، عن الجبائي.

وثالثها: أن معناه: بما أضللتني عن طريق جنتك، لأضلنهم بالدعاء إلى معصيتك.

ورابعها: بما كلفتني السجود لآدم الذي غويت عنده، فسمي ذلك غواية، كما قال: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ لما ازدادوا عندها، عن البلخي.

والياء في قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ قيل: إن معناها القسم ههنا، عن أبي عبيدة، وقيل: هي بمعنى السبب، أي: بكوني غاوياً لأزينن، كما يقال: بطاعته لندخلن الجنة، وبمعصيته لندخلن النار، ومفعول التزيين محذوف، وتقديره: لأزينن الباطل لهم، أي: لأولاد آدم حتى يقعوا فيه.

ثم استثنى من جملتهم فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وهم الذين أخلصوا عبادتهم

لله، وامتنعوا عن عبادة الشيطان، وانتهوا عما نهاهم الله عنه، ومن قرأ: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، فهم الذين أخلصهم الله بأن وفقهم لذلك، ولطف لهم فيه ليس للشيطان عليهم سبيل ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ قيل فيه وجوه:

أحدها: أنه على وجه التهديد له، كما تقول لغيرك: افعل ما شئت وطريقك عليّ، أي: لا تفوتني، عن مجاهد، وقتادة، ومثله قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

وثانيها: معناه: أن ما نذكره من أمر المخلصين والغاوين طريق ممره عليّ، أي: ممر من مسلكه عليّ مستقيم لا عدول فيه عني، وأجازي كلا من الفريقين بما عمل.

وثالثها: أن معناه: هذا دِين مستقيم عليَّ بيانه والهداية إليه.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ هذا إخبار منه تعالى بأن عباده الذين يطيعونه، وينتهون إلى أوامره، لا سلطان للشيطان عليهم، ولا قدرة له على أن يكرههم على المعصية، ويحملهم عليها، ولكن من يتبعه فإنما يتبعه باختياره. قال الجبائي: وذلك يدل على أن الجن لا يقدرون على الإضرار ببني آدم، لأنه على عمومه. ثم استثنى سبحانه من جملة العباد من يتبع إبليس على إغوائه وينقاد له ويقبل منه، فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ لأنه إذا قبل منه صار له عليه سلطان، بعدوله عن الهدى إلى ما يدعوه إليه من اتباع الهوى. وقيل: إن الاستثناء منقطع، والمراد: لكن من اتبعك من الغاوين جعل لك على نفسه سلطاناً ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: موعد إبليس ومن تبعه ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أن جهنم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض، ووضع إحدى يديه على الأخرى فقال هكذا، وإن الله وضع الجنان على العرض، ووضع النيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها لظى، وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، وفي رواية الكلبي: أسفلها الهاوية، وأعلاها جهنم، وعن ابن عباس أن الباب الأول جهنم، والثاني سعير، والثالث سقر، والرابع جحيم، والخامس لظى، والسادس الحطمة، والسابع الهاوية، اختلفت الروايات في ذلك كما ترى، وهو قول مجاهد، وعكرمة، والجبائي. قالوا: إن أبواب النيران كإطباق اليد على اليد.

والآخر: ما روي عن الضحاك قال: للنار سبعة أبواب، وهي سبعة أدراك بعضها فوق بعض، فأعلاها فيه أهل التوحيد، يعذبون على قدر أعمالهم وأعمارهم في الدنيا، ثم يخرجون، والثاني فيه اليهود، والثالث فيه النصارى، والرابع فيه الصابئون، والخامس فيه المجوس، والسادس فيه مشركو العرب، والسابع فيه المنافقون، وذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهو قول الحسن وأبي مسلم، والقولان متقاربان ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من الغاوين ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: نصيب مفروض، عن ابن عباس.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

● **اللغة:** الغل: الحقد الذي ينغل في القلب، ومنه الغُلُّ الذي يجعل في العنق، والغلول: الخيانة التي يطوق عارها صاحبها. والسرير: المجلس الرفيع الموطأ للسرور، وجمعه الأسرة والسرر. والنصب: التعب والوهن الذي يلحق من العمل، مشتق من الانتصاب، لأن صاحبه ينتصب بالانقطاع عن العمل، للوهن الذي يلحقه.

● **المعنى:** لما ذكر سبحانه عباده المخلصين، عقبه بذكر حالهم في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون عقاب الله باجتناب معاصيه ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ أي: في بساتين خلقت لهم ﴿وَعُيُونٍ﴾ من ماء وخمر وعسل، يفور من الفوارة ثم يجري في مجاريها ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا الجنات بسلامة من الآفات، وبراءة من المكاره والمضرات ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الإخراج منها، ساكني النفس إلى انتفاء الضرر فيها ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: وأزلنا عن صدور أهل الجنة ما فيها من أسباب العداوة من الغل، أي: الحقد، والحسد، والتنافس، والتباغض ﴿إِخْوَٰنًا﴾ منصوب على الحال، أي: وهم يكونون إخواناً متوادين، يريد مثل الإخوان فيصفو لذلك عيشهم ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ أي: كائنين على مجالس السرور ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ متواجهين ينظر بعضهم إلى وجه بعض. قال مجاهد: لا يرى الرجل في الجنة قفا زوجته، ولا ترى زوجته قفاه، لأن الأسرة تدور بهم كيفما شاءوا، حتى يكونوا متقابلين في عموم أحوالهم. وقيل: متقابلين في الزيارة. إذا تزاوروا استوت مجالسهم ومنازلهم، وإذا افترقوا كانت منازل بعضهم أرفع من بعض ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿نَصَبٌ﴾ أي: عناء وتعب، لأنهم لا يحتاجون إلى إتعاب أنفسهم لتحصيل مقاصدهم، إذ جميع النعم حاصلة لهم ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي: يبقون فيها مؤبدين. ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يخبر عباده بكثرة عفوه ومغفرته ورحمته لأوليائه، وشدة عذابه لأعدائه، فقال: ﴿نَبِّئْ﴾ يا محمد ﴿عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ﴾ أي: كثير الستر لذنوب المؤمنين ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ كثير الرحمة لهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ فلا تعولوا على محض غفراني ورحمتي، وخافوا عقابي ونقمتي.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن

يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وحده: ﴿فَبِمَ تبشرُونِ﴾ خفيفة النون مكسورة، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونِّ﴾ مشددة النون مكسورة، وقرأ الباقون: ﴿تبشرونَ﴾ مفتوحة النون خفيفة، وروى أبو علي الضرير، عن روح، وغيره، عن يعقوب: ﴿فبم تبشروني﴾ بإثبات الياء. وقرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿يَقنِطُ ويقنِطوا﴾ بكسر النون حيث كان، والباقون بفتح النون. وقرأ: ﴿لمنجوهم﴾ خفيفة: أهلُ الكوفة، غير عاصم، ويعقوبُ، والباقون بالتشديد. وقرأ: ﴿قَدَرْنَآ﴾ بالتخفيف أبو بكر عن عاصم، وكذلك في النمل، والباقون بالتشديد.

● **الحجة:** قال أبو علي: الوجه في قراءة نافع، أنه أراد تبشرونني، إلا أنه حذف النون الثانية استثقالا، لأن التكرير بها وقع، ولم يحذف النون الأولى التي هي علامة الرفع، وقد حذفوا هذه النون في كلامهم لأنها زائدة، ولأن علامة الضمير الياء من دونها، قال:

أبالموْت الذي لا بُدَّ أني ملاقٍ - لا أباكِ - تُخوِّفيني

وقال:

تراه كالثَّغام يَعَلُّ مِسْكاً يسوء الفالياتِ إذا فَلَيْني[1]

والوجه في تشديد ابن كثير النون، أنه أدغم النون الأولى التي هي علامة الرفع في الثانية المتصلة بالياء التي هي المضمر المنصوب المتكلم، ومن فتح النون فلأنه لم يعدّ الفعل إلى المفعول به كما عدى غيره، وحذف المفعول به كثير، والنون علامة الرفع، وقنِط يقنَط، لغتان، وكان قنَط يقنِط أعلى، ويدل على ذلك إجماعهم في قوله: ﴿قَنَطُوا۟﴾ وحكى أن يقنط لغة، وهذا يدل على أن يقنَط أكثر، لأن مضارع فعل يجيء على يفعُل ويفعِل. وحجة من قرأ: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ قوله: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وحجة من قرأ بالتخفيف قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وقدَرت بالتخفيف لغة في قدَّرت، يدل على ذلك قول الهذلي:

ومُفرِهَةٍ عَنسٍ قَدَرتُ لِساقها فخرَّت كما تَتَّابَع الرّيح بالقَفلِ[2]

والمعنى: قدرت ضربتي لساقها، فضربتها. فحذف لدلالة الكلام عليه، فمن قرأ ﴿قدرنا﴾ مخففاً، كان في معنى التشديد.

اللغة: الضيف: هو المنضوي إلى غيره لطلب القرى، وهو يقع على الواحد والإثنين

---

(١) البيت في (جامع الشواهد).

(٢) العنس: الناقة القوية. ومفرهة: التي تلد الفرهة، يقال دابة فارهة أي: نشيطة حادة قوية. واتابعت الريح بورق الشجر: إذا ذهبت به، وأصله تتابعت به. والقفل: ما يبس من الشجر.

والجمع، لأنه في الأصل مصدر وصف به ، وقد يجمع بالأضياف والضيوف والضيفان. والوجل: الخوف ، يقال: وجل يوجل، وياجل، وييجل: إذا خاف، والخطب: الأمر الجليل، ومنه الخطبة، والخطبة. والمجرم: المنقطع عن الحق إلى الباطل ، وهو القاطع لنفسه عن المحاسن إلى القبائح. والغابر: الباقي فيمن يهلك ، قال الشاعر:

فما ونى محمدٌ مذ أنْ غَفَرْ ... له الإله ما مضى، وما غَبَرْ

● **الإعراب:** ﴿سَلَٰمٗا﴾ منصوب على المصدر، كأنهم قالوا: سلَّمنا. ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ قال الزجاج: هو استثناء ليس من الأول، وقوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ استثناء من الهاء والميم في قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ﴾ وقوله: ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ في معنى: علمنا أنها لمن الغابرين. قال أبو عبيدة: في الآية معنى فقهي كان أبو يوسف يتأوله فيها، وهو أن الله استثنى آل لوط من المجرمين، ثم استثنى امرأة لوط من آل لوط، فرجعت امرأته في التأويل إلى القوم المجرمين، وكذلك كل استثناء في الكلام، إذا جاء بعد استثناء آخر، دعا المعنى إلى أول الكلام، كقول الرجل لفلان عليَّ عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهماً، فإنه يكون إقراراً بسبعة، وكذلك لو قال له: عليَّ خمسة إلا درهماً إلا ثلثاً، كان إقراراً بأربعة وثلث.

● **المعنى:** لما ذكر سبحانه الوعد والوعيد عقَّبه بذكر قصة إبراهيم عليه السلام وقوم لوط، مصدقاً لما ذكره وإرشاداً إلى الدلالة بالعاجل على الآجل، فقال: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: وأخبرهم عن أضياف إبراهيم ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ يعني الملائكة، وإنما سماهم ضيفاً لأنهم جاؤوه في صورة الأضياف ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي: سلموا عليه سلاماً على وجه الدعاء والتحية، وبشَّروه بالولد وبإهلاك قوم لوط ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ﴾ أي: لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ أي: نخبرك بما يسرك ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ أي: بولد يكون غلاماً إذا ولد، ويكون عليماً إذا بلغ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي﴾ بالمولود ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ أي: في حال الكبر الذي يوجب اليأس عن الولد ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أبأمر الله تعالى فأثق به أم من جهة أنفسكم؟ ومعنى ﴿مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ غيَّرني الكبر عن حال الشباب الذي يطمع في الولد، إلى حال الهرم، وقيل: معناه: عن رأس الكبر ﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام: إنا بشرناك بذلك على وجه الحقيقة بأمر الله ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ أي: اليائسين، فأجابهم إبراهيم عليه السلام بأن ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي: ومن الذي ييأس من رحمة الله وحسن إنعامه إلا العادلون عن الحق، الضالون عن طريق الهدى، الجاهلون بقدرته على خلق الولد من الشيخ الكبير، وهذا القول من إبراهيم عليه السلام يدل على أنه لم يكن قانطاً، ولكنه استبعد ذلك، فظنته الملائكة قنوطاً فنفى ذلك عن نفسه ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام بعد ذلك للملائكة ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي: ما الأمر الجليل الذي بعثتم له وما شأنكم، وسماهم مرسلين لما علم أنهم ملائكة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ أي: مذنبين وقيل كافرين أخبروه بهلاكهم واقتصروا على هذا لأن من المعلوم أن الملائكة إنما يرسلون إلى المجرمين للهلاك ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ استثنى منهم آل لوط، وهم خاصته وعشيرته،

وإنما استثناهم منهم وإن لم يكونوا مجرمين من حيث كانوا من قوم لوط، وممن بعث إليهم، وقيل: إن معناه: لكن آل لوط ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: نخلصهم أجمعين من العذاب ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ استثنى امرأة لوط من آل لوط، لأنها كانت كافرة ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: من الباقين في المدينة مع المهلكين، أي: قضينا أنها تهلك كما يهلكون.

●●●

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

● **اللغة:** الإسراء: سير الليل، يقال: سَرَى يسرِي. سرى، وأسرى إسراء لغتان، قال امرؤ القيس:

سريتُ بهم حتى تَكِلَّ مَطِيُّهُم ... وحتى الجيادُ ما يُقدن بأرسانِ[1]

والقطع: كأنه جمع قطعة مثل بسرة وبسر، وتمرة وتمر. والاتباع: اقتفاء الأثر. والاتباع في المذهب والاقتداء بمعنى. وخلافه الابتداع. والأدبار: جمع دبر، وهو جهة الخلف، والقبل: جهة القدام، وقد يكنى بهما عن الفرج. والدابر: الأصل، وقيل: إن الدابر الآخر. وعَقِبُ الرجل: دابره. والعَمْر والعُمْر واحد، غير أنه لا يجوز في القسم إلا بالفتح، لأن الفتح أخف عليهم، وهم يكثرون القسم بلعمري، ولعمرك، فلزموا الأخف.

● **الإعراب:** ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ موضع ﴿أَنَّ﴾ نصب بأنه بدل من ﴿ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ لأنه تفسيره، ويجوز أن يكون نصباً على حذف الجار، فكأنه قال: وقضينا إليه بأن دابرهم مقطوع. وقوله: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ نصب على الحال. و ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أيضاً في موضع نصب على الحال ﴿لَعَمْرُكَ﴾ مرفوع على الابتداء، وخبره محذوف، والتقدير: لعمرك قسمي أو لعمرك ما أقسم به، ولا يستعمل إظهار هذا الخبر، قال الزجاج: إن باب القسم يحذف معه الفعل، تقول: والله لأفعلن، وبالله لأفعلن، والمعنى: أحلف بالله، فحذف الفعل للعلم به، فكذلك حذف خبر الابتداء لدلالة الكلام عليه.

---

(١) مر البيت في شرح سورة هود في الجزء الخامس من هذا الكتاب.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه أن الملائكة لما خرجوا من عند إبراهيم عليه السلام، أتوا لوطاً عليه السلام، يبشرونه بهلاك قومه، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ وإنما قال لهم لوط ذلك، لأنهم جاؤوه على صفة المرد على هيئة وجمال لم يرَ مثلهم قط، فأنكر شأنهم وهيأتهم. وقيل: إنه أراد أني أنكركم فعرِّفوني أنفسكم ليطمئن قلبي ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: بالعذاب الذي كانوا يشكُون فيه إذا خوَّفتهم به ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعذاب المستيقن به ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به. وقيل: معناه: وأتيناك بأمر الله تعالى ولا شك أن أمره سبحانه حق ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ ومعناه: سر بأهلك بعدما يمضي أكثر الليل ويبقى قطعة منه ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: اقتف أثرهم، وكن وراءهم، لتكون عيناً عليهم فلا يتخلف أحد منهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: لا يلتفت أحد منكم إلى ما خلَّف وراءه في المدينة، وهذا كما يقول القائل: امض لشأنك ولا تعرج على شيء. وقيل: لا ينظر أحد منكم وراءه لئلا يروا العذاب فيفزعوا، ولا يحتمل قلبهم ذلك، عن الحسن، وأبي مسلم ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي: اذهبوا إلى الموضع الذي أمركم الله بالذهاب إليه وهو الشام، عن السدي ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أعلمنا لوطاً وأخبرناه، وأوحينا إليه ما ننزل بهم من العذاب ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ يعني أن آخر من يبقى منهم يهلك وقت الصبح، وهو قوله: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ أي: داخلين في وقت الصبح، والمراد أنهم مستأصَلون بالعذاب وقت الصباح، على وجه لا يبقى منهم أثر ولا نسل ولا عقب ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضاً بنزول من هو في صورة الأضياف بلوط، وإنما فرحوا طمعاً في أن ينالوا الفجور منهم.

﴿قَالَ﴾ لوط لهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فيهم، والفضيحة: إلزام العار والشنار بالإنسان، ومعناه: لا تلزموني فيهم عاراً بقصدكم إياهم بالسوء ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ باجتناب معاصيه ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ في ضيفي، والخزي: الانقماع بالعيب الذي يستحيا منه ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معناه: أولم ننهك أن تجير أحداً أو تضيف أحداً، قال الجبائي: وهذا القول إنما كان من لوط لقومه قبل أن يعلم أنهم ملائكة بعثوا لإهلاك قومه، وإنما ذكر مؤخراً، وهو في المعنى مقدم، كما ذكر في غير هذه السورة ﴿قَالَ﴾ لوط لهم وأشار إلى بناته لصلبه ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ فتزوجوهن إن كان لكم رغبة في التزويج، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة. وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ كناية عن النكاح إن كنتم متزوجين. قيل: وإنما قال ذلك للرؤساء الذي يكفُون الأتباع، وقد كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر يومئذ، وقد كان ذلك أيضاً جائزاً في صدر شريعتنا ثم حرم، عن الحسن، والجبائي. وقيل: إنهن كن بنات قومه عرضهن عليهم بالتزويج، والاستغناء بهن عن الذكران، والأول أوضح ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: وحياتك يا محمد، ومدة بقائك حياً، وقال المبرد: هو دعاء، ومعناه: اسأل الله عمرك. قال ابن عباس: ما خلق الله عز وجل ولا ذرأ ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد إلا بحياته، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾. ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ومعناه: أنهم لفي غفلتهم يتحيرون ويترددون فلا يبصرون طريق الرشد.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا
لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا
مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾
فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ جميع القراء: ﴿ٱلْأَيْكَةِ﴾ هاهنا لأنها مكتوبة بالألف، إلا ورشا عن نافع، فإنه يترك الهمزة، ويرد حركتها إلى اللام.

● **الحجة:** إذا خففت الهمزة في ﴿ٱلْأَيْكَةِ﴾ وقد ألحقتها الألف واللام حذفتها وألقيتَ حركتها على اللام، ويجوز فيه إذا استؤنف لغتان، فمن قال: أَلَحْمَر[1] قال: أَلَيْكَة، ومن قال: لَحْمَر قال: لَيْكَةُ.

● **اللغة:** الأيكة الشجر الملتف، وجمعها أيْك، مثل شجرة وشجر، قال أمية:

كَبُكَا الحَمامِ على فُرو ... عِ الأيك في الطيرِ الجوانح[2]

وقيل: الأيكة: الغَيْضَة، والمتوسِّم: الناظر في السمة الدالة وهي العلامة. ويقال: وسمْتَ الشيء وسْماً، إذا أثرت فيه بسِمَة، ومنه الوسْميُّ: أول المطر، لأنه يسِم الأرض بالنبات، وتوسَّم الرجلُ: طلب كلأ الوسْميِّ، قال:

وأصْبَحْنَ كَالدَّوْمِ النَّواعِمِ غُدْوَةً ... على وِجْهَةٍ مِن ظاعِنٍ متوسِّمِ[3]

وتوسَّم فيه الخير: إذا عرف سِمة ذلك فيه. والأمام: الطريق، والإمام المبين: اللوح المحفوظ. والإمام في اللغة: هو المتقدم الذي يتبعه من بعده. الحِجْر: أخِذَ من الحجر الذي هو المنع، ومنه سمي العقل حِجْراً، لأنه يمنع من القبائح.

● **الإعراب:** انتصب قوله: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ و﴿مُصْبِحِينَ﴾ على الحال. يقال: أشرقوا وهم مشرقون إذا صادفوا شروق الشمس، وهو طلوعها، كما يقال: أصبحوا إذا صادفوا الصبح، فمعنى مشرقين: مصادفين لطلوع الشمس، و﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ مخففة من الثقيلة ﴿ءَامِنِينَ﴾ منصوب على الحال.

---

(١) في قولهم الأحمر جاءني.
(٢) من قصيدة قالها في رثاء من أُصيب من قريش يوم بدر، وقبل هذا البيت، وهو أول القصيدة «الا بكيت على الكرام بني الكرام أولي الممادح» والجوانح: الموائل يقال: جنح إذا مال.
(٣) الدوم: شجر يشبه النخل. وشجرة ناعمة الورق ورقها كورق السلق، ولا تنبت إلا على ماء، ولا ثمر لها، وهي خضراء غليظة الساق.

● **المعنى**: ثم أخبر سبحانه عن كيفية عذاب قوم لوط، فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ أي: أخذهم الصوت الهائل في حال شروق الشمس ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ مضى تفسيره في سورة هود ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ معناه: أن فيما سبق ذكره من إهلاك قوم لوط لدلالات للمتفكرين المعتبرين، عن قتادة، وابن زيد، وقيل: للمتفرسين، عن مجاهد. وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». وقال: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم». ثم قرأ هذه الآية. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: نحن المتوسمون، والسبيل فينا مقيم، والسبيل طريق الجنة، ذكره علي بن إبراهيم في تفسيره ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ معناه: إن مدينة لوط لبطريق مسلوك، يسلكها الناس في حوائجهم فينظرون إلى آثارها، ويعتبرون بها، لأن الآثار التي يستدل بها مقيمة ثابتة بها، وهي مدينة سدوم. وقال قتادة: إن قرى قوم لوط بين المدينة والشام ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: عبرة ودلالة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وخصَّ المؤمنين لأنهم هم الذين انتفعوا بها.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ وأصحاب الأيكة: هم أهل الشجرة الذين أرسل إليهم شعيب عليه السلام، وأرسل إلى أهل مدين فأهلكوا بالصيحة. وأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة التي احترقوا بنارها، عن قتادة، وجماعة من المفسرين. ومعنى الآية: إنه كان أصحاب الأيكة لظالمين في تكذيب رسولهم، وكانوا أصحاب غياض فعاقبهم الله تعالى بالحر سبعة أيام، ثم أنشأ سبحانه سحابة فاستظلوا بها يلتمسون الروح فيها، فلما اجتمعوا تحتها أرسل منها صاعقة فأحرقتهم جميعاً ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من قوم شعيب، ومن قوم لوط، أي: عذبناهم بما انتقمناه منهم، والانتقام: هو المجازاة على جناية سابقة. وفرَّق علي بن عيسى بين الانتقام والعقاب، بأن الانتقام: هو نقيض الإنعام، والعقاب: هو نقيض الثواب ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ معناه: وإن مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة بطريق يُؤم ويتبع ويُهتدى به، عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وسمي الطريق إماما، لأن الإنسان يؤمّه، وقيل: معناه: وإن حديث مدينتيهما لمكتوب مذكور في اللوح المحفوظ أو حديث لوط وحديث شعيب، عن الجبائي، فيكون نظير قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ والمبين: الظاهر. ثم أخبر سبحانه عن إهلاك قوم صالح فقال:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ والحجر: اسم البلد الذي كان فيه ثمود، وإنما سموا أصحاب الحجر لأنهم كانوا سكانه، كما يسمي الأعراب الذين يسكنون البوادي أصحاب الصحاري، لأنهم كانوا يسكنونها. وقيل: إن الحجر اسم لواد كان يسكنه هؤلاء، عن قتادة. وإنما قال تعالى ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن في تكذيب صالح تكذيب المرسلين، لأنه كان يدعوهم إلى ما دعا إليه المرسلون، وإلى الإيمان بالمرسلين، فكان في تكذيب أحدهم تكذيب الجميع. وقيل: بعث الله إليهم رسلًا منهم صالح، عن الجبائي ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ أي: آتينا أصحاب الحجر الحجج والمعجزات والدلالات الدالة على صدق الأنبياء. وقيل: آتينا الرسل الآيات - عن الحسن ﴿فَكَانُوا عَنْهَا﴾ أي: عن الآيات ﴿مُعْرِضِينَ﴾ أعرضوا عن التفكر فيها والاستدلال بها ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ أي: وكان قوم صالح في القوة بحيث ينحتون من الجبال بيوتاً يسكنونها، وكانوا آمنين من خرابها وسقوطها عليهم. وقيل: كانوا آمنين من عذاب الله. وقيل:

آمنين من الموت لطول أعمارهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: فأهلكوا بالصيحة في وقت دخولهم في الصباح ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أي: فما دفع عنهم العذاب ولم يغنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: يجمعون من المال والأولاد وأنواع الملاذ.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾.

● **اللغة:** عضين: جمع عضة، وأصله عِضْوَة فنقصت الواو، ولذلك جمعت عضين بالنون، كما قال: عزة وعزون، والأصل: عِزْوَة. والتعضية: التفريق، مأخوذ من الأعضاء، يقال: عَضَّيْت الشيء، أي فرقته وبعضته. قال رؤبة:

(وليس دين الله بالمعضي)

وقال آخر:

تلك ديارُ تَأزِمُ المآزِما وعَضَواتٌ تقطع اللهازما(١)

وقيل: أصل عضة عضَهَةٌ، فحذفت الهاء كما حذفت من شفة وشاة، وأصلها شَفَهَةٌ وشاهة، بدلالة أن الجمع شفاه وشياه بالهاء، والتصغير شفيهة وشويهة.

● **المعنى:** ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ معناه: وما خلقناهما عبثاً، بل لما اقتضته الحكمة، وهي أنا قد تعبدنا أهلها، ثم نجازيهم بما عملوا ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ وهي يوم القيامة ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾ أي: جائية بلا شك بعذابهم. وقيل: بمجازاة الخلائق كلهم. وقيل: هو تفسير قوله ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾. ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ أي: فأعرض يا محمد عن مجازاة المشركين، وعن مجاوبتهم، واعف عنهم عفواً جميلاً. واختلف في الآية. فقيل: إنها منسوخة بآية القتال، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والضحاك. وقيل: لا نسخ فيه، بل هو فيما بين النبي ﷺ وبينهم، لا فيما أمر به من جهة جهادهم، أمره بالصفح عنهم في موضع الصفح، لقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾، عن الحسن. قال القاضي: والصفح ممدوح في سائر الحالات، وهو كالحلم والتواضع، وقد يلزمنا الصفح الجميل مع لزوم التشدد في أمر الجهاد. وحكي عن علي بن أبي

---

(١) المآزم جمع المأزم: المضيق. وعضوات: جمع عضة: كل شجر له شوك. واللهازم: أصول الحنكين، واحدتها لهزمة - بالكسر - وفي (اللسان): «هذا طري يأزم. ا. هـ». وقال ابن منظور: ويروى «عصوات» جمع عصا.

طالب عليه السلام: أن الصفح الجميل: هو العفو من غير عتاب. وقيل: هو العفو بغير تعنيف وتوبيخ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ للأشياء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم. ويجوز أن يريد: إن ربك هو الذي خلقكم، وعلم ما هو الأصلح لكم، وقد علم أن الصفح أصلح الآن إلى أن يؤمر بالسيف، ثم ذكر سبحانه ما خصَّ به نبيه صلى الله عليه وآله من النعم فقال:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ وقد تقدم الكلام فيه، وأن السبع المثاني هي فاتحة الكتاب، وهو قول علي عليه السلام، وابن عباس، والحسن، وأبي العالية، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، ومجاهد، وقتادة، وروي ذلك عن أبي عبد الله، وأبي جعفر عليهما السلام. وقيل: هي السبع الطوال، وهي السور السبع من أول القرآن، وإنما سميت مثاني لأنه يثني فيها الأخبار والعبر، عن ابن عباس في رواية أخرى، وابن مسعود، وابن عمر، والضحاك. وقيل: المثاني القرآن كله، لقوله: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾، عن أبي مالك، وطاووس، وروي نحو ذلك عن ابن عباس، ومجاهد، ومن قال: هي فاتحة الكتاب، اختلفوا في سبب تسميتها مثاني، فقيل: لأنها تثنى قراءتها في الصلاة، عن الحسن، وأبي عبد الله عليه السلام، وقيل: لأنها تثني بها مع ما يقرأ من القرآن، عن الزجاج، وقيل: لأن فيها الثناء مرتين، وهو الرحمن الرحيم، وقيل: لأنها مقسومة بين الله وعبده على ما روي في الخبر. وقيل: لأن نصفها ثناء ونصفها دعاء، وقيل: لأنها نزلت مرتين تعظيماً وتشريفاً لها. وقيل: لأن حروفها كلها مثناة نحو الرحمٰن الرحيم، إياك وإياك، الصراط وصراط وقيل: لأنها تَثْنِي أهل الفسق عن الفسق. ومن قال: المراد بالمثاني القرآن كله، فإن ﴿مِّنَ﴾ في قوله ﴿مِّنَ الْمَثَانِي﴾ يكون للتبعيض. ومن قال: إنها الحمد كان ﴿مِّنَ﴾ للتبيين، وقال الراجز:

نشدتُكم بمنزلِ القرآنِ أُمِّ الكتاب السبْعِ من مثاني
ثنتين من آيٍ منَ القرآنِ والسَّبْعِ سبع الطُّولِ الدَّواني

﴿وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ تقديره: وآتيناك القرآن العظيم، وصفه بالعظيم، ولأنَّه يتضمن جميع ما يحتاج إليه من أمور الدين بأوجز لفظ، وأحسن نظم، وأتمّ معنى.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: لا ترفعن عينيك من هؤلاء الكفار إلى ما متعناهم، وأنعمنا عليهم به أمثالًا في النعم من الأموال، والأولاد، وغير ذلك من زهرات الدنيا، فإنها في معرض الزوال والفناء، مع ما يتبعها من الحساب والجزاء، وعلى هذا فيكون ﴿أَزْوَاجًا﴾ منصوباً على الحال، والمراد به الأشباه والأمثال. وقيل: إن معناه، لا تنظرن إلى ما في أيديهم من النعم التي هي أشباه يشبه بعضها بعضاً، فإن ما أنعمنا عليك وعلى من اتبعك من أنواع النعم، وهي النبوة، والقرآن، والإسلام، والفتوح، وغيرها أكثر وأوفر مما آتيناهم. وقيل: إن معناه، ولا تنظرن، ولا تعظمن في عينيك، ولا تمدهما إلى ما متعنا به أصنافاً من المشركين، والأزواج الأصناف، ويكون على هذا مفعولًا به، نهى الله رسوله عن الرغبة في الدنيا، فحظر عليه أن يمدَّ عينيه إليها، وكان رسول الله لا ينظر إلى ما يستحسن من الدنيا ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على كفار قريش إن لم يؤمنوا ونزل بهم العذاب، عن الكلبي. وقيل: لا

تحزن عليهم بما يصيرون إليه من عذاب النار بكفرهم، عن الحسن. وقيل: لا تحزن بما أنعمت عليهم دونك، عن الجبائي. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ألن لهم جانبك وارفق بهم، عن ابن عباس. والعرب تقول: فلان خافض الجناح، إذا كان وقوراً حليماً، وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه، بسط جناحه ثم خفضه، فالمعنى: تواضع للمؤمنين لكي يتبعك الناس في دينك.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ معناه: وقل: إني أنا المعْلم بموضع المخافة ليتقى، المبين لكم ما تحتاجون إليه، وما أرسلت به إليكم ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قيل فيه قولان:

أحدهما: أن معناه، أنزلنا القرآن عليك، كما أنزلنا على المقتسمين، وهم اليهود والنصارى ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أي: فرقوه وجعلوه أعضاء كأعضاء الجزور، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، عن قتادة قال: آمنوا بما وافق دينهم، وكفروا بما خالف دينهم. وقيل: سماهم مقتسمين لأنهم اقتسموا كتب الله تعالى، فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، عن ابن عباس.

والآخر: أن معناه، أني أنذركم عذاباً كما أنزلنا على المقتسمين، الذين اقتسموا طرق مكة، يصدون عن رسول الله ﷺ والإيمان به. قال مقاتل: وكانوا ستة عشر رجلًا، بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، يقولون لمن أتى مكة: لا تغتروا بالخارج منا، والمدعي النبوة، فأنزل الله بهم عذاباً، فماتوا شر ميتة، ثم وصفهم فقال ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أي: جزّأوه أجزاء، فقالوا: سحر، وقالوا: أساطير الأولين، وقالوا: مفترى، عن ابن عباس.

● **النظم:** وجه اتصال الآية الأولى بما قبلها، هو أن الأمم لما خالفوا الحق أهلكوا، لأن الله تعالى ما خلق السماوات والأرض إلا بالحق، وأن الساعة آتية للجزاء، وأن جميع ما خلق الله يرجع إلى عالم يدبره. واتصل قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ بقوله ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ فإنه سبحانه لما أمره بالصفح عن أذاهم، بيَّن ما خصه الله به من النعم، وما له من الحجة عليهم. واتصل قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ على القول الأول بهذا. أي: كما أنزلنا عليهم أنزلنا إليك القرآن، وعلى القول الثاني يتصل بقوله: ﴿أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾.

●●●

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

● **اللغة:** الصدع، والفرق، والفصل، نظائر، وصدع بالحق إذا تكلم به جهاراً. قال أبو ذؤيب:

وكـأنـهـن ربـابـةٌ وكـأنـه   يسرٌ يفيضُ على القداحِ، ويَصدَعُ(١)

والصديع: الصبح، قال:

(كـأنَّ بـيـاضَ غُـرَّتـه الـصـديـعُ)(٢)

● **الإعراب:** ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾: إن جعلت ﴿مَا﴾ بمعنى الذي كان العائد من الصلة إلى الموصول محذوفاً، ويكون تقديره على استعمال الصيغة فيه: فاصدع بما تؤمر بالصدع به، ثم تحذف الباء التي في به فيصير: بالصدعة، ولا يجوز الإضافة مع لام المعرفة، فتُحذَف لام المعرفة توصلًا بحذفه إلى الإضافة، فيصير: بما تؤمر بصدعه، ثم يحذف المضاف ويقيم المضاف إليه مقامه فيبقى: بما تؤمر به. ثم يحذف حرف الجر على حد قولك: أمرتك الخير في إمرتك بالخير، فيصير: بما تؤمره، ثم يحذف العائد المنصوب من الصلة على ما قد تكرر بيانه في مواضع، فيصير: بما تؤمر، وهذا من لطائف أسرار النحو.

وإن جعلت ﴿مَا﴾ مصدرية كان على تقدير: فاصدع بالأمر، كما تقول: عجبت مما فعلت، والتقدير: عجبت من فعلك، ولا يحتاج هنا إلى عائد يعود إلى: ما، لأنه حرف. وحكى يونس النحوي عن رؤبة أنه قال في هذه اللفظة: أفصح ما في القرآن.

● **المعنى:** لما بيَّن سبحانه كفرهم بالقرآن، وتعضيتهم له، بيَّن عقيب ذلك لنبيه ﷺ أنه يسألهم عما فعلوه، ويجازيهم عليه، فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أقسم بنفسه وأضاف نفسه إلى نبيه ﷺ تشريفاً له، وتنبيهاً للخلق على عظيم منزلته عنده، لنسألن هؤلاء الكفار سؤال توبيخ وتقريع، بأن نقول لهم: لم عصيتم؟ وما حجتكم في ذلك؟ فيظهر عند ذلك خزيهم وفضيحتهم عند تعذر الجواب ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ معناه: عما عملوا فيما عملوا، عن سفيان بن عيينة. وقيل: عن لا إله إلا الله، والإيمان برسله، عن الكلبي. وقيل: عما كانوا يعبدون، وبماذا أجابوا المرسلين، عن أبي العالية ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أظهر وأعلن وصرّح بما أمرت به غير خائف، عن ابن عباس، وابن جريج، ومجاهد، وابن زيد. وقيل: معناه، فافرق بين الحق والباطل بما أمرت به، عن الجبائي. والأخفش. وقيل: أبن ما تؤمر به وأظهره، عن الزجاج قال: وتأويل الصدع في الزجاج وفي الحائط أن تبين بعض الشيء عن بعض ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تخاصمهم إلى أن تؤمر بقتالهم. وقيل: معناه، لا تلتفت إليهم ولا تخف عنهم، عن أبي مسلم. وقيل: وأعرض عن مجاوبتهم إذا آذوك، عن الجبائي ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ أي: كفيناك شر المستهزئين واستهزاءهم، بأن أهلكناهم، وكانوا خمسة نفر من قريش، العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، وأبو زمعة، وهو الأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحرث بن قيس، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير. وقيل: كانوا ستة رهط، عن محمد بن ثور، وسادسهم: الحارث بن الطلاطلة، وأمه عيطلة.

---

(١) الربابة جعبة يحمل فيها القدام. واليسر بمعنى الياسر: اللاعب بالقداح وأفاض القداح: ضرب بها يصف الخمار وحانته.

(٢) قائله: «عمرو بن معد يكرب، وقبله: «ترى السرحان مفترشاً يديه». السرحان الأسد.

قالوا: وأتى جبرائيل النبي ﷺ والمستهزئون يطوفون بالبيت، فقام جبرائيل ورسول الله إلى جنبه فمرّغ به الوليد بن المغيرة المخزومي، فأومأ بيده إلى ساقه، فمرّغ الوليد على قين لخزاعة، وهو يجرُّ ثيابه، فتعلقت بثوبه شوكة، فمنعه الكبر أن يخفض رأسه فينزعها، وجعلت تضرب ساقه فخدشته، فلم يزل مريضاً حتى مات.

ومرَّ به العاص بن وائل السهمي، فأشار جبرائيل إلى رجله، فوطىء العاص على شوكة، فدخلت في أخمص رجله! فقال: لدغت! فلم يزل يحكها حتى مات.

ومرَّ به الأسود بن المطلب بن عبد مناف فأشار إلى عينه فعمي، وقيل: رماه بورقة خضراء فعمي، وجعل يضرب رأسه على الجدار حتى هلك.

ومرَّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى فمات، وقيل: أصابه السموم فصار أسود فأتى أهله فلم يعرفوه فمات وهو يقول: قتلني رب محمد!

ومرَّ به الحارث بن الطلاطلة فأومأ إلى رأسه فامتخط قيحاً، فمات، وقيل: إن الحرث بن قيس أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فما زال يشرب حتى انقدّ بطنه فمات.

ثم وصفهم سبحانه بالشرك فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾ أي: اتخذوا معه إلهاً يعبدونه ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ هذا وعيد لهم وتهديد.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَضِيقُ صَدۡرُكَ﴾ أي: قلبك ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبك والاستهزاء بك، وهذا تعزية من الله تعالى لنبيه وتطييب لقلبه ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي: قل: سبحان الله وبحمده ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: المصلين، عن الضحاك، وابن عباس، قال: وكان رسول الله ﷺ إذا حزنه أمر، فزع إلى الصلاة. وقيل: معناه، احمد ربك على نعمه إليك، وكن من الذين يسجدون لله، ويتوجهون بعبادتهم إليه ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ أي: إلى أن يأتيك الموت، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد. وقيل: حتى يأتيك اليقين من الخير والشر عند الموت، عن قتادة. وسمي الموت يقيناً لأنه موقن به، ويحتمل أن يكون أراد حتى يأتيك العلم الضروري بالموت، والخروج من الدنيا الذي يزول معه التكليف. قال الزجاج: المعنى اعبد ربك أبد الآبدين. ولو قال: اعبد ربك بغير توقيت لجاز أن يكون الإنسان مطيعاً إذا عبد الله مرة، فإذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ فقد أمر بالإقامة على العبادة أبداً ما دام حياً.

سُورَةُ النَّحْلِ

أربعون آية من أولها مكية، والباقي من قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ إلى آخر السورة مدنية، عن الحسن، وقتادة.

وقيل: مكية كلها غير ثلاث آيات نزلت في انصراف النبي ﷺ من أحد ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا﴾ إلى آخر السورة نزلت بين مكة والمدينة، عن ابن عباس، وعطاء، والشعبي.

وفي إحدى الروايات عن ابن عباس: بعضها مكي وبعضها مدني، فالمكي من أولها إلى قوله: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والمدني قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

● **عدد آيها:** مائة وثمان وعشرون آية، ليس فيها خلاف.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: من قرأها لم يحاسبه الله تعالى بالنعم التي أنعمها عليه في دار الدنيا، وأعطي من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية، وإن مات في يوم تلاها، أو ليلة، كان له من الأجر كالذي مات فأحسن الوصية. وروى محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة النحل في كل شهر كُفِيَ المغرم في الدنيا، وسبعين نوعاً من أنواع البلاء، أهونه الجنون والجذام والبرص، وكان مسكنه في جنة عدن، وهي وسط الجنان.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه سورة الحجر بوعيد الكفار، كان افتتاح هذه السورة بوعيدهم أيضاً، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾.

● **القراءة:** ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بالتاء كوفي غير عاصم، والباقون بالياء ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بفتح التاء والزاي والتشديد، ورفع ﴿الملائكةُ﴾ روح وزيد عن يعقوب وسهل، وهي قراءة الحسن، والباقون ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالياء وبكسر الزاي ونصب ﴿الملائكةَ﴾ وابن كثير وأبو عمرو يخففان ﴿ينزل﴾ على أصلهما، وكذلك رويس عن يعقوب، والباقون يشددون.

● **اللغة:** قيل: إن التسبيح بالتشديد في اللغة على أربعة أقسام:

الأول: التنزيه كقوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾.

والثاني: بمعنى الاستثناء، كقوله: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تستثنون بقولكم: إن شاء الله.

والثالث: بمعنى الصلاة، كقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾.

والرابع: بمعنى النور، كما جاء في الحديث: فلولا سُبُحات وجهه، أي: نوره.

والرُّوح يأتي على عشرة أقسام: الروح: حياة النفوس بالإرشاد. والروح: الرحمة كما ورد في القراءة ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾. والروح: النبوة كقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾. والروح: عيسى روح الله لأنه خلق من غير بشر، وقيل: من غير فحل، وقيل: لكونه رحمة على عباده بما يدعوهم إلى الله. والروح: جبرائيل عليه السلام. والروح: النفخ، يقال: أحييت النار بروحي، أي: بنفخي، قال ذو الرمة يصف الزند والزندة[1]:

فلما بَدت كفَّنْتُها وهي طفلةٌ بِطلساء لم تكمل ذراعاً ولا شبراً
وقلتُ له: ارفعْها إليك وأحيها بروحك واقتته لها قِيتَةً قدْرا

والروح: الوحي في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وقيل: إنه جبرائيل عليه السلام. والروح: ملك في السماء من أعظم من خلق الله، فإذا كان يوم القيامة وقف صفاً والملائكة كلهم صفاً. والروح: روح الإنسان. وقال ابن عباس: في الإنسان روح ونفس، فالنفس: هي التي يكون فيها التمييز والكلام، والروح: هو الذي يكون به الغطيط والنفس، فإذا نام العبد خرجت نفسه وبقي روحه، وإذا مات خرجت نفسه وروحه معاً.

● **المعنى**: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: قرب أمر الله تعالى بعقاب المشركين المقيمين على الكفر والتكذيب، عن الحسن، وابن جريج، قال الحسن: إن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ائتنا بعذاب الله، فقال سبحانه: «إن أمر الله آت، وكل ما هو آت قريب دان».

وثانيها: أن أمر الله أحكامه وفرائضه، عن الضحاك.

وثالثها: أن أمر الله هو يوم القيامة، عن الجبائي. وروي نحوه عن ابن عباس. وعلى هذا الوجه فيكون «أتى» بمعنى: يأتي، وجاء وقوع الماضي ههنا لصدق المخبر بما أخبر به، فصار بمنزلة ما قد مضى، ولأن الله سبحانه قرَّب أمر الساعة فجعله أقرب من لمح البصر، وقال: اقتربت الساعة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ خطاب للمشركين المكذبين بيوم القيامة ولعذاب الله، المستهزئين به، وكانوا يستعجلونه، كما حكى الله سبحانه عنهم قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وتقديره: قل لهؤلاء الكفار: لا تستعجلوا القيامة والعذاب، فإن الله سيأتي بكل واحد منهما في وقته وحينه، كما تقتضيه حكمته ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذه كلمة تنزيه لله تعالى عما لا يليق به، وبصفاته، وتنزيه له من أن يكون له شريك في عبادته، أي: جلَّ وتقدس وتنزه من أن يكون له شريك، تعالى وتعظم وارتفع من جميع صفات النقص ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: ينزل الله الملائكة، أو تنزل الملائكة ﴿بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: بالوحي، عن ابن عباس. وقيل: بالقرآن، عن ابن زيد، وهما واحد، وسمي روحاً لأنه

---

(١) الزند: العود الذي يقتدح به النار. والزندة: العود الأسفل الذي فيه الفرصة. ويقال للنار ساعة تقدح: طفلة.

حياة القلوب والنفوس، بالإرشاد إلى الدين. وقيل: بالنبوة، عن الحسن، وقوله ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: بأمره، ونظيره قوله ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمر الله، لأن أحداً لا يحفظه عن أمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ ممن يصلح للنبوة والسفارة بينه وبين خلقه ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ هذا تفسير للروح المنزل وبدل منه، فإن المعنى: تنزل الملائكة بأن أنذروا أهل الكفر والمعاصي، بأنه لا إله إلا أنا، أي: مروهم بتوحيدي، وبألا يشركوا بي شيئاً، ومعنى ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فاتقوا مخالفتي، وفي هذا دلالة على أن الغرض من بعثة الأنبياء الإنذار والدعاء إلى الدين.

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ بما تقدم أن الكفار كانوا يستعجلون العذاب على وجه التكذيب به، ويكذبون البعث والقيامة، فبيَّن سبحانه أنه منزَّه عما يصفون به، فإن الحكيم إذا كلف وجب أن يجازي المكلف، فترك المجازاة قبيح. وقيل: إنهم كانوا ينكرون قدرة الله تعالى سبحانه على إعادة الخلق، فنزَّه نفسه عن قولهم. واتصل قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بما تقدم، فإنه سبحانه لما أوعدهم بالعذاب، بيَّن أنه ينزل الملائكة للتخويف، وأنه لا يأخذ أحداً من المشركين حتى يحتج عليه بالنذر. وقيل: إنه سبحانه بيَّن أن الحال حال التكليف لا حال نزول العذاب، وأن الصلاح الآن إنزال الملائكة إلى النبي ﷺ بالوحي والكتاب، للإنذار وبيان الأدلة، ولذلك أتبعه بذكر الأدلة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: ﴿بشَق الأنفس﴾ بفتح الشين، والباقون بكسرها.

● **الحجة:** الشِّق والشَّق بكسر الشين وفتحها بمعنى، وكلاهما المشقة. قال عمرو بن ملقط، وهو جاهلي:

والخيلُ قد تَجشمُ أربابَها الشِّـ ـقَ وقد تَعتسِفُ الدَّاوية[1]

● **اللغة:** الأنعام: جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم، سميت بذلك لنعمة مشيها، بخلاف الحافر الذي يصلب مشيها. والدفء: ما استدفأت به، ودفؤ يومنا دفأ فهو دفىء. والإراحة: رد الماشية بالعشي من مراعيها إلى مباركها. والمكان الذي يراح فيه: مراح.

---

(١) جشمه: تكلفه على مشقة. والراوية: البعير، أو البغل، أو الحمار الذي يستقى عليه الماء.

والسروح: خروج الماشية إلى المرعى بالغداة، يقال: سرحت الماشية سرحاً وسروحاً، وسرَّحها أهلها، قال:

كـأنَّ بـقـايـا الإثْـرِ فـوق مـتـونـهِ ... مَذَبُّ الدُّبا فوق النقا، وهو سارحُ[(١)]

والأثقال: جمع الثِّقْل، وهو المتاع الذي يثقل حمله.

● **الإعراب:** ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ﴾ منصوب بفعل مقدر يفسره ما بعده، والتقدير: وخلق الأنعام خلقها. وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال من ﴿ٱلْأَنْعَـٰمَ﴾ والتقدير: كائنة بهذه الصفة.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر بعض الملائكة للإنذار، وبيان التوحيد وشرائع الإسلام، أتبعه سبحانه بالاحتجاج على الخلق بالخلق، وتعداد صنوف الأنعام، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ومعناه: أنه خلقهما ليستدل بهما على معرفته، ويتوصل بالنظر فيهما إلى العلم بكمال قدرته وحكمته. وقيل: خلقهما لينتفع بهما في الدين والدنيا، وليعمل بالحق ﴿تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس عن أن يكون له شريك. ثم بيَّن سبحانه دلالة أخرى فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ والنطفة الماء القليل، غير أنه بالتعارف صار اسماً لماء الفحل ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ اختصر هاهنا ذكر تقلب أحوال الإنسان لذكره ذلك في أمكنة كثيرة من القرآن، فالمعنى: أنه خلق الإنسان من نطفة سيالة ضعيفة مهينة، دبرها وصورها بعد أن قلبها حالاً بعد حال، حتى صارت إنساناً يخاصم عن نفسه، ويبيِّن عما في ضميره، فبيَّن سبحانه أنقص أحوال الإنسان وأكملها، منبهاً على كمال قدرته وعلمه، وقيل: خصيم مجادل بالباطل مبين ظاهر الخصومة، عن ابن عباس، والحسن. فعلى هذا يكون المعنى: أنه خلقه ومكنه فأخذ يخاصم في نفسه، وفيه تعريض لفاحش ما ارتكبه الإنسان من تضييع حق نعمة الله عليه.

ثم بين سبحانه نعمته في خلق الأنعام فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا﴾ معناه: وخلق الأنعام من الماء كما خلقكم منه، يدل عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ وأكثر ما يتناول الأنعام الإبل، ويتناوله البقر والغنم أيضاً، وفي اللغة هي ذوات الأخفاف والأظلاف دون دوات الحوافر ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي لباس - عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: ما يستدفأ به مما يعمل من صوفها ووبرها وشعرها - عن الحسن. فيدخل فيه الأكسية واللُّحُف والملبوسات وغيرها. قال الزجاج: أخبر سبحانه أن في الأنعام ما يدفئنا، ولم يقل: ولكم فيها ما يُكنكم من البرد، لأن ما يستر من الحر يستر من البرد، وقال في موضع آخر ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ فعلم أنها تقي البرد أيضاً، فكذلك هاهنا. وقيل: إن معناه، وخلق الأنعام لكم، أي لمنافعكم. ثم ابتدأ وأخبر وقال: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ - عن الحسن وجماعة ﴿وَمَنَـٰفِعُ﴾ معناه: ولكم فيها منافع أخر من الحمل والركوب وإثارة الأرض والزرع والنسل ﴿ومنها ما تأكلون﴾ أي ومن لحومها تأكلون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي حسن منظر وزينة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي حين تردونها إلى مراحها، وهي حيث تأوي

(١) الدبا: الجراد قبل أن يطير.

إليه ليلاً ﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ أي حين ترسلونها بالغداة إلى مراعيها، وأحسن ما يكون النعم إذا راحت، عظاماً ضروعها ممتلئة بطونها منتصبة أسنمتها، وكذلك إذا سرحت إلى المراعي رافعة رؤوسها، فيقول الناس: هذه جمال فلان ومواشيه، فيكون له فيها جمال ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ أي أمتعتكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ أي وتحمل الإبل وبعض البقر أحمالكم الثقيلة إلى بلد بعيدة، لا يمكنكم أن تبلغوه من دون الأحمال، إلا بكلفة ومشقة تلحق أنفسكم، فكيف تبلغونه مع الأحمال لولا أن الله تعالى سخر هذه الأنعام لكم، حتى حملت أثقالكم إلى أين شئتم. وقيل: إن الشق معناه الشطر والنصف، فيكون المراد: إلا بأن يذهب شطر قوتكم، أي نصف قوة الأنفس. وقيل: معناه، تحمل أثقالكم إلى مكة لأنها من بلاد الفلوات ـ عن ابن عباس وعكرمة ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ﴾ أي ذو رأفة ﴿رَّحِيمٞ﴾ أي ذو رحمة، ولذلك أنعم عليكم بخلق هذه الأنعام ابتداء منه بهذه الأنعام.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾
وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ
وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ
﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حماد ويحيى عن أبي بكر عن عاصم «ننبت» بالنون، والباقون بالياء. وقرأ ابن عامر ﴿والشَّمسُ والقَمَرُ والنُّجوم مُسخَّرات﴾ كلها بالرفع، وقرأ حفص عن عاصم ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ بالنصب ﴿والنُّجوم مسخَّرات﴾ بالرفع وقرأ الباقون كل ذلك بالنصب.

● **الحجة:** من قرأ «ينبت» بالياء، فلما تقدم من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ﴾ فالياء أشكل بما تقدم من الإفراد، والنون لا يمتنع أيضاً، ويقال: نبت البقل وأنبته الله. قال أبو علي: والنصب في قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ أحسن ليكون معطوفاً على ما قبله وداخلاً في إعرابه، ألا ترى أن ما في التنزيل من نحو قوله: ﴿وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾. ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ يختار فيه النصب، ليكون مثل ما يعطف عليه ومشاكلاً له، فكذلك هنا إذا حمل ذلك على التسخير كان أشبه، فإن قلت: فقد جاء ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ بعد هذه الأشياء المنصوبة المحمولة على ﴿سَخَّرَ﴾ فإن ذلك لا يمتنع، لأن الحال تكون مؤكدة، ومجيء الحال مؤكدة في التنزيل وغيره كثير، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا﴾.

وأنـا ابـن دارة مـعـروفـاً... «وكـفـى بـالـنـأي مـن أسـمـاء كـاف»...

ويقوي النصب قوله تعالى: ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾، فكما حمل هنا على التسخير، كذلك في الأخرى ، وكذلك النجوم قد حملت على التسخير في قوله: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ وكأن ابن عامر قطعه عن «سخّر»، لئلا يجعل الحال مؤكدة فابتدأ «الشمس والقمر والنجوم»، وجعل مسخرات خبراً عنها. ويدل على جواز ذلك أنه إذا جاء سخر لكم الشمس والقمر والنجوم، علم من هذا أنها مسخرات، فجاز الإخبار بالتسخير عنها ، لذلك ، وأما حفص فإنما رفع ﴿والنجوم مسخرات﴾ لأنه لا يصح أن يقال: وسخر النجوم مسخرات، فقطعها مما قبلها . فعلى هذا يكون حجة من نصب أن يقدر فعلًا آخر ، وتقديره: وجعل النجوم مسخرات.

● **اللغة:** القصد: استقامة الطريق، يقال: طريق قصْد وقاصد، إذا قصد إلى ما يريد. والجائر: المائل عن الحق. والشجر: ما ينبت من الأرض وقام على ساق وله ورق، وجمعه أشجار، ومنه: المشاجرة لتداخل بعض الكلام في بعض، كتداخل ورق الشجر، وقال الأزهري: الشجر: ما ينبت من الأرض قام على ساق أو لم يقم. ﴿تُسِيمُونَ﴾ من الإسامة، يقال: أسمت الإبل، إذا رعيتها وأطلقتها فترعى متصرفة حيث شاءت، وسامت هي إذا رعت، وهي تسوم وإبل سائمة، ويقال: سُمتُها إذا صرتها على مرعى بعينه، وسُمتها الخسف، إذا تركنها على غير مرعى، ومنه قيل: سيم فلان خسفاً، إذا ذل واهتُضِم، قال الكميت في الإسامة:

راعيـاً كـان مُسْجِحـاً فـفـقـدْنـاهُ وفـقـد الـمسِيـمِ هُـلكُ الـسَّـوامِ

وقال آخر:

وأسـكُـنُ مـا سـكـنـتُ ببطـنِ وادٍ وأظـعَـنُ إن ظَـعـنـتُ فـلا أسِيـمُ

وذهب قوم إلى أن السوم في البيع من هذا، لأن كل واحد من المتبايعين يذهب فيما يبيعه من زيادة ثمن أو نقصانه إلى ما يهواه، كما تذهب السائمة حيث شاءت، وقد جاء في الحديث: لا سوم قبل طلوع الشمس. فحمله قوم على أن المواشي لا تسام قبل طلوع الشمس لئلا تنتشر، وحمله آخرون على أن البيع في ذلك الوقت مكروه، لأن المبيع لا تنتشر عيوبه فيدخل في بيع الغرر المنهى عنه. والذرأ: إظهار الشيء بإيجاده، يقال: ذرأه يذرأه، وذرأه وفطره وأنشأه نظائر، وملح ذرآنيٌ، ظاهر البياض.

● **الإعراب:** نصب ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ على أنها مفعول في المعنى، أي وخلق الخيل والبغال والحمير، ونصب «زينة» لأنها مفعول لها. المعنى: وخلقها زينة ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ ما: بمعنى الذي وموضعه نصب على تقدير: وخلق ما ذرأ لكم، وقيل: هو في موضع الجر بالعطف على ذلك، أي أن في ذلك وفي ما ذرأ لكم. ﴿مُخْتَلِفًا﴾ نصب على الحال و ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ فاعله.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما عدده من صنوف إنعامه فقال: ﴿وَٱلْخَيْلَ﴾ أي وخلق لكم الخيل ﴿وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ في حوائجكم وتصرفاتكم ﴿وَزِينَةً﴾ أي ولتتزينوا بها، مَنّ الله تعالى على خلقه، بأن خلق لهم من الحيوان ما يركبونه، ويتجملون به، وليس في

هذا ما يدل على تحريم أكل لحومها، وقد روى البخاري في الصحيح مرفوعاً إلى أسماء بنت أبي بكر قالت: أكلنا لحم فرس على عهد رسول الله ﷺ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنواع الحيوان والنبات والجماد لمنافعكم ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي بيان قصد السبيل - عن ابن عباس، ومعناه: واجب على الله في عدله بيان الطريق المستقيم، وهو بيان الهدى من الضلالة والحلال من الحرام، ليتبع الهدى والحلال، ويجتنب الضلالة والحرام، وهذا مثل قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾. ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ معناه: من السبيل ما هو جائر، أي عادل عن الحق ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى قصد السبيل بالإلجاء والقهر، فإنه قادر على ذلك، وقيل معناه: لهداكم إلى الجنة والثواب تفضلًا - عن الجبائي وأبي مسلم، وقيل: إن معنى الآية، وعلى الله الممر، ومن الطريق التي الممر فيها على الله جائر، وكلاهما على الله لا يخرج أحداً عن قبضته وحكمه، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وقيل: على الله ممر ذي السبيل القصد، والسبيل الجائر، وإليه مرجع كل واحد منهما، لا يخرج واحد عن سلطانه، ولو أراد أن يحمل الجميع على الحق لفعل، ومن عدل عن الطريق المستقيم فليس ذلك لعجز من الله تعالى.

ثم عد سبحانه نعمة أخرى دالة على وحدانيته فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي مطراً ﴿لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي لكم من ذلك الماء شراب تشربونه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون المراد: ومنه شرب شجر، أو سقى شجر، فحذف المضاف.

والآخر: أن يكون المراد: ومن جهة الماء شجر، ومن سقيه وإنباته شجر، فحذف المضاف إلى الهاء في ﴿مِنْهُ﴾ كما قال زهير:

أمِنْ أمّ أوْفَى دِمْنةٌ لم تَكَلَّم ... بحومانة الدَّرّاجِ فالمتثلمِ(١)

أي أمن ناحية أُمّ أوفى؟ وقال أبو ذؤيب:

أمِنكِ البرقُ أرقُبُهُ فهاجا ... فبتّ إخالُه دُهماً خِلاجاً(٢)

أي أمن جهتك؟ وقال الجعدي:

لِمن الديارِ عفوْنَ بالتَّهطالِ ... بقيَتْ على حِجَجٍ خَلَونِ طِوالِ

أي على مَرّ حجج، والمعنى: وينبت منه شجر ونبات ﴿فيه تسيمون﴾ أي ترعون أنعامكم من غير كلفة والتزام مؤنة لعلفها ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي ينبت الله لكم بذلك المطر هذه الأشياء التي عدَّدها لتنتفعوا بها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي دلالة وحجة واضحة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ - فيه فيعرفون الله تعالى به، وخص المتفكرين فيه لأنهم المنتفعون به.

---

(١) الدمنة: ما اسود من آثار الدار بالبعر، والرماد، وغيرهما. وحومانة الدراج، والمتثلم: موضعان قوله لم تكلم. نعت لدمنة. والبيت من (المعلقة).

(٢) الخلاج جمع الخلوج: الناقة التي جذب عنها ولدها بذبح، أو موت.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ قد مضى بيانه، والتسخير في الحقيقة للشمس والقمر، لأن النهار هو حركات الشمس من وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس، والليل حركات الشمس تحت الأرض من وقت غروب الشمس إلى وقت طلوع الفجر، إلا أنه سبحانه أجرى التسخير على الليل والنهار على سبيل التجوز والاتساع ﴿**والنجوم مسخرات بأمره**﴾ مضى بيانه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التسخير ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ أي دلالات ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ عن الله وينبئون أن المسخر لذلك على هذا تقدير الذي لا يختلف لأجل منافع خلقه ومصالحهم، والمدبر لذلك قادر عالم حكيم ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي سخر لكم ما خلقه لكم في الأرض، أي لقوام أبدانكم من الملابس والمطاعم والمناكح، من أنواع الحيوان والنبات والمعادن وسائر النعم ﴿مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ لا يشبه بعضها بعضاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ أي دلالة ﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يتفكرون في الأدلة فينظرون فيها ويتعَّظون، ويعتبرون بها.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة الحسن ﴿وبالنُّجم﴾ بضم النون.

● **الحجة:** هو جمع نجم، مثل سقْف وسُقف، ورهْن ورُهن.

● **اللغة:** المخرُ: شق الماء من عن يمين وشمال، مخرت السفينة الماء تمخر مخراً، فهي ماخرة، والمخر أيضاً صوت هبوب الريح إذا اشتد هبوبها، ومخر الأرض: شقها للزراعة، ومخرها بالماء: إذا أرسل عليها الماء لتطيب. والميْد: الميل يميناً وشمالاً، وهو الاضطراب، ماد يميد ميداً. والعلامة صورة يعلم بها المعنى من خط أو لفظ أو إشارة أو هيئة، وقد تكون وضعية، وقد تكون برهانية.

● **الإعراب:** قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ في موضع نصب بأنه مفعول له، وتقديره: كراهة أن تميد بكم، وانتصب قوله: ﴿وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا﴾ بمحذوف، تقديره: وجعل لكم أنهاراً، لدلالة قوله: ﴿أَلۡقَىٰ﴾ عليه، لأنه لا يجوز أن يكون عطفاً على ﴿أَلۡقَىٰ﴾ ومثله قوله:

علفتها تبناً وماء بارداً(١)

(١) هذا المصراع يجعله بعض العلماء صدراً عجزه: «حتى شتت همالة عيناها» كما في (جامع الشواهد)، ويجعله بعضهم عجزاً، ويجعل صدره: «لما حططت الرحل عنها وارداً» كما في شرح الأشموني. والشاهد في قوله «وماءً» فإن معناه: وسقيتها ماء.

وقول الآخر:

تَسمعُ في أجوافِهنَّ صَرْدا وفي اليدين جَسْأة وبزداً[1]

أي وترى في اليدين يبساً وتفرقاً ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ منصوب عطف على قوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ وقيل: وخلق لكم علامات.

● **المعنى:** ثم عدد سبحانه نوعاً آخر من أنواع نعمه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي ذلله لكم، وسهّل لكم الطريق إلى ركوبه، واستخراج ما فيه من المنافع ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا﴾ أي لتصطادوا منه أنواع السمك، وتأكلوا لحمه ﴿طَرِيًّا﴾ ولا يجوز أن يهمز ﴿طَرِيًّا﴾ لأنه من الطراوة ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً﴾ يعني اللآلىء التي تخرج من البحر بالغوص ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ وتتزينون بها وتُلبسونها نساءكم، ولولا تسخيره سبحانه ذلك لكم، لما قدرتم على الدنو منه والغوص فيه ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي وترى أيها الإنسان السفن شواق في البحر، وقواطع لمائه - عن عكرمة. وقيل: جواري - عن ابن عباس. ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي ولتركبوه للتجارة، وتطلبوا من فضل الله تعالى ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولكي تشكروا الله على نعمه، ليزيدكم منها ويثيبكم، والواو إنما دخلت في ذلك للدلالة على أن الله سبحانه أراد جميع ما ذكره، إنعاماً منه على عباده ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي جبالاً عالية ثابتة، واحدها: راسية ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ الأرض، أي كراهة أن تميد بكم، أو لئلا تميد بكم، أي تتحرك وتضطرب ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي وجعل فيها أنهاراً ﴿وَسُبُلًا﴾ أي طرقاً لكي تُجروا الماء في الأنهار إلى بساتينكم، وحيث تريدون، وتهتدوا بالطرق إلى حيث شئتم من البلاد. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ ثم ابتدأ ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. وقيل: إن العلامات هي النجوم أيضاً، لأن من النجوم ما يهتدى بها، ومنها ما يكون علامات لا يهتدى بها - عن قتادة ومجاهد. وقيل: أراد به الاهتداء في القبلة. قال ابن عباس: سألت رسول الله ﷺ عنه، فقال: الجدي علامة قبلتكم، وبه تهتدون في بركم وبحركم. وقال أبو عبد الله عليه السلام: نحن العلامات، والنجم رسول الله ﷺ، وقال: إن الله جعل النجوم أماناً لأهل السماء، وجعل أهل بيتي أماناً لأهل الأرض.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ معناه: أفمن يخلق هذه الأشياء في استحقاق العبادة والإلهية، كالأصنام التي لا تخلق شيئاً، حتى يُسوّى بينها في العبادة وبين خالق جميع ذلك؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتذكرون أيها المشركون؟ فتعتبرون وتعترفون أن ذلك من الخطأ الفاحش، وجعل ﴿مَن﴾ فيما لا يعقل لمّا اتصل بذكر الخلق. ثم عطف سبحانه على ذلك تذكر كثرة نعمه، فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ معناه: وإن أردتم تعداد نعم الله سبحانه عليكم، ومعرفة تفاصيلها لم يمكنكم إحصاؤها ولا تعديدها، وإنما يمكنكم أن تعرفوا جملها، بيّن سبحانه أن من وراء النعم التي ذكرها نعماً له لا تحصى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ لما حصل منكم من تقصير في شكر نعمه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم حيث لم يقطعها عنكم بتقصيركم في شكرها.

● ● ●

(١) وفي رواية (التبيان) في سورة الأنفال: «تسمع للأحشاء منه لغطا».

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

● **القراءة:** ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ بالياء عاصم غير الأعشى والبرجمي عن أبي بكر ويعقوبُ وسهل، والباقون بالتاء.

● **الحجة:** من قرأ بالتاء، فلأن ما بعده وما قبله خطاب، ومن قرأ بالياء وجه الخطاب إلى النبي ﷺ، ويكون الخبر عن المشركين.

● **المعنى:** لما قدم سبحانه الدعاء إلى عبادته، بذكر نعمه وكمال قدرته، عقبه ببيان علمه بسريرة كل أحد وعلانيته، ثم ذكر بطلان الإشراك في عبادته، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أخبر سبحانه أنه يعلم ما يسرونه وما يظهرونه فيجازيهم على أفعالهم، إذ لا يخفى عليه الجلي والخفي من أحوالهم ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إلهاً ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعني الأصنام لا يمكنها خلق شيء، بل هي مخلوقة مربوبة منحوتة من الحجر والخشب ونحوهما، مما هو مخلوق لله تعالى، ثم قال ﴿أَمْوَاتٌ﴾ أي هي أموات ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أكد كونها أمواتاً بقوله ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ لنفي الحياة عنها على الإطلاق، فإن من الأموات من سبقت له حالة في الحياة، وله حالة منتظرة في الحياة، بخلاف الأصنام، فإنه ليس لها حياة سابقة ولا منتظرة، وقال: أموات ـ ولم يقل مَواتٌ وإن كان الأموات جمع الميت الذي كان فيه حياة فزالت ـ لأنهم صوروا الأصنام على صور العقلاء وهيئاتهم، وعاملوها معاملة العقلاء تسمية واعتقاداً، ولذلك قال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ معناه: وما تشعر هذه الأصنام متى تبعث ـ عن الفراء. وقيل في الآية: إن معناه، هم أموات، يعني أن الكفار في حكم الأموات، لذهابهم عن الحق والدين، ولا يدرون متى يبعثون. وقيل: إن المعنى ولا تدري الأصنام متى يبعث الخلق ـ عن الجبائي، و ﴿أَيَّانَ﴾ في موضع نصب ﴿يُبْعَثُونَ﴾ وقرىء في الشواذ ﴿إيان﴾ بكسر الهمزة، والفتح أفصح وأصح.

ثم خاطب سبحانه عباده فقال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا يقدر على ما يستحق به العبادة، من خلقِ أصول النعم سواه، فاثبتوا على عبادته ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ أي جاحدة للحق، تستبعد ما يرد عليها من المواعظ ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الانقياد للحق ذاهبون عنه، دافعون له من غير حجة، والاستكبار: طلب الترفع بترك الإذعان للحق، ثم قال سبحانه ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً وهو بمنزلة اليمين. قال الخليل: وهو كلمة تحقيق، ولا يكون إلا جواباً لقول: فعلوا كذا، فيقول السامع: لا جرم يندمون. وقال الزجاج: معناه: حق أن الله، ووجب أن الله، و﴿لَا﴾ رد لفعلهم، قال الشاعر:

ولقد طعنتُ أبا عيينة طعنةً   جَرمتْ فزارةُ بعدها أن يغضبوا

المعنى: أحقت فزارة بالغضب. وقال أبو مسلم: أصله من الكسب، فكأنه قال: لا يحتاج في معرفة هذا الأمر إلى اكتساب علم، بل هو معلوم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ وهذا تهديد لهم بأنه عالم بجميع أحوالهم، فيجازيهم على أقوالهم وأفعالهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ أي المتعظمين الذين يأنفون أن يكونوا أتباعاً للأنبياء، أي لا يريد ثوابهم وتعظيمهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وحده: ﴿تشاقونِ﴾ بكسر النون، والباقون بفتحها. وقرأ حمزة وخلف في الموضعين ﴿يتوفاهم﴾ بالياء، والباقون بالتاء. وفي الشواذ قراءة مجاهد ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلسُّقُفُ﴾ بضم السين. وروي عن أهل البيت عليهم السلام ﴿**فأتى بنيتهم من القواعد**﴾.

● **الحجة:** قد تقدم الوجه في قراءة نافع في سورة الحجر عند قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فأما قراءة حمزة وخلف ﴿**يتوفاهم**﴾ بالياء، فلأن الفعل مقدم، والإمالة حسنة في هذا النحو من الفعل، ومن قرأ بالتاء فلأن الجماعة مؤنثة، كما جاء ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

● **اللغة:** قد مضى معنى الأساطير والأوزار في سورة الأنعام والقواعد: الأساس، والواحدة القاعدة، وقواعد الهودج: خشبات أربع معترضات في أسفله. والشقاق: الخلاف في المعنى، وتشاقون: تكونون في جانب والمسلمون في جانب، ومن ثم قيل لمن خرج عن طاعة الإمام، وعن جماعة المسلمين: شق عصا المسلمين، أي صار في جانب عنهم، فلم يكن مجتمعاً معهم في كلمتهم، وهو مأخوذ من الشِّقِّ الذي هو النصف، كأنه صار في شق غير شقِّهم.

● **الإعراب:** ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ﴾: ﴿مَا﴾ مبتدأ و﴿ذَآ﴾ بمعنى الذي، والمعنى: ما الذي أنزل ربكم؟ و ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ مرفوعة على الجواب، كأنهم قالوا: الذي أنزل أساطير الأولين، وتقديره: وإذا قيل لهم هذا القول، فالذي قام مقام فاعل ﴿قِيلَ﴾ هو المصدر لا الجملة، لأن الجملة نكرة، والفاعل يجوز إضماره، والمضمر لا يكون قط نكرة، بل هو أعرف المعارف. وقوله:

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ ﴿مِنْ﴾ زيادة على قول الأخفش، أي وأوزار الذين يضلونهم، وعلى قول سيبويه هو صفة مصدر محذوف، وتقديره: وأوزاراً من أوزار الذين يضلونهم، و ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ في موضع رفع كما يرفع بعد بئس ونعم، وتقديره: وبئس الشيء وزرهم فـ ﴿مَا﴾ حرف موصول، و ﴿يَزِرُونَ﴾ صلته، و ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ نصب على الحال، أي في حال ظلمهم أنفسهم.

● **المعنى**: ثم أبان سبحانه عن أحوال المشركين وأقوالهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي لمشركي قريش ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على محمد ﷺ؟ ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أجابوا فقالوا: هذا المنزل في زعمكم هو عندنا أحاديث الأولين الكاذبة ـ عن ابن عباس وغيره. ويروى أنها نزلت في المقتسمين، وهم ستة عشر رجلًا خرجوا إلى عقاب مكة أيام الحج على طريق الناس، على كل عقبة أربعة منهم، ليصدوا الناس على النبي ﷺ، وإذا سألهم الناس عما أنزل على رسول الله ﷺ، قالوا: أحاديث الأولين وأباطيلهم ـ عن الكلبي وغيره ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ اللام للعاقبة، والمعنى: كان عاقبة أمرهم حين فعلوا ذلك أن حملوا أوزار كفرهم تامة يوم القيامة ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ويحملون مع أوزارهم بعض أوزار الذين أضلوهم عن سبيل الله، وأغووهم عن اتباع الحق، وهو وزر الإضلال والإغواء، ولم يحملوا وزر غوايتهم وضلالهم، وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ معناه: من غير علم منهم بذلك، بل جاهلين به، وعلى هذا ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: أيما داع دعا إلى الهدى فاتبع، فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليه، فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس الحمل حملهم، وهو ما يحملونه من الآثام، لأنه إذا تحمل إثمه ودخل النار كان سبباً، فكيف إذا تحمله بسبب فعل غيره؟

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل هؤلاء المشركين بأنبيائهم من جهة التكذيب وغيره، وهذا على سبيل التسلية لنبينا ﷺ والوعد لقومه ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي أتى أمر الله بنيانهم التي بنوها، من جوانب قواعدها فهدمها ـ عن ابن عباس قال: يعني نمرود بن كنعان، بنى صرحاً طويلًا ورام منه الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها بزعمه، فأرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر، وخر عليهم الباقي. وقال الزجاج: من القواعد يريد من أساطين البناء التي تعمده. وقيل: هو بختنصر. وقيل: إن هذا مثل ضربه الله سبحانه لاستئصالهم، ولا قاعدة هناك ولا سقف، والمعنى: فأتى الله مكرهم من أصله، أي عاد ضرر المكر عليهم وبهم ـ عن الزجاج وابن الأنباري، وهذا الوجه أليق بكلام العرب، كما قالوا: أُتي فلان من مأمنه، أي أتاه الهلاك من جهة مأمنه، وإنما أسند سبحانه الإتيان إلى نفسه من حيث كان تخريب قواعدهم من جهته ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ إنما قال ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ مع حصول العلم بأن السقف لا يكون إلا من فوق لأحد وجوه:

منها: أنه للتوكيد، كما تقول لمن خاطبته: قلت أنت كذا وكذا، وكما يقال: مشيت برجلي، وتكلمت بلساني.

ومنها: إنما قال ذلك، ليدل على أنهم كانوا تحته، فإن الإنسان قد يقول: بيتي قد تهدم عليّ وإن لم يكن هو تحته.

ومنها: أن يكون ﴿على﴾ في قوله ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ﴾ بمعنى عن، فيكون المعنى: فخر عنهم السقف من فوقهم، أي خر عن كفرهم وجحدهم بالله وآياته، والمراد: من أجل كفرهم، كما يقال: اشتكى فلان من دواء شربه وعلى دواء شربه، أي من أجل الدواء، قال الشاعر:

أرمي عليها وهي فرع أجمعُ(١)

أراد: أرمي عنها، ولو قال على هذا المعنى: فخر عليهم السقف، ولم يقل: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ لجاز أن يتوهم متوهم أن السقف خر وليس هم تحته، والعرب لا تستعمل لفظة ﴿عَلَى﴾ في مثل هذا الموضع إلا في الشر والأمر المكروه ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي جاءهم عذاب الاستئصال من حيث لا يعلمون، لأنهم ظنوا أنهم على حق، فكانوا لا يتوقعون العذاب، وهذا مثل قوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ معناه: ثم إنه تعالى مع ذلك يذلهم ويفضحهم يوم القيامة على رؤوس الخلائق، ويهينهم بالعذاب، أي لا يقتصر بهم على عذاب الدنيا ﴿وَيَقُولُ﴾ على سبيل التوبيخ لهم والتهجين ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ الذين كنتم تشركونهم معي في العبادة على زعمكم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي تعادون المؤمنين، على قراءة فتح النون، وعلى الكسر تعادونني فيهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بالله تعالى أو بدينه وشرائعه من المؤمنين. وقيل: هم الملائكة ـ عن ابن عباس ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي إن الهوان اليوم والعذاب الذي يسوء على الجاحدين لنعم الله، المنكرين لتوحيده وصدق رسله ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع جر بأنه بدل من ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أو صفة لهم، ومعناه: الذين يقبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم، ففارقوا الدنيا وهم ظالمون لأنفسهم بإصرارهم على الكفر ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي استسلموا للحق وانقادوا، حين لا ينفعهم الانقياد والإذعان ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ أي يقولون: ما كنا نعمل عند أنفسنا من سوء، أي من معصية، فكذبهم الله تعالى وقال ﴿بَلَىٰٓ﴾ قد فعلتم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من المعاصي وغيرها. وقيل: إنه يقول لهم ذلك المؤمنون الذين أوتوا العلم والملائكة ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي طبقات جهنم ودركاتها ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بئس منزل المتعظمين عن قبول الحق، واللام للتوكيد.

● ● ●

(١) قوس فرع أي: غير مشقوق. وقيل: التي عملت من رأس القضيب وطرفه. وهذا صدر بيت وبعده: «وهي ثلاث أذرع واصبع».

قوله تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤)﴾.

● **الإعراب:** ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ ﴿مَا﴾ و﴿ذَا﴾ هنا كالشيء الواحد، وتقديره: أي شيء أنزل ربكم؟ و﴿خَيْرًا﴾ منصوب على أنه جواب: ماذا، أي أنزل خيراً، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يجوز أن يكون تفسيراً لقوله: ﴿خَيْرًا﴾ ويجوز أن يكون ابتداء كلام ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف، المعنى: ولنعم دار المتقين دار الآخرة، والمبين لقوله: ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وتقديره: هي جنات عدن، فيكون خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ مرتفعة بالابتداء وتكون المخصوصة بالمدح، والتقدير: جنات عدن نعم دار المتقين.

● **المعنى:** لما قدم سبحانه ذكر أقوال الكافرين فيما أنزله على نبيه ﷺ، عقبه بذكر أقوال المؤمنين في ذلك، فقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي وهم المؤمنون ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ أي أنزل الله خيراً لأن القرآن كله هدى وشفاء وخير ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ويجوز أن يكون هذا ابتداء كلام من الله تعالى، معناه: للمحسنين في هذه الدنيا حسنة مكافأة لهم، وهي الثناء والمدح على ألسنة المؤمنين، والهدى والتوفيق للإحسان ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي وما يصل إليهم من الثواب في الآخرة خير مما يصل إليهم في الدنيا، ويجوز أن يكون الجميع من كلام المتقين، وأجاز الحسن والزجاج كلا الوجهين، وقوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي والآخرة نعم دار المتقين الذين اتقوا عقاب الله، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. وقيل: معناه، ولنعم دار المتقين الدنيا، لأنهم نالوا بالعمل فيها الثواب والجزاء ـ عن الحسن. وقيل: معناه، ولنعم دار المتقين ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ كما يقال: نعم الدار دار ينزلها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ سبق معناه ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي يشتهون من النعم ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي كذلك يجازي الله الذين اتقوا معاصيه ﴿**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين**﴾ أي طيبي الأعمال، طاهري القلوب من دنس الشرك. وقيل: معناه، طيبة نفوسهم بالمصير إليهم، لعلمهم بما لهم عنده من الثواب. وقيل: طيبين، أي صالحين بأعمالهم الجميلة. وقيل: بطيب وفاتهم فلا يكون صعوبة فيها ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ أي تقول الملائكة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ أي سلامة لكم من كل سوء ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قيل: إنهم لما بشروهم بالسلامة، صارت الجنة كأنها دارهم،

وهم فيها، فقولهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بمعنى حصلت لكم الجنة. وقيل: إنما يقولون ذلك عند خروجهم من قبورهم ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قد مضى تفسيره في سورتي البقرة والأنعام ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أخبر سبحانه أن الذين مضوا من الكفار فعلوا مثل ما فعل هؤلاء، من تكذيب الرسل، وجحد التوحيد، فأهلكهم الله، فما الذي يؤمّن هؤلاء من أن يهلكهم الله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالمعاصي التي استحقوا بها الهلاك ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي عقاب سيئاتهم، فسمي العقاب: سيئة، كما قال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي وحل بهم جزاء ﴿**ما كانوا يستهزؤون**﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة: ﴿لَا يَهْدِي﴾ بفتح الياء وكسر الدال، والباقون: بضم الياء وفتح الدال. ولم يختلفوا في «يضل» أنها مضمومة الياء مكسورة الضاد.

● **الحجة:** قال أبو علي: الراجع على اسم ﴿إِنَّ﴾ هو الذكر الذي في قوله: ﴿يُضِلُّ﴾ في قراءة من قرأ ﴿يَهْدِي﴾ ومن قرأ ﴿يُهْدَىٰ﴾ فمن جعل ﴿يُهْدَىٰ﴾ من هديته جاز أن يعود الذكر الفاعل الذي فيه إلى اسم إن. ومن جعل ﴿يُهْدَىٰ﴾ في معنى يهتدي، وجعل ﴿مَن يُضِلُّ﴾ مرتفعاً به فالراجع إلى اسم ﴿إِنَّ﴾ الذكر الذي في ﴿يُضِلُّ﴾ كما كان كذلك في قول من قال ﴿يَهْدِي﴾ والراجع إلى الموصول الذي هو ﴿مَن﴾ الهاء المحذوفة من الصلة تقديره ﴿يُضِلُّهُ﴾ والمعنى: أن من حكم بإضلاله لكفره وتكذيبه فلا يُهدى. ومثل هذا المعنى قوله: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ تقديره: من بعد إضلال الله إياه، والمفعول محذوف، أي من بعد حكمه بإضلاله، ومن قرأ ﴿لَا يَهْدِي﴾ فهو في المعنى كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ وهذا كقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ فموضع ﴿مَن﴾ نصب بـ ﴿يَهْدِي﴾ وقد قيل: إن ﴿يَهْدِي﴾ في معنى يهتدي، بدلالة قوله: ﴿**لا يهدي إلا أن يهدي**﴾ فموضع ﴿مَن﴾ على هذا رفع، كما أنه لو قال: يهتدي كان كذلك، وقوله: لا يضل، من قولك: ضل الرجل وأضله الله، أي حكم بإضلاله، كقولك: كفر زيد وكفَّره الناس، أي نسبوه إلى الكفر فقالوا: إنه كافر، كما أن أسقيته قلت له: سقاك الله، قال ذو الرمة:

وأسقيهِ حتى كادَ مما أبثُّه تكلّمني أحجارُه وملاعِبهُ(١)

● **اللغة:** البلاغ والإبلاغ: إيصال المعنى إلى الغير. والحرص: طلب الشيء بجد واجتهاد، يقال: حرِص يحرِص حرصاً، وحرِص يحرَص بكسر الراء في الماضي وفتحها في المستقبل لغة، وقد روي في الشواذ عن الحسن وإبراهيم: ﴿إن تَحرَص﴾ بفتح الراء، والأول لغة أهل الحجاز، والأصل من السحابة الحارصة وهي التي تقشر وجه الأرض، وشَجّة حارصة: إلى تقشر جلدة الرأس، وكذلك الحرص كأن صاحبه ينال من نفسه لشدة اهتمامه، بما هو حريص فيه.

● **المعنى:** ثم عاد سبحانه إلى حكاية قول المشركين، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ مع الله إلهاً آخر ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ أي لو أراد الله ما عبدنا من دونه شيئاً من الأصنام والأوثان ﴿نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الذين اقتدينا بهم ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ من البحيرة والسائبة وغيرهما، بل شاء ذلك منا، وأراد بذلك فعلنا، فأنكر الله سبحانه هذا القول عليهم، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفار والضلال، كذبوا رسل الله وجحدوا آياته، قالوا مثل قولهم، وفعلوا مثل فعلهم ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ليس عليهم إلا إبلاغ الرسالة، وقد سبق بيان مثل هذه الآية في سورة الأنعام ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي في كل جماعة وقرن ﴿رَّسُولًا﴾ كما بعثناك يا محمد رسولًا إلى أمتك ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي ليقول لهم: اعبدوا الله ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي عبادة الطاغوت، و ﴿أَنِ﴾ هذه هي المفسرة، ويعني بالطاغوت: الشيطان، وكل داع يدعو إلى الضلالة ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ معناه: فمنهم من هداه الله، بأن لطف له بما علم أنه يؤمن عنده، فآمن فسمي ذلك اللطف هداية، ويجوز أن يريد: فمنهم من هداه الله إلى الجنة بإيمانه، ولا يجوز أن يريد بالهداية هنا نصب الأدلة، كما في قوله: ﴿فأما ثمود فهديناهم﴾ لأنه سبحانه سوى في ذلك بين المؤمن والكافر ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ معناه: ومنهم من أعرض عما دعاه إليه الرسول، فخذله الله فثبتت عليه الضلالة ولزمته فلا يؤمن قط. وقيل معناه: وجبت عليه الضلالة وهي العذاب والهلاك. وقيل معناه: ومنهم من حقت عليه عقوبة الضلالة ـ عن الحسن. وقد سمى الله سبحانه العقاب ضلالة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾. ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض المكذبين الذين عاقبهم الله إن لم تصدقوني ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي فانظروا كيف حقت عليهم العقوبة وحلت بهم، فلا تسلكوا طريقهم فينزل بكم مثل ما نزل بهم ﴿إن تحرص على هداهم﴾ أي على أن يؤمنوا بك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ هذا تسلية للنبي ﷺ في دعائه لمن لا يفلح بالإجابة لانهماكه في الكفر، وإشارة إلى أن ذلك ليس

---

(١) هذا من كلمة لذي الرمة بائية ومطلعها:

«وقفت على ربع لمية ناقتي فما زلت أبكي عنده وأخاطبه»

والربع: الدار. وأبثه أي: أظهر له بثي أي: حزني. وملاعب: جمع ملعب، مكان اللعب.

لتقصير وقع من جهته ﷺ، وإعلام له أنهم لا يؤمنون أبداً، وإذا كانوا هكذا فإن الله لا يهديهم بل يضلهم، على المعنى الذي فسرناه قبل ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ليس لهم من ناصر ينصرهم، ويخلصهم من العقاب، وفي هذا بيان أن الإضلال في الآية ليس المراد به ما ذكره أهل الجبر.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر والكسائي ﴿فيكونَ﴾ بالنصب، وفي يس مثله، والباقون بالرفع.

● **الحجة:** من نصب فإنه يحمله على ﴿أن﴾. قال الزجاج: الرفع على فهو يكون، على معنى: أنَّ ما أراد الله فهو يكون، والنصب على ضربين:

أحدهما: أن يكون عطفاً على ﴿أَن نَّقُولَ﴾.

والآخر: أن يكون نصباً على جواب ﴿كُن﴾ قال أبو علي: اعلم أن الذي أجازه من النصب على أن يكون جواب ﴿كُن﴾ لم يجزه أحد من أصحابنا غيره، لأن ﴿كُن﴾ وإن كان على لفظ الأمر، فليس القصد به هنا الأمر، إنما هو ـ والله أعلم ـ الإخبار عن كون الشيء وحدوثه.

● **الإعراب:** ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ مصدر وضع موضع الحال، والتقدير: يجتهدون اجتهاداً في إيمانهم، وهذا مثل قولهم: بلى يبعثهم الله وَعد الله ذلك وعداً. وقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ اللام فيه يتعلق بالبعث أيضاً، أي يبعثهم ليبين لهم، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ أي ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا ليبين لهم اختلافهم. و ﴿قَوْلُنَا﴾ مرفوع بالابتداء وخبره ﴿أَن نَّقُولَ﴾ والمعنى: إنما قولنا لكل مرادٍ قولُنا له كن.

● **النزول:** قالوا: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه، فوقع في كلامه: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فقال المشرك: وإنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت، وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله الآية ـ عن أبي العالية.

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه عن المشركين نوعاً آخر من كفرهم، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي حلفوا بالله مجتهدين في أيمانهم، والمعنى: أنهم قد بلغوا في القسم كل مبلغ ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أي لا يحشر الله أحداً يوم القيامة، ولا يحيي من يموت بعد موته، ثم كذَّبهم الله تعالى في ذلك فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ يحشرهم الله ويبعثهم ﴿وَعْدًا﴾ وعدهم به ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازه وتحقيقه من حيث الحكمة ﴿حَقًّا﴾ ذلك الوعد، ليس لخلف، إذ لولا البعث ما حسن

التكليف، لأن التكليف إنما يحسن لإثابة من عوض به ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صحة ذلك لكفرهم بالله، وجحدهم نبوة أنبيائه. وقيل: لا يعلمون وجه الحكمة في البعث فلا يؤمنون به ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ هذا بيان من الله تعالى أنه إنما يحشر الخلائق يوم القيامة، ليبين لهم الحق فيما كانوا فيه يختلفون في دار الدنيا، لأنه يخلق فيهم العلم الضروري يوم القيامة، الذي يزول معه التكليف ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ في الدنيا في قولهم: إن الله لا يبعث أحداً بعد موته، وإذا تعلق اللام بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ فالمعنى: بعثنا إلى كل أمة رسولًا ليبين لهم ذلك الرسول ما يختلفون فيه، ويهديهم إلى طريق الحق وينبههم عليه ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قد ذكرنا تفسيره في سورة البقرة، والمراد به هاهنا بيان أنه قادر على البعث لا يتعذر عليه ذلك، فإنه إذا أراد شيئاً كونه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حفص: ﴿نُّوحِىٓ﴾ بالنون، وقد تقدم ذكره في سورة يوسف، وروي عن علي عليه السلام: ﴿لنثوينهم﴾ بالثاء، والقراءة، ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ بالباء.

● **الحجة:** قال ابن جني: نصب ﴿حَسَنَةً﴾ ههنا، أي نحسن إليهم إحساناً، ووضع ﴿حَسَنَةً﴾ موضع الإحسان، كأنه واحد من الحسن دال عليه. ودل قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ على ذلك الفعل، لأنه إذا أقرهم على الفعل بإطالة مدتهم، فقد أحسن إليهم، كما قال: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وذلك ضد ما يعمل بالعاصين الذين يصطلمهم بذنوبهم وجرائم أفعالهم.

● **النزول:** الآية الأولى نزلت في المعذبين بمكة، مثل صهيب وعمار وبلال وخباب وغيرهم، مكنهم الله بالمدينة، وذكر أن صهيباً قال لأهل مكة: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم ينفعكم، وإن كنت عليكم لم يضركم، فخذوا مالي ودعوني، فأعطاهم ماله وهاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له أبو بكر: ربح البيع يا صهيب. ويروى أن عمر بن الخطاب كان إذا أعطى أحداً من المهاجرين عطاء قال له: خذ هذا ما وعدك الله في الدنيا وما أخره لك أفضل. ثم تلا هذه الآية.

● **المعنى:** ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا﴾ معناه: والذين فارقوا أوطانهم وديارهم وأهليهم فراراً بدينهم، واتباعاً لنبيهم ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ أي في سبيله لابتغاء مرضاته، من بعد

ما ظلمهم المشركون وعذبوهم بمكة، وبخسوهم حقوقهم ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي بلدة حسنة، بدل أوطانهم وهي المدينة ـ عن ابن عباس. وقيل: لنعطينهم حالة حسنة، وهي النصر والفتح. وقيل: هي ما استولوا عليه من البلاد، وفتح لهم من الولايات ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان الكفار يعلمون ذلك. وقيل معناه: لو علم المؤمنون تفاصيل ما أعد الله لهم في الجنة، لازدادوا سروراً وحرصاً على التمسك بالدين ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذا وصف لهؤلاء المهاجرين، أي صبروا في طاعة الله على أذى المشركين، وفوضوا أمورهم إلى الله تعالى ثقة به.

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ إلى الأمم الماضية ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ من البشر ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي أوحينا إليهم كما أوحينا إليك وأرسلناهم إلى أممهم كما أرسلناك إلى أمتك، وذلك أن مشركي مكة كانوا ينكرون أن يرسل إليهم بشر مثلهم، فبين سبحانه أنه لا يصلح أن يكون الرسل إلى الناس إلا من يشاهدونه ويخاطبونه ويفهمون عنه، وأنه لا وجه لاقتراحهم إرسال الملك ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: أن المعنى بذلك أهل العلم بأخبار من مضى من الأمم، سواء أكانوا مؤمنين أم كفاراً، وسمي العلم: ذكراً، لأن الذكر منعقد بالعلم، فإن الذكر هو ضد السهو، فهو بمنزلة السبب المؤدي إلى العلم في ذكر الدليل، فحسن أن يقع موقعه وينبىء عن معناه، إذا تعلق به هذا التعلق ـ عن الرماني والزجاج والأزهري.

وثانيها: أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب ـ عن ابن عباس ومجاهد، أي فاسألوا أهل التوراة والإنجيل ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يخاطب مشركي مكة، وذلك أنهم كانوا يصدقون اليهود والنصارى فيما كانوا يخبرون به من كتبهم، لأنهم كانوا يكذبون النبي ﷺ لشدة عداوتهم له.

وثالثها: أن المراد بهم أهل القرآن، لأن الذكر هو القرآن ـ عن ابن زيد: ويقرب منه ما رواه جابر ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: نحن أهل الذكر، وقد سمى الله رسوله ذكراً في قوله: ﴿ذكراً رسولاً﴾ على أحد الوجهين، وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ العامل فيه قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ والتقدير: وما أرسلنا بالبينات والزبر، أي بالبراهين والكتب إلا رجالًا نوحي إليهم. وقيل: إن في الكلام إضماراً وحذفاً، والتقدير: أرسلناهم بالبينات، كما قال الأعشى:

وليس مجيراً أن أتى الحيَّ خائفٌ ... ولا قائلًا إلا هو المتعيَّبا(١)

أي أعني المتعيَّبا. ونظير الأول قول الشاعر:

نُبئتُهم عذَّبوا بالنارِ جارتَهم ... وهل يعذِّب إلا الله بالنار؟

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ يعني القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فيه من الأحكام والشرائع والدلائل على توحيد الله ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك فيعلموا أنه حق، وفي هذا دلالة على أن الله تعالى أراد من جميعهم التفكر، والنظر المؤدي إلى المعرفة بخلاف ما يقوله أهل الجبر.

---

(١) وفي نسخة مخطوطة «المتعينا» بالنون.

● **النظم:** قيل في اتصال الآية الأولى بما قبلها وجوه:

أحدها: أنها اتصلت بقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ فيكون المعنى: ليبين لهم وليعلم الكافرين كونهم كاذبين، وليجزي المؤمنين المهاجرين على ما فعلوه من الهجرة.

وقيل: لما تقدم ذكر الكفار وما أعد لهم من الدمار ودخول النار، عقبه بذكر المؤمنين المهاجرين والأنصار، تحريضاً لغيرهم في الاقتداء بهم، فاتصل به اتصال النقيض بالنقيض.

وقيل: إنه لما تقدم ذكر البعث بيَّن بعده حكم يوم البعث، وأنه ينتصف فيه للمظلوم من الظالم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ: ﴿**أولم تروا**﴾ بالتاء أهل الكوفة غير عاصم، والباقون: بالياء، وكذلك في العنكبوت. وقرأ أهل البصرة: ﴿**تتفيؤا**﴾ بالتاء، والباقون بالياء.

● **الحجة:** حجة الياء أن ما قبله غيبة وهو قوله: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ﴾ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ ومن قرأ بالتاء أراد جميع الناس. والتأنيث والتذكير في قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ﴾ حسنان، وقد تقدم ذكر ذلك في عدة مواضع.

● **اللغة:** التخوُّف: التنقُّص، وهو أن يأخذ الأول فالأول حتى لا يبقى منهم أحد، وتلك حالة يخاف معها الفناء، ويتخوف الهلاك، يقال: تخوفه الدهر، قال الشاعر:

تَخوَّفَ السيرُ منها تامِكاً قَرِدا ... كما تخوَّفَ عُودَ النبعةِ السَّفَنُ[1]

أي ينقص السير سنامها بعد تموكه، وقال آخر:

تخوف عدوهم مالي وأهدَى ... سلاسلَ في الحلوق لها صَليلُ

قال الفراء: تحوَّفته وتخوَّفته بالحاء والخاء إذا تنقصته من حافاته، قال المبرد: لا يقال: تحوَّفته، وإنما يقال: تحيَّفته بالياء. والتفيُّؤ: التفعل من الفيْء، يقال: فاء الفيء يفيء إذا رجع وعاد بعد ما كان ضياء الشمس نسخه، ومنه فيء المسلمين لما يعود عليهم وقتاً بعد وقت من

(١) قائله: ابن مقبل. والسفن: الحديدة التي تبرد بها القسي، أي: تنقص كما تأكل هذه الحديد خشب القسي.

الخراج والغنائم، ويعدّى ﴿فاءَ﴾ بزيادة الهمزة نحو أفاء، وبالتضعيف نحو فاء الظلُّ وفيَّاه الله فتفيَّأ، والفيء ما نسخه ضوء الشمس، والظل ما كان قائماً لم تنسخه الشمس، قال الشاعر:

فلا الظلُّ من بردِ الضُّحى تستطيعُه ولا الفيءُ من بعد العِشيِّ تذوق(١)

فجعل الظل وقت الضحى لأن الشمس لم تنسخه في ذلك الوقت، وجمع الفيء أفياء وفيوء، قال:

أرى المال أفياءَ الظِّلالِ فتارةً يئوب وأخرى يَحبل المالَ حابِلهُ(٢)

قال النابغة الجعدي:

فسلامُ الإلهِ يغدو عليهمْ وفُيوءُ الفردوس ذاتِ الظِّلال(٣)

وإنما قال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ على التوحيد ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ على الجمع، لأنه أراد باليمين الأيمان، كما قال الشاعر:

بفي الشَّامتينَ الصَّخر أن كان هدَّني رَزِية شِبْلي مُخدِر في الضَّراغم

والمعنى: بأفواه. وقال آخر:

الواردُون وتَيمٌ في ذُرى سبأٍ قد عضَّ أعناقهم جِلد الجواميس(٤)

والداخر: الخاضع الصاغر، قال:

فلم يبق إلا داخرٌ في مُخيّس ومنجَحِرٌ في غير أرضِك في جُحْر(٥)

● **المعنى:** ثم أوعد سبحانه المشركين فقال: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فاللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الإنكار، ومعناه: أي شيء أمن هؤلاء القوم الذين دبروا التدابير السيئة، في توهين أمر النبي ﷺ وإطفاء نور الدين، وإيذاء المؤمنين من ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ من تحتهم عقوبة لهم كما خسف بقارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني يوم بدر، وذلك أنهم أهلكوا يوم بدر، وما كانوا يقدّرون ذلك ولا يتوقعونه ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ يعني أو أن يأخذهم العذاب في تصرفهم في أسفارهم وتجاراتهم. وقيل: يريد في تقلبهم في كل الأحوال ليلاً ونهاراً، فيدخل في هذا تقلبهم على الفرش يميناً وشمالاً ـ عن مقاتل ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي فليسوا بفائتين وما يريده الله بهم من الهلاك لا يمتنع عليه.

(١) قائله: حميد بن ثور، يصف سرحة، وكنى بها عن امرأة.
(٢) حبل الشيء: شده بالحبل.
(٣) يصف حال أهل الجنة.
(٤) كناية عن الإسارة.
(٥) نسبه في (التبيان) إلى ذي الرمة. وفي (اللسان) إلى الفرزدق. والخيس: السجن.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ قال أكثر المفسرين: معناه، على تنقص إما بقتل أو بموت، أي ينقص من أطرافهم ونواحيهم، فيأخذ منهم الأول فالأول حتى يأتي على جميعهم. وقيل: معناه، في حال تخوفهم من العذاب، أي يعذب أهل قرية ويخوف به أهل قرية أخرى، فيتخوفون أن ينزل بهم من العذاب ما نزل بالأولى ـ عن الحسن. وقيل: معناه، على تنقص من الأموال والأنفس بالبلايا والأسقام إن لم يعذبهم بعذاب الاستئصال لينبه غيرهم ويزجرهم ـ عن الجبائي ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بكم، ومن رأفته ورحمته بكم أنه أمهلكم لتتوبوا وترجعوا، ولم يعاجلكم بالعقوبة.

ثم بين سبحانه دلائل قدرته، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ معناه: ألم ينظروا هؤلاء الكفار الذين جحدوا وحدانية الله تعالى، وكذبوا نبيه ﷺ إلى ما خلق الله من شيء له ظل، من شجر وجبل وبناء وجسم قائم ﴿**يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله**﴾ أي يتميل ظلاله عن جانب اليمين وجانب الشمال، وأضاف الظلال إلى مفرد، ومعناه: الإضافة إلى ذوي الظلال، لأن الذي يعود إليه الضمير، واحد يدل على الكثرة، وهو قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ ومعنى تفيؤ الظلال يميناً وشمالاً: أن الشمس إذا طلعت وأنت متوجه إلى القبلة كان الظلال قدامك، وإذا ارتفعت كان عن يمينك، فإذا كان بعد ذلك كان خلفك، فإذا كان قبل أن تغرب الشمس كان عن يسارك، فهذا تفيؤه عن اليمين والشمائل ـ عن الكلبي. ومعنى سجود الظل لله: دورانه من جانب إلى جانب، لأنه مستسلم منقاد مطيع للتسخير، وهذه الآية كقوله: ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ وقد مر تفسيره. وقيل: إن المراد بالظل هو الشخص بعينه، ويدل على ذلك قول علقمة:

لما نزلنا رفعنا ظلَّ خبيَةٍ وفار للقوم باللحم المراجيلُ[(١)]

ألا ترى أنهم لا ينصبون الظل، وإنما ينصبون الأخبية، ويقوى ذلك قول عمارة:

كأنهن الفتياتُ اللُّعس كأن في أظلالهن الشَّمْسُ[(٢)]

أي في أشخاصهن، وقول الآخر:

يتبعُ أفياءَ الظلالِ عشيةً على طرقٍ كأنهن سبوبُ[(٣)]

أي أفياء الشخوص، فعلى هذا يكون تأويل الظلال في الآية تأويل الأجسام التي عنها الظلال ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي أذلة صاغرون، قد نبّه الله بهذا على أن جميع الأشياء تخضع له، بما فيها من الدلالة على الحاجة إلى واضعها ومدبرها، بما لولاه لبطلت ولم يكن لها قوام طرفة عين، فهي في ذلك كالساجد من العباد بفعله الخاضع بذُله.

---

(١) المراجيل جمع المرجل: القدر.
(٢) جارية لعساء: كان في لونها أدنى سواد فيه شربة حمرة.
(٣) وفي بعض النسخ «سبوب» بدل «سيوف».

ثم قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ أي يسجد لله جميع ما في السماوات وجميع ما في الأرض، ومعنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ تبيين الصفة، أي الذي هو دابة تدب على وجه الأرض ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي وتسجد له الملائكة وتخضع له بالعبادة، وإنما خص الملائكة بالذكر تشريفاً لهم، ولأن اسم الدابة يقع على ما يدب ويمشي، وهم أولو الأجنحة فصفة الطيران أغلب عليهم ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادة الله تعالى، وهذا من صفة الملائكة لأنه قال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وإنما قال: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ لوجهين:

أحدهما: أن المراد: يخافون عقاب ربهم، وأكثر ما يأتي العقاب المهلك إنما يأتي من فوق الآخر، وإن الله سبحانه لما كان موصوفاً بأنه عال متعال بمعنى أنه قادر على الكمال، حسن أن يقال: من فوقهم، ليدل على أنه في أعلى مراتب القادرين وعلى هذا المعنى قول ابن عباس في رواية مجاهد قال: ذاك مخافة الإجلال، واختاره الزجاج، فقال: يخافون ربهم خوف معظمين مُجِلِّين، ومثله في المعنى قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وقوله إخباراً عن فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

وذهب بعضهم إلى أن قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ من صفة الملائكة، والمعنى: أن الملائكة من فوق بني آدم، وفوق ما في الأرض من دابة، يخافون الله مع علوّ رتبتهم، فلأن يخافه من دونهم أولى، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: إن لله تعالى ملائكة في السماء السابعة سجوداً منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ترعد فرائصهم من مخافة الله تعالى، لا نقطر من دموعهم قطرة إلا صارت ملكاً، فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم، وقالوا: ما عبدناك حق عبادتك. أورده الكلبي في تفسيره.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

● **اللغة**: وَصَبَ الشيءُ وُصوباً: إذا دام، ووَصَبَ الدين: وجب، وقال أبو الأسود:

لا تبتغي الحمدَ القليلَ بقاؤهُ ... يوماً بذمِّ الدهرِ أجمعَ واصبا

والوَصَبُ: الألم الذي يكون عن الإعياء بدوام العمل مدة، قال:

لا يغمز الساقَ من أينٍ ومن وصبٍ ... ولا يعضُّ على شُرسوفهِ الصَّفرُ(١)

(١) الشرسوف: رأس الضلع مما يلي البطن. والصفر: دابة تعفن الضلوع والشراسيف. وفي (اللسان) في «صفر» قال أعشى باهلة يرثي أخاه:

«ولا يتاري لمافي القدر يرقبه ... ولا يعض عن شرسوفه الصفر»

والجؤار: الاستغاثة برفع الصوت، ويقال: جَأرَ الثور يجأرُ جُؤاراً إذا رفع صوته من جوع أو غيره، قال الأعشى:

وما أيبليٌ على هيكلٍ بناهُ وصُلب فيه وصارا[1]
يُراوِحُ من صلواتِ المليكِ طوراً سجوداً وطوراً جؤارا

وبناء الأصوات على فعال وفعيل نحو: الصُراخ والبكاء، والعويل والصفير والفُعال أكثر.

● **الإعراب:** ذكر ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ توكيداً لقوله: ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾ كما ذكر الواحد في قوله: ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾. ﴿وَاصِبًا﴾ نصب على الحال ﴿وَمَا بِكُم﴾ موصول وصله في موضع الرفع بالابتداء، ودخلت الفاء في خبره وهو قوله: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ تقديره: فهو من الله ولا فعل هاهنا، لأن قوله: ﴿بِكُمْ﴾ قد تضمن معنى الفعل، فإنه بمعنى وما حل بكم من نعمة.

● **المعنى:** لما بين سبحانه دلائل قدرته وإلهيته، عقَّبه بالتنبيه على وحدانيته فقال: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي لا تعبدوا مع الله إلٰهاً آخر فتشركوا بينهما في العبادة، لأنه لا يستحق العبادة سواه، وذكر ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ كما يقال: فعلت ذلك لأمرين اثنين. وقيل: إن تقديره: لا تتخذوا اثنين إلٰهين، يريد به نفسه وغيره ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وإنما لإثبات المذكور ونفي ما عداه، فكأنه قال: هو إلٰه واحد لا إلٰه غيره ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي ارهبوا عقابي وسطواتي، ولا تخشوا غيري، وورد عن بعض الحكماء أنه قال: نهاك ربك أن تتخذ إلٰهين فاتخذت آلهة، عبدتَ نفسك وهواك ودنياك، وطبعك ومرادك، وعبدت الخلق، فأنّى تكون موحداً؟! ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وملكاً وخلقاً ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي وله الطاعة دائمة واجبة على الدوام ـ عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة. ومعناه: أنه سبحانه الذي يعبد دائماً، وغيره إنما يعبد في وقت دون وقت. وقيل: معناه، وله الدين خالصاً ـ عن الفراء. أي يجب على العبد أن يطيعه مخلصاً. وقيل: معناه، وله الملك دائماً لا يزول ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي أفغير الله تخشون، وهو استفهام فيه معنى التوبيخ، أي فكيف تعبدون غيره ولا تتقونه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ معناه: أن جميع ما بكم وما لكم من النعم مثل الصحة في الجسم، والسعة في الرزق ونحوهما، فكل ذلك من عند الله ومن جهته ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ مثل المرض والشدة والبلاء وسوء الحال ﴿فإليه تجئرون﴾ أي فإليه تتضرعون في كشفه وإليه ترفعون أصواتكم بالدعاء والاستغاثة لصرفه ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ معناه: ثم إذا دفع ما حل بكم من الضر، ودفع ما مسكم من المرض والفقر ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي دعا طائفة منكم إلى الشرك بربهم في العبادة جهلًا منهم بربهم، ومقابلة لنعمه بالكفران والعصيان، وهذا عجب من فعل العاقل المميز ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ معنى اللام هاهنا هو البيان عن العلة التي لأجلها وقع الفعل، والمعنى: أنهم بمنزلة من أشرك في عبادة ربه، ليكفر بما آتاه من النعمة، كأنه كان لا غرض له في شركه إلا هذا، والمعنى: لأن يكفروا بإنعامنا عليهم ورزقنا إياهم. وقيل: إن اللام للأمر

(١) الأيبلي: الراهب. وصلب الراهب: اتخذ في بيعته صليباً. وصار أي: صور.

على وجه التهديد، أي ليفعلوا ما شاؤوا فإنه ينزل الله بهم عاقبة كفرهم، ويوافق هذا القول ما رواه مكحول عن أبي رافع قال: حفظت عن رسول الله ﷺ ﴿فيتمتعوا فسوف يعلمون﴾ بالياء فيهما، فإن ﴿يمتعوا﴾ يكون عطفاً مجزوماً، ويجوز أيضاً أن يكون عطفاً منصوباً، والمعنى: لأن يكفروا فيمتعوا، فقوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يكون ابتداء خطاب لهم على التهديد والوعيد، يقول: فتمتعوا أيها الكفار في الدنيا قليلاً فسوف تعلمون ما يحل بكم في العاقبة، من العقاب وأليم العذاب، وحذف لدلالة الكلام عليه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

● **اللغة:** يقال: ظل يفعل كذا إذا فعله في صدر النهار، ويقال: ظَلِلْتُ أظل ظلولاً، ومثله: أضحى، غير أنه كثر حتى صار بمنزلة أخذ يفعل. والكظيم: المغموم الذي يطبق فاه لا يتكلم للغم الذي به، مأخوذ من الكِظامة وهي اسم لما يشد به فم القربة، والكِظامة أيضاً: العَقَبُ على رؤوس القُذَذ، والكِظامة أيضاً: البئر، ومنه الحديث: إن النبيﷺ أتى كِظامةً فتوضأ ومسح على قدميه، وجمعها كظائم. والهون: الهوان والمشقة وهي لغة قريش. قال الحطيئة:

فلما خشِيت الهونَ والعينُ ممسكٌ على رغمهِ ما أثبت الخيلَ حافرُه

ودَسَسْت الشيءَ في التراب أدسُّه دساً: إذا أخفيته، والدَّسَّاسة: حية صماء تندسُّ تحت التراب.

● **الإعراب:** ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ إن شئت جعلت ﴿ما﴾ في موضع نصب بمعنى: يجعلون لهم البنين الذين يشتهون هم، ويكون قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، وإن شئت جعلته في موضع رفع على الاستئناف، فيكون مرفوعاً على الابتداء ﴿وَلَهُمْ﴾ خبره، أو مرفوعاً على أن الظرف عمل فيه على ما ذكرنا من الاختلاف فيه فيما مضى. والهاء في ﴿يمسكه﴾ يعود إلى قوله: ﴿مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ فلذلك ذكر. وقيل: معناه، ويجعلون للأصنام الذين لا يعلمون ولا يجعلون نصيباً من الأنعام والزرع، فكني عن لفظة ﴿ما﴾ في قوله ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالواو، لأنهم جعلوا الأصنام هنا بمنزلة العقلاء ـ عن أبي علي الفارسي، وقال أيضاً: يجوز أن يكون تقديره: ويجعلون لما لا يعلمونه إلٰهاً نصيباً، ويكون الضميران في ﴿يَجْعَلُونَ﴾ و ﴿يَعْلَمُونَ﴾ للمشركين، وحذف المفعولان.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه فعلاً آخر من أفعال المشركين دالاً على جهلهم، فقال:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ والواو في ﴿يَعْلَمُونَ﴾ تعود إلى المشركين، أي لما لا يعلمون أنه يضر وينفع ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ يتقربون بذلك إليه كما يجب أن يتقرب إلى الله تعالى، وهو ما حكى الله عنهم في سورة الأنعام من الحرث وغير ذلك، وقولهم: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ - عن مجاهد وقتادة وابن زيد. ثم أقسم تعالى فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ في الآخرة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي تكذبون به في دار الدنيا، لتلزموا به الحجة وتعاقبوا بعد اعترافكم على أنفسكم.

ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من جهالاتهم، فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ أي ويثبتون لله البنات، ويضيفون إليه البنات، وهو قولهم: الملائكة بنات الله، كما قال سبحانه: **﴿ويجعلون الملائكة الذين هم عباد الرحمٰن إناثاً﴾** ثم نزه سبحانه نفسه عما قالوا فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزيهاً له عن اتخاذ البنات ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون ويحبونه في البنين دون البنات، وعلى الوجه الآخر: ولهم ما يحبونه يعني البنين ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي وإذا بشر واحد منهم بأنه ولد له بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي صار لون وجهه متغيراً إلى السواد، لما يظهر فيه من أثر الحزن والكراهة، فقد جعلوا لله ما يكرهونه لأنفسهم، وهذا غاية الجهل ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ممتلىء غيظاً وحزناً ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ يعني أن هذا الذي بُشر بالبنت، يستخفي من القوم الذين يستخبرونه عما ولد له، استنكافاً منه وخجلًا وحياء من سوء ما بشر به من الأنثى وقبحه عنده **﴿أيمسكه على هون أو يدسه في التراب﴾** يعني يميل نفسه ويدبر في أمر البنت المولودة له، أيمسكه على ذل وهوانٍ أم يخفيه في التراب ويدفنه حياً؟ وهو الوأد الذي كان من عادة العرب، وهو أن أحدهم كان يحفر حفيرة صغيرة، وإذا ولد له أنثى جعلها فيها وحثا عليها التراب حتى تموت تحته، وكانوا يفعلون ذلك مخافة الفقر عليهن فيطمع غير الأكفاء فيهن ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس الحكم ما يحكمونه، وهو أن يجعلوا لنفوسهم ما يشتهون ولله ما يكرهون، وقيل: معناه، ساء ما يحكمونه في قتل البنات مع مساواتهن للبنين في حرمة الولادة، ولعل الجارية خير من الغلام، وروي عن ابن عباس أنه قال: لو عطاء الله الناس في الناس لما كان الناس، لأنه ليس أحد إلا ويحب أن يولد ذكر، ولو كان الجميع ذكوراً لما كان لهم أولاد، فيفنى الناس.

ثم قال سبحانه: **﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى﴾** أي لهؤلاء الكفار الذين وصفوا الله بالولد صفة السوء، أي الصفة القبيحة التي هي سواد الوجه والحزن، ولله الصفة العليا من السلطان والقدرة. وقيل: لهم صفات النقص من الجهل والكفر والضلال والعمى، وصفة الحدوث والضعف والعجز والحاجة إلى الأبناء وقتل البنات خوف الفقر، ولله صفات الإلٰهية والاستغناء عن الصاحبة والولد والربوبية وإخلاص التوحيد. ويسأل فيقال:

كيف يمكن الجمع بين قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾؟.

والجواب: أن المراد بالأمثال هناك الأشباه، أي لا تشبهوا الله بشيء، والمراد بالمثل الأعلى هنا الوصف الأعلى الذي هو كونه قديماً قادراً عالماً حياً ليس كمثله شيء. وقيل: إن

المراد بقوله: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ المثل المضروب بالحق، وبقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ الأمثال المضروبة بالباطل ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي القادر الذي لا يمتنع عليه شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها على ما هو حكمة وصواب. وفي الآية دلالة على أنه لا يضاف لله تعالى الأدْوَن، فإن الله سبحانه قد عاب المشركين بإضافتهم إليه ما لا يرضونه لأنفسهم، فإذا كره الإنسان إضافة القبيح إلى نفسه للنقص الذي فيه، فكيف يجوز أن يضيفه إلى الله تعالى؟!

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وقتيبة عن الكسائي: ﴿مفرِطون﴾ ساكنة الفاء مكسورة الراء خفيفة، وقرأ أبو جعفر عليه السلام: ﴿مفرِّطون﴾ مفتوحة الفاء مكسور الراء مشددة، والباقون: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ ساكنة الفاء مفتوحة الراء خفيفة. وروي عن الأعرج بفتح الراء وتشديده.

● **الحجة:** قال الزجاج: أما تفسير: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ فجاء عن ابن عباس: متروكون. وقيل: معجَّلون. ومعنى الفَرَط في اللغة: التقدم، وقد فَرَطَ مني قول، أي تقدم، فمعنى مُفرَطون: مقدمون إلى النار، وكذلك ﴿مُّفَرَّطُونَ﴾ بالتشديد. ومن فسر متروكون، فهو كذلك، أي قد جعلوا مقدمين في العذاب أبداً متروكين فيه. ومن قرأ ﴿مُفَرِّطُونَ﴾ فالمعنى أنه وصفهم الله بأنهم فَرَّطوا في الدنيا ولم يعملوا فيها للآخرة، وتصديقه قوله: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾. ومن قرأ: ﴿مُفْرِطُونَ﴾ فالمراد أنهم أفرطوا في معصية الله، كما تقول: أفرط فلان في مَكْرُوهي، وتأويله: أنه آثر العجز وقدمه، قال أبو علي: وكأنه من أفرط، أي صار ذا فرط مثل أقطف وأجرب، فهو مُقطف ومجرِب، فمعناه: أنهم ذوو فرط إلى النار وسبق إليها.

● **الإعراب:** ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ مفعول ﴿تَصِفُ﴾ و ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بدل من الكذب، وتقديره: وتصف ألسنتهم أن لهم الحسنى، أي تصفون أن لهم مع هذا الفعل القبيح الجزاء الحسن، و ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ في موضع نصب ﴿بجرم﴾ والمعنى: جرم فعلهم هذا، أي كسب أن لهم النار. وقيل: إنَّ ﴿أنّ﴾ في موضع رفع ـ عن قطرب. قال: معناه، أنه وجب أن لهم النار، وأنهم مفرطون فيها ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي لأن تبين لهم الجار والمجرور في محل النصب بأنه مفعول له، وكذلك قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ وكلاهما معطوف على ما قبله بأنه مفعول له أيضاً، أي أنزلنا

عليك الكتاب بياناً وهدى ورحمة. قال الزجاج: ويجوز في هذا الموضع ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالرفع فيكون المعنى: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا للبيان، وهو مع ذلك هدى ورحمة.

● **المعنى:** ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أخبر سبحانه أنه لو كان ممن يؤاخذ الكفار والعصاة بذنوبهم، ويعاجلهم بالعقوبة، لما ترك على وجه الأرض أحداً ممن يستحق ذلك من الظالمين، وإنما قال: ﴿عَلَيْهَا﴾ ولم يجر ذكر للأرض في الظاهر، لأن الكلام يدل عليه، فإن العلم حاصل بأن الناس يكونون على ظهر الأرض، ومثله كثير في محاورات العرب، يقولون: ما بين لابتيها مثل فلان، يعنون المدينة، وأصبحت باردة، يريدون الغداة، إذ اللابتان بالمدينة، والإصباح لا يكون إلا غدوة. وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي يمهلهم إلى وقت معلوم مسمى وهو يوم القيامة. وقيل: إلى وقت يعلمه الله تعالى أنه لا يكون في بقائهم فيه مصلحة، لأنهم لا يؤمنون ولا يخرج من نسلهم مؤمن، وإنما يؤخرهم تفضلًا منه سبحانه ليراجعوا التوبة، أو لما في ذلك من المصلحة.

واختلف أهل العدل فيمن المعلوم من حاله أنه لا يؤمن فيما بعد، هل يجوز اخترامه؟ فقال بعضهم: يجوز لأن التكليف تفضل فلا تجب التبقية، وهو قول أبي هاشم، وإليه ذهب المرتضى قدس الله روحه. وقال آخرون: لا يجوز اخترامه ويجب تبقيته، وهو قول البلخي وأبي علي الجبائي وإن اختلفا في علته، فقال الجبائي: لأنه مفسدة، وقال البلخي: لأنه الأصلح، وإليه ذهب الشيخ المفيد أبو عبد الله. وقيل: إن معنى الآية، لو يؤاخذهم بذنوبهم لحبس المطر عنهم، حتى تهلك كل دابة ـ عن السدي وعكرمة.

سؤال: متى قيل: إن المكلف الظالم يستحق العقوبة بظلمه، فما بال الحيوانات تؤخذ بغير جرم؟

فجوابه: أن العذاب للظالم عقوبة ولغير الظالم عبرة ومحنة، فيكون كالأمراض النازلة بالأولياء وغير المكلفين، فيعوضون عنها. وقيل: معناه، لو هلك الآباء بكفرهم لم يوجد الأبناء. وقيل: إنه إذا هلك الظلمة ولم يبق مكلف لا يبقى غيرهم من الحيوانات، لأنها إنما خلقت للمكلفين، فلا فائدة في بقائها بعدهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قد سبق معناه فيما مضى.

ثم حكى سبحانه عن الكفار فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ يعني البنات، أي يحكمون لله بما يكرهونه لأنفسهم ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي وتخبر ألسنتهم بالكذب، وهو ما يقولون ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي البنون ـ عن مجاهد. وقيل: معناه، تصفون أن لهم ـ مع قبيح قولهم ـ من الله الجزاء الحسن والمثوبة الحسنى وهي الجنة ـ عن الزجاج وغيره، فإن المشركين كانوا يقولون: إن كان ما يقوله محمد من أمر البعث والآخرة حقاً فنحن من أهل الجنة. وروي عن معاذ أنه قرأ: ﴿وَتَصِفُ ألسنتهم الكُذُبُ﴾ بضم الذال والباء، فعلى هذا يكون الكُذُبُ: وصفاً للألسنة جمع كاذب أو كذوب. ثم رد سبحانه قولهم فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي ليس

الأمر على ما وصفوا، جَرَم فِعلُهم وقولهم، أي كسب أن لهم النار، والمفسرون يقولون معناه: حقاً أن لهم النار، أو لا بد أن لهم النار ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي مقدَّمون، أي معجَّلون إلى النار.

ثم أقسم سبحانه فقال: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي كفرهم وضلالهم وتكذيبهم الرسل ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ معناه: أن الشيطان وليهم اليوم في الدنيا يتولونه ويتبعون إغواءه، فأما يوم القيامة فيتبرأ بعضهم من بعض - عن أبي مسلم. وقيل: معناه، فهو وليهم يوم القيامة، أي يكلهم الله تعالى إلى الشيطان إياساً لهم من رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وللتابع والمتبوع عذاب مؤلم وجيع. ثم بين سبحانه أنه قد أقام الحجة، وأزاح العلة، وأوضح المحجة فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ معناه: إلا وقد أردنا منك أن تكشف لهم ما اختلفوا فيه من دلالة التوحيد والعدل، وتبين لهم الحلال والحرام ﴿وَهُدًى﴾ أي وأنزلناه دلالة على الحق ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ثم أخبر سبحانه عن نعمته على خلقه فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي غيثاً ومطراً ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ أي بذلك الماء ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أحياها بالنبات بعد جدوبها وقحطها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي حجة ودلالة ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يستصغون أدلة الله ويتفكرون فيها ويعتبرون بها.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وسهل: ﴿نَسقيكم﴾ بفتح النون هاهنا وفي المؤمنين، والباقون: ﴿نُّسْقِيكُم﴾ بضمها في الموضعين. وقرأ أبو جعفر في المؤمنين: ﴿تسقيكم﴾ بالتاء.

● **الحجة:** قيل بين سقيت وأسقيت فرق، وهو أن سقيته معناه: ناولته ليشرب، وأسقيته معناه: جعلت له ماء يشربه. وقيل: سقيته ماء، وأسقيته: سألت الله أن يسقيه، وعليه بيت ذي الرمة:

وأسقيه حتى كاد مما أبثه ... تكلمني أحجاره وملاعبه[1]

---

(١) مر البيت في ص١٠٨ وص١٥٤.

وقيل: إذا سقاه مرة يقول: سقيته، وإذا سقاه دائماً يقال: أسقيته ـ عن أبي عبيدة. وقيل: هما بمعنى واحد، واستدل ببيت لبيد:

سقى قومي بني مجدٍ وأسقِي نميراً والقبائلَ من هِلال

فإنه أتى باللغتين.

● **اللغة:** العبرة والعظة من النظائر، وهو ما يعتبر به. والفرث: الثقل الذي ينزل إلى الكرش. وساغ الطعام في الحلق وسوَّغته وأسَغْتهُ. السَّكَرُ في اللغة على أربعة أوجه:

الأول: ما أسكر من الشراب.

والثاني: ما طعم من الطعام، قال الشاعر:

جعلتَ عيب الأكرمين سَكَراً[1]

أي جعلتَ ذمهم طُعْماً لك.

والثالث: السكون، ومنه ليلة ساكرة، أي ساكنة، قال الشاعر:

وليست بطلق ولا ساكِره[2]

ويقال: سكرت الريح: سكنت، قال:

وجعلتْ عينُ الحرورِ تَسْكرُ[3]

والرابع: المصدر من قولك: سكِر سُكْراً، ومنه التسكير التحيير في قوله: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ والذلل: جمع الذلول، يقال: دابة ذلول بيِّن الذِّل، ورجل ذلول بيِّن الذُّل، والذِّلة. والرَّذْل: الدون الرديء، وكذلك الرُّذَال، يقال: رَذُل الشيء يرذُل رَذالة وأرذَلْته أنا.

● **الإعراب:** الهاء في ﴿بُطُونِهِۦ﴾ إلى ماذا يعود؟ اختلف فيه، فقيل: إن الأنعام جمع والجمع يذكر ويؤنث، فجاء هاهنا على لغة من يذكر، وجاء في سورة المؤمنين على لغة من يؤنث. وقيل: إنه رد على واحد الأنعام، وأنشد للراجز:

وطاب ألبان اللقاح فبرد[4]

رده إلى اللبن ـ عن الفراء. وقيل: إن الأنعام والنعم سواء فحمل على المعنى، كما قال الصلتان العبدي:

إن السماحة والمروءة ضمِّنا قبراً بمرْوَ على الطريق الواضح

---

(١) ورواية (اللسان) هكذا: «جعلعت أعراض الكرام سكراً».

(٢) قائله أوس وقبله: «تزاد ليالي في طولها».

(٣) مر البيت بتمامه في ص١٠٤.

(٤) وقبله: «بال سهيل في الفصيخ ففسد». واللقاح: اسم ماء الفحل.

فكأنه قال: شيئان ضمنا، وقال الأعشى:

فإن تعهديني ولي لمةٌ ... فإن الحوادث أودى بها[1]

حمله على الحدثان[2]، ويجوز أن يكون التقدير: نسقيكم مما في بطون المذكور. وقيل: إن ﴿من﴾ يدل على التبعيض، فكأنه قال: نسقيكم مما في بطون بعض الأنعام، لأنه ليس لجميعها لبن. وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ الضمير في منه إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان:

أحدهما: أنه يعود إلى المذكور.

والثاني: أنه يعود إلى معنى الثمرات، لأن الثمرات والثمر سواء، وكذا الهاء في قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ قيل: يعود إلى الشراب وهو العسل، وقيل: يعود إلى القرآن، فإذا عاد الضمير إلى الشراب ارتفع ﴿شِفَآءٌ﴾ بالظرف على المذهبين، وتقديره: شراب ثابت فيه شفاء، وإذا عاد الضمير إلى القرآن ففي رفع ﴿شِفَآءٌ﴾ خلاف، فإن الظرف لم يجر على مذكور قبله ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ إن نصبت ﴿شَيْـًٔا﴾ بـ ﴿عِلْمٍ﴾ ـ وهو مذهب سيبويه ـ كنت قد أعملت الثاني وأضمرت لـ ﴿عِلْمٍ﴾ مفعولًا، وفصلت بين المفعول والعامل، فجمعت بين مجازين بخلاف مذهب سيبويه.

● **المعنى**: ثم عطف سبحانه على ما تقدم من دلائل التوحيد، وعجائب الصنعة، وبدائع الحكمة، بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي لعظة واعتبار، أو دلالة على قدرة الله تعالى ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ وروى الكلبي عن ابن عباس قال: إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثاً، وأعلاه دماً، ووسطه لبناً، فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث كما هو، فذلك قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ لا يشوبه الدم ولا الفرث ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي جائزاً في حلوقهم، والكبد مسلطة على هذه الأصناف، فيقسمها على الوجه الذي اقتضاه التدبير الإلهي. بيَّن سبحانه لمن ينكر البعث أن من قدر على إخراج لبن أبيض سائغ، من بين الفرث والدم من غير أن يختلط بهما، قادر على إخراج الموتى من الأرض من غير أن يختلط شيء من أبدانهم بأبدان غيرهم. ثم قال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ قيل: معناه، ولكم عبرة فيما أخرج الله لكم من ثمرات النخيل والأعناب ـ عن الحسن. وقيل: معناه، من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكراً، والعرب تضمر ما الموصولة كثيراً، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ أي: ما ثم. وقيل: إن تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب شيء تتخذون منه سكراً ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فحذف الموصوف لدلالة الصفة عليه ﴿وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ عطف على ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ومن الأعناب شيء تتخذون سكراً، وهو كل ما يسكر من الشراب كالخمر. والرزق الحسن: ما أحل منهما كالخل والزبيب والرب والرطب والتمر ـ عن ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة

---

(١) اللمة: الشعر الجعد خلف الأذن. وأودى بها أي: أهلكها. ورواية اللسان: «فأما تريني ولي لمة اهـ».

(٢) أي كان عليه أن يقول: «أودت بها»، فذكر على إرادة الحدثان.

ومجاهد وغيرهم. وروى الحاكم في صحيحه بالإسناد عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية فقال: السكر: ما حرم من ثمرها، والرزق الحسن: ما أحل من ثمرها. قال قتادة: نزلت الآية قبل تحريم الخمر، ونزل تحريمها بعد ذلك في سورة المائدة. قال أبو مسلم: ولا حاجة إلى ذلك سواء كان الخمر حراماً أم لم يكن، لأنه تعالى خاطب المشركين وعدد أنعامه عليهم بهذه الثمرات، والخمر من أشربتهم فكانت نعمة عليهم. وقيل: إن المراد بالسكر: ما يشرب من أنواع الأشربة مما يحل، والرزق الحسن: ما يؤكل، والحسن: اللذيذ ـ عن الشعبي والجبائي. فالمعنى: تتخذون منه أصنافاً من الأشربة والأطعمة، وقد أخطأ من تعلق بهذه الآية في تحليل النبيذ، لأنه سبحانه إنما أخبر عن فعل كانوا يتعاطونه، فأي رخصة في هذا اللفظ؟ والوجه فيه: أنه سبحانه أخبر أنه خلق هذه الثمار لينتفعوا بها، فاتخذوا منها ما هو محرم عليهم، ولا فرق بين قوله هذا وبين قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي دلالة ظاهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله تعالى ذلك ويتفكرون فيه. بين الله سبحانه بذلك أنكم تستخرجون من الثمرات عصيراً يخرج من قشر قد اختلط به، فكذلك الله يستخلص ما تبدد من الميت مما هو مختلط به من التراب.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي ألهمها إلهاماً ـ عن الحسن وابن عباس ومجاهد. وقيل؛ جعل ذلك في غرائزها بما يخفى مثله عن غيرها ـ عن الحسن. قال أبو عبيدة: الوحي في كلام العرب على وجوه: منها وحي النبوة، ومنها الإلهام، ومنها الإشارة، ومنها الكتاب، ومنها الإسرار، فوحي النبوة في قوله: ﴿**أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه**﴾. والإلهام في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ والإشارة في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟﴾ قال مجاهد معناه: أشار إليهم، وقال الضحاك: كتب لهم. والإسرار في قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وأصل الوحي عند العرب أن يلقى الإنسان إلى صاحبه شيئاً بالاستتار والإخفاء. وأما ما روي عن ابن عباس أنه قال: لا وحي إلا القرآن، فإن المراد به أن القرآن هو الوحي الذي نزل به جبرائيل على محمد ﷺ دون أن يكون أنكر ما قلناه. ويقال: أوحى له وأوحي إليه، قال العجاج:

أوحى لها القرار فاستقرت(١)

والمعنى: أن الله تعالى ألهم النحل اتخاذ المنازل والمساكن والأوكار والبيوت في الجبال والشجر وغير ذلك، وتقديره: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ للعسل ولا يقدر على مثلها أحد ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي ومن الكرم، لأنه الذي يعرش ويتخذ منه العريش، وفيه لغتان: يعرُشون ويعرِشون ـ بضم الراء وكسرها ـ وقد قرىء بهما. وقيل: معنى يعرشون: يبنون، والعرش سقف البيت ـ عن الكلبي. والمعنى: ما يبني الناس لها من خلاياها التي تعسل فيها، ولولا إلهام الله

(١) وبعده «وشدها بالراسيات الثبت» وقد مر.

إياها ما كانت تأوي إلى ما بني لها من بيوتها، وإنما أتي بلفظ الأمر وإن كانت النحل لا تعقل الأمر ولا تكون مأمورة، لأنه لما أتي بلفظ الوحي أجري عليه لفظ الأمر اتساعاً.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من أنواع الثمرات من أي ثمرة شئت ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي فادخلي سبل ربك التي جعلها الله لك ﴿ذُلُلًاۚ﴾ أي مذللة موطأة للسلوك واسعة يمكن سلوكها، فيكون قوله: ﴿ذُلُلًاۚ﴾ صفة للسبل وهي منصوبة على الحال، وهو قول مجاهد. وقيل: ﴿ذُلُلًاۚ﴾ أي مطيعة لله منقادة مسخرة، ويكون من صفة النحل ـ عن قتادة ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ وهو العسل فإن ألوانه مختلفة، لأن منه ما هو شديد البياض، ومنه ما هو أصفر، ومنه ما يضرب إلى الحمرة، وذلك أن النحل تتناول ألواناً مختلفة من النبات والزهر، فيجعلها الله تعالى عسلًا على ألوان مختلفة يخرج من بطونها، إلا أنها تلقيه من أفواهها كالريق الذي يخرج من فم ابن آدم، وإنما قال سبحانه: ﴿مِنۢ بُطُونِهَا﴾ ولم يقل: مِنْ فيها، لئلا يظن أنها تلقيه من فيها ولم يخرج من بطنها ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ من الأدواء ـ عن قتادة. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل. وقيل: معناه، فيه شفاء للأوجاع التي شفاؤها فيه ـ عن السدي والحسن. وروي عن مجاهد أن الهاء في ﴿فِيهِ﴾ راجعة إلى القرآن، أي القرآن فيه شفاء للناس، يعني ما فيه من الحلال والحرام والفتيا والأحكام، والأول قول أكثر المفسرين، وهو الأقوى إذ لم يسبق للقرآن ذكر.

وفي النحل والعسل وجوه من الاعتبار: منها اختصاصه بخروج العسل من فيه، ومنها جعل الشفاء من موضع السم، فإن النحل يلسع، ومنها ما ركب الله من البدائع والعجائب فيه وفي طباعه، ومن أعجبها أن جعل سبحانه لكل فئة يعسوباً هو أميرها، يقدمها ويحامي عنها، ويدبر أمرها ويسوسها، وهي تتبعه وتقتفي أثره، ومتى فقدته انحل نظامها وزال قوامها وتفرقت شذر مذر، وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما قال في قوله: أنا يعسوب المؤمنين. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ معناه: إن فيما ذكرناه من بدائع صنع الله تعالى دلالة بينة لمن يتفكر فيه.

ثم بين نعمته علينا في خلقنا وإخراجنا من العدم إلى الوجود، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ أي أوجدكم وأنعم عليكم بضروب النعم الدينية والدنيوية ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ﴾ ويقبضكم، أي يميتكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي أدون العمر وأوضعه، أي يبقيه حتى يصير إلى حال الهرم والخرف، فيظهر النقصان في جوارحه وحواسه وعقله، ورووا عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة، وروي مثل ذلك عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وعن قتادة تسعون سنة ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ﴾ أي ليرجع إلى حال الطفولية، بنسيان ما كان علمه لأجل الكبر، فكأنه لا يعلم شيئاً مما كان علمه. وقيل: لِيَقِلَّ علمه بخلاف ما كان عليه في حال شبابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يشاء من تدبيرهم وتقدير أحوالهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿تجحدون﴾ بالتاء، والباقون: بالياء.

● **الحجة:** الوجه في القراءة بالياء أنه يراد به غير المسلمين، لأنه لا يخاطب المسلم بجحود نعم الله، والوجه في القراءة بالتاء: قل لهم: أفبنعمة الله التي تقدم اقتصاصها تجحدون؟ ويقوي الياء قوله: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

● **اللغة:** الحفَدَة: جمع حافد، وأصل الحفْد: الإسراع في العمل، ومنه ما جاء في الدعاء: وإليك نسعى ونحفد. ومر البعير يحفدُ حَفْداً وحَفَداناً(١)، إذا مر بسرع في سيره، قال الراعي:

كلَّفت مجهولها نُوقاً يمانيةً   إذا الحُداةُ على أكسائها حفَدوا(٢)

ومنه قيل للأعوان: حفدة لإسراعهم في الطاعة، قال جميل:

حَفَد الولائد حولها واسْتَسلمتْ   بأكفِهنَّ أزمةُ الأجمالِ(٣)

● **الإعراب:** ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ جملة اسمية وقعت موقع جملة فعلية في موضع النصب، لأنه جواب النفي بالفاء، والتقدير: فيستووا. ﴿شَيْـًٔا﴾ انتصب على أحد وجهين: إما أن يكون بدلاً من ﴿رِزْقًا﴾ بمعنى أنه لا يملك لهم رزقاً قليلاً ولا كثيراً، وهو قول الأخفش.

وإما أن يكون مفعولاً لقوله: ﴿رِزْقًا﴾ فكأنه قال: ما لا يملك لهم أن يرزق شيئاً، وهو مما أعمل من المصادر المنونة.

● **المعنى:** ثم عدد سبحانه نعمة منه أخرى، فقال: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ فوسع على واحد وقتر على آخر على ما توجبه الحكمة ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ اختلف في معناه على قولين:

أحدهما: أنهم لا يشركون عبيدهم في أموالهم وأزواجهم حتى يكونوا فيه سواء، ويرون ذلك نقصاً فلا يرضون لأنفسهم به، وهم يشركون عبيدي في ملكي وسلطاني، ويوجهون العبادة

---

(١) [وحفداناً].

(٢) الحداة: جمع الحادي. وأكساء جمع كسيء: مؤخر الشيء.

(٣) الولائد: الشواب من الجواري.

والقرب إليهم كما يوجهونها إلي ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. قال ابن عباس: يقول: إذا لم ترضوا أن تجعلوا عبيدكم شركاءكم فكيف جعلتم عيسى إلٰهاً معه وهو عبده، ونزلت في نصارى نجران.

والثاني: أن معناه: فهؤلاء الذين فضلهم الله في الرزق من الأحرار لا يرزقون مماليكهم بل الله تعالى رازق الملاك والمماليك، فإن الذي ينفقه المولى على مملوكه إنما ينفقه مما رزقه الله تعالى، فالله تعالى رازقهم جميعاً، فهم سواء في ذلك ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ أي أفبهذه النعمة التي عددتها واقتصصتها يجحد هؤلاء الكفار؟!

ثم عدد سبحانه نعمة أخرى فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي جعل لكم من جنبكم، ومن الذين تلدونهم نساء جعلهن أزواجاً لكم لتسكنوا إليهن وتأنسوا بهن ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾ يعني هؤلاء الأزواج ﴿بَنِينَ﴾ تسرون بهم وتزينون بهم ﴿وَحَفَدَةٗ﴾ اختلف في معناه فقيل: هم الخدم والأعوان ـ عن ابن عباس والحسن وعكرمة. وفي رواية الوالي: هم أختان الرجل على بناته، وهو المروي عن أبي عبد الله وعن ابن مسعود وإبراهيم وسعيد بن جبير. وقيل: هم البنون وبنو البنين ـ عن ابن عباس في رواية أخرى. ونصه عنه أيضاً: أنهم بنو امرأة الرجل من غيره ـ في رواية الضحاك. وقيل: البنون: الصغار من الأولاد، والحفدة: الكبار منهم يسعون معه ـ عن مقاتل ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الأشياء التي تستطيبونها قد أباحها لكم، وإنما دخلت ﴿مِّنَ﴾ لأنه ليس كل ما يستطيبه الإنسان رزقاً له، وإنما يكون رزقه ما له التصرف فيه وليس لأحد منعه منه ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ يريد بالباطل الأوثان والأصنام، وما حرم عليهم وزينه الشيطان من البحائر وغيرها، أي أفبذلك يصدقون؟ ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ التي عددها ﴿هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ أي يجحدون، ويريد بنعمة الله التوحيد والقرآن ورسول الله ﷺ ـ عن ابن عباس.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾ أي لا يملك أن يرزقهم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ شيئاً مما ذكرناه. وقيل: إن رزق السماء الغيث الذي يأتي من جهتها، ورزق الأرض النبات والثمار وغير ذلك من أنواع النعم التي تخرج من الأرض ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ أي لا تجعلوا لله الأشباه والأمثال في العبادة، فإنه لا شبه له ولا مثل ولا أحد يستحق العبادة سواه، وإنما قال ذلك في اتخاذهم الأصنام آلهة ـ عن ابن عباس وقتادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ أن من كان إلٰهاً فإنه منزه عن الشركاء ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، بل تجهلونه ولو تفكرتم لعلمتم. وقيل: معناه، والله يعلم ما عليكم من المضرة في عبادة غيره، وأنتم لا تعلمون، ولو علمتم لتركتم عبادتها.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ

﴿كُلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة ابن مسعود وعلقمة والحسن ومجاهد: ﴿أينما يوجِّه﴾ وروي عن علقمة ﴿يوجَّه﴾ بفتح الجيم.

● **الحجة:** قال ابن جني: أما ﴿يوجه﴾ بكسر الجيم، فعلى حذف المفعول، أي: أينما يوجه وجهه، فحذف للعلم به. وأقول: إن نظيره ما جاء في المثل: (أينما أوجّه ألق سعداً) ومعناه: أينما أوجِّه وجوهَ ركابي وسعد قبيلته، أي كل الناس مثل قبيلتي في التحاسد. وأما ﴿يوجَّه﴾ بفتح الجيم، فمعناه: أينما يرسل أو يبعث لا يأت بخير.

● **اللغة:** الأبكم: الذي يولد أخرس لا يَفهَم ولا يُفهِم. وقيل: الأبكم الذي لا يمكنه أن يتكلم. والكَلُّ: الثقل، يقال: كَلَّ عن الأمر يَكِلُّ كلاً إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه، وكلَّت السكين كُلولاً إذا غلظت شفرتها، وكَلَّ لِسانه إذا لم ينبعث في القول لغلظه وذهاب حده، فالأصل فيه الغلظ المانع من النفوذ. والتوجيه: الإرسال في وجه من الطريق، يقال: وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه.

● **الإعراب:** ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ رزقاً مفعول ثان لرزقناه، وفي هذا دليل على أن رزق يتعدى إلى مفعولين، ألا ترى أن قوله ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ لو كان مصدراً لما جاز أن يقول ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ لأن الإنفاق إنما يكون من المال لا من الحدث الذي هو المصدر.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه للمشركين أمر ضلالتهم، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي بين الله مثلاً فيه بيان المقصود، تقريباً للخطاب إلى أفهامهم، ثم ذكر ذلك المثل فقال: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ﴾ من أمره ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ يريد: وحراً رزقناه وملكناه مالاً ونعمة ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ لا يخاف من أحد ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ ولم يقل: يستويان، لأنه أراد بقوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ﴾ وقوله: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ الشيوع في الجنس لا التخصيص، يريد أن الاثنين المتساويين في الخلق إذا كان أحدهما مالكاً قادراً على الإنفاق، والآخر عاجزاً عن الإنفاق لا يستويان، فكيف يُسَوَّى بين الحجارة التي لا تعقل ولا تتحرك، وبين الله عز اسمه القادر على كل شيء الخالق الرازق لجميع خلقه، وهذا معنى قول المجاهد والحسن. وقيل: إن هذا المثل للكافر والمؤمن، فإن الكافر لا خير عنده، والمؤمن يكسب الخير ـ عن ابن عباس وقتادة. نبّه الله سبحانه بذلك على اختلاف حاليهما، ودعا إلى حال المؤمن وصرف عن حال الكافر ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي الشكر لله على نعمه، وفيه إشارة إلى أن النعم كلها منه. وقيل معناه: قولوا: الحمد لله الذي دلنا على توحيده ومعرفته، وهدانا إلى شكر نعمته، وأوضح لنا السبيل إلى جنته ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون أن الحمد لي، وأن جميع النعمة مني، ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر فقال:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الكلام لأنه لا يَفهم ولا يُفهم عنه. وقيل: معناه، لا يقدر أن يدبر أمر نفسه ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي ثقل ووبال علي وليه الذي يتولى أمره ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ معناه: أنه لا منفعة لمولاه فيه، أينما يرسله في حاجة لا يرجع بخير، ولا يهتدي إلى منفعة ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ﴾ أي هذا الأبكم الموصوف بهذه الصفة ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي ومن هو فصيح يأمر بالعدل والحق، ويدعو إلى الثواب والبر ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على دين قويم، وطريق واضح فيما يأتي به ويذر، والمراد أنهما لا يستويان قط، لأنه لا جواب لهذا الكلام إلا النفي، وهذا كما قال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ وقيل في معنى هذا المثل أيضاً قولان:

أحدهما: أنه مثل ضربه الله تعالى فيمن يؤمل الخير من جهته ومن لا يؤمل منه، وأصل الخير كله من الله تعالى، فكيف يُسوَّى بينه وبين شيء سواه في العبادة؟

والآخر: أنه مثل للكافر والمؤمن، فالأبكم الكافر، والذي يأمر بالعدل المؤمن ـ عن ابن عباس. وقيل: إن الأبكم أبيّ بن خلف، ومن يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن مظعون ـ عن عطاء. وقيل: إن الأبكم هاشم بن عمرو بن الحارث القرشي، وكان قليل الخير يعادي رسول الله ﷺ ـ عن مقاتل.

ثم وصف سبحانه نفسه مؤكداً لما قدم ذكره من أوصاف الكمال فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومعناه: أنه المختص بعلم الغيب، وهو ما غاب عن جميع الخلائق مما يصح أن يكون معلوماً، قال الجبائي: ويمكن أن يكون المعنى: ولله ما غاب عنكم مما في السماوات والأرض، ثم قال: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ في قدرته ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ أي كطرف العين. وقيل: كرد البصر. قال الزجاج: وما أمر إقامة الساعة في قدرته إلا كلمح البصر، أي لا يتعذر عليه شيء ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ من ذلك، وهو مبالغة في ضرب المثل به في السرعة، ودخول ﴿أَوْ﴾ هنا لأحد أمرين: إما للإبانة على أنه على إحدى هاتين المنزلتين، وإما لشك المخاطب. وقيل معناه: بل هو أقرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على إقامة الساعة وعلى كل شيء يريده، لأن القدير مبالغة في صفة القادر.

● **النظم**: وجه اتصاله بما قبله أن أمر القيامة من الأمور الغائبة ومن أعظمها وأهمها، لما فيه من الثواب والعقاب، والإنصاف والانتصاف، والساعة اسم لإماتة الخلق وإحيائهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

● **القراءة:** قد ذكرنا القراءة في ﴿أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ في سورة النساء، وقرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب وسهل وخلف: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ بالتاء، والباقون: بالياء. وقرأ أهل الكوفة وابن عامر: ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ ساكنة العين، والباقون: بفتح العين.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ بالتاء، فإنه يدل عليه ما قبله من قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ و ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ومن قرأ بالياء فإنه على وجه التنبيه لمن تقدم ذكرهم من الكفار. والظعْن والظعَن ـ بفتح العين وسكونها ـ لغتان، ومثله النهر والنهر، والشمع والشمع، قال الأعشى:

فـقـد أشـربُ الـراحَ قـد تـعـلـمـيـ ـنَ يـومَ الـمـقـام ويـومَ الـظَّـعَـن

قال أبو علي: ولا يجوز أن يكون الظَّعَن مخففاً على الظَّعْن، كما أن عضُداً مخفف على عَضد، وكَتِفاً مخففاً على كَتف، ألا ترى أن من قال ذلك لم يخفف نحو جَمَل ورَسَن، كما أن الذي يقول: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ و ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ لا يقول: ﴿والليل إذا يغش﴾ وحرف الحلق وغيره في ذلك سواء.

● **اللغة:** الأمهات: أصله الأمَّات، ولكن الهاء زيدت مؤكدة، كما زادوها في أهرقت الماء، والأصل أرقت. والأفئدة: جمع فؤاد، كما يقال: غراب وأغربة، ولم يجمع الفؤاد على أكثر العدد، لم يقل فيه: فِئدَان كما قالوا غِرْبان. الجو: الهواء البعيد من الأرض، وأبعد منه السكاك واللوح، وواحد السكاك سكاكة ـ عن الزجاج، قال الشاعر:

ويـلِمـهـا فـي هـواءِ الـجـوِّ طـالـبـةً ولا كـهـذا الـذي في الأرضِ مطلوبُ(١)

والسكن: كل ما يسكن إليه، والسكن أيضاً المسكن، قال الفراء: السكن بفتح الكاف: الدار، وبسكونها: أهل الدار، ومنه الحديث: إن الرمانة لتشبع السَّكْنَ، وأصله من السكون الذي هو ضد الحركة، وهما من جنس الأكوان التي يكون الجسم بها كائناً في الجهات، ومنه السكين، لأنه يسكن حركة المذبوح. والأثاث: متاع البيت الكثير، من قولهم: شعر أثيث، أي كثير، أو أث النبت يأثُّ أثًّا إذا كثر والتف، وكذلك الشعر، ولا واحد للأثاث، كما أنه لا واحد للمتاع، قال الشاعر:

أهـاجـتـك الـظَّـعـائـنُ يـومَ بـانُـوا بـذي الـزِّيِّ الـجـمـيـل مـن الأثـاثِ(٢)

● **الإعراب:** قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ في موضع نصب على الحال من الكاف والميم. وقوله ﴿شَيْئًا﴾ يجوز أن يكون منتصباً على المصدر، أي لا تعلمون علماً، ويجوز أن يكون مفعولًا، ويكون ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بمعنى تعرفون لاقتصاره على مفعول واحد ﴿أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا﴾ نصب بـ ﴿جَعَلَ﴾ أي يجعل لكم أثاثاً ومتاعاً.

---

(١) قائله امرىء القيس، ورواية الديوان: «لا كالتي في هواه اه» ونسبه في (التبيان) و(الطبري) إلى إبراهيم بن عمران الأنصاري. وقوله «ويلمها» مخفف «ويل أمها».

(٢) قائله محمد بن نمير الثقفي. وفي بعض النسخ «الزي». ورواية اللسان: «أشاقتك الظغائن ا. هـ».

● **المعنى**: ثم عدد سبحانه نعماً له أخر، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ منعماً عليكم بذلك وأنتم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ من منافعكم ومضاركم في تلك الحال ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي تفضل عليكم بالحواس الصحيحة التي هي طرق إلى العلم بالمدركات، وتفضل عليكم بالقلوب التي تفقهون بها الأشياء، إذ هي محل المعارف ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروه على ذلك وتحمدوه. ثم عطف سبحانه على ما تقدم من الدلائل دلالة أخرى، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي ألم تتفكروا وتنظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي كيف خلقها الله خلقة يمكنها معها التصرف في جو السماء، صاعدة ومنحدرة، وذاهبة وجائية، مذللات للطيران في الهواء بأجنحتها، تطير من غير أن تعتمد على شيء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي ما يمسكهن من السقوط على الأرض من الهواء إلا الله، فيمسك الهواء تحت الطير حتى لا ينزل فيه كإمساك الماء تحت السابح في الماء، حتى لا ينزل فيه، فجعل إمساك الهواء تحتها إمساكاً لها على التوسع، فإن سكونها في الجو إنما هو فعلها، فالمعنى: ألم تنظروا في ذلك فتعلموا أن لها مسخراً ومدبراً لا يعجزه شيء، ولا يتعذر عليه شيء، وأنه إنما خلق ذلك ليعتبروا به، فيصلوا إلى الثواب الذي عرضهم له، ولو كان فعل ذلك لمجرد الإنعام على العبيد لكان حسناً، لكنه سبحانه وتعالى ضم إلى ذلك التعريض للثواب ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي دلالات على وحدانية الله تعالى وقدرته ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم الذين انتفعوا به.

ثم عدّد سبحانه نعماً أخر في الآية الأخرى فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي موضعاً تسكنون فيه مما يتخذ من الحجر والمدر، وذلك أنه سبحانه خلق الخشب والمدر، والآلة التي يمكن بها تسقيف البيوت وبناؤها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعني الأنطاع والأدم ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي قباباً وخياماً يخف عليكم حملها في أسفاركم ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ أي ارتحالكم من مكان إلى مكان. وقيل: معنى الظعن سير أهل البوادي لنجعة أو حضور ماء أو طلب مرتع ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي اليوم الذي تنزلون موضعاً تقيمون فيه، أي لا يثقل عليكم في الحالتين ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ وهي للضأن ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ وهي للإبل ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ وهي للمعز ﴿أَثَٰثًا﴾ أي مالاً ـ عن ابن عباس. وقيل: نوعاً من متاع البيت من الفراش والأكسية. وقيل: طنافس وبسطاً وثياباً وكسوة، والكل متقارب ﴿وَمَتَٰعًا﴾ تتمتعون به، ومعاشاً تتجرون فيه ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى يوم القيامة ـ عن الحسن. وقيل: إلى وقت الموت ـ عن الكلبي. ويحتمل أن يكون أراد به موت المالك أو موت الأنعام. وقيل: إلى وقت البلى والفناء. وفيه إشارة إلى أنها فانية، فلا ينبغي للعاقل أن يختارها على نعيم الآخرة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ

نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

● **اللغة:** الأكنان: جمع كن، وهو الموضع الذي يستتر صاحبه فيه، ويقال: كننت الشيء في كنه، أي صنته وأكننته، أي أخفيته، وكل ما لبسته من قميص أو درع أو جوشن أو غيره فهو كن. قال الزجاج: والعتب: الموجدة، يقال: عتَب عليه يعتِب إذا وجد عليه، فإذا فاوضه ما عتب عليه، قالوا: عاتبه، وإذا رجع إلى مسرته قيل: أعتَب، والاسم العُتْبي، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب، واستعتبه: طلب منه أن يُعتِب. قال أبو مسلم: الاستعتاب مأخوذ من العتاب والعَتْب، وأصله دبغ الأديم وهو عتابه، وفي المثل: إنما يُعاتِب الأديم ذو البشرة، يقال: عتَبتُ على فلان واستَعتَبتُه إذا أنكرت منه فعلاً واستنزلتَه عنه وأردتَ إصلاحه، وأعتَبَكَ فلانٌ إذا صار لك إلى ما تحبُّ، وزال عما تكره.

● **الإعراب:** ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ شرط، وتقديره: فإن تولوا لم يلزمك تقصير من أجل توليهم، فإن الذي عليك هو البلاغ، إلا أنه حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في محل الرفع لوقوع الإذن عليه.

● **المعنى:** ثم عدد سبحانه نعماً أخر أضافها إلى ما عدده قبل من نعمه فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الأشجار والأبنية ﴿ظِلَٰلًا﴾ أي أشياء تستظلون بها في الحر والبرد ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ أي مواضع تسكنون بها من كهوف وثقوب وتأوون إليها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ أي قميصاً من القطن والكتان والصوف ـ عن ابن عباس وقتادة ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ولم يقل: وتقيكم البرد، لأن ما وقي الحر وقي البرد، وإنما خص الحر بذلك مع أن وقايتها للبرد أكثر، لأن الذين خوطبوا بذلك أهل حر في بلادهم، فحاجتهم إلى ما يقي الحر أكثر ـ عن عطاء، على أن العرب تكتفي بذكر أحد الشيئين عن الآخر للعلم به، كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يممتُ أرضاً أريدُ الخيرَ: أيُّهما يليني؟[1]

فكني عن الشر ولم يذكره، لأنه مدلول عليه ـ ذكره الفراء ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعني دروع الحديد تقيكم شدة الطعن والضرب وتدفع عنكم سلاح أعدائكم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما جعل لكم هذه الأشياء وأنعم بها عليكم ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يريد نعمة الدنيا، ويدل عليه قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ قال ابن عباس معناه: لعلكم يا أهل مكة تعلمون أنه لا يقدر على هذا غيره، فتوحدوه وتصدقوا رسوله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ هذا تسلية للنبي ﷺ، ومعناه: فإن أعرضوا عن الإيمان بك يا محمد، والقبول عنك وعن التدبر لما عددته في هذه

(١) قائله المثقب العبدي، ومرجع الضمير في قوله: «أيهما» في بيت بعده وهو:
«أألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني»

السورة من النعم، وبينت فيها من الدلالات فلا عتب عليك ولا لوم فإنما عليك البلاغ الظاهر، وقد بلغت كما أمرت، والبلاغ الاسم، والتبليغ المصدر، مثل الكلام والتكليم.

ثم أخبر سبحانه عن الكفار فقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أي يعرفون نعم الله تعالى عليهم، بما يجدونه من خلق نفوسهم وإكمال عقولهم، وخلق أنواع المنافع التي ينتفعون بها لهم، ثم إنهم مع ذلك ينكرون تلك النعم أن تكون من جهة الله تعالى خاصة، بل يضيفونها إلى الأوثان ويشكرون الأوثان عليها، يقولون: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا فيشركونهم معه فيها. وقيل: إن معناه، يعرفون محمداً ﷺ وهو من نعم الله سبحانه، ثم يكذبونه ويجحدونه - عن السدي ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ إنما قال ﴿أَكْثَرُهُمُ﴾ لأن منهم من لم تقم الحجة عليه، إذ لم يبلغ حد التكليف لصغره، أو كان ناقص العقل مأوفاً، أو لم تبلغه الدعوة فلا يقع عليه اسم الكفر. وقيل: إنما ذكر الأكثر لأنه علم سبحانه أن فيهم من يؤمن. وقيل: إنه من الخاص في الصيغة العام في المعنى - عن الجبائي. وقريب منه قول الحسن: أراد: جميعهم الكافرون، وإنما عدل عن البعض احتقاراً له أن يذكره. وفي هذه الآية دلالة على فساد قول المجبرة: إنه ليس لله تعالى على الكافر نعمة، وإن جميع ما فعله بهم إنما هو خذلان ونقمة، لأنه سبحانه نص في هذه الآية على خلاف قولهم.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني يوم القيامة بين سبحانه أنه يبعث فيه من كل أمة شهيداً، وهم الأنبياء والعدول من كل عصر يشهدون على الناس بأعمالهم، وقال الصادق عليه السلام: لكل زمان وأمة إمام، تبعث كل أمة مع إمامها، وفائدة بعث الشهداء مع علم الله سبحانه بذلك أن ذلك أهول في النفس، وأعظم في تصور الحال، وأشد في الفضيحة، إذا قامت الشهادة بحضرة الملأ مع جلالة الشهود وعدالتهم عند الله تعالى، ولأنهم إذا علموا أن العدول عند الله يشهدون عليهم بين يدي الخلائق، فإن ذلك يكون زجراً لهم عن المعاصي، وتقديره: واذكر يوم نبعث ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا يؤذن لهم في الكلام والاعتذار - عن ابن عباس. كما قال: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾. وقيل معناه: لا يؤذن لهم في الرجوع إلى الدنيا. وقيل معناه: لا يسمع منهم العذر، يقال: أذنت له، أي استمعت، كما قال عدي بن زيد:

في سماعٍ يأذنُ الشيخُ له وحديثٍ مِثْلِ ماذِيٍ مشار(١)

عن أبي مسلم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يسترضون ولا يستصلحون كما كان يفعل بهم في دار الدنيا، لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ومعناه: لا يسألون أن يرضوا الله بالكف عن معصية يرتكبونها ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ معناه: إذا رأى الذين أشركوا بالله تعالى النار ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون ولا يؤخرون، بل عذابهم دائم في جميع الأوقات، فإن وقت التوبة والندم قد فات.

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ بما قبله أنه سبحانه أمر نبيّه ﷺ أن يذكرهم

(١) الماذي: العسل الأبيض. والمشار: ن أشرت العسل: إذا جنيته.

بهذه النعم، ويحتج عليهم بهذه الحجج، فإن أسلموا فذاك، وإن أعرضوا فلا شيء على الرسول، فإنما عليه البلاغ المبين فقط. ووجه اتصال الآية الأخيرة بما قبلها وهي قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أنها تتصل بقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ لأن المعنى: أنا نجازيهم على أعمالهم يوم نبعث من كل أمة شهيداً. وقال أبو مسلم: إنه عطف على قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ يريد ثم يبعثكم يوم يبعث من كل أمة شهيداً.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

● **اللغة:** تقول: ألقيت الشيء إذا طرحته، واللَّقَي: الشيء الملقى، وألقيت إليه مقالة، أي قلتها له، وتلقاها إذا قبلها. والسلم: الاستسلام والانقياد. والتبيان والبيان واحد، الأزهري قال: العرب تقول: بينت الشيء تبييناً وتبياناً.

● **المعنى:** ثم أبان سبحانه عن حال المشركين يوم القيامة فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ يعني الأصنام والشياطين الذين أشركوهم مع الله في العبادة. وقيل: سماهم شركاءهم لأنهم جعلوا لهم نصيباً من الزرع والأنعام، فهم إذاً شركاؤهم على زعمهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ أي يقولون: هؤلاء شركاؤنا التي أشركناها معك في الإلهية والعبادة، وأضلونا عن دينك فحمِّلهم بعض عذابنا ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ معناه: فقالت الأصنام وسائر ما كانوا يعبدونه من دون الله بإنطاق الله تعالى إياهم لهؤلاء: إنكم لكاذبون في أنّا أمرناكم بعبادتنا، ولكنكم اخترتم الضلال بسوء اختياركم لأنفسكم: وقيل: إنكم لكاذبون في قولكم إنَّا آلهة، وإلقاء المعنى إلى النفس إظهاره لها حتى تدركه متميزاً عن غيره ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ معناه: واستسلم المشركون وما عبدوهم من دون الله لأمر الله، وانقادوا لحكمه يومئذ ـ عن قتادة. وقيل: معناه، أن المشركين زال عنهم نخوة الجاهلية، وانقادوا قسراً لا اختياراً، واعترفوا بما كانوا ينكرونه من توحيد الله تعالى ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي بطل ما كانوا يأملونه ويتمنونه من الأماني الكاذبة من أن آلهتهم تشفع لهم وتنفع.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي أعرضوا عن دين الله وقيل: صدوا غيرهم عن اتباع الحق الذي هو سبيل الله. وقيل: صد المسلمين عن البيت الحرام - عن أبي مسلم ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كان يفسدون﴾ أي عذبناهم على صدهم عن دين الله، زيادة على عذاب الكفر. وقيل: زدناهم الأفاعي والعقارب في النار، لها أنياب كالنخل الطوال - عن ابن مسعود. وقيل: هي أنهار من صُفْر مذاب كالنار يعذبون بها - عن ابن عباس ومقاتل. وقيل: زيدوا حيات كأمثال الفيلة والبخت، وعقارب كالبغال الدُلم - عن سعيد بن جبير ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي من أمثالهم من البشر، ويجوز أن يكون ذلك الشهيد نبيهم الذي أرسل إليهم، ويجوز أن يكون المؤمنون العارفون يشهدون عليهم بما فعلوه من المعاصي. وفي هذا دلالة على أن كل عصر لا يجوز أن يخلو ممن يكون قوله حجة على أهل عصره، وهو عدل عند الله تعالى، وهو قول الجبائي وأكثر أهل العدل، وهذا يوافق ما ذهب إليه أصحابنا، وإن خالفوهم في أن ذلك العدل والحجة منه هو ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يريد على قومك وأمتك، وإنما أفرده بالذكر تشريفاً له، وتم الكلام هاهنا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآن ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي بياناً لكل أمر مشكل، ومعناه: ليبين كل شيء يحتاج إليه من أمور الشرع، فإنه ما من شيء يحتاج الخلق إليه في أمر من أمور دينهم إلا وهو مبين في الكتاب إما بالتنصيص عليه، أو بالإحالة على ما يوجب العلم من بيان النبي ﷺ، والحجج القائمين مقامه أو إجماع الأمة، فيكون حكم الجميع في الحاصل مستفاداً من القرآن ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي ونزلنا عليك القرآن دلالة إلى الرشد ونعمة على الخلق لما فيه من الشرائع والأحكام، ولأنه يؤدي إلى نعم الآخرة ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي بشارة لهم بالثواب الدائم والنعيم المقيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ وهو الإنصاف بين الخلق والتعامل بالاعتدال الذي ليس فيه ميل ولا عوج ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى الناس وهو التفضل، ولفظ الإحسان جامع لكل خير والأغلب عليه استعماله في التبرع بإيتاء المال، وبذل السعي الجميل. وقيل: العدل التوحيد، والإحسان أداء الفرائض - عن ابن عباس وعطاء. وقيل: العدل في الأفعال، والإحسان في الأقوال، فلا يفعل إلا ما هو عدل، ولا يقول إلا ما هو حسن. وقيل: العدل أن ينصف وينتصف، والإحسان أن ينصف ولا ينتصف ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي ويأمركم بإعطاء الأقارب حقهم بصلتهم، وهذا عام. وقيل: المراد بذي القربى قرابة النبي ﷺ الذين أرادهم الله بقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ على ما مر تفسيره، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام قال: نحن هم. ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ إنما جمع بين الأوصاف الثلاثة في النهي مع أن الكل منكر فاحش، ليبين بذلك تفصيل ما نهى عنه، لأن الفحشاء قد يكون ما يفعله الإنسان في نفسه من القبيح مما لا يظهره، والمنكر ما يظهره للناس مما يجب عليهم إنكاره، والبغي ما يتطاول به من الظلم لغيره. وقيل: إن الفحشاء: الزنا، والمنكر: ما ينكره الشرع، والبغي: الظلم والكبر - عن ابن عباس. وقيل: إن العدل استواء السريرة والعلانية، والإحسان أن تكون السريرة أحسن من العلانية، والفحشاء والمنكر أن تكون العلانية أحسن من السريرة - عن سفيان بن عيينة ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ معناه: يعظكم بما

تضمنت هذه الآية من مكارم الأخلاق، لكي تتذكروا وتتفكروا وترجعوا إلى الحق، قال عبد الله بن مسعود: هذه الآية أجمع آية في كتاب الله للخير والشر. قال قتادة: أمر الله سبحانه بمكارم الأخلاق، ونهاهم عن سفاسف(١) الأخلاق، وجاءت الرواية أن عثمان بن مظعون قال: كنت أسلمت استحياء من رسول الله ﷺ، لكثرة ما كان يعرض عليَّ الإسلام ولم يقر الإسلام في قلبي، فكنت ذات يوم عنده حال تأمله، فشخص بصره نحو السماء كأنه يستفهم شيئاً، فلما سرّي عنه سألته عن حاله فقال: نعم، بينا أنا أحدثك إذ رأيت جبرائيل في الهواء، فأتاني بهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ وقرأها عليَّ إلى آخرها، فقرَّ الإسلام في قلبي، وأتيت عمه أبا طالب فأخبرته، فقال: يا آل قريش، اتبعوا محمداً ﷺ ترشدوا، فإنه لا يأمركم إلا بمكارم الأخلاق، وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية فقال: إن كان محمد قاله فنعم ما قال، وإن قاله ربه فنعم ما قال، قال: فأنزل الله ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ يعني قوله: فنعم ما قال. ومعنى قوله: ﴿وأكدى﴾ أنه لم يقم على ما قاله وقطعه. وعن عكرمة قال: إن النبي ﷺ قرأ هذه الآية على الوليد بن المغيرة فقال: يا ابن أخي، أعد، فأعاد، فقال: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو قول البشر.

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ بما قبله أنه سبحانه لما بين أن الأنبياء تشهد على أممهم يوم القيامة، بين عقيبه أنه سبحانه قد كلف الجميع، وأزاح عللهم في التكليف بأن أنزل القرآن بما فيه من البيان والهداية والرحمة والبشارة لأهل الإيمان، وأنهم إذا عوقبوا فإنما أوتوا في ذلك من قبل نفوسهم، وهذا كله مما يدخل في الشهادة. ووجه اتصال قوله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ الآية بما قبله، أنه سبحانه لما ذكر القرآن بين عقيبه ما يأمر به وينهى عنه فيه. وقيل: إنه يتصل بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ كأنه قال بعد ذكر القيامة والشهود: إنه يأمر بالعدل وينهى عن الظلم، فاعلموا أنه سبحانه لا يظلم أحداً، بل يعدل ويتفضل، ولذلك جاء بالشهود ليشهدوا على أممهم أنهم أوتوا فيما لاقوه من العذاب من قبل أنفسهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ

---

(١) السفساف: الرديء من كل شيء.

وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

● **اللغة:** التوكيد: التشديد، وأوْكِد عقدَك، أي شُدَّه، وهي لغة أهل الحجاز، وأهل نجد يقولون: أكدت تأكيداً. والإنكاث: الإنقاض، واحدها: نِكْث، والنَّكث المصدر، وهذا قول لا نكثة فيه، أي لا خلف، وكل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث، حبلاً كان أو غزلاً، والحبل منتكث، أي منتقض، ومنه سموا من تابع الإمام: طائعاً، ثم خرج عليه: ناكثاً، لأنه نقض ما وكد على نفسه بالأيمان والعهود، كفعل الناكثة غزلها. والدَّخَل: ما أدخل في الشيء على فساد. وقيل: الدَّخل: الدَّغل والخديعة، وإنما قيل: الدخل لأن داخل القلب على ترك الوفاء، والظاهر على الوفاء، قال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دَخَل، وكل ما دخله عيب فهو مدخول. وأربى: أفعل من الربا وهو الزيادة، ومنه الربوة والربا في المال، وأربى فلان: الزيادة التي يريدها على عزيمة في رأس ماله، قال الشاعر:

وأسـمـر خـطِّـيّ كـأن كـعـوبـه   نوى القسْبِ قد أربى ذراعاً على العشر(١)

● **الإعراب:** ﴿أَنكَٰثًا﴾ منصوب، لأنه في معنى المصدر ﴿دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ منصوب، لأنه مفعول له. والمعنى: تتخذون أيمانكم للدخل والغش، وقوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ على تقدير: بأن تكون أمة، و ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾ موضع ﴿أَرْبَىٰ﴾ رفع مبتدأ وخبر، وكلاهما في محل النصب بأنه خبر كان، وقال الفراء: إن موضع أربى نصب، و﴿هِىَ﴾ عماد، وهذا لا يجوز، لأن الفصل الذي يسميه الكوفيون عماداً، لا يدخل بين النكرة وخبره، وقد أخطأ أيضاً بأن شبه ذلك بقوله: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ فإن الهاء في تجدوه معرفة، وهاهنا ﴿أُمَّةٌ﴾ نكرة، فلا يشبه ذلك، ويجوز أن تكون الجملة صفة لـ ﴿أُمَّةٌ﴾ ولا يحتاج ﴿تَكُونَ﴾ إلى خبر لأنه بمعنى يحدث ويقع و ﴿أُمَّةٌ﴾ فاعله، وتقديره: كراهة أن تكون، فهو مفعول له، ولئلا يكون، عند الكوفيين.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الأمر بالعدل والإحسان، والنهي عن المنكر والعدوان، عقبه سبحانه بالأمر بالوفاء بالعهد، والنهي عن نقض الأيمان، فقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ قال ابن عباس: الوعد من العهد، وقال المفسرون: العهد: الذي يجب الوفاء به، والوعد: هو الذي يحسن فعله، وعاهد الله ليفعلنه، فإنه يصير واجباً عليه ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ هذا نهي منه سبحانه عن نكث الأيمان، وهو أن ينقضها بمخالفة موجبها، وارتكاب ما يخالف عقدها، وقوله: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي بعد عقدها وإبرامها وتوثيقها باسم الله تعالى. وقيل: بعد تشديدها وتغليظها بالعزم والعقد على اليمين، بخلاف لغو اليمين ـ عن أبي مسلم ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ

(١) البيت منسوب إلى حاتم الطائي والخطي: الرمح المنسوب إلى الخط، وهو موضع باليمامة. والقسب: نوع من التمر اليابس، ونواه أصلب النوى. وفي بعض الكتب «أرمى» بالميم. وأرمى وأربى لغتان. يصف الشاعر رمحاً. وشبه كعوبه بنوى القسب.

﴿ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾ أي حسيباً فيما عاهدتموه عليه. وقيل: كفيلًا بالوفاء، وذلك أن من حلفه بالله فكأنه أكفل الله بالوفاء بما حلف. وقيل: إنه قولهم: الله عليّ كفيل أو وكيل. وقيل: أراد به أن الكفيل بالشيء يكون حفيظاً له، والإنسان إنما يؤكد الأمر على نفسه بذكر اسم الله تعالى على جهة اليمين، ليحفظ سبحانه ذلك الأمر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ من نقض العهد والوفاء به فإياكم أن تلقوه وقد نقضتم.

وهذه الآية نزلت في الذين بايعوا النبي ﷺ على الإسلام، فقال سبحانه للمسلمين الذين بايعوه: لا يحملنكم قلة المسلمين وكثرة المشركين على نقض البيعة، فإن الله حافظكم، أي اثبتوا على ما عاهدتم عليه الرسول وأكدتموه بالأيمان. وقيل: نزلت في قوم خالفوا قوماً، فجاءهم قوم، وقالوا: نحن أكثر منهم وأعز وأقوى، فانقضوا ذلك العهد وحالفونا.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ أي لا تكونوا كالمرأة التي غزلت ثم نقضت غزلها، من بعد إمرار وفتل للغزل، وهي امرأة حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواريها إلى انتصاف النهار، ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن، ولا يزال ذلك دأبها، واسمها رَيْطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة، وكانت تسمى: خرقاء مكة ـ عن الكلبي. وقيل: إنه مثل ضربه الله تعالى: شبه فيه حال ناقض العهد بمن كان كذلك ﴿أَنكَٰثٗا﴾ جمع نكْث، وهو الغزل من الصوف والشعر، يبرم ثم ينكث، وينقض ليغزل ثانية ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي دخلًا وخيانة ومكراً، وذلك أنهم كانوا يخلفون في عهودهم ويضمرون الخيانة، وكان الناس يسكنون إلى عهدهم، ثم ينقضون العهد، فقد اتخذوا أيمانهم مكراً وخيانة ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾ أي لا تنقضوا العهد بسبب أن يكون قوم أكثر من قوم، وأمة أعلى من أمة، ولأجل ذلك، وتقديره: ولا تنكثوا أيمانكم متخذيها دغلًا وغدراً وخديعة لمداراتكم قوماً هم أكثر عدداً ممن حلفتم له ولقلتكم وكثرتهم، بل عليكم الوفاء بما حلفتم والحفظ لما عاهدتم عليه ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾ أي إنما يختبركم الله بالأمر بالوفاء، والهاء في ﴿بِهِۦۚ﴾ عائدة على الأمر وتحقيقه: أنه يعاملكم معاملة المختبر ليقع الجزاء بحسب العمل ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ أي وليفصلن ﴿لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ﴾ أي في صحته ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾ وليظهرن لكم حكمه حتى يعرف الحق من الباطل ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي لجعلكم مهتدين، يعني به مشيئة القدرة، كما قال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بالخذلان أو بالحكم عليه بالضلال ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ بالتوفيق وبالحكم عليه بالهداية، وقد ذكرنا معاني الضلال والهدى في سورة البقرة ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ من الطاعات والمعاصي فستجازون على كل منهما بقدره.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ نهى سبحانه عن الحلف على أمر يكون باطنه بخلاف ظاهره، فيضمر خلاف ما يظهر، أي يضمر الخلف والحنث فيه ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى، ومعناه: فتضلوا عن الرشد بعد أن تكونوا على هدى، يقال: زل قدم فلان في أمر كذا، إذا عدل عن الصواب. وقيل: معناه، فيسخط الله عليكم بعد رضاه عنكم، لأن ثبات

القدم تكون برضاء الله سبحانه، وزلة القدم تكون بسخطه. وقيل: إنها نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ على نصرة الإسلام وأهله، فنهوا عن نقض ذلك. ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي تذوقوا العذاب بما منعتم الناس عن اتباع دين الله ﴿وَلَكُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يريد عذاب الآخرة. وروي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قال: تهلك هذه الأمة بنقض مواثيقها. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: نزلت هذه الآيات في ولاية علي عليه السلام، وما كان من قول رسول الله ﷺ: سلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين.

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآية، بما قبله، أنه أخبر في الآية المتقدمة أنه يبين لهم في الآخرة الحق من الباطل، والمحق من المبطل بيان ضرورة، فأخبر عقيب ذلك أنه يقدر على ذلك أيضاً في الدنيا، ولكنه لم يفعل ذلك ليستحق الناس الثواب بأعمالهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن كثير وعاصم: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ بالنون، والباقون بالياء. وروى عياش عن أبي عمرو: بالنون أيضاً.

● **الحجة:** حجة الياء ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ والنون في المعنى مثل الياء.

● **اللغة:** النفاد: الفناء، ونفِد الشيء يَنْفَد نَفاداً إذا فني، وأنفد القومُ إذا فني زادهم، ونافدت الرجل، مثل حاكمته، ومعناه يرجع إلى أن كل واحد من الخصمين يريد نفاد حجة الآخر، ومنه الحديث: إن نافدتهم نافدوك. ومن الناس من يرويه بالقاف. والمعنى: إن قلت قالوا لك. والباقي: هو الموجود المستمر وجوده. وقيل: الموجود عن وجود من غير فصل، وضده الفاني، وهو المعدوم بعد الوجود، واختلف المتكلمون في الباقي، فقال البلخي: إنه يبقى بمعنى هو بقاء، وقال الأكثرون: لا يحتاج إلى معنى به يبقى، والبقاء هو استمرار الوجود. والاستعاذة: طلب المعاذ، استفعال من العوذة والعياذ، والله سبحانه معاذُ مَن عاذَ به، وقال النبي ﷺ للمرأة التي قالت له: أعوذ بالله منك، لقد عُذتِ بمعاذ فالحقي بأهلك. وأصل السلطان: من التسلط وهو القهر، وإنما سميت الحجة سلطاناً لأن الخصم به يقهر، وقيل: اشتق

من السليط، وهو دهن الزيت، وسميت الحجة سلطاناً لإضاءتها، وفي الحديث عن ابن عباس: أرأيت علياً وكأن عينيه سراج سليط.

● **الإعراب:** ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ و ﴿هُوَ﴾ فصل، و ﴿خَيْرٌ﴾ خبره، و ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ مبتدأ و ﴿يَنفَدُ﴾ خبره، وكذلك ﴿وَمَا عِندَ اللهِ باقٍ﴾ وإنما قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بلفظ الجمع لأن لفظ ﴿مَنْ﴾ يقع على الواحد والجمع، فرد الضمير على المعنى.

● **النزول:** قال ابن عباس: إن رجلاً من حضرموت يقال له: عبدان بن أشوَع قال: يا رسول الله، إن امرأ القيس الكندي جاورني في أرضي، فاقتطع من أرضي، فذهب بها مني، والقوم يعلمون إني لصادق، ولكنه أكرم عليهم مني، فسأل رسول الله ﷺ امرأ القيس عنه، فقال: لا أدري ما يقول، فأمره أن يحلف، فقال عبدان: إنه فاجر لا يبالي أن يحلف، فقال: إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه، فلما قام ليحلف أنظره فانصرفا، فنزل قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ الآيتان، فلما قرأهما رسول الله ﷺ قال امرؤ القيس: أما ما عندي فينفد وهو صادق فيما يقول، لقد اقتطعت أرضه ولم أدر كم هي؟ فليأخذ من أرضي ما شاء ومثلها معها بما أكلت من ثمرها، فنزل فيه و ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الآية.

● **المعنى:** لما تقدم النهي عن نقض العهد أكد سبحانه فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تخالفوا عهد الله بسبب شيء يسير تنالونه من حطام الدنيا، فتكونوا قد بعتم عظيم ما عند الله بالشيء الحقير ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ معناه: أن الذي عند الله من الثواب على الوفاء بالعهود خير لكم وأشرف مما تأخذونه من عرض الدنيا على نقضها، فإن القليل الذي يبقى خير من الكثير الذي يفنى، فكيف بالكثير الذي يبقى في مقابلة القليل الذي يفنى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الفرق بين الخير والشر، والتفاوت الذي بين القليل الفاني والكثير الباقي ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ بين سبحانه بهذا أن العلة التي لأجلها كان الثواب خيراً من متاع الدنيا، هو أن الثواب الذي عند الله يبقى، والذي عندكم من نعيم الدنيا يفنى. ثم أخبر سبحانه أنه يجزي الصابرين فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ أي لنكافئن الذين ثبتوا على الطاعات وعلى الوفاء بالعهود ﴿أَجْرَهُم﴾ وثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي بالطاعات من الواجبات والمندوبات، فإن أفعال المكلف قد تكون طاعة، وقد تكون مباحاً لا يقع الجزاء عليه، ولا يستحق عليه أجر ولا حمد، فلذلك قال سبحانه: بأحسن، فإن الطاعة أحسن من المباح، وهذا يدل على فساد قول من يقول: إنه لا يكون حسن أحسن من حسن ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هذا وعد من الله سبحانه، أي من عمل عملاً صالحاً، سواء كان ذكراً أو أنثى وهو مع ذلك مؤمن، مصدق بتوحيد الله، مقر بصدق أنبيائه ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: أن الحياة الطيبة الرزق الحلال ـ عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء.

وثانيها: أنها القناعة والرضا بما قسم الله ـ عن الحسن ووهب. وروي ذلك عن النبي ﷺ.

وثالثها: أنها الجنة ـ عن قتادة ومجاهد وابن زيد. قال الحسن: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة. وقال ابن زيد: ألا ترى إلى قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾.

ورابعها: أنها رزق يوم بيوم.

وخامسها: أنها حياة طيبة في القبر.

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مر تفسيره، وإنما كرره تأكيداً ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ معناه: إذا أردت يا محمد قراءة القرآن فاستعذ بالله من شر الشيطان المرجوم المطرود الملعون، وهذا كما يقال: إذا أكلت فاغسل يديك، وإذا صليت فكبر، ومنه: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم، والاستعاذة استدفاع الأدنى بالأعلى على وجه الخضوع والتذلل، وتأويله: استعذ بالله من وسوسة الشيطان عند قراءتك لتسلم في التلاوة من الزلل، وفي التأويل من الخطل، والاستعاذة عند التلاوة مستحبة غير واجبة بلا خلاف في الصلاة وخارج الصلاة، وقد تقدم ذكر اختلاف القراء في لفظ الاستعاذة في أول الفاتحة ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني الشيطان ﴿لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾ أي تسلط وقدرة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ والمعنى: أنه لا يقدر على أن يكرههم على الكفر والمعاصي. وقيل معناه: ليس له حجة على ما يدعوهم إليه من المعاصي ـ عن قتادة ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ معناه: إنما تسلطه على الذين يطيعونه فيقبلون دعاءه ويتبعون إغواءه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ أي بسبب طاعته ﴿مُشۡرِكُونَ﴾ بالله. وقيل معناه: والذين هم بالله مشركون أي يشركون مع الله سبحانه غيره في العبادة ـ عن مجاهد.

● **النظم**: اتصل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الآيات، بما قدمه سبحانه من الأمر بالطاعات، فعقب ذلك بالاستعاذة من الشيطان الآمر بالمعاصي، تحذيراً منه، وإنما خص بالقرآن، لأن القرآن هو العمدة في جميع أمور الدين. وقيل: اتصل بقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ ثم اعترض ذكر الأوامر والنواهي، ثم عاد الكلام إلى ذكر القرآن والأمر بالاستعاذة عند قراءته.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

● **القراءة**: قرأ: ﴿يَلحَدون﴾ بفتح الياء والحاء أهل الكوفة غير عاصم، والباقون:

﴿يُلْحِدُونَ﴾ بضم الياء وكسر الحاء، وروي في الشواذ عن الحسن: ﴿**اللسان الذي يلحدون إليه**﴾ بالألف واللام.

● **الحجة:** حجة من قرأ ﴿يُلْحِدُونَ﴾ قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ ومن قرأ ﴿يَلحَدون فلأن لحد لغة في ألحد، وذلك إذا مال، ومنه أخذ اللحد لأنه في جانب القبر، ويكون الضم أرجح من حيث لغة التنزيل.

● **اللغة:** التبديل: في اللغة رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، يقال: بدّله وأبْدله واستبدل به بمعنى. واللسان: العضو المعروف، ويقال للغة: اللسان، وتقول العرب للقصيدة: هذه لسان فلان، قال الشاعر:

لسان السُّوء تهديها إلينا وخنت وما حسبتك أن تخونا[1]

● **المعنى:** ثم قال سبحانه مخبراً عن أحوال الكفار: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ معناه: وإذا نسخنا آية وآتينا مكانها آية أخرى، إما نسخ الحكم والتلاوة، وإما نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ معناه: والله أعلم بمصالح ما ينزل، فينزل كل وقت ما توجبه المصلحة، وقد تختلف المصالح باختلاف الأوقات، كما تختلف باختلاف الأجناس والصفات ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي قال المشركون: إنما أنت كاذب على الله. قال ابن عباس: كانوا يقولون: يسخر محمد بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وغداً يأمرهم بأمر، وإنه لكاذب يأتيهم بما يقول من عند نفسه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أنه من عند الله، أو لا يعلمون جواز النسخ، ولأي سبب ورد النسخ.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي أنزل الناسخ جبرائيل عليه السلام ﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالأمر الحق الصحيح الثابت ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما فيه من الحجج والآيات، فيزدادوا تصديقاً ويقيناً، ومعنى تثبيته استدعاؤه لهم بألطافه ومعونته إلى الثبات على الإيمان والطاعة ﴿وَهُدًى﴾ أي وهو هدى، فيكون ﴿هُدًى﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي بشارة لهم بالجنة والثواب ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يقول سبحانه: إنا نعلم أن الكفار يقولون: إن القرآن ليس من عند الله، وإنما يعلِّم النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم بشر، قال ابن عباس: قالت قريش: إنما يعلمه بلعام، وكان قيناً بمكة رومياً نصرانياً، وقال الضحاك: أراد به سلمان الفارسي رضي الله عنه، قالوا: إنه يتعلم القصص منه، وقال مجاهد وقتادة: أرادوا به عبداً لبني الحضرمي رومياً يقال له: يعيش أو عائش، صاحب كتاب، أسلم وحسن إسلامه، وقال عبد الله بن مسلم: كان غلامان في الجاهلية نصرانيان من أهل عين التمر، اسم أحدهما: يسار، واسم الآخر: جير، كانا صيقلين، يقرآن كتاباً لهما بلسانهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربما مر بهما واستمع لقراءتهما، فقالوا إنما يتعلم منهما، ثم ألزمهم الله تعالى الحجة وأكذبهم بأن قال ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي لغة الذي يضيفون إليه التعليم ويميلون إليه القول

(١) أي ضللت وما ظننتك أن تضلّ.

أعجمية، ولم يقل: عجمَي، لأن العجمي هو المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً، والأعجمي هو الذي لا يفصح وإن كان عربياً، ألا ترى أن سيبويه كان عجمياً وإن كان لسانه لسان اللغة العربية. وقيل: يلحدون إليه يرمون إليه ويزعمون أنه يعلمك، أي لسان هذا البشر الذي يزعمون أنه يعلمك أعجمي، لا يفصح ولا يتكلم العربية، فكيف يتعلم منه ما هو في أعلى طبقات البيان ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر بيِّن لا يشكك، يعني إذا كانت العرب تعجز عن الإتيان بمثله وهو بلغتهم، فكيف يأتي الأعجمي بمثله؟ قال الزجاج: وصفه بأنه عربي، أي صاحبه يتكلم بالعربية، ثم أتبع سبحانه هذه الآية بذكر الوعيد للكفار على ما قالوه، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بحجج الله التي أظهرها والمعجزات التي صدق بها قومك يا محمد ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا يثبتهم الله على الإيمان أو لا يهديهم إلى طريق الجنة بدلالة أنه إنما نفي هداية من لا يؤمن، فالظاهر أنه أراد بذلك الهدى الذي يكون ثواباً على الإيمان لا الهداية التي في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾. ثم بين سبحانه أن هؤلاء هم المفترون، فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي إنما يخترع الكذب الذين لا يصدقون بدلائل الله تعالى دون من آمن بها، لأن الإيمان يحجز عن الكذب ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ لا أنت يا محمد، فحصر فيهم الكذب، بمعنى أن الكذب لازم لهم، وعادة من عاداتهم، وهذا كما تقول: كذبت وأنت كاذب، فيكون قولك: أنت كاذب، زيادة في الوصف بالكذب، وفي الآية زجر عن الكذب، حيث أخبر سبحانه أنه إنما يفتري الكذب من لا يؤمن. وقد روي مرفوعاً أنه قيل: يا رسول الله، المؤمن يزني؟ قال: قد يكون ذلك، قيل: يا رسول الله، المؤمن يسرق؟ قال: قد يكون ذلك، قيل: يا رسول الله، المؤمن يكذب؟ قال: لا، ثم قرأ هذه الآية.

● **النظم:** قيل في اتصال قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ بما تقدم وجهان:

أحدهما: أنه من تمام صفة أولياء الشيطان المذكورين في قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ وتقديره: يتولون الشيطان، ويشركون بالآية المنزلة، ويقولون عند تبديل الآية مكان الآية الأخرى: إنما أنت مفتر.

والآخر: أن الآية منقطعة عما قبلها، وهي معطوفة على الآي المتقدمة التي فيها وصف أفعال الكافرين، والأول أوجه.

●●●

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ

وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ
إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ
رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: ﴿فَتَنوا﴾ بفتح الفاء والتاء، والباقون: ﴿فُتِنُواْ﴾ بضم الفاء وكسر التاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ: ﴿فُتِنُواْ﴾ أن الآية في المستضعفين المقيمين الذين كانوا بمكة، وهم صهيب وعمار وبلال، فُتنوا وحملوا على الارتداد عن دينهم، فمنهم من أعطى التقية وعمار منهم، فإنه ممن أظهر ذلك تقية، ثم هاجر. ومن قرأ: ﴿فَتَنُواْ﴾ فيكون على معنى فتن نفسه بإظهار ما ظهر من التقية، فكأنه يحكي الحال التي كانوا عليها من إظهار ما أخذوا به من التقية، لأن الرخصة فيه لم تكن نزلت بعد، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ وقوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

● **الإعراب:** قال الزجاج: قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ في موضع رفع على البدل من ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ وهو تفسير للكاذبين، ولا يجوز أن يكون رفعاً بالابتداء لأنه لا خبر هاهنا للابتداء، فإن قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ ليس بكلام تام، وقوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ خبر قوله: ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ وقال الكوفيون: ﴿مَن كَفَرَ﴾ شرط، وجوابه يدل عليه جواب ﴿مَّن شَرَحَ﴾ فكأنه قيل: من كفر فعليه غضب من الله، وهذا كقولهم: من يأتنا فمن يحسن نكرمه، فجواب الأول محذوف.

وقوله: ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع على أن يكون قوله: ﴿لَا﴾ من ﴿لَا جَرَمَ﴾ رداً لكلام، والمعنى: وجب أنهم.

ويجوز أن يكون في موضع نصب، على أن يكون المعنى: جرم فعلهم هذا أنهم الخاسرون، وتكون ﴿لَا﴾ مزيدة.

ويجوز أن يكون معناه: لا بد أنهم، فيكون على حذف الجار، أي لا بد من ذلك.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ قوله: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وهذا من باب ما جاء في التنزيل ﴿إِنَّ﴾ فيه مكرراً، وكذلك الآي التي تأتي بعد ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ الآية.

● **النزول:** قيل: نزل قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ في جماعة أكرهوا، وهم عمار وياسر أبوه وأمه سمية وصهيب وبلال وخباب، عُذِّبوا وقتل أبو عمار وأمه، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه، ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله ﷺ، فقال قوم: كفر عمار، فقال ﷺ: كلا، إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، وجاء عمار إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقال ﷺ: ما وراءك؟ فقال: شرٌّ يا

رسول الله، ما تُركْتُ حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه، ويقول: إن عادوا لك فعد لهم بما قلت، فنزلت الآية ـ عن ابن عباس وقتادة.

وقيل: نزلت في أناس من أهل مكة آمنوا وخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش وفتنوهم، فتكلموا بكلمة الكفر كارهين ـ عن مجاهد.

وقيل: إن ياسراً وسمية أبوي عمار أول شهيدين في الإسلام. وقوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ و ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح من بني عامر بن لؤي. وأما قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ الآية، فقيل: إنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل من الرضاعة، وأبي جندل بن سهيل بن عمرو، والوليد بن الوليد بن المغيرة وغيرهم من أهل مكة، فتنهم المشركون فأعطوهم بعض ما أرادوا، ثم إنهم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا، فنزلت الآية فيهم.

● **المعنى:** ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ اختلف في تقديره فقيل: إن تقديره وتلخيص معناه: من كفر بالله بأن يرتد عن الإسلام، وشرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ فتكلم بكلمة الكفر على وجه التقية مكرهاً ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ﴾ أي ساكن ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ثابت عليه فلا حرج عليه في ذلك. وقيل: إنه يتصل بما تقدم، فمعناه: إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه، ثم استثنى من ذلك من أكره على ذلك وكان مطمئن القلب إلى الإيمان في باطنه فإنه بخلافه ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي من اتسع قلبه للكفر وطابت نفسه به ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولهم العذاب في الآخرة. ثم أشار سبحانه إلى العذاب العظيم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ﴾ أي آثروا ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ والتلذذ فيها والركون إليها ﴿عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عنى بذلك أنهم فعلوا ما فعلوه للدنيا، طلباً لها دون طلب الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قد سبق معناه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ قد سبق معنى الطبع على القلوب والسمع والأبصار في سورة البقرة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ وصفهم بعموم الغفلة مع أن الخواطر تزعجهم لجهلهم عما يؤدي إليه حالهم في الآخرة. وقيل: أراد أنهم بمنزلة الغافلين فيكون تهجيناً لهم وذماً، ثم قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ هذا تأكيد لحكم الخسار عليهم، يعني أنهم هم المغبونون إذ حرموا الجنة ونعيمها وعذبوا في النار ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ أي عذبوا في الله وارتدوا على الكفر فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ مع النبي ﷺ ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ على الدين والجهاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد تلك الفتنة، أو تلك الفعلة التي فعلوها من التفوه بكلمة الكفر ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

● **النظم:** واتصلت هذه الآية الأخيرة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ فبيّن سبحانه حالهم بعدما تخلصوا من المشركين وهاجروا وجاهدوا ـ عن أبي مسلم. وقيل: إنه لما تقدم ذكر الخاسرين أتبعه سبحانه بذكر من ربحت صفقته، وهو من هاجر وجاهد.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ عباس بن الفضل عن أبي عمرو: ﴿والخوفَ﴾ بالنصب، والباقون: بالجر. وفي الشواذ قراءة الأعرج وابن يعمر وابن إسحاق وعمرو بن نعيم بن ميسرة: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبِ﴾ بالجر، وقراءة مسلم بن محارب: ﴿ٱلْكُذُبُ﴾.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿والخوفَ﴾ بالنصب، فإنه حمله على الإذاقة، والخوف لا يذاق على الحقيقة، فحمله على اللباس أولى. وقوله: ﴿الكذبِ﴾ بالجر يكون على البدل من ﴿**ما تصف**﴾ وأما ﴿ٱلْكُذُبُ﴾ فهو وصف الألسنة، وهو جمع كاذب أو كذوب.

● **اللغة:** الأنعم: جمع نعمة، فهو مثل شِدة وأشد. وقيل: إن واحدها نُعم، فهو كغصن وأغصن. وقيل: واحدها: نعْماء، فيكون كبأساء وأبؤس. وقوله: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ﴾ استعارة، تقول العرب: اركب هذا الفرس وذقه، أي اختبره، قال الشماخ:

فذاقَ فأعطاهُ من اللينِ جانباً كفى ولهاً أن يُغرِق السهم حاجزُ(١)

يصف قوساً، وقال الآخر:

وإن الله ذاق حلومَ قيسٍ فلما راءَ خِفَّتها قلاها(٢)

● **الإعراب:** ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ منصوب على أحد شيئين: إما على معنى: إن ربك لغفور رحيم يوم تأتي، وإما أن يكون على معنى العظة والتذكير، أي اذكر يوم تأتي - عن الزجاج.

● **المعنى:** ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ أراد به يوم القيامة ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ أي تخاصم الملائكة عن نفسها، وتحتج بما ليس فيه حجة، وتقول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ويقول أتباعهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ ويحتمل أن يكون المراد أنها تحتج عن نفسها بما تقدر به إزالة العقاب عنها. ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي جزاء ما عملت من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي مثل قرية ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ أي ذات

---

(١) أغرق السهم: بالغ في نزعه وقوله: «جابر». أي: لها حاجز يمنع من إغراق أي: فيها لين وشدة. وفي المنقول عن الأساس: «لها ولها أن يغرق اها». وفي اللسان: «أن يغرق النبل».

(٢) راء لغة في رأى.

أمن يأمن فيها أهلها لا يغار عليهم ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ قارة ساكنة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها بخوف أو ضيق ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي يحمل إليها الرزق الواسع من كل موضع ومن كل بلد، كما قال سبحانه: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي فكفر أهل تلك القرية بأنعم الله، ولم يؤدوا شكرها ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أي فأخذهم الله بالجوع والخوف بصنيعهم، وسوء فعالهم، وسمي أثر الجوع والخوف لباساً، لأن أثر الجوع والهزال يظهر على الإنسان كما يظهر اللباس. وقيل: لأنهم شملهم الجوع والخوف كما يشمل اللباس البدن. وقيل: إن هذه القرية هي مكة ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. عذبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا القد والعِلْهِز، وهو الوبر يخلط بالدم والقراد ثم يؤكل، وهم مع ذلك خائفون وجلون من النبي ﷺ وأصحابه يغيرون عليهم قوافلهم، وذلك حين دعا النبي ﷺ فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعل عليهم سنين كسنيّ يوسف، وقيل: إنها قرية كانت قبل نبينا ﷺ بعث الله إليهم نبياً فكفروا بذلك النبي وقتلوه، فعذبهم الله بعذاب الاستئصال ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني أهل مكة بعث الله عليهم رسولًا من صميمهم ليتبعوه لا من غيرهم، فكذبوه وجحدوا نبوته ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي في حال كونهم ظالمين، وعذابهم ما حل بهم من الجوع والخوف المذكورين في الآية المتقدمة، وما نالهم يوم بدر وغيره من القتل. ومن قال: إن المراد بالقرية غير مكة، قال: هذه صورة القرية المذكورة. ثم خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ صيغته صيغة الأمر، والمراد به الإباحة، أي كلوا مما أعطاكم الله من الغنائم وأحلها لكم ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ فيما خلقه لكم وأحله لكم ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وهذه الآية مع التي بعدها مفسرة في سورة البقرة(١).

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: متاعهم بهذا الذي فعلوه متاع قليل، وتم الكلام عند قوله: ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر ما أحله الله سبحانه لهم وحرمه عليهم، عقبه سبحانه بالنهي عن مخالفة أوامره ونواهيه في التحليل والتحريم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾

---

(١) راجع الجزء الأول من هذه الطبعة.

وتقديره: لوصف ألسنتكم الكذب ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ أي لا تقولوا لما حللتموه بأنفسكم مثل الميتة هذا حلال، ولما حرمتموه مثل السائبة هذا حرام ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي لتكذبوا على الله في إضافة التحريم إليه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي لا ينجون من عذاب الله ولا ينالون خيراً ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ معناه: الذين هم فيه من الدنيا بشيء قليل ينتفعون به أياماً قلائل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ يعني اليهود ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ يعني بذلك ما ذكره في سورة الأنعام من قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الآية ـ عن الحسن وقتادة وعكرمة. وعني بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ نزول هذه الآية، لأن ما في سورة الأنعام نزل قبل هذه الآية ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بتحريم ذلك عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالعصيان والكفر بنعم الله تعالى والجحود بأنبيائه، واستحقوا بذلك تحريم هذه الأشياء عليهم لتغيير المصلحة عند كفرهم وعصيانهم.

ثم ذكر سبحانه التائبين بعد تقدم الوعد والوعيد، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي خلقك يا محمد ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي المعصية ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي بداعي الجهل فإنه يدعو إلى القبيح، كما أن داعي العلم يدعو إلى الحسن. وقيل: بجهالة السيئات أو بجهالتهم للعاقبة. وقيل: بجهالة أنها سوء. وقيل: الجهالة: هو أن يعجل بالإقدام عليها ويعد نفسه التوبة عليها ﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾ عن تلك المعصية ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟﴾ نياتهم وأفعالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد التوبة أو الجهالة أو المعصية ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وأعاد قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للتأكيد، وليعود الضمير في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ إلى الفعلة.

● **النظم**: إنما اتصل قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ بما تقدم ذكره من التحريم والتحليل، ليبين أن ما كانوا يحرمونه ويحللونه بزعمهم ليس في التوراة، كما أنه ليس ذلك في القرآن. وقيل: ليبين أنه إذا لم يحرم على اليهود جميع الطيبات بعصيانهم، فكيف يحرم على المسلمين ذلك؟

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

● **المعنى**: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ اختلف في معناه فقيل: قدوة ومعلماً للخير، قال ابن الأعرابي: يقال للرجل العالم: أمة، وهو قول أكثر المفسرين. وقيل: أراد إمام هدى ـ عن قتادة. وقيل: سماه أمة لأن قوام الأمة كان به. وقيل: لأنه قام بعمل أمته. وقيل: لأنه انفرد في

دهره بالتوحيد، فكان مؤمناً وحده والناس كفاراً ـ عن مجاهد ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي مطيعاً له دائماً على عبادته ـ عن ابن مسعود. وقيل: مصلياً ـ عن الحسن ﴿حَنِيفًا﴾ أي مستقيماً على الطاعة وطريق الحق، وهو الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان موحداً ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي لأنعم الله معترفاً بها ﴿اجْتَبَاهُ﴾ الله، أي اختاره الله واصطفاه ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي دله إلى الدين المستقيم، وهو الإسلام والتوحيد ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ أي أعطيناه ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي نعمة سابغة في نفسه، وفي أولاده، وهو قول هذه الأمة: كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم. وقيل: هي النبوة والرسالة ـ عن الحسن. وقيل: هي أنه ليس من أهل دين إلا وهو يرضاه ويتولاه ـ عن قتادة. وقيل: هي تنويه الله بذكره بطاعته لربه، ومسارعته إلى مرضاته، حتى صار إماماً يقتدى به ويهتدي بهداه. وقيل: هي إجابة الله دعوته حتى أكرم بالنبوة ذريته ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ولم يقل: لفي أعلى منازل الصالحين مع اقتضاء حاله ذلك، ترغيباً في الصلاح، فإنه عز اسمه بين أنه عليه السلام من جملة الصالحين، مع علوّ رتبته وشرف منزلته، تشريفاً لهم وتنويهاً بذكر من هو منهم، وناهيك بهذا الترغيب في الصلاح، وبهذا المدح لإبراهيم عليه السلام أن يشرف جملة هو منها، حتى يصير الاستدعاء إليها بأنه فيها.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي أمرناك باتباع ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ أي مستقيم الطريقة في الدعاء إلى توحيد الله وخلع الأنداد له، وفي العمل بسنته ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ومتى قيل: إن نبينا كان أفضل منه، فكيف أمر الفاضل باتباع المفضول؟ فجوابه: أن إبراهيم عليه السلام سبق إلى اتباع الحق، ولا يكون في سبق المفضول إلى متابعة الحق زراية على الفاضل في اتباعه ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ معناه: إنما جعل السبت لعنة ومسخاً على الذين اختلفوا فيه، فحرموه ثم استحلوه فلعنهم الله ومسخهم ـ عن الحسن. ويجوز أن يكون اختلافهم فيه أنهم نهوا عن الصيد فيه، فنصبوا الشباك يوم الجمعة، ودخل فيه السمك يوم السبت، وأخذوه يوم الأحد. وقيل معناه: إنما فرض تعظيم السبت على الذين اختلفوا في أمر الجمعة، وهم اليهود، وكانوا قد أمروا بتعظيم الجمعة فعدلوا عما أمروا به ـ عن مجاهد وابن زيد. وقيل: إن الذين اختلفوا فيه هم اليهود والنصارى، قال بعضهم: السبت أعظم الأيام، لأن الله سبحانه فرغ فيه من خلق الأشياء، وقال الآخرون: بل الأحد أعظم لأنه ابتدأ بخلق الأشياء فيه، فهذا اختلافهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور دينهم، ويفصل بين المحق والمبطل منهم.

● **النظم:** وجه اتصال الآية الأخيرة بما قبلها، أنها لما أمر سبحانه باتباع الحق، حذر من الاختلاف فيه، بما ذكر من أحوال المختلفين في السبت، كيف شدد عليهم فرضه وضيق عليهم أمره. وقيل: إنه سبحانه رد على اليهود والنصارى دعوتهم أن إبراهيم كان منهم، ثم رد عليهم في هذه الآية ما أوجبوه في تعظيم أمر السبت، وأنه لا يجوز نسخه كما رد عليهم ذلك ـ عن أبي مسلم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وحده في ﴿ضَيْقٍ﴾ بكسر الضاد، وكذلك في النمل، والباقون: بفتح الضاد.

● **الحجة:** قال الزجاج: من فتح أراد: ضيِّق، فخفف مثل: سيد وهين ولين، ويجوز أن يكون بمعنى: الضيق، فيكون مصدراً، قال أبو الحسن: الضيق والضيْق لغتان في المصدر، قال أبو علي: ينبغي أن يحمل على أنه مصدر، لأنك إذا حملته على أنه مخفف من ضيق فقد أقمت الصفة مقام الموصوف من غير ضرورة، والمعنى: لا تكن في ضِيقٍ، أي لا يضق صدرك من مكرهم، كما قال: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ وليس المراد لا تكن في أمر ضيق. قال أبو عبيدة: الضيق بالكسر ـ في المعاش والمسكن، والضيق ـ بالفتح ـ في القلب. وقال علي بن عيسى: يقال: في صدري ضيق من هذا الأمر بالفتح، وهو أكبر من الكسر.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه نبيه بالدعاء إلى الحق، فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي ادع إلى دينه لأنه الطريق إلى مرضاته ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي بالقرآن، وسمي القرآن حكمة لأنه يتضمن الأمر بالحسن، والنهي عن القبيح، وأصل الحكمة المنع، ومنه: حَكَمَة اللجام، وإنما قيل لها: حَكَمة لأنها بمنزلة المانع من الفساد، وما لا ينبغي أن يختار. وقيل: إن الحِكْمة هي المعرفة بمراتب الأفعال في الحسن والقبح، والصلاح والفساد، لأن بمعرفة ذلك يقع المنع من الفساد، والاستعمال لصدق والصواب في الأفعال والأقوال ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ معناه: الوعظ الحسن وهو الصرف عن القبيح على وجه الترغيب في تركه، والتزهيد في فعله، وفي ذلك تليين القلوب بما يوجب الخشوع. وقيل: إن الحكْمة هي النبوة، والموعظة الحسنة مواعظ القرآن ـ عن ابن عباس ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي ناظرهم بالقرآن وبأحسن ما عندك من الحجج، وتقديره: بالكلمة التي هي أحسن، والمعنى: اقتل المشركين واصرفهم عما هم عليه من الشرك بالرفق والسكينة ولين الجانب في النصيحة ليكونوا أقرب إلى الإجابة، فإن الجدل هو قتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج. وقيل: هو أن يجادلهم على قدر ما يحتملونه، كما جاء في الحديث: أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي القابلين للهدى، وهو يأمرك في الفريقين بما فيه الصلاح.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ معناه: وإن أردتم معاقبة غيركم على وجه المجازاة والمكافأة، فعاقبوا بقدر ما عوقبتم به، ولا تزيدوا عليه، وقالوا: إن المشركين لما مثلوا بقتلى أحد، وبحمزة بن عبدالمطلب فشقوا بطنه، وأخذت هند بنت عتبة كبده، فجعلت تلوكه،

وجدعوا أنفه وأذنه، وقطعوا مذاكيره، قال المسلمون: لئن أمكننا الله منهم لنمثلن بالأحياء فضلًا عن الأموات، فنزلت الآية ـ عن الشعبي وقتادة وعطاء بن يسار. وقيل: إن الآية عامة في كل ظلم كغضب أو نحوه، فإنما يجازى بمثل ما عمل ـ عن مجاهد وابن سيرين وإبراهيم. وقال الحسن: نزلت الآية قبل أن يؤمر النبي ﷺ بقتال المشركين على العموم، وأمر بقتال من قاتله، ونظيره قوله: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾. ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ أي تركتم المكافأة والقصاص وجرعتم مرارته ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ معناه: الصبر خير وأنفع للصابرين لما فيه من جزيل الثواب ﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد فيما تبلغه من الرسالة، وفيما تلقاه من الأذى. وقيل معناه: اصبر على ما يجب الصبر عليه، وعما يجب الصبر عنه ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي وليس صبرك إلا بتوفيق الله وإقداره وتيسيره وترغيبه فيه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي ولا تحزن على المشركين في إعراضهم عنك، فإنه يكون الظفر والنصرة لك عليهم، ولا عتب عليك في إعراضهم، فقد بلغت ما أمرت به، وقضيت ما عليك. وقيل معناه: ولا تحزن على قتلى أحد، فإن الله تعالى قد نقلهم إلى ثوابه وكرامته ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي ولا يكن صدرك في ضيق من مكرهم بك وبأصحابك، فإن الله سبحانه يرد كيدهم في نحورهم، ويحفظكم من شرورهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الشرك والفواحش والكبائر بالنصرة والحفظ والكلاءة ﴿وَ﴾ مع ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ قال الحسن: اتقوا ما حرم عليهم، وأحسنوا فيما فرض عليهم.

سُورَةُ الإسْرَاءِ

هي مكية كلها. وقيل: مكية إلا خمس آيات: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ﴾ الآية، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ الآية، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية، ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ الآية - عن الحسن. وقيل: مكية إلا ثماني آيات: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الآية - عن قتادة والمعدل عن ابن عباس.

● **عدد آيها:** مائة وإحدى عشرة آية كوفي، وعشر آيات في الباقين.

● **اختلافها:** آية ﴿لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ كوفي.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: من قرأ سورة بني إسرائيل فرقَّ قلبه عند ذكر الوالدين، أعطي في الجنة قنطارين من الأجر، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية، والأوقية منها خير من الدنيا وما فيها. وروى الحسن بن أبي العلاء عن الصادق عليه السلام أنه قال: من قرأ سورة بني إسرائيل في كل ليلة جمعة لم يمت حتى يدرك القائم ويكون من أصحابه.

● **تفسيرها:** ختم الله تعالى سورة النحل بذكر النبي ﷺ وافتتح سورة بني إسرائيل أيضاً بذكره، وبيان إسرائه إلى المسجد الأقصى فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا
ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ
نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرة وحده: **﴿ألا يتخذوا﴾** بالياء، والباقون: بالتاء.

● **الحجة:** من قرأ بالياء فلأن ما تقدم على لفظ الغيبة، والمعنى: هديناهم لئلا يتخذوا. ومن قرأ بالتاء فللانصراف من الغيبة إلى الخطاب، كما في قوله: **﴿والحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين﴾** ثم قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والضمير في ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ وإن كان على لفظ الخطاب فإنما يعني به الغيب في المعنى.

● **الإعراب:** ﴿سُبْحَٰنَ﴾ منصوب على المصدر، على معنى: أسبح الله تسبيحاً. قال أبو علي: من زعم أن ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ على إضمار القول فكأنه يراد قال: ألا تتخذوا لم يكن قوله هذا مستقيماً، وذلك لأن القول لا يخلو من أن يكون بعده جملة تحكي أو معنى جملة يعمل فيه لفظ القول، فالأول كقوله: قال زيد: عمرو منطلق، فموضع الجملة نصب بالقول، والآخر نحو

أن يقول القائل: لا إله إلا الله، فتقول: قلت حقاً، أو يقول: الثلج حار، فتقول: قلت باطلًا، فهذا معنى ما قاله وليس نفس المقول، وقوله: ﴿ألا تتخذوا﴾، خارج من هذه الوجهين، ألا ترى أن ألا تتخذوا ليس هو القول كما أن قولك: حقاً إذا سمعت كلمة الإخلاص بمعنى القول، وليس قوله: ألا تتخذوا الجملة، فيكون كقولك: قال زيد: عمرو منطلق، ويجوز أن تكون ﴿أن﴾ بمعنى أي التي للتفسير، وانصرف الكلام في الغيبة إلى الخطاب، كما انصرف منها إلى الخطاب في قوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ في الأمر، فكذلك انصرف في الغيبة إلى الخطاب في النهي في: ألا تتخذوا، وكذلك قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ في وقوع الأمر بعد الخطاب، ويجوز أن يضمر القول ويحمل ﴿يَتَّخِذُوا۟﴾ على القول المضمر إذا جعلت ﴿أن﴾ زائدة، فيكون التقدير: وجعلناه هدى لبني إسرائيل وقلنا لا تتخذوا، فيجوز إذاً في قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون أن الناصبة للفعل، فيكون المعنى: وجعلناه هدى كراهة أن يتخذوا من دوني وكيلًا، أو لئلا يتخذوا.

والآخر: أن يكون بمعنى أي لأنه بعد كلام تام، فيكون التقدير: أي لا تتخذوا.

والثالث: أن تكون ﴿أن﴾ زائدة ويضمر القول، فأما قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾ فإنه يجوز أن يكون مفعول الاتخاذ، لأنه فعل يتعدى إلى مفعولين، وأفرد الوكيل وهو في معنى الجمع، لأن فعيلًا يكون مفرداً للفظ والمعنى على الجمع، نحو قوله: ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ فإذا حمل على هذا كان مفعولًا ثانياً في قراءة من قرأ بالتاء والياء، ويجوز أن يكون نداء، وذلك على قراءة من قرأ بالتاء، لأن النداء للخطاب، ولو رفع ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ على البدل من الضمير المرفوع في ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ كان جائزاً، ويكون التقدير: ألا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلًا، ولو جعلته مجروراً بدلًا من قولك: ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ جاز، وكان التقدير: وجعلناه هدى لذرية من حملنا مع نوح.

● **النزول:** قيل: نزلت الآية في إسرائه، وكان ذلك بمكة، صلى المغرب في المسجد الحرام، ثم أسري به في ليلته، ثم رجع فصلى الصبح في المسجد الحرام، فأما الموضع الذي أسري إليه أين كان فإن الإسراء إلى بيت المقدس، وقد نطق به القرآن ولا يدفعه مسلم، وما قاله بعضهم: إن ذلك كان في النوم فظاهر البطلان، إذ لا معجز يكون فيه ولا برهان، وقد وردت روايات كثيرة في قصة المعراج، في عروج نبينا ﷺ إلى السماء، ورواها كثير من الصحابة، مثل ابن عباس وابن مسعود وأنس وجابر بن عبد الله وحذيفة وعائشة وأم هانىء وغيرهم عن النبي ﷺ، وزاد بعضهم ونقص بعض، وتنقسم جملتها إلى أربعة أوجه.

أحدها: ما يقطع على صحته لتواتر الأخبار به، وإحاطة العلم بصحته.

وثانيها: ما ورد في ذلك مما تجوزه العقول ولا تأباه الأصول، فنحن نجوزه ثم نقطع على أن ذلك كان في يقظته دون منامه.

وثالثها: ما يكون ظاهره مخالفاً لبعض الأصول، إلا أنه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول، فالأولى أن نؤوله على ما يطابق الحق والدليل.

ورابعها: ما لا يصح ظاهره ولا يمكن تأويله إلا على التعسف البعيد، فالأولى ألا نقبله.

فأما الأول المقطوع به فهو أنه أسري به على الجملة.

وأما الثاني فمنه ما روي أنه طاف في السماوات ورأى الأنبياء والعرش وسدرة المنتهى والجنة والنار ونحو ذلك.

وأما الثالث فنحو ما روي أنه رأى قوماً في الجنة يتنعمون فيها، وقوماً في النار يعذبون فيها، فيحمل على أنه رأى صفتهم أو أسماءهم.

وأما الرابع فنحو ما روي أنه ﷺ كلم الله سبحانه جهرة، ورآه وقعد معه على سريره ونحو ذلك، مما يوجب ظاهره التشبيه، والله سبحانه يتقدس عن ذلك.

وكذلك ما روي أنه شق بطنه وغسله، لأنه ﷺ كان طاهراً مطهراً من كل سوء وعيب، وكيف يطهر القلب وما فيه من الاعتقاد بالماء.

فمن جملة الأخبار الواردة في قصة المعراج ما روي أن النبي ﷺ قال: أتاني جبرائيل عليه السلام وأنا بمكة فقال: قم يا محمد، فقمت معه وخرجت إلى الباب، فإذا جبرائيل ومعه ميكائيل وإسرافيل، فأتى جبرائيل عليه السلام بالبراق، وكان فوق الحمار ودون البغل، خده كخد الإنسان وذنبه كذنب البقر وعرفه كعرف الفرس وقوائمه كقوائم الإبل، عليه رحل من الجنة وله جناحان من فخذيه، خطوه منتهى طرفه فقال: اركب فركبت ومضيت حتى انتهيت إلى بيت المقدس، ثم ساق الحديث إلى أن قال: فلما انتهيت إلى بيت المقدس إذا ملائكة نزلت من السماء بالبشارة والكرامة من عند رب العزة، وصليت في بيت المقدس، وفي بعضها: بشر لي إبراهيم في رهط من الأنبياء، ثم وصف موسى وعيسى، ثم أخذ جبرائيل عليه السلام بيدي إلى الصخرة فأقعدني عليها فإذا معراج إلى السماء لم أرَ مثله حسناً وجمالاً، فصعدت إلى السماء الدنيا ورأيت عجائبها وملكوتها وملائكتها يسلمون علي، ثم صعد بي جبرائيل إلى السماء الثانية، فرأيت فيها عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فرأيت فيها يوسف، ثم صعد بي إلى السماء الرابعة، فرأيت فيها إدريس، ثم صعد بي إلى السماء الخامسة، فرأيت فيها هارون، ثم صعد بي إلى السماء السادسة، فإذا فيها خلق كثير يموج بعضهم في بعض، وفيها الكروبيون، ثم صعد بي إلى السابعة فأبصرت فيها خلقاً وملائكة.

وفي حديث أبي هريرة: رأيت في السماء السادسة موسى، ورأيت في السماء السابعة إبراهيم عليه السلام، قال: ثم جاوزناها متصاعدين إلى أعلى عليين، ووصف ذلك إلى أن قال: ثم كلمني ربي وكلمته، ورأيت الجنة والنار، ورأيت العرش وسدرة المنتهى، ثم رجعت إلى مكة، فلما أصبحت حدثت به الناس، فكذبني أبو جهل والمشركون، وقال مطعم بن عدي: أتزعم أنك سرت مسيرة شهرين في ساعة؟ أشهد أنك كاذب، قالوا: ثم قالت قريش: أخبرنا عما

رأيت، فقال: مررت بعير بني فلان، وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه، وفي رحلهم قعب[1] مملوء من ماء فشربت الماء ثم غطيته كما كان، فسألوهم: هل وجدوا الماء في القدح؟ قالوا: هذه آية واحدة، قال: ومررت بعير بني فلان فنفرت بكرة فلان فانكسرت يدها، فسألوهم عن ذلك، فقالوا: هذه آية أخرى، قالوا: فأخبرنا عن عيرنا، قال: مررت بها بالتنعيم وبين لهم أجمالها وهيئاتها، وقال: تقدمها جمل أورق عليه قرارتان محيطتان، ويطلع عليكم عند طلوع الشمس، قالوا: هذه آية أخرى، ثم خرجوا يشتدون نحو التيه، وهم يقولون: لقد قضى محمد بيننا وبينه قضاء بيّناً، وجلسوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذبوه، فقال قائل: والله إن الشمس قد طلعت، وقال آخر: والله هذه الإبل قد طلعت يقدمها بعير أورق فبهتوا ولم يؤمنوا.

وفي تفسير العياشي بالإسناد عن أبي بكر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أسري برسول الله صلى الله عليه وآله إلى السماء الدنيا، لم يمر بأحد من الملائكة إلا استبشر، قال: ثم مر بملك حزين كئيب فلم يستبشر به، فقال: يا جبرائيل، ما مررت بأحد من الملائكة إلا استبشر بي إلا هذا الملك، فمن هذا؟ فقال: هذا مالك خازن جهنم، وهكذا جعله الله، قال: فقال له النبي صلى الله عليه وآله: يا جبرائيل، اسأله أن يرينيها، قال: فقال جبرائيل عليه السلام: يا مالك، هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد شكا إليّ فقال: ما مررت بأحد من الملائكة إلا استبشر بي إلا هذا، فأخبرته أن هكذا جعله الله، وقد سألني أن أسألك أن تريه جهنم، قال: فكشف له عن طبق من أطباقها، قال: فما رئي رسول الله صلى الله عليه وآله ضاحكاً حتى قبض. وعن أبي بصير قال: سمعته يقول: إن جبرائيل احتمل رسول الله حتى انتهى به إلى مكان من السماء ثم تركه، وقال له: ما وطأ نبي قط مكانك.

● **المعنى:** ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ سبحان كلمة تنزيه وإبراء لله عز اسمه عما لا يليق به من الصفات، وقد يراد به التعجيب، يعني سبحان الذي سير عبده محمداً صلى الله عليه وآله، وهو من عجيب قدرة الله تعالى، وتعجيب ممن لم يقدر الله حق قدره وأشرك به غيره، وسري بالليل وأسرى بمعنى، وقد عُدِّي هنا بالباء، والوجه في التأويل أنه إذا كان مشاهد العجيب سبباً للتسبيح صار التسبيح تعجباً، فقيل: سبح، أي عجب ﴿لَيْلًا﴾ قالوا: كان ذلك الليل قبل الهجرة بسنة ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وقال أكثر المفسرين: أسري برسول الله صلى الله عليه وآله من دار أم هانىء أخت علي بن أبي طالب، وزوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي وكان صلى الله عليه وآله نائماً تلك الليلة في بيتها، وإن المراد بالمسجد الحرام هنا مكة، ومكة والحرم كلها مسجد. وقال الحسن وقتادة: كان الإسراء من نفس المسجد الحرام ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ يعني بيت المقدس، وإنما قال: ﴿ٱلْأَقْصَا﴾ لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي جعلنا البركة فيما حوله من الأشجار والأثمار والنبات والأمن والخصب، حتى لا يحتاجوا إلى أن يجلب إليهم من موضع آخر. وقيل: باركنا حوله، أي جعلنا البركة فيما حوله، بأن جعلناه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة ـ عن مجاهد. وبذلك صار مقدساً عن الشرك، لأنه لما صار متعبداً للأنبياء، ودار مقام

---

(١) العقب: القدح الضخم الغليظ.

لهم، تفرق المشركون عنهم فصار مطهراً من الشرك. والتقديس: التطهير، فقد اجتمع فيه بركات الدين والدنيا ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي من عجائب حججنا، ومنها إسراؤه في ليلة واحدة من مكة إلى هناك، ومنها أن أراه الأنبياء واحداً بعد واحد، وأن عرج به إلى السماء، وغير ذلك من العجائب التي أخبر بها الناس ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال من صدق بذلك أو كذب ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بما فعل من الإسراء والمعراج.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي وجعلنا التوراة حجة ودلالة وبياناً وإرشاداً لبني إسرائيل يهتدون به ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي أمرهم ألا يتخذوا من دوني معتمداً يرجعون إليه في النوائب وقيل: رباً يتوكلون عليه ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي أولاد من حملنا مع نوح في السفينة فأنجيناه من الطوفان، وقد ذكرنا وجوه ذلك في الأعراف، وعلى هذا يدور المعنى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ معناه: إن نوحاً كان عبداً لله كثير الشكر، وكان إذا لبس ثوباً أو أكل طعاماً أو شرب ماء حمد الله وشكر له، وقال: الحمد لله. وقيل: إنه كان يقول في ابتداء الأكل والشرب: بسم الله، وفي انتهائه: الحمد لله. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام، وأبي جعفر عليه السلام أن نوحاً كان إذا أصبح وأمسى قال: اللهم إني أشهدك أن ما أصبح أو أمسى بي من نعمة في دين أو دنيا فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد، ولك الشكر بها عليَّ حتى ترضى وبعد الرضى، وهذا كان شكره.

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ بما قبله أن المعنى فيه: سبحان الذي أسرى بمحمد صلى الله عليه وآله وأراه الآيات كلها، كما أرى موسى الآيات والمعجزات الباهرات. وقيل: إن معناه، إن كونك نبياً ليس ببدع فقد آتيناك الكتاب والحجج كما آتينا موسى التوراة، فلم أقروا به وأنكروا أمرك والطريق فيهما واحد؟ وقيل: إن معناه، أنهم كفروا بموسى كما كفروا بما أخبرتهم به من إسرائك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

● **القراءة:** ﴿ليسوء﴾ بفتح الهمزة شامي كوفي غير حفص، إلا أن الكسائي يقرأ بالنون، والباقون ﴿ليسوؤا﴾ بالياء وضم الهمزة، على وزن: ليسرعوا. وفي الشواذ قراءة ابن عباس

﴿لتُفسَدن﴾ بضم التاء وفتح السين. وعيسى الثقفي ﴿لتَفسُدنّ﴾ بفتح التاء وضم السين، وقراءة علي عليه السلام ﴿عبيداً لنا﴾ وقراءة أبي السماك ﴿فحاسوا﴾ بالحاء، وقراءة أبي بن كعب ﴿لنسوءاً﴾ بالتنوين.

● **الحجة:** من قرأ ﴿ليسوء﴾ بالياء، ففاعل ﴿ليسوء﴾ يجوز أن يكون أحد شيئين: إما اسم الله تعالى، لأن الذي تقدم: بعثنا، ورددنا لكم، وأمددناكم بأموال وبنين. وإما البعث، ودل عليه: بعثنا المتقدم، كقوله: ﴿لا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم﴾ أي البخل خيراً لهم.

ومن قرأ ﴿لنسوء﴾ بالنون كان في المعنى كقول من قدر أن الفاعل ما تقدم من اسم الله تعالى، وجاز أن ينسب المساءة إلى الله تعالى، وإن كانت من الذين جاسوا خلال الديار في الحقيقة، لأنهم فعلوا المساءة بقوة الله تعالى، فجاز أن ينسب إليه.

وأما قوله: ﴿لِيَسُـٔوا۟﴾ فمعناه ﴿إذا جاء وعد الآخرة﴾ أي وعد المرة الأخرى من قوله: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ بعثناهم ليسوؤا وجوهكم، فحذف بعثناهم لأن ذكره قد تقدم، والحجة في ليسوؤا أنه أشبه بما قبله وما بعده، ألا ترى أن قبله ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ وبعده ﴿ليدخلوا المسجد الحرام﴾ والمبعوثون في الحقيقة هم الذين يسوؤنهم بقتلهم إياهم، وأسرهم لهم فهو وفق المعنى، وقال: ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾ على أن الوجوه مفعول به ليسوء وعدي إلى الوجوه، لأن الوجوه قد يراد به: ذوو الوجوه، كقوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ وقوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿ووجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة﴾ وقال النابغة:

أقـارع عَـوْفـاً لا أحـاولُ غـيـرهـا   وجـوهَ قـرودٍ تَـبـتـغـي مـن تُـخـادِعُ[1]

وأما قراءة أبي ﴿ليسوءاً﴾ فالوجه فيه على قول ابن جني أن يكون على حذف الفاء، كما قال: إذا سألتني فلأعطك، كأنك تأمر نفسك، ومعناه: فلأعطينك، واللامان بعده للأمر أيضاً، وهما ﴿وَلِيَدۡخُلُوا۟ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ ويقوى ذلك أنه لم يأت لـ ﴿إِذَا﴾ جواب فيما بعد.

وأما من قرأ ﴿لتُفسَدنّ﴾ و﴿لتَفسُدنّ﴾ فإحدى القراءتين شاهدة للأخرى فقد فسد. وأما ﴿حاسوا﴾ فمعناه معنى ﴿جاسوا﴾ بعينه.

● **اللغة:** القضاء: فصل الأمر على إحكام، ومنه سمي القاضي، ثم يستعمل بمعنى الخلق والإحداث، كما قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ وبمعنى الإيجاب، كما قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وبمعنى الإعلام والإخبار بما يكون من الأمر وهو المعنى هاهنا، وأصله الإحكام. والعلوّ: الارتفاع، وعلا فلان الشيء إذا أطاقه، ويقال: عَلِيَ في المكارم يَعلى عَلاءً فهو عليٌّ، وعَلا في المكان يَعلو عُلواً فهو عالٍ. والجوس: التخلل في الديار، يقال: تركت فلاناً يجوس بني فلان، ويجوسهم ويدوسهم، أي يطؤهم، قال أبو عبيد: كل موضع خالطته ووطئته فقد حُسْته وجُسْته، قال حسان:

(١) جادعه مجادعة: شاتمه وشاره كأن كل واحد منها جدع أنف صاحبه.

ومنّا الذي لاقى بسيف محمد فجاسَ به الأعداءَ عرض العساكر(١)

وقيل: الجوس: طلب الشيء باستقصاء. والكرة: معناه الرجعة، والدولة. والنفير: العدد من الرجال، قال الزجاج: ويجوز أن يكون جمع نَفْر، كما قيل: العبيد والضئين والمعيز والكليب، ونَفَرْ الإنسان ونَفْرهُ ونَفِيرهُ ونافِرَتهُ: رهطه الذين ينصرونه وينفرون معه. والتبير: الإهلاك، والتبار والهلاك والدمار واحد، وكل ما يكسر من الحديد والذهب تبر. والحصير: الحبس، ويقال للملك: حصير لأنه محجوب، قال لبيد:

وقَماقِمٍ غُلِبِ الرِّقابِ كأنهمُ جنٌ لدى بابِ الحصيرِ قِيامُ(٢)

والحصير: البساط المرمول لحصر بعضه على بعض بذلك الضرب من النسج.

● **المعنى:** لما تقدم أمره سبحانه لبني إسرائيل عقب ذلك بذكر ما كان منهم، وما جرى عليهم، فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أخبرناهم وأعلمناهم ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي حقاً لا شك فيه أي أخلافكم سيفسدون في البلاد التي تسكنونها كرتين، وهي بيت المقدس، وأراد بالفساد الظلم وأخذ المال وقتل الأنبياء وسفك الدماء. وقيل: كان فسادهم الأول قتل زكريا، والثاني قتل يحيى بن زكريا ـ عن ابن عباس وابن مسعود وابن زيد. قالوا: ثم سلط الله عليهم سابور ذا الأكتاف، ملكاً من ملوك فارس في قتل زكريا، وسلط عليهم في قتل يحيى بختنصر، وهو رجل خرج من بابل.

وقيل: الفساد الأول قتل شعيا، والثاني قتل يحيى، وأن زكريا مات حتف أنفه ـ عن محمد ابن إسحاق قال: وأتاهم في الأول بختنصر، وفي الثاني ملك من ملوك بابل.

وقيل: كان الأول جالوت فقتله داود عليه السلام، والثاني بختنصر ـ عن قتادة. وقيل: إنه سبحانه ذكر فسادهم في الأرض، ولم يبين ما هو، فلا يقطع على شيء مما ذكر ـ عن أبي علي الجبائي.

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي ولتستكبرن ولتظلمن الناس ظلماً عظيماً، والعلوّ نظير العتوّ هنا، وهو الجرأة على الله تعالى والتعرض لسخطه ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ معناه: فإذا جاء وقت أولى المرتين اللتين تفسدون فيهما، والوعد هنا بمعنى الموعود، ووضع المصدر موضع المفعول به، أي إذا جاء وقت الموعود لإفسادكم في المرة الأولى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي سلطنا عليكم عباداً لنا أولى شوكة وقوة ونجدة، وخلينا بينكم وبينهم خاذلين لكم جزاءً على كفركم وعتوكم، وهو مثل قوله: ﴿أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ ـ عن الحسن. وقيل معناه: أمرنا قوماً مؤمنين بقتالكم وجهادكم، لأن ظاهر قوله تعالى: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ وقوله: ﴿بَعَثْنَا﴾

---

(١) العرض: الجيش الضخم.

(٢) القماقم من الرجال: السيد الكثير الخير، وغلب جمع أغلب: الغليظ الرقبة، وهم يصفون أبداً السادة بغلظ الرقبة وطولها.

يقتضي ذلك ـ عن الجبائي. وقيل: يجوز أن يكونوا مؤمنين أمرهم الله بجهاد هؤلاء، ويجوز أن يكونوا كافرين فتألفهم نبي من الأنبياء لحرب هؤلاء، وسلطهم على نظرائهم من الكفار والفساق ـ عن أبي مسلم ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي فطافوا وسط الديار يترددون وينظرون، هل بقي منهم أحد لم يقتلوه؟ ـ عن الزجاج ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي موعوداً كائناً لا خلف فيه.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي رددنا لكم يا بني إسرائيل الدولة، وأظهرناكم عليهم، وعاد ملككم على ما كان عليه ﴿وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ أي وأكثرنا لكم أموالكم وأولادكم ورددنا لكم العدة والقوة ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي أكثر عدداً وأنصاراً من أعدائكم ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ معناه: إن أحسنتم في أقوالكم وأفعالكم فنفع إحسانكم عائد عليكم، وثوابه واصل إليكم تنصرون على أعدائكم في الدنيا، وتثابون في العقبى ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ معناه: وإن أسأتم فقد أسأتم إلى أنفسكم أيضاً، لأن مضرة الإساءة عائدة إليها، وإنما قال: ﴿فَلَهَا﴾ على وجه التقابل، لأنه في مقابلة قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ كما يقال: أحسن إلى نفسه ليقابل أساء إلى نفسه، ولأن معنى قولك: أنت منتهى الإساءة، وأنت المختص بالإساءة متقارب، فلذلك وضع اللام موضع إلى. وقيل: إن قوله: ﴿فَلَهَا﴾ بمعنى: فعليها، كقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي عليهم اللعنة. وقيل معناه: فلها الجزاء والعقاب. وإذا أمكن حمل الكلام على الظاهر، فالأولى ألا يعدل عنه. وهذا الخطاب لبني إسرائيل ليكون الكلام جارياً على النسق والنظام، ويجوز أن يكون خطاباً لأمة نبينا ﷺ، فيكون اعتراضاً بين القصة، كما يفعل الخطيب والواعظ يحكي شيئاً ثم يعظ، ثم يعود إلى الحكاية، فكأنه لما بين أن بني إسرائيل لما علوا وبغوا في الأرض سلط عليهم قوماً، ثم لما تابوا قبل توبتهم وأظفرهم على عدوهم، خاطب أمتنا بأن من أحسن عاد نفع إحسانه إليه، ومن أساء عاد ضرره إليه ترغيباً وترهيباً.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي وعد المرة الأخرى من قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ والمراد به جاء وعد الجزاء على الفساد في الأرض في المرة الأخيرة أو جاء وعد فسادكم في الأرض في المرة الأخيرة، أي الوقت الذي يكون فيه ما أخبر الله عنكم من الفساد والعدوان على العباد ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي غزاكم أعداؤكم وغلبوكم ودخلوا دياركم ليسوءكم بالقتل والأسر، يقال: سُؤْتُه أسوءه مساءة ومسائِيَة وسَوائِيَة إذا أحزنته. وقيل معناه: ليسوءوا كبراءكم ورؤساءكم. وفي مساءة الأكابر وإهانتهم مساءة الأصاغر ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ أي بيت المقدس، ونواحيه فكني بالمسجد، وهو المسجد الأقصى عن البلد، كما كني بالمسجد الحرام عن الحرم، ومعناه: وليستولوا على البلد لأنه لا يمكنهم دخول المسجد إلا بعد الاستيلاء ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دل بهذا على أن في المرة الأولى قد دخلوا المسجد أيضاً، وإن لم يذكر ذلك، ومعناه: وليدخل هؤلاء المسجد كما دخله أولئك أول مرة ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ أي وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه من بلادكم تدميراً، ويجوز أن يكون ﴿مَا﴾ مع الفعل بتأويل المصدر، والمضاف محذوف، أي ليتبروا مدة علوهم ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد انتقامه منكم إن تبتم ورجعتم إلى طاعته ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ معناه: وإن عدتم إلى الفساد عدنا بكم

إلى العقاب لكم والتسليط عليكم، كما فعلناه فيما مضى - عن ابن عباس قال: إنهم عادوا بعد الأولى والثانية فسلط الله عليهم المؤمنين يقتلونهم ويأخذون منهم الجزية إلى يوم القيامة ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي سجناً ومحبساً - عن ابن عباس.

● **القصة:** اختلف المفسرون في القصة عن هاتين الكرتين اختلافاً شديداً.

فالأولى: ونورد من جملتها ما هو الأهم على سبيل الإيجاز، قال: لما عتا بنو إسرائيل في المرة الأولى، سلط الله عليهم ملك فارس، وقيل: بختنصر، وقيل: ملكاً من ملوك بابل، فخرج إليهم وحاصرهم، وفتح بيت المقدس، وقيل: إن بختنصر مَلَكَ بابل بعد سنحاريب وكان من جيش نمرود، وكان لزانية لا أب له، فظهر على بيت المقدس، وخرب المسجد، وأحرق التوراة، وألقى الجيف في المسجد، وقتل على دم يحيى سبعين ألفاً، وسبى ذراريهم، وأغار عليهم، وأخرج أموالهم، وسبى سبعين ألفاً وذهب بهم إلى بابل، فبقوا في يده مائة سنة يستعبدهم المجوس وأولادهم، ثم تفضل الله عليهم بالرحمة فأمر ملكاً من ملوك فارس، عارفاً بالله سبحانه وتعالى، فردهم إلى بيت المقدس، فأقاموا به مائة سنة على الطريق المستقيم، والطاعة والعبادة، ثم عادوا إلى الفساد والمعاصي، فجاءهم ملك من ملوك الروم اسمه إنطياخوس، فخرب بيت المقدس، وسبى أهله، وقيل: غزاهم ملك الرومية، وسباهم - عن حذيفة.

وقال محمد بن إسحاق: كان بنو إسرائيل يعصون الله تعالى، وفيهم الأحداث والله يتجاوز عنهم، وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم، أن الله تعالى بعث إليهم شعيا قبل مبعث زكريا، وشعيا هو الذي بشر بعيسى عليه السلام، وبمحمد ﷺ، وكان لبني إسرائيل ملك كان شعيا يرشده ويسدده، فمرض الملك وجاء سنحاريب إلى باب بيت المقدس بستمائة ألف راية، فدعا الله سبحانه شعيا فبرأ الملك، ومات جمع سنحاريب، ولم ينج منهم إلا خمس نفر منهم سنحاريب، فهرب وأرسلوا خلفه من أخذه، ثم أمر سبحانه بإطلاقه ليخبر قومه بما نزل بهم، فأطلقوه وهلك سنحاريب بعد ذلك بسبع سنين، واستخلف بختنصر ابن ابنه فلبث سبع عشرة سنة، وهلك ملك بني إسرائيل، ومرج أمرهم وتنافسوا في الملك فقتل بعضهم بعضاً، فقام شعيا فيهم خطيباً ووعظهم بعظات بليغة، وأمرهم ونهاهم فهموا بقتله فهرب، ودخل شجرة فقطعوا الشجرة بالمنشار، فبعث الله إليهم أرميا من سبط هارون، ثم خرج من بينهم لما رأى من أمرهم، ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس، وفعل ما فعل ثم رجع إلى بابل بسبايا بني إسرائيل، وكانت هذه الدفعة الأولى.

وقيل أيضاً: إن سبب ذلك كان قتل يحيى بن زكريا، وذلك أن ملك بني إسرائيل أراد أن يتزوج بنت امرأته فنهاه يحيى، وبلغ أمها فحقدت عليه، وبعثته على قتله فقتله. وقيل: إنه لم يزل دم يحيى بن زكريا يغلي حتى قتل بختنصر منهم سبعين ألفاً أو اثنين وسبعين ألفاً ثم سكن الدم، وذكر الجميع أن يحيى بن زكريا هو المقتول في الفساد الثاني.

قال مقاتل: كان بين فساد الأول والثاني مائتا سنة وعشر سنين. وقيل: إنما غزا بني

إسرائيل في المرة الأولى بختنصر، وفي المرة الثانية ملوك فارس والروم، وذلك حين قتلوا يحيى، فقتلوا منهم مائة ألف وثمانين ألفاً، وخرب بيت المقدس فلم يزل بعد ذلك خراباً حتى بناه عمر بن الخطاب، فلم يدخله بعد ذلك رومي إلا خائفاً. وقيل: إنما غزاهم في المرة الأولى جالوت، وفي الثانية بختنصر، والله أعلم.

●●●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

● **اللغة:** مبصرة: أي مضيئة منيرة نيرة، قال أبو عمرو: أراد تبصر بها، كما يقال: ليل نائم، وسر كاتم. وقال الكسائي: العرب تقول: أبصر النهار إذا أضاء. وقيل: المبصرة التي أهلها بصَراء فيها، كما يقال: رجل مُخْبِث، أي أهله خبثاء، ومُضْعِف، أي أهله ضعفاء، ولا يكتب الواو في ﴿يَدْعُ﴾ في المصحف، وهي ثابتة في المعنى.

● **الإعراب:** ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ فتح ﴿أَنَّ﴾ على تقدير حذف الباء، أي يبشرهم بأن لهم الجنة، و ﴿وَأَنَّ﴾ الثانية معطوفة عليها، ولو كسرت على الاستئناف لجاز وإن لم يقرأ به أحد. و ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أصله أعددنا، فقلبت إحدى الدالين تاء فراراً من التضعيف إلى حرف من مخرج الدال. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ما بعده، وهو قوله: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ والتقدير: وفصلنا كل شيء.

● **المعنى:** ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ معناه: إن هذا القرآن يهدي إلى الديانة والملة والطريقة التي هي أشد استقامة، يقال: هداه الطريق وللطريق وإلى الطريق. وقيل معناه: يرشد إلى الكلمة التي هي أعدل الكلمات وأصوبها، وهي كلمة التوحيد. وقيل: يهدي إلى الحال التي هي أعدل الحالات وهي توحيد الله، والإيمان به، وبرسله، والعمل بطاعته ـ عن الزجاج ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي ثواباً عظيماً على طاعاتهم ﴿وَ﴾ يبشرهم أيضاً بـ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي بالنشأة الآخرة ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي هيأنا لهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذاب النار، وإنما سمي العذاب أجراً لأنه يستحق في مقابلة عمل، كالأجرة التي تجب في مقابلة عمد يعود نفعه إلى المستأجر، والثواب يستحق على الله تعالى وإن كان نفعه يعود إلى العامل، لأنه سبحانه أوجب ذلك على نفسه في مقابلة عمل العبد فضلًا منه وكرماً ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ قيل في معناه أقوال:

أحدها: أن الإنسان ربما يدعو في حال الزجر والغضب على نفسه وأهله وماله بما لا

يحب أن يستجاب له فيه، كما يدعو لنفسه بالخير، فلو أجاب الله دعاءه لأهلكه، لكنه لا يجيب بفضله ورحمته ـ عن ابن عباس والحسن وقتادة.

والآخر: أن معناه: إن الإنسان قد يطلب الشر لاستعجاله المنفعة.

وثالثها: أن معناه: ويدعو في طلب المحظور كدعائه في طلب المباح.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ يعجل بالدعاء في الشر عجلته بالدعاء في الخير ـ عن مجاهد. وقيل: يريد ضَجِراً لا صبر له على ضراء ولا على سراء ـ عن ابن عباس، وروي عنه أيضاً: أنه أراد به آدم عليه السلام لما انتهت النفخة إلى سرته أراد أن ينهض فلم يقدر، فشبه الله سبحانه ابن آدم بأبيه في الاستعجال وطلب الشيء قبل وقته.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أي دلالتين يدلان على وحدانية خالقهما لما في كل واحد منهما من الفوائد، من الكسب بالنهار، والاستراحة بالليل، والزيادة في أجزاء أحدهما بالنقصان من أجزاء الآخر، ولأن كل واحد منهما ينقضي لمجيء الآخر، وذلك يدل على حدوثهما، إذ القديم لا يجوز عليه الانقضاء، وعلى أن لهما محدثاً قادراً عالماً، وقد علمنا ضرورة أن أحداً من البشر لم يحدثهما لعجز البشر عن ذلك، فدل على أنه من صنع القديم القادر لذاته، العالم لذاته، الذي ليس كمثله شيء، ولا يتعذر عليه شيء. وقيل: إن الآيتين هنا الشمس والقمر ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وهي القمر، أي طمسنا نورها بما جعلنا فيها من السواد ـ عن ابن عباس ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ يعني الشمس ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي نيرة مضيئة للإبصار يبصر أهل النهارِ النهارَ بها. وقيل إن معناه: جعلنا آية الليل ممحوة، والمراد: جعلنا الليل مظلماً لا يبصَر فيه، كما لا يبصَر ما يمحى من الكتاب ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جعلنا النهار مضيئاً يبصر فيه وتدرك الأشياء فيه، وعلى هذا فتكون آية الليل هي الليل نفسه، وآية النهار هي النهار نفسه، كما يقال: نفس الشيء وعين الشيء، وهذا من عجيب البلاغة. وقيل: إن آية الليل ظلمته، وآية النهار ضوؤه، فالمراد: محونا ظلمة الليل بضوء النهار، ومحونا ضوء النهار بظلمة الليل، إلا أنه ذكر أحدهما وحذف الآخر لدلالة المذكور على المحذوف.

ثم بين سبحانه الغرض في ذلك وقال: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي لتسكنوا بالليل، وتطلبوا الرزق بأنواع التصرف في النهار، إلا أنه حذف لتسكنوا بالليل لما ذكره في مواضع أخر ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي لتعلموا بالليل والنهار عدد السنين، والشهور، وآجال الديون، وغير ذلك من المواقيت، ولتعلموا حسنات أعماركم وآجالكم، ولولا الليل والنهار لما علم شيء من ذلك ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي ميزناه تمييزاً ظاهراً بيناً لا يلتبس، وبيناه تبياناً شافياً لا يخفى.

● **النظم:** اتصلت الآية الأولى بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ والوجه فيه أنه لما أمر بني إسرائيل بالرجوع إلى الطريق المستقيم من التوبة وقبول الإسلام بين أن ذلك الطريق هذا الكتاب الذي يدل على ما هو أحسن الأديان. وقيل: يتصل بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي كما آتيناه التوراة آتينا محمداً صلى الله عليه وآله القرآن الذي يهدي إلى الأحسن الأقوم. وقيل: اتصل بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ

﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ كأنه قال: أسرى بعبده وآتاه الكتاب الذي هذه صفته. وإنما اتصل قوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ الآية، بما تقدم من بشارة الكفار بالعذاب، فبيّن عقيبه أنهم يستعجلون العذاب جهلًا وعناداً، ثم بيّن أنه يستجيب لهم ما فيه صلاحهم، ثم بيّن بالآية الأخرى أنه أنعم عليهم بوجوه النعم كالليل والنهار ونحو ذلك وإن لم يشكروه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «ويُخرَج له» بضم الياء وفتح الراء، وقرأ يعقوب: «ويَخرُج له» بفتح الياء وضم الراء، والباقون: «ونخرج» بالنون. وقرأ أبو جعفر وابن عامر: «تلقيه» بضم التاء وفتح اللام وتشديد القاف، والباقون: «يَلْقاه» بفتح الياء وسكون اللام.

● **الحجة:** من قرأ: «ويُخْرَجُ له» فمعناه: أنه يخرج له عمله أو يخرج له طائره يوم القيامة كتاباً، ويكون «كتاباً» منصوباً على الحال. ومن قرأ: «ويَخرُج» فتقديره: فيخرج له عمله أو طائره، ويكون «كتاباً» حالاً أيضاً من الضمير في «يخرج» كما في الأول. ومن قرأ: «نخرج» بالنون، فيكون «كتاباً» مفعولاً لـ «نخرج» ويجوز أن يكون منصوباً على التمييز، على معنى ونخرج طائره له كتاباً، ويجوز أن يكون نصباً على الحال، فيكون بمعنى: ذا كتاب، أي مثبتاً في الكتاب الذي قال فيه: «لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها» وقوله: ﴿مَنشُورًا﴾ يكون منصوباً على الحال من الهاء في ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ فإنه يدل عليه قوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ ومن قرأ: «يُلقاه» فيدل عليه قوله: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾.

● **اللغة:** الإنسان: يقع على المذكر والمؤنث، فإذا أردت الفصل قلت: رجل وامرأة، ومثل ذلك فرس يقع على المذكر والمؤنث، فإذا أردت الفصل قلت: حصان وحجر، وفي الهماليج برذون ورمَكة، وكل بعير يقع على المذكر والمؤنث، فإذا فصلت قلت: جمل وناقة، واشتقاق الإنسان من الإنس أو الأنس وهو فعلان عند البصريين، وقال الكوفيون: هو من النسيان، وأصله: إنسيان حذفت الياء منه استخفافاً، واحتجوا على ذلك بقول العرب في تصغيره: أنيسيان، وهذه الياء عند البصريين زائدة، وهو من التصغير الشاذ عندهم، مثل: عشيشة ومغيربان الشمس ولييلية وأشباه ذلك. والطائر: ها هنا عمل الإنسان، شبه بالطائر الذي يسنح ويتبرك به، والطائر الذي يبرح فيتشاءم به، والسانح الذي يجعل ميامنه إلى مياسرك، والبارح الذي يجعل مياسره إلى ميامنك، والأصل في هذا أنه إذا كان سانحاً أمكن الرامي، وإذا كان بارحاً لم يمكنه، قال أبو زيد: كل ما يجري من طائر أو ظبي أو غيره فهو عندهم طائر، وأنشد لكثير:

فلستَ بناسيها ولستُ بتارك إذا أغرضَ الأدمُ الجواري سُؤالها
أأدرك من أم الحُكَيِّم غبيطةً بها خبَّرتْني الطيرُ أم قد أنى لها؟(١)

في البيت الأخير: إن الذي زجره طائر، وأنشد لزهير في ذلك:

فلما أنْ تَفرَّق آلُ ليلى جرتْ بيني وبينهم ظِباءُ
جَرتْ سُنُحاً فقلتُ لهم مَروعاً نَوًى مشمولةٌ فمتى اللقاءُ؟(٢)

قال: وقولهم: سألت الطير، وقلت للطير، إنما هو زجرتها من خير أو شر، ويقوي ما ذكره قول الكميت:

ولا أنا ممن يزجرُ الطيرَ همُّهُ أصاح غرابٌ أم تعرَّض ثعلبُ(٣)

وأنشد لحسان بن ثابت:

ذريني وعلمي بالأمورِ وشيمتي فما طائري فيها عليكِ بأخْيلا(٤)

أي ليس رأيي بمشؤوم، وأنشد لكثير:

أقول إذا ما الطيرُ مرتْ مخيلة(٥) لعلك يوماً فانتظرْ أنْ تنالها

وإنما قال: ﴿طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ ولم يقل: في يده، لينبه على لزوم ذلك له وتعلقه به، كما يقال: طوقتك كذا، أي قلدتك كذا وألزمتك إياه، ومنه: قلده السلطان كذا، أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق، قال الأعشى:

قلَّدتُكَ الشعرَ يا سلامةُ ذا الإ فْضالِ والشعرُ حيثما جُعلا

وقال الآخر:

إنَّ لي حاجةً إليكِ فقالتْ بين أذني وعاتِقي ما تُريدُ

والعرب تقيم هذا العضو مقام الذات، فتقول: أعتقت رقبة، وطوقت عنقي أمانة، ولذلك قال أبو حنيفة: إذا قال الإنسان: عنقك أو رقبتك حر عتق، لأنه يعبر بذلك عن جميع البدن، ولو قال: يدك أو شعرك حر لا يعتق، لأنه لا يعبر بذلك عن جميع البدن، وقال الشافعي: هما سواء يعتق في الحالين.

---

(١) الادم من الظباء: بي تعلوهن جدد فيهن غبرة، وقوله: «سؤالها» مفعول «تارك». والغبيطة: شبه هودج للنساء.
(٢) السانح: ما أتاك من يمينك من ظبي، أو طائر. ومقابله البارح. والعرب يتبرك بالسانح، ويتشأم بالبارح. وقد يتشأم بالسانح كما في هذا البيت وفي (اللسان): «فقلت لها اجيزي». والنوى: الموضع الذي تنويه. ومشمولة أي: شاملة. وقيل: أخذ بها ذات الشمال.
(٣) يجب الوقوف على «الطير» ثم يبدأ «بهمه» ليعلم الغرض، والزجر هنا: التيمن أو التشاؤم بالطير وغيره.
(٤) أخيل: طائر أخضر يتشاءم العرب به.
(٥) مخيلة أي: مكروهة من الأخيل.

● **الإعراب:** موضع ﴿بِنَفْسِكَ﴾ رفع لأنه فاعل ﴿كَفَىٰ﴾ و ﴿حَسِيبًا﴾ نصب على التميز له، وقال أبو بكر السراج: المعنى: كفى الاكتفاء بنفسك، فالفاعل على هذا محذوف، والجار والمجرور في موضع النصب على أصله، و ﴿حَسِيبًا﴾ نصب على الحال من ﴿كَفَىٰ﴾.

● **المعنى:** لما قدم سبحانه ذكر الوعيد، أتبع ذلك بذكر كيفيته، فقال: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ معناه: وألزمنا كل إنسان عمله من خير أو شر في عنقه ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. يريد: جعلناه كالطوق في عنقه فلا يفارقه، وإنما قيل للعمل طائراً على عادة العرب في قولهم: جرى طائره بكذا، ومثله قوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقيل: طائره يمنه وشؤمه ـ عن الحسن. وهو ما يتطيَّر منه. وقيل: طائره حظه من الخير والشر ـ عن أبي عبيدة والقتيبي. وخص العنق لأنه محل الطوق الذي يزين المحسن، والغل الذي يشين المسيء. وقيل: طائره كتابه. وقيل معناه: جعلنا لكل إنسان دليلًا من نفسه، لأن الطائر عندهم يستدل به على الأمور الكائنة، فيكون معناه: كل إنسان دليل نفسه وشاهد عليها، إن كان محسناً فطائره ميمون، وإن ساء فطائره مشؤوم ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ وهو ما كتبه الحفظة عليهم من أعمالهم ﴿يلقاه﴾ أي يرى ذلك الكتاب ﴿مَنشُورًا﴾ أي مفتوحاً معروضاً عليه ليقرأه ويعلم ما فيه، والهاء في «له» يجوز أن تكون عائدة إلى الإنسان، ويجوز أن تكون عائدة إلى العمل ﴿إقرأ كتابك﴾ فها هنا حذف، أي ويقال له: اقرأ كتابك، قال قتادة: يقرأ يومئذٍ من لم يكن قارئاً في الدنيا. وروى جابر بن خالد بن نجيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يذكر العبد جميع أعماله وما كتب عليه حتى كأنه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا: «يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها». ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي محاسباً، وإنما جعله محاسباً لنفسه لأنه إذا رأى أعماله يوم القيامة كلها مكتوبة، ورأى جزاء أعماله مكتوباً بالعدل، لم ينقص عن ثوابه شيء، ولم يزد على عقابه شيء، أذعن عند ذلك، وخضع وتضرع واعترف، ولم يتهيأ له حجة ولا إنكار، وظهر لأهل المحشر أنه لا يظلم. قال الحسن: يا ابن آدم لقد أنصفك من جعلك حسيب نفسك.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي من اهتدى في الدنيا إلى دين الله وطاعته فمنفعة اهتدائه راجعة إليه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي ومن ضل عن الدين في الدنيا، فضرر ضلاله راجع إلى نفسه، وعقوبة ضلاله على نفسه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل حاملة حمل أخرى، أي ثقل ذنوب غيرها، ولا يعاقب أحد بذنوب غيره، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: لا تحن يمينك على شمالك، وهذا مثل ضربه عليه الصلاة والسلام، وفي هذا دلالة واضحة على بطلان قول من يقول: إن أطفال الكفار يعذبون مع آبائهم في النار. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ معناه: وما كنا معذبين قوماً بعذاب الاستئصال إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم بأبلغ الوجوه، وهو إرسال الرسل إليهم مظاهرة في العدل، وإن كان يجوز مؤاخذتهم على ما يتعلق بالعقل معجلًا، فعلى هذا التأويل تكون الآية عامة في العقليات والشرعيات، وقال الأكثرون من المفسرين وهو الأصح: إن المراد بالآية أنه لا يعذب سبحانه في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعد البعثة، فتكون الآية خاصة فيما يتعلق بالسمع من الشرعيات، فأما ما كانت

الحجة فيه من جهة العقل وهو الإيمان بالله تعالى فإنه يجوز العقاب بتركه وإن لم يبعث الرسول عند من قال: إن التكليف العقلي ينفك من التكليف السمعي، على أن المحققين منهم يقولون: إنه وإن جاز التعذيب عليه قبل بعثة الرسول، فإنه سبحانه لا يفعل ذلك مبالغة في الكرم والفضل، والإحسان والطول، فقد حصل من هذا أنه سبحانه لا يعاقب أحداً حتى ينفذ إليهم الرسل المنبهين إلى الحق، الهادين إلى الرشد، استظهاراً في الحجة، لأنه إذا اجتمع داعي العقل وداعي السمع تأكد الأمر، وزال الريب فيما يلزم العبد، وقد أخبر سبحانه في هذه الآية عن ذلك، وهذا لا يدل على أنه لو لم يبعث رسولًا لم يحسن منه أن يعاقب إذا ارتكب القبائح العقلية، إلا أن يفرض في بعثة الرسل لطفاً، فإن عند ذلك لا يحسن منه سبحانه أن يعاقب أحداً إلا بعد أن يوجه إليه مما هو لطف له فيزاح بذلك علته.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

● **القراءة:** القراءة العامة: ﴿أَمَرْنَا﴾ بالتخفيف غير ممدود، وقرأ يعقوب: «آمرنا» بالمد، وهو قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام، والحسن وأبي العالية وقتادة وجماعة، وقرأ: «أمّرنا» بالتشديد للميم: ابن عباس وأبو عثمان النهدي وأبو جعفر محمد بن علي بخلاف، وقرأ: «أمِرنا» بكسر الميم ـ بوزن عمرنا: الحسن ويحيى بن يعمر.

● **الحجة:** قال أبو عبيدة: أمرنا: أكثرنا، من قولهم: أمر بنو فلان، أي كثروا، وأنشد للبيد:

إنْ يُغبطوا يَهبِطوا وإن أمِروا يوماً يصيروا للهُلكِ والنَّفَدِ

قال أبو علي: لا يخلو قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ مخففة الهمزة من أن يكون فعلنا من الأمر، أو من أمِرَ القومُ وأمِرْتهم، مثل: شَتَرَت عينه وشَتَرْتها، ورَجَع ورَجَعْته، وسارَ وسِرْته، فمن لم ير أن يكون أمَرْنا من أمِرَ القوم إذا كثروا، كما حكى ذلك يونس عن أبي عمرو، فإنه ينبغي أن يكون من الأمر الذي هو خلاف النهي، ويكون المعنى: أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا.

ومن قرأ: «آمرنا» فإنه يكون أفعلنا من أمِرَ القومُ إذا كثروا، وآمرهم الله، وكذلك إن

ضاعف العين فقال: أمَّرْنا، ويقوي حمل آمرنا على النقل من أمِرَ، وألا يجعل من الأمْر الذي هو خلاف النهي، أن الأمر بالطاعة على هذا يكون مقصوراً على المترفين، فقد أمر الله بطاعته جميع خلقه، من مترف وغيره، ويحمل آمرنا على أنه مثل أمرنا، ونظير هذا: كَثُر وأكْثَره الله وكَثَّره، ولا يحمل أمَّرْنا على أن المعنى جعلناهم أمراء، لأنه لا يكاد يكون في قرية واحدة جماعة أمراء.

فإن قلت: يكون منهم الواحد بعد الواحد، فإنهم إذا كانوا كذلك لا يكثرون في حال، وإنما يهلك بكثرة المعاصي في الأرض، وعلى هذا جاء الأمرفي التنزيل: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فأمرنا بالخروج من الأرض التي تكثر فيها المعاصي إلى ما كان بخلاف هذه الصفة، ومما جاء فيه أمر بمعنى الكثرة قول زهير:

والإثم من شَرٍّ ما يُصالَ به والبِرُّ كالغيثِ نَبْتهُ أمِرُ

وأما «أمِرَ» فقد روى ابن جني بإسناده عن أبي حاتم قال: قال أبو زيد: يقال: أمِرَ اللَّهُ ماله وأمَرَه، ومن قال: إن أمَرْنا لا يكون بمعنى أكثرنا، قال: في قوله: خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة[(١)]، إن معنى مأمورة: مُؤمرَة، فإنما قال: هذه لمكان الازدواج، كما قالوا: الغدايا والعشايا، والغداة لا تجمع على الغدايا، لكن قيل ذلك ليزدوج الكلام.

● **اللغة:** الترفُه: النعمة، قال ابن عرفة: المترف: المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع منه والتدمير: الإهلاك، والدمار: الهلاك، ويقال: ذممته وذأمته وذِمْته فهو مذموم ومذوم ومَذِيم بمعنى، ويكون ذامته بمعنى طردته، ويقال: اصنع ذاك وخلاك ذم، أي ولا ذم عليك. والدَّحر: الإبعاد، والمدحور المبعد والمطرود، يقال: اللهم ادحر عنا الشيطان، أي أبعده.

● **الإعراب:** «كم أهلكنا» موضع «كم» نصب بـ «أهلكنا» ودخلت الباء في قولك ﴿بِرَبِّكَ﴾ للمدح، كما تقول: ناهيك به رجلًا، وجاد بثوبك ثوباً، وطاب بطعامك طعاماً، وأكرم به رجلًا، ويكون في كل ذلك في موضع رفع، كما قال الشاعر:

ويُخبِرني عن غائبِ المرءِ هديُهُ كفى الهديُ عَمَّا غَيَّبَ المرءُ مُختبرا[(٢)]

فرفع لما أسقط الباء. و «يصليها» في موضع نصب على الحال «لمن نريد» بدل من قوله: ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ وأعاد اللام لما كان البدل في تقدير جملة أخرى، كقوله: ﴿لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ و ﴿ذموماً﴾ حال من الضمير المستكن في «يصليها». ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ﴾ نصب ﴿كُلّٗا﴾ بـ ﴿نُّمِدُّ﴾ و ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل من قوله: ﴿كُلّٗا﴾ أي نمد كل واحد من هؤلاء وهؤلاء.

● **المعنى:** ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ لما لم يجز في العقول تقديم

---

(١) الحديث منسوب إلى النبي ﷺ، وفي بعض الكتب: «أو مهرة مأمورة» والسكة: الطريقة المصطفة بالنخل. والمأبورة: الملحقة. وقيل: السكة سكة الحرث، والمأبورة: المصلحة له. والمهر: ولد الفرس، والأنى المهرة، أراد ﷺ خير المال: نتاج أو زرع.

(٢) وقائله زيادة بن زيد العدوي. والهدى: الطريقة والسيرة.

إرادة العذاب على المعصية، لأنه عقوبة عليها ويستحقه لأجلها، فمتى لم توجد المعصية لم يحسن فعل العقاب، وإذا لم يحسن فعله لم تحسن إرادته، اختلفوا في تأويل الآية وتقديرها على وجوه:

أحدها: أن معناه: وإذا أردنا أن نهلك أهل قرية بعد قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم، أمرنا مترفيها، أي رؤساءها وساداتها بالطاعة، واتباع الرسل أمراً بعد أمر نكرره عليهم، وبينة بعد بينة نأتيهم بها أعذاراً للعصاة، وإنذاراً لهم، وتوكيداً للحجة ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ بالمعاصي وأبوا إلا تماديا في العصيان والكفران ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي فوجب حينئذٍ عليها الوعيد ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكناها إهلاكاً، وإنما خص المترفين وهم المنعمون والرؤساء بالذكر، لأن غيرهم تبع لهم، فيكون الأمر لهم أمراً لأتباعهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ جواباً لـ «إذا» وإليه يؤول ما روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن معناه: أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا، ومثله: أمرتك فعصيتني، ويشهد بصحة هذا التأويل الآية المتقدمة وهي قوله: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

وثانيها: أن قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ من صفة القرية، وتقديره: وإذا أردنا أن نهلك قرية صفتها أنا كنا قد أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فلا يكون لـ «إذا» جواب ظاهر في اللفظ للاستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة عليه، ونظيره قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ فلم يأت لـ «إذا» جواب في طول الكلام للاستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة، ومما يشهد بصحة ذلك قول الهذلي:

حتى إذا سلكوهم في قتائدةٍ شلّاً كما تطردُ الجمّالةُ الشُّرُدا[(١)]

فحذف جواب «إذا» لأن هذا البيت آخر القصيدة.

وثالثها: أن الآية محمولة على التقديم والتأخير، وتقديرها: إذا أمرنا مترفي قرية بالطاعة فعصوا أردنا إهلاكهم، ومما يمكن أن يكون شاهداً لهذا الوجه قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ وقيام الطائفة معه يكون قبل إقامة الصلاة، لأن إقامتها هي الإتيان بجميعها على الكمال، وكذلك قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ والطهارة إنما تجب قبل القيام إلى الصلاة.

ورابعها: أنه سبحانه ذكر الإرادة على وجه المجاز والاتساع، وإنما عني بها قرب الهلاك والعلم بكونه لا محالة، كما يقال: إذا أراد العليل أن يموت خلط في مأكله، ويسرع إلى ما تتوق نفسه إليه، وإذا أراد التاجر أن يفتقر أتاه الخسران من كل وجه، ومعلوم أن العليل والتاجر لم يريدا في الحقيقة شيئاً، لكن لما كان من المعلوم من حال هذا الهلاك، ومن حال ذلك

---

(١) البيت لعبد مناف بن ربع الهذلي. وقتائدة: موضع. والجمالة: أصحاب الجمال، كالبغالة، والحمارة، وانتصاب «شلا» على المصدر، يعني إذا سلكوهم هذا الموضع، شلوهم شلا يشبه طرد الشرد من الجمال إذا تزاحمت على الماء.

الخسران، حسن هذا الكلام واستعمل ذكر الإرادة لهذا الوجه، ولكلام العرب إشارات واستعارات ومجازات لأجلها كان كلامهم في الغاية القصوى من الفصاحة.

والوجه الأول عندي أصح الوجوه وأقربها إلى الصواب، إذا تأولت الآية على الأمر الذي هو ضد النهي، فأما إذا تأولت الآية على معنى القراءتين الأخيرتين من آمرنا بالمد، وأمرنا بالتشديد، فلن يخرج على هذا الوجه، وتكون محمولة على أحد الأوجه الثلاثة الأخر.

ثم بين سبحانه ما فعله من ذلك بالقرون الخالية، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي من الأمم الكثيرة المكذبة ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ أي من بعد زمان نوح إلى زمانك، هذا، لأن «كم» تفيد التكثير، كما أن رب تفيد التقليل ـ والقرن: مائة وعشرون سنة ـ عن عبد الله بن أبي أوفى. وقيل: مائة سنة ـ عن محمد بن القسم المازني، وروي ذلك مرفوعاً. وقيل: ثمانون سنة ـ عن الكلبي. وقيل: أربعون سنة، ورواه ابن سيرين مرفوعاً ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ أي كفى ربك عالماً بذنوب خلقه ﴿بَصِيرًا﴾ بها يجازيهم عليها ولا يفوته شيء منها. ثم بين سبحانه أنه يدبر عباده بحسب ما يراه من المصلحة، فقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أي النعم العاجلة وهي الدنيا، فعبر عنها بصفتها ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ من البسط والتقتير، وعلق ذلك بمشيئته لا بمشيئة العبد، فقد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله فلا يعطيه لكونه مفسدة ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أي لمن نريد إعطاءه، بين بذلك أنه ربما يكون حريصاً يريد الدنيا فلا يعطي، وإن أعطى أعطي قليلاً غ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ أي يصير بصلاها ويحترق بنارها ﴿مَذْمُومًا﴾ ملوماً ﴿مَدْحُورًا﴾ مبعداً من رحمة الله. وروي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: معنى الآية: من كان يريد ثواب الدنيا بعمله الذي افترضه الله عليه، لا يريد به وجه الله والدار الآخرة، عجل له فيها ما يشاء الله من عرض الدنيا، وليس له ثواب في الآخرة، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يؤتيه ذلك ليستعين به على الطاعة، فيستعمله في معصية الله فيعاقبه الله عليه.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أي ومن أراد خير الآخرة ونعيم الجنة ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي فعل الطاعات وتجنب المعاصي، وهو مع ذلك مصدق بتوحيد الله تعالى مقر بأنبيائه ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ أي تكون طاعتهم مقبولة وقيل: شكره أنه سبحانه يضاعف حسناتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم ـ عن قتادة. والمعنى: أن أحللنا سعيهم محل ما يشكر عليه في حسن الجزاء، وروي عن الحسن أنه قال: اطلبوا الآخرة فما رأيت طالباً لها إلا نالها، وربما نال الدنيا، وما رأيت طالب دنيا نال الآخرة، وربما لا ينال الدنيا أيضاً ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ﴾ أي كل واحد من هذين الفريقين ممن يريد الدنيا، وممن يريد الآخرة، نمدهم، أي نزيدهم. وقيل: كلا نعطي من الدنيا البر والفاجر ـ عن الحسن. والمعنى: أنَّا نعطي المؤمن والكافر في الدنيا. وأما الآخرة فللمتقين خاصة ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي نعمة ربك ورزقه ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ معناه: وما كان رزق ربك محبوساً عن الكافر لكفره، ولا عن الفاسق لفسقه.

سؤال: فإن قيل: هل يجوز أن يريد المكلف بعمله العاجل والآجل؟

والجواب: نعم، إذا جعل العاجل تبعاً للآجل، كالمجاهد في سبيل الله يقاتل لإعزاز

الدين ويجعل الغنيمة تبعاً ﴿أَنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بأن جعلنا بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء، وبعضهم موالي وبعضهم عبيداً، وبعضهم أصحاء وبعضهم مرضى، على حسب ما علمناه من المصالح ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي درجاتها ومراتبها أعلى وأفضل، وهي مستحقة على قدر الأعمال، فينبغي أن تكون رغبتهم في الآخرة وسعيهم لها أكثر. وقد روي أن ما بين أعلى درجات الجنة وأسفلها ما بين السماء والأرض، وفي الآية دلالة على أن الطاعة لا تزيد في رزق الدنيا، وإنما تزيد في درجات الآخرة ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قيل: إن الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته. وقيل معناه: لا تجعل أيها السامع أو أيها الإنسان مع الله إلهاً آخر في اعتقادك وإقرارك، ولا في عبادتك، ولا في رغبتك ورهبتك ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ معناه: فإنك إن فعلت ذلك قعدت وبقيت ما عشت مذموماً على لسان العقلاء مخذولًا، ولا ناصر لك يمنع الله نصرته عنك، ويكلك إلى ما أشركت به. وقيل: معنى القعود الذل والخزي والخسران والعجز لا الجلوس، كما يقال: قعد به الضعف عن القتال، أي عجز عنه.

● **النظم:** وجه اتصال الآية الأولى بما قبلها أنها اتصلت بقوله: ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ والمعنى: أنه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل وتقديم الأمر والنهي، وإتمام النعمة في الإنذار والإعذار، وظهور العصيان من الكفار والفجار. وقيل: إنها تتصل بما تقدم من قصة بني إسرائيل وما فعل بهم في الكرة الأولى والثانية، فبيّن سبحانه أن ما فعله موافق لعادته فيمن يريد إهلاكه، فإنما يهلك القرى إذا أمر مترفيها بالطاعة ففسقوا، فيكون إهلاكهم بالاستحقاق لا على الابتداء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** «يبلغانِ» بالألف وكسر النون ـ كوفي غير عاصم. والباقون: «يبلغن» و «أف» بفتح الفاء ها هنا وفي الأنبياء والأحقاف، مكي شامي ويعقوب وسهل، و «أف» بالكسر والتنوين في الجميع مدني وحفص. والباقون: «أف» بالكسر غير منون. وفي الشواذ قراءة أبي السماء «أفُّ» مضمومة غير منونة، وقرأ ابن عباس «أف» خفيفة، و «جناح الذل» بكسر الذال.

● **الحجة:** قال أبو علي: قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ يرتفع ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ به، وقوله: ﴿كِلَاهُمَا﴾ معطوف عليه، والذكر الذي عاد من قوله: ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ يغني عن إثبات علامة الضمير في «يبلغان» فلا وجه لقول من قال: إن الوجه إثبات الألف، لتقدم ذكر الوالدين، عني به الفراء، وإنما الوجه في ذلك أنه على الشيء الذي يذكر على وجه التوكيد، ولو لم يذكر لم يقع بترك ذكره إخلال، نحو قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ فقوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ توكيد، لأن قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ يدل

عليه، فيكون الألف مجردة لمعنى التثنية، ولاحظ للاسمية فيها يرتفع «أحدهما أو كلاهما» بالفعل.

قال الزجاج: يكون «أحدهما أو كلاهما» بدلًا من الألف في «يبلغان».

قال أبو علي: من قرأ «أف» بالفتح، فإنه بناه على الفتح، كقولهم: سرعان ذا إهالة، وهو اسم لسرع، ومثله وشكان، قال:

أُوْشكان(١) ما عيَّبتم وشِمتّمُ   بإخوانكم والعزُّ لم يَتجَمَّع

وكذلك «أف» اسم لأتضجر وأتكره ونحو ذلك، ومن قرأ «أف» فإنه بدخول التنوين يدل على التنكير، مثله: مه وصه، ومثله قولهم: فداء لك بنوه على الكسر، وإن كان في الأصل مصدراً، كما كان أفه في الأصل مصدراً من قولهم: أفه وتفه، يراد بها نتناً ودفراً. ومن قرأ «أفّ» ولم ينون جعله معرفة فلم ينون، كما أن من قال صه وغاق فلم ينون أراد به المعرفة، فإن قلت: ما موضع «أف» في هذه اللغات بعد القول، هل يكون موضعه نصباً كما ينتصب المفرد بعده أو يكون كما تكون الجمل؟ فالقول أن موضعه موضع الجمل، كما أنك لو قلت: رويد لكان موضعه الجمل، قال الزجاج: في «أف» سبع لغات: أف بالضم منوناً وغير منون، وأف بالكسر منوناً وغير منون، وأف وأفاً وأفي ممالة، وزاد ابن الأنباري: أف خفيفة(٢) مفتوحة. قال أبو الحسن: وقول الذين قالوا: أف أكثر وأجود، ولو قلت: أف لك وافاً لك، لاحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون الذي صار اسماً للفعل، لحقه التنوين علامة للتنكير.

والآخر: أن يكون نصباً معرباً، وكذا الضم، فإن لم يكن معه لك كان ضعيفاً، ألا ترى أنك لا تقول: ويل، ولو قلته لم يستقم حتى يوصل به لك، فيكون في موضع الخبر. والذل: ضد العصوبة، والذل: ضد العز، والأول في الدابة، والثاني في الإنسان.

● **الإعراب**: قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ العامل في الباء «قضى» والتقدير: وقضى بالوالدين إحساناً، ويجز أن يكون على تقدير: وأوصى بالوالدين إحساناً، وحذف لدلالة الكلام عليه، قال الشاعر:

عجبتُ من هماءَ إذ تَشكونا   ومن أبي دَهماء إذ يُوصِينا

خيراً بها كأننا جافونا

فأعمل يوصينا في الخير ﴿كَمَا رَبَّيَانِى﴾ أي كرحمة تربيتهما، يعني رحمة تحدث عند التربية، كما تقول: ضرر التلف، وقيل: الكاف بمعنى «على» ارحمهما على ما ربياني - عن الأخفش. وكذا قال في قوله كما أمرت، ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ منكم فحذف، ويجوز أن يكون: على كان لكم، فوضع الظاهر موضع المضمر لأنهم الصالحون.

---

(١) وفي اللسان: «أوشكان».

(٢) [ساكنة وأف خفيفة].

● **المعنى:** لما تقدم النهي عن الشرك والمعاصي، عقب سبحانه بالأمر بالتوحيد والطاعات، فقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي أمر ربك أمراً باتاً - عن ابن عباس والحسن وقتادة. وقيل: ألزم وأجب ربك - عن الربيع بن أنس. وقيل: أوصي - عن مجاهد ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ معناه: أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره.

فإن قيل: إن الأمر لا يكون أمراً بأن لا يكون الشيء، لأن الأمر يقتضي إرادة المأمور به، والإرادة لا تتعلق بأن لا يكون الشيء، وإنما تتعلق بحدوث الشيء.

فالجواب: أن المعنى: أراد منكم عبادته على وجه الإخلاص، وكره منكم عبادة غيره، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي وقضى بالوالدين إحساناً، أو أوصى بالوالدين إحساناً، ومعناهما واحد، لأن الوصية أمر ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ يعني به الكبر في السن، والمعنى: إن عاشا عندك أيها الإنسان المخاطب حتى يكبرا، أو عاش أحدهما حتى يكبر، يريد إن بلغا في السن مبلغاً يصيران بمنزلة الطفل الذي يحتاج إلى متعهد، وخص حال الكبر وإن كان من الواجب طاعة الوالدين على كل حال، لأن الحاجة أكثر في تلك الحال إلى التعهد والخدمة، وهذا مثل قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ مع أن الناس كلهم يتكلمون في حال الكهولة، والوجه فيه: أنه سبحانه أخبر أن عيسى يكلّم الناس في المهد، وأنه يعيش حتى يكهل ويتكلم بعد الكهولة، ونحو ذلك قوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ وإنما خص ذلك اليوم لأنه لا يملك فيه أحد سواه. وقيل: إن الكبر في الآية راجع إلى المخاطب، أي إن بلغت حال الكبر، وهو حال التكليف، وقد بقي معك أبواك أو أحدهما ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ وروي عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جده أبي عبد الله عليه السلام قال: لو علم الله لفظة أوجز في ترك عقوق الوالدين من ﴿أُفٍّ﴾ لأتى به. وفي رواية أخرى عنه قال: أدنى العقوق ﴿أُفٍّ﴾ ولو علم الله شيئاً أيسر منه وأهون منه لنهى عنه. وفي خبر آخر: فليعمل العاق ما يشاء أن يعمل، فلن يدخل الجنة، فالمعنى: لا تؤذهما بقليل ولا كثير. قال مجاهد معناه: إن بلغا عندك من الكبر ما يبولان ويحدثان فلا تنفد برهما وأمط عنهما كما كان يميطان عنك في حال الصغر، والمتبرم يكثر قول ﴿أُفٍّ﴾ وهي كلمة تدل على الضجر. وقيل: إن الأف والتف وسخ الأصابع إذا فتلته - عن أبي عبيدة. وقيل: هي كلمة كراهة - عن ابن عباس. وقيل معناه: النتن. وجاء في المثل: أبر من النسر. قالوا: لأن النسر إذا كبر ولم ينهض للطيران، جاء الفرخ فزقه كما كان أبواه يزقانه ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تزجرهما بإغلاظ وصياح. وقيل معناه: لا تمتنع من شيء أراداه منك، كما قال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾. ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي وخاطبهما بقول رقيق لطيف حسن جميل، بعيد عن اللغو والقبيح، يكون فيه كرامة لهما ويدل على كرامة المقول له على القائل. وقيل معناه: قل لهما: قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ - عن سعيد بن المسيب ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي وبالغ في التواضع والخضوع لهما قولاً وفعلاً، براً بهما وشفقة عليهما، والمراد بالذل ها هنا اللين والتواضع دون الهوان، من خفض

الطائر جناحه إذا ضم فرخه إليه، فكأنه سبحانه قال: ضم أبويك إلى نفسك كما كانا يفعلان بك وأنت صغير، وإذا وصفت العرب إنساناً بالسهولة وترك الإباء قالوا: هو خافض الجناح، وقال أبو عبد الله عليه السلام معناه: لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برأفة ورحمة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولا يديك فوق أيديهما، ولا تتقدم قدامهما.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ معناه: ادع لهما بالمغفرة والرحمة في حياتهما، وبعد مماتهما جزاء لتربيتهما إياك في صباك، وهذا إذا كانا مؤمنين. وفي هذا دلالة على أن دعاء الولد لوالده الميت مسموع، وإلا لم يكن للأمر به معنى. وقيل: إن الله تعالى أوصى الأبناء بالوالدين لقصور شفقتهم، ولم يوص الوالدين بالأبناء لوفور شفقتهم، وذكر حال الكبر لأنهما أحوج في تلك الحال إلى البر لضعفهما وكونهما كلّا على الولد. ففي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله قال: رغم أنفه رغم أنفه، قالوا: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عنده الكبر أحدهما أو كلاهما ولم يدخل الجنة. أورده مسلم في الصحيح. وروي أبو أسيد الأنصاري قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من برّ أبويَّ شيء أبرُّهما به بعد موتهما؟ قال: نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما. قال قتادة: هكذا عُلّمتم وبهذا أُمرتم فخذوا بتعليم الله وأدبه.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ﴾ أي أكثر معلوماً. وقيل: أثبت علماً، فإنه سبحانه أعلم بأن الجسم حادث من الإنسان العالم بذلك ﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ أي بما تضمرون من البر والعقوق، فمن ندرت منه نادرة وهو لا يضمر عقوقاً غفر الله له ذلك. وقيل: معناه، أنه أعلم بجميع ما في ضمائركم، وهذا أوجه ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أي طائعين لله ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ والأوّاب: التواب المتعبد الراجع عن ذنبه ـ عن مجاهد. وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: إن الأوابين المطيعون المحسنون ـ عن قتادة. وقيل: إنهم الذين يذنبون ثم يتوبون ـ عن سعيد بن المسيب. وقيل: هم الراجعون إلى الله فيما ينوبهم ـ عن ابن عباس. وقيل: هم المسبحون ـ عن ابن عباس في رواية أخرى، ويعضده قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ وقيل: إنهم الذين يصلون بين المغرب والعشاء، روي ذلك مرفوعاً. وروى هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: صلاة أربع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين مرة قل هو الله أحد هي صلاة الأوابين.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾﴾.

● **اللغة:** التبذير: التفريق بالإسراف، وأصله أن يفرق كما يفرق البذر، إلا أنه يختص بما يكون على سبيل الإفساد، وما كان على وجه الإصلاح لا يسمى تبذيراً وإن كثر، قال النابغة:

ترائبُ يستضيءُ الحَلْيُ فيها كجمرِ النار بذر بالظلام(١)

والإعراض: صرف الوجه عن الشيء، وقد يكون عن قلي، وقد يكون للاشتغال بما هو الأولى، وقد يكون للإذلال، كما قال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وأصل الحسرة: الكشف من قولهم: حسر عن ذراعه يحسر حسراً، إذا كشف عنه، والحسرة الغم لانحسار ما فات، ودابة حسير إذا كلَّتْ لشدة السير لانحسار قوتها بالكلال، ومنه قوله: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ والمحسور: المنقطع به لذهاب ما في يده وانحساره عنه، قال الهذلي:

إنَّ العسير بها داء يخامرها فشطرَها نظرُ العنيني محسور(٢)

ويقال: حَسَرتُ الرجل بالمسألة: إذا أفنيت جميع ما عنده.

● **الإعراب:** ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ تقديره: وإن تعرض و ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ مفعول له. وقيل: هو مصدر وضع موضع الحال، أي مبتغياً رحمة من ربك ترجوها، أي راجياً إياها، و ﴿تَرْجُوهَا﴾ جملة في موضع الجر بكونها صفة ﴿لِرَحْمَةٍ﴾ ويجوز أن يكون في موضع النصب على الحال من الضمير في ﴿تُعْرِضَنَّ﴾.

● **المعنى:** ثم حثّ سبحانه نبيه ﷺ على إيتاء الحقوق لمن يستحقها على كيفية الإنفاق، فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ معناه: وأعط القرابات حقوقهم التي أوجبها الله لهم في أموالكم ـ عن ابن عباس والحسن. وقيل: إن المراد قرابة الرسول. عن السدي قال: إن علي بن الحسين عليه السلام قال لرجل من أهل الشام حين بعث به عليه السلام عبيد الله بن زياد إلى يزيد بن معاوية: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أما قرأت: وآت ذي القربى حقه؟ قال: وإنكم ذو القربى الذي أمر الله أن يؤتى حقه؟ قال: نعم، وهو الذي رواه أصحابنا عن الصادق عليه السلام. وأخبرنا السيد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني قراءة، قال: حدثنا أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله الحسكاني قال: حدثنا الحاكم الوالد أبو محمد قال: حدثنا [عبد الله](٣) عمر بن أحمد بن عثمان ببغداد شفاها قال: أخبرني عمر بن الحسن بن علي بن مالك قال: حدثنا جعفر بن محمد الأحمسي قال: حدثنا حسن بن حسين قال: حدثنا أبو معمر سعيد بن خثيم وعلي بن القاسم الكندي ويحيى بن يعلى وعلي بن مسهر عن فضل بن مرزوق عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزل قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أعطى رسول الله ﷺ فاطمة فدكاً، قال عبد الرحمٰن بن صالح: كتب المأمون إلى عبد الله بن موسى يسأله عن قصة فدك، فكتب إليه عبد الله بهذا الحديث، رواه الفضيل بن مرزوق عن عطية، فرد المأمون فدكاً إلى ولد فاطمة عليها السلام.

---

(١) الترائب: موضع القلادة من الصدر.
(٢) العسير: الناقة التي لم ترض، والتي لم تحمل. وخامره الداء: خالطه ونصب شطرها على الظرف أي نحوها.
(٣) ما بين المعقفتين ليس في المخطوطة.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ معناه: وآت المسكين حقه الذي جعله الله له من الزكاة وغيرها، وآت المجتاز المنقطع عن بلاده حقه أيضاً ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ قيل: إن المبذر الذي ينفق المال في غير حقه ـ عن ابن عباس وابن مسعود. وقال مجاهد: لو أنفق مداً في باطل كان مبذراً، ولو أنفق جميع ماله في الحق لم يكن مبذراً. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام قال لعناية: كن زاملة للمؤمنين، وإن خير المطايا أمثلها وأسلمها ظهراً، ولا تكن من المبذرين ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ معناه: إن المسرفين أتباع الشياطين سالكون طريقهم، وهذا كما يقال لمن لازم السفر: هو أخو السفر. وقيل: معناه، إنهم قرناء الشياطين في النار ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي كان الشيطان في قديم مذهبه كثير الكفر مرة بعد أخرى.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرتك بإيتاء حقوقهم عند مسألتهم إياك، لأنك لا تجد ذلك حياء منهم ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي لتبتغي الفضل من الله، والسعة التي يمكنك معها البذل بأمل تلك السعة وذلك الفضل ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي عدهم عدة حسنة، وقل لهم قولًا سهلًا ليناً يتيسر عليك. وروي أن النبي صلى الله عليه وآله كان لما نزلت هذه الآية، إذا سئل ولم يكن عنده ما يعطي، قال: يرزقنا الله وإياكم من فضله.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تكن ممن لا يعطي شيئاً ولا يهب فتكون بمنزلة من يده مغلولة إلى عنقه، لا يقدر على الاعطاء والبذل، وهذا مبالغة في النهي عن الشح والإمساك ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي ولا تعط أيضاً جميع ما عندك فتكون بمنزلة من بسط يده حتى لا يستقر فيها شيء، وهذا كناية عن الإسراف ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك وتلام ﴿مَّحْسُورًا﴾ منقطعاً به، وليس عندك شيء ـ عن السدي وابن عباس. وقيل: عاجزاً نادماً ـ عن قتادة. وقيل: محسوراً من الثياب، والمحسور العريان ـ عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: معناه، إن أمسكت قعدت ملوماً مذموماً، وإن أسرفت بقيت متحسراً مغموماً ـ عن الجبائي. وقال الكلبي: لا تعط ما عندك جميعاً، فيجيء الآخرون يسألونك فلا تجد ما تعطيهم فيلومونك. وروي أن امرأة بعثت ابنها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقالت: قل له: إن أمي تستكسيك درعاً، فإن قال: حتى يأتينا شيء، فقل له: إنها تستكسيك قميصك، فأتاه فقال ما قالت له، فنزع قميصه فدفعه إليه، فنزلت الآية. ويقال: إنه عليه الصلاة والسلام بقي في البيت إذ لم يجد شيئاً يلبسه، ولم يمكنه الخروج إلى الصلاة، فلامه الكفار وقالوا: إن محمداً اشتغل بالنوم واللهو عن الصلاة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع مرة ويضيق مرة، بحسب المصلحة مع سعة خزائنه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي عالماً بأحوالهم بصيراً بمصالحهم، فيبسط على واحد ويضيق على آخر، يدبرهم على ما يراه من الصلاح.

● **النظم**: وإنما اتصلت هذه الآية الأخيرة بما قبلها، من حيث إن فيها حثاً على الإعطاء، اعتماداً على الله تعالى، ونهياً عن البخل، وحثاً على القصد، إذ هو سبحانه مع غناه وكمال قدرته، يوسع مرة ويضيق مرة أخرى، مراعاة للمصلحة، فمن هو دونه أولى أن يراعى الصلاح ويملك طريق القصد.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن عامر برواية ابن ذكران: «كان خَطأ» بفتح الخاء والطاء من غير ألف بعدها، وقرأ ابن كثير: «خِطاء» كسر الخاء وممدوداً، والباقون: «خِطْأ» بكسر الخاء من غير مد، وفي الشواذ قراءة الزهري وأبي رجاء: «خِطاً» بكسر الخاء غير ممدود، وقراءة الحسن: «خَطاءً» بالمد، وفي رواية أخرى عنه: «خَطاً» بفتح الخاء والطاء خفيفة، وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «فلا تسرف» بالتاء، والباقون: بالياء، وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: «القسطاس» بكسر القاف، والباقون: بضمها.

● **الحجة:** الخطأ: ما لم يتعمد، وكان المأثم فيه موضوعاً عن صاحبه، قال أبو علي: قالوا: أخطأ في معنى خَطِىءَ، كما أن خطىء في معنى أخطأ في مثل قوله:

عبادك يخطئون وأنت ربٌّ كريمٌ لا يليق بك الذموم

فمجرى الكلام أنهم خاطئون، وفي التنزيل: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ والمؤاخذة عن المخطىء موضوع، فهذا يدل عن أن أخطأنا في معنى خطِئنا، وكما جاء أخطأ في معنى خَطِىءَ، كذلك جاء خَطِىءَ في معنى أخْطأ في قوله:

يا لهف هند إذ خطئن كاهلًا(١)

وفي قول الآخر:

والناس يلْحَوْنَ الأميرَ إذا هُم خَطِئوا الصواب ولا يُلامُ المرشِد

فكذلك قراءة ابن عامر «خَطَأ» في معنى أخطأ، كما جاء خَطِىءَ بمعنى أخطأ، ويجوز أن يكون الخِطْءُ بمعنى الخَطأ أيضًا، كالمِثْل والمثَل، والشِّبه والشَّبه، والبدل والبدل. وأما قراءة ابن كثير: خِطاءِ، فإنه يجوز أيضاً أن يكون مصدر خاطأ، وإن لم يسمع خاطأ، ولكن جاء ما يدل عليه وهو قوله:

(تخاطأتِ النبْلُ أحشاءه)

---

(١) هذا صدر بيت لامرىء القيس قاله عندما أغار على بني أسد. وبعده: «نحن جلبنا القرح القوافلا».

قال وأنشدنا محمد بن السري في وصف كمأة:

وأشعثَ قد ناولتهُ أحْوَشَ القِرى أدرَّتْ عليه المدْجِناتُ الهواضِبُ
تخاطَأه القَنَّاصُ حتى وجدتُه وخرطومه في منقع الماء راسب(١)

فتخاطأ يدل على خاطَأ، لأن تفاعل مطاوع فاعل، كما أن تفعَّل مطاوع فعَّل. ووجه من قرأ: «خِطْأ» بين فإنه يقال: خطىء يخطأ خطأ إذا تعمد الشيء، والفاعل منه خاطىء، وقد جاء الوعيد فيه في قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ﴾ وأما «خَطاء» فهو اسم بمعنى المصدر من أخطأت، كالعطاء من أعطيت، وقال ابن جني: يقال: خَطِىء يخطأ خَطْأ وخَطْأة وخَطَأ في الدين وأخطأت الغرض ونحوه، وقد يتداخلان، وأما خَطأ وخِطأ، فتخفيف خَطَأ وخطْأ، قال أبو علي: وأما قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ بالياء، فإن فاعل ﴿يُسْرِف﴾ يجوز أن يكون على وجهين:

أحدهما: أن يكون القاتل الأول، فيكون تقديره: فلا يسرف القاتل في القتل، ويكون مضمراً وإن لم يجر له ذكر، لأن الحال تدل عليه.

فإن قلت: كيف يكون في القتل قصد بين شيئين حتى ينهي عن الإسراف فيه الذي هو ترك القصد؟.

فالجواب: أنه لا يمتنع أن يكون فيه الإسراف، كما جاء في أموال اليتامى ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾ ولم يجز أن يؤكل منه لا على الاقتصاد ولا على غيره، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية، فكذلك لا يمتنع أن يقال للقائل الأول: لا يسرف في القتل، لأنه بقتله يكون مسرفاً، ويكون الضمير على هذا في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ لقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ تقديره: فلا يسرف القاتل المبتدىء بقتله في القتل، لأن من قتل مظلوماً كان منصوراً، بأن يقتص له وليه أو السلطان إن لم يكن له ولي غيره، فيكون هذا ردعاً للقاتل عن القتل، كما أن قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ كذلك، فالولي إذا اقتص فإنما يقتص للمقتول، ومنه انتقل إلى الولي، بدلالة أن المقتول لو أبرىء من السبب المؤدي إلى القتل لم يكن للولي أن يقتص، ولو صالح الولي من العمد على مال كان للمقتول أن يؤدي منه دينه، ولا يمتنع أن يقال في المقتول ﴿منصور﴾ لأنه قد جاء: ﴿ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾.

والآخر: أن يكون في يسرف ضمير الولي، أي فلا يسرف الولي في القتل. وإسرافه فيه أن يقتل غير الذي قتل، أو يقتل أكثر من قاتل وليه، وكان مشركو العرب يفعلون ذلك، والتقدير: فلا يسرف الولي في القتل، إذ الولي كان منصوراً بقتل قاتل وليه، والاقتصاص من القاتل.

ومن قرأ: «فلا تسرف» بالتاء، احتمل وجهين أيضاً:

---

(١) كل شيء خشن فهو أحرش وحرش، وفي بعض النسخ: «احوش» بالواو. وفي (التبيان) والمنقول في تفسيري القرطبي، وروح المعاني: «أحرس» بالسين. والراء والقرى: الطعام اللضيف. وسحابة مدجنة: ذات المطر الكثير. والهضبة: المطرة الدائمة العظيمة القطر والقناص: الصيادون.

أحدهما: أن يكون المبتدىء القاتل ظلماً، فقيل له: لا تسرف أيها الإنسان فتقتل ظلماً من ليس لك قتله، إن من قتل مظلوماً كان منصوراً يؤخذ القصاص له.

والآخر: أن يكون الخطاب للولي، فيكون التقدير: فلا تسرف أيها الولي في القتل. فتتعدى قاتل وليك إلى من لم يقتله، إن المقتول ظلماً كان منصوراً، وكل واحد من المقتول ظلماً ومن ولي المقتول قد تقدم ذكره في قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

وأما القِسْطاس والقُسْطاس فهما لغتان، مثل: القِرْطاس والقُرْطاس. والضم أكثر.

● **المعنى**: ثم عطف سبحانه على ما تقدم، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي بناتكم ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي خوف فقر وعجز عن النفقة عليهن، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟﴾ منصوباً عطفاً على قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ ويجوز أن يكون على النهي فيكون مجزوماً، وإنما نهاهم الله عن ذلك لأنهم كانوا يئدون البنات فيدفنونهن أحياء ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أخبر سبحانه أنه متكفل برزق أولادهم ورزقهم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ يعني: أن قتلهم في الجاهلية كان إثماً عظيماً عند الله، وهو اليوم كذلك ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ وهو وطء المرأة حراماً بلا عقد ولا شبهة عقد ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي معصية كبيرة عظيمة، والمراد أنه كان عندهم في الجاهلية فاحشة، وهو الآن كذلك، ومثل هذا في القرآن كثير. ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي وبئس الطريق الزنى، وفيه إشارة إلى أن العقل يقبح الزنى من حيث إنه لا يكون للولد نسب، إذ ليس بعض الزناة أولى به من بعض، فيؤدي إلى قطع الأنساب، وإبطال المواريث، وإبطال صلة الرحم، وحقوق الآباء على الأولاد، وذلك مستنكر في العقول. وأخبرني المفيد عبد الجبار بن عبد الله بن علي قال: حدثنا الشيخ أبو جعفر الطوسي قال: حدثنا أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن حبيب الفارسي عن أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد الجرجرائي قال: سمعت أبا عمر وعثمان بن الخطاب المعروف بأبي الدنيا يقول: سمعت علي بن أبي طالب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: في الزنى ست خصال: ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة، فأما اللواتي في الدنيا: فيذهب بنور الوجه، ويقطع الرزق، ويسرع الفنا. وأما اللواتي في الآخرة: فغضب الرب، وسوء الحساب، والدخول في النار أو الخلود في النار.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وهو أن يجب عليه القتل، إما لكفره أو ردته أو لأنه قتل نفساً بغير حق أو زنى وهو محصن ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي قد أثبتنا لوليه سلطان القَود على القاتل أو الدية أو العفو - عن ابن عباس والضحاك. وقيل: سلطان القود - عن قتادة ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ مر تفسيره قبل ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ فسرناه في سورة الأنعام. ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ في الوصية بمال اليتيم وغيرها. وقيل: إن كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد، وقد يجب الشيء أيضاً بالنذر والعهد به، وإن لم يجب ابتداء، وإنما يجب عند العقد ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ عنه للجزاء عليه، فحذف عنه لأنه مفهوم. وقيل: إن معناه، أن العهد يسأل فيقال له: بما نقضت؟ كما تسأل المؤودة ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾. ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي أتموه

ولا تبخسوا منه، ومعناه: وأوفوا الناس حقوقهم إذا كلتم عليهم ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ وهو الميزان صغر أو كبر ـ عن الزجاج. وقيل: هو القبان ـ عن الحسن. وقيل: هو العدل بالرومية ـ عن مجاهد. فيكون محمولاً على موافقة اللغتين. و ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ الذي لا بخس فيه ولا غبن ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي خير ثواباً ـ عن قتادة. وقيل: أقرب إلى الله ـ عن عطاء. وقيل: معناه، أن إيفاء الكيل والوزن خير لكم في دنياكم، فإنه يكسب اسم الأمانة في الدنيا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي وأحسن عاقبة في الآخرة ومرجعاً، من آل يؤول إذا رجع، حث الله سبحانه بهذه الآية على إتمام الوزن والكيل في المعاملات والبياعات وإيفاء حقوق العباد.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وأهل الكوفة: ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ بضم الهمزة مضافاً إلى الهاء، وقرأ الباقون: «سَيِّئَةً» منصوباً منوناً غير مضاف.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ مضافاً قال: لأنه قد تقدم ذكر أمور منها سيِّئ ومنها حسن، فخص الله سبحانه السيِّئ منها بأنه مكروه عنده، لأنه عز اسمه لا يكره الحسن، ويقوي ذلك قوله: ﴿مَكْرُوهًا﴾ ولو كان «سيئة» غير مضاف لوجب أن تكون مكروهة، فإن قيل: إن التأنيث غير حقيقي فلا يمتنع أن يذكر، قيل: إن ها هنا التذكير لا يحسن وإن لم يكن حقيقياً لأن المؤنث قد تقدم ذكره، فإن قوله:

ولا أرض أبــقــل إبــقــالــهــا(١)

مستقبح عندهم، ولو قال: أبقل أرض، لم يستقبح، وذلك أن المتقدم الذكر ينبغي أن يكون الراجع إليه وفقه، كما يكون وفقه في التثنية والجمع، وإذا لم يتقدم له ذكر لم يلزم أن يراعي ذلك.

ومن قرأ: «سيئة» فإنه يشبه أن يكون لما رأى الكلام اقتطع عند قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وكان الذي بعده من قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لا أمر حسناً فيه، قال: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ فأفرد ولم يضف، فإن قلت: كيف ذكر المؤنث ثم قال: ﴿مَكْرُوهًا﴾؟ قلت: فإنه

---

(١) عجز بيت قاله عامر بن جوين الطائي، وقبله: «فلا مزنة ودقت ودقها» والمزمة: القطعة من السحاب. والودق: المطر. وأبقل: أخرج البقل. والشاهد في (أبقل) حيث لم يقل أبقلت.

يجوز أن لا تجعل ﴿مَكْرُوهًا﴾ صلة لـ «سيئة» ولكن تجعله بدلًا، ولا يلزم أن يكون في البدل ذكر المبدل منه، كما يجب ذلك في الصفة، ويجوز أن يكون ﴿مَكْرُوهًا﴾ حالًا من الذكر الذي في قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ على أن تجعل ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ صفة للنكرة. قال النحوي البصير: ليس هذا بصحيح، لأن الضمير الذي في الظرف مؤنث، كما أن السيئة مؤنث، فيلزم منه ما لزم من الأول إذا جعلته صفة للسيئة، وإن حمله على التأنيث غير الحقيقي يجيء منه ما قال في قوله: ولا أرض أبقل إبقالها.

● **اللغة:** القفو: اتباع الأثر، ومنه القيافة، فكأنه يتبع قفا المتقدم، قال:

ومثلُ الدُّمى شمُّ العرانين ساكنٌ ... بهنَّ الحياءُ لا يُشِعن التَّقافِيا(١)

أي التقاذف، قال أبو عبيدة: القَفْو: العَضِيَهة، يقال: قافه يقوفه وقَفاه يقفوه بمعنى، فهو مثل جَذَب وجَبَذ. وأصل الخرق: القطع، ورجل خِرْق يتخرق في السخاء، والخَرْق الفلاة لانقطاع أطرافها بتباعدها، قال رؤبة:

وقاتم الأعماق خاوي المخترق(٢)

أي خاوي المقطع. والمرح: شدة الفرح.

● **الإعراب:** قال: ﴿كُلُّ أُولَٰٓئِكَ﴾ لأن أولئك وهؤلاء للجمع القليل من المذكر والمؤنث، وإذا أريد الكثير يقال: كل هذه وتلك، قال الشاعر:

ذُم المنازلَ بعدَ منزلةِ اللّوى ... والعيشَ بعدَ أولئك الأيام

فأولئك كما يكون إشارة إلى العقلاء، يكوم إشارة إلى غيرهم، وقوله: ﴿كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ الهاء تعود إلى ﴿كُلُّ﴾ أي يسأل عن استعمال هذه الأشياء، وإن شئت كان الهاء يعود إلى الإنسان، أي يسأل عن الإنسان فيما استعمل هذه الأشياء، ويكون في ﴿مسؤولا﴾ ضمير يعود إلى ﴿كُلُّ﴾ وقدره أبو علي: إن أفعال السمع والبصر والفؤاد كل أفعال أولئك. طولًا: مصدر وضع موضع الحال، إما عن الفاعل في ﴿وَلَن تَبۡلُغَ﴾ أو من ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ وجوز الأمرين أبو علي. ﴿فَتُلۡقَىٰ﴾ منصوب بإضمار أن لكونه جواب النهي بالفاء ﴿مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ نصب على الحال و ﴿مَرَحًاۖ﴾ نصب على التميز، ويجوز أن يكون مصدراً وضع موضع الحال، كقولهم: جاء زيد ركضاً، وجاء زيد راكضاً، فركضاً أوكد في الاستعمال، لأن ركضاً يدل على توكيد الفعل، وتقديره: يركض ركضاً، وعلى هذا يكون معناه: ولا تمش في الأرض مختالًا. وقيل: إن ﴿طُولٗا﴾ نصب على التميز.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ ومعناه: لا تقل سمعت ولم تسمع، ولا رأيت ولم تر، ولا علمت ولم تعلم - عن ابن عباس وقتادة. وقيل: معناه، لا تقل

---

(١) قائله النابغة الجعدي. والشمم: ارتفاع قصبة الأنف. والعرنين: الأنف وشمم الأنف من صفات المدح.
(٢) وبعده: «مشتبه الأعلام لماع الخفق» ومكان قاتم الأعماق أي: مغبر النواحي.

في قفا غيرك كلاماً، أي إذا مر بك فلا تغتبه ـ عن الحسن. وقيل: هو شهادة الزور ـ عن محمد بن الحنفية. والأصل أنه عام في كل قول وفعل أو عزم يكون على غير علم، فكأنه سبحانه قال: لا تقل إلا ما تعلم أنه مما يجوز أن يقال، ولا تفعل إلا ما تعلم أنه بما يجوز أن يفعل، ولا تعتقد إلا ما تعلم أنه مما يجوز أن يعتقد. وقد استدل جماعة من أصحابنا بهذا على أن العمل بالقياس وبخبر الواحد غير جائز، لأنهما لا يوجبان العلم، وقد نهى الله سبحانه عن اتباع ما هو غير معلوم ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ معناه: إن السمع يسأل عما سمع، والبصر عما رأى، والقلب عما عزم عليه، ذكر سبحانه السمع والبصر والفؤاد، والمراد أن أصحابها هم المسؤولون، ولذلك قال: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وقيل: بل المعنى، كل أولئك الجوارح يسأل عما فعل بها. قال الوالي عن ابن عباس: يسأل الله العباد فيما استعملوها، وروى علي بن إبراهيم في تفسيره عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يزول قدم عبد يوم القيامة بين يدي الله عز وجل حتى يسأل عن أربع خصال: عمرك: فيما أفنيته، وجسدك: فيما أبليته، ومالك: من أين كسبته وأين وضعته، وعن حبنا أهل البيت».

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ معناه: لا تمش على وجه الأشر والبطر والخيلاء والتكبر. قال الزجاج: معناه: لا تمش في الأرض مختالًا فخوراً. وقيل: المرح: شدة الفرح بالباطل ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى قال: إنك أيها الإنسان لن تشق الأرض من تحت قدمك بكبرك، ولن تبلغ الجبال بتطاولك، والمعنى: أنك لن تبلغ مما تريد كثير مبلغ كما لا يمكنك أن تبلغ هذا، فما وجه المنابزة على ما هذا سبيله مع أن الحكمة زاجرة عنه؟

وإنما قال ذلك لأن من الناس من يمشي في الأرض بطراً، يدق قدميه عليها ليرى بذلك قدرته، وقوته، ويرفع رأسه وعنقه، فبين سبحانه أنه ضعيف مهين لا يقدر أن يخرق الأرض بدق قدميه عليها حتى ينتهي إلى آخرها، وأن طوله لا يبلغ طول الجبال وإن كان طويلًا، عَلَّم الله سبحانه عباده التواضع والمروءة والوقار ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جميع ما تقدم ذكره مما نهى الله سبحانه عنه في هذه الآيات **﴿كنا سيئه﴾** أي معصيته ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ له سبحانه يكرهها ولا يريدها ولا يرضاها، وعلى القراءة الثانية فيكون ذلك إشارة إلى جميع ما أمر به من المحسنات، ونهى عنه من المقبحات، أي كان سيىء ما سبق من هذه الأشياء مكروهاً عند ربك.

وفي هذا دلالة واضحة على بطلان قول المجبرة، فإنه سبحانه صرح بأنه يكره المعاصي والسيئات، وإذا كرهها فكيف يريدها، فإن من المحال أن يكون الشيء الواحد مراداً مكروهاً عنده.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم ذكره من الأوامر والنواهي ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ المؤدية إلى المعرفة بالحسن والقبح والفرق بينهما ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ في إقرارك وقولك، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله والمراد به غيره، ليكون أبلغ في الزجر، كقوله: **﴿لئن أشركت ليحبطن عمك﴾** ﴿فَتُلْقَىٰ﴾ أي فتطرح، بمعنى أنك إذا فعلت ذلك ألقيت وطرحت ﴿فِي

جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ يلومك الناس ﴿مَّدْحُورًا﴾ أي مطروداً مبعداً عن رحمة الله تعالى ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ هذا خطاب لمن جعل الملائكة بنات الله تعالى، ومعناه: أخلصكم الله سبحانه بالبنين، وخصكم بهم، واتخذ لنفسه الإناث، وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه، واختصكم بالأرفع وجعل لنفسه الأدون؟!.

تقول: أصفيت فلاناً بالشيء إذا آثرته به ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي كبيراً في الإثم واستحقاق العقوبة حيث أضفتم إلى الله سبحانه ما لم ترضوا لأنفسكم به، وجعلتم الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم أدون خلق الله وهم الإناث.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «ليذكروا» ساكنة الذال خفيفة، وفي سورة الفرقان مثله، والباقون: «لِيذَّكَّروا» بفتح الذال والكاف وتشديدهما في السورتين. وقرأ: «كما يقولون» بالياء «يسبح له» بالياء أهل المدينة والشام وأبو بكر. وقرأ أهل البصرة: «كما تقولون» بالتاء «عما يقولون» بالياء «تسبح له» بالتاء. وقرأ حفص: «كما يقولون» و «عما يقولون» بالياء «تسبح» بالتاء وقرأ الجميع بالياء ابن كثير، وقرأ الجميع بالتاء حمزة والكسائي وخلف.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قال: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ قوله: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فالتذكّر هنا أشبه من الذكر، لأنه كان يراد به التدبر، وليس يراد الذكر الذي هو ضد النسيان، ولكنه كما قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وليس المراد ليتذكروه بعد نسيانهم، بل المراد ليتدبروه بعقولهم. ووجه التخفيف أن التخفيف قد جاء في هذا المعنى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ فهذا ليس على معنى لا تنسوه، ولكن تدبروه. ومن قرأ: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ بالياء، فالمعنى كما يقول المشركون من إثبات الآلهة من دونه، فهو مثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ لأنهم غيب. فأما من قرأ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ فإنه يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يعطف على ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾.

والآخر: أن يكون نزه سبحانه نفسه عن دعوتهم، قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ومن قرأ: «كما تقولون» بالتاء، و «عما يقولون» بالياء، فإن الأول على ما تقدم، والثاني على أنه نزه نفسه عن قولهم، ويجوز أن تحمله على القول، كأنه قال: قل أنت: سبحانه وتعالى عما يقولون، وأما قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فكل واحد من الياء والتاء حسن.

● **المعنى**: ثم احتجّ سبحانه على الذين تقدم ذكرهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي كرّرنا الدلائل وفصلنا المعاني والأمثال، وغير ذلك مما يوجب الاعتبار به ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي ليتفكروا فيها فيعلموا الحق، وحذف ذكر الدلائل والعبر لدلالة الكلام عليه، وعلم السامع به ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي وما يزداد هؤلاء الكفار عند تصريف الأمثال والدلائل لهم، إلا تباعداً عن الاعتبار ونفوراً عن الحق، وأضاف النفور إلى القرآن لأنهم ازدادوا النفور عند نزوله، كقوله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ فإن قيل: إذا كان المعلوم أنهم يزدادون النفور عند إنزال القرآن فما المعنى في إنزاله؟ وما وجه الحكمة فيه؟ قيل: الحكمة فيه إلزام الحجة، وقطع المعذرة في إظهار الدلائل التي تحسن التكليف، وأنه يصلح عند إنزاله جماعة ما كانوا يصلحون عند عدم إنزاله، ولو لم ينزل لكان هؤلاء الذين ينفرون عن الإيمان يفسدون، بفساد أعظم من هذا النفور، فالحكمة اقتضت إنزاله لهذه المعاني، وإنما ازدادوا نفوراً عند مشاهدة الآيات والدلائل، لاعتقادهم أنها شبه وحيل وقِلةِ تفكرهم فيها.

﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ هم أو تقولون أنتم على القراءتين ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي لطلبوا طريقاً يقربهم إلى مالك العرش، والتمسوا الزلفة عنده، لعلمهم يعلوه عليهم، وعظمته - عن مجاهد وقتادة. وقال أكثر المفسرون: معناه، لطلبوا سبيلًا إلى معازّة مالك العرش، ومغالبته ومنازعته، فإن المشتركين في الإلهية يكونان متساويين في صفات الذات، ويطلب أحدهما مغالبة صاحبه ليصفو له الملك، وفي هذا إشارة إلى دليل التمانع، ثم نزّه سبحانه نفسه من أن يكون له شريك في الإلهية، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي عن قولهم ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ وإنما لم يقل تعالياً كبيراً، لأنه وضع مصدر مكان مصدر، نحو قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ومعنى ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ أن صفاته في أعلى المراتب ولا مساوي له فيها، لأنه قادر لا أحد أقدر منه، وعالم لا أحد أعلم منه، وخص العرش بإضافته إليه تعظيماً للعرش، ويجوز أن يريد بالعرش الملك. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ معنى التسبيح ها هنا الدلالة على توحيد الله وعدله، وأنه لا شريك له في الإلهية، وجرى ذلك مجرى التسبيح باللفظ، وربما يكون التسبيح من طريق الدلالة أقوى، لأنه يؤدي إلى العلم.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي ليس شيء من الموجودات إلا ويسبح بحمد الله تعالى من جهة خلقت، إذ كل موجود سوى القديم حادث يدعو إلى تعظيمه، لحاجته إلى صانع غير مصنوع صنعه أو صنع من صنعه، فهو يدعو إلى تثبيت قديم غني بنفسه عن كل شيء سواه، ولا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات. وقيل: إن معناه، وما من شيء من الأحياء إلا يسبح بحمده - عن الحسن. وقيل: إن كل شيء على العموم من الوحوش والطيور والجمادات يسبح الله تعالى حتى صرير الباب وخرير الماء - عن إبراهيم وجماعة ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي لا تعلمون تسبيح هذه الأشياء، حيث لم تنظروا فيها فتعلموا كيف دلالتها على توحيده ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ يمهلكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفركم ﴿غَفُورًا﴾ لكم إذا تبتم وأنبتم إليه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ
حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي
ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ
هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ
ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

● **اللغة:** الوقر: بالفتح، الثقل في الأذن، وبالكسر، الحمل، والأصل فيه: الثقل، إلا أنه خولف بين البناءين للفرق. والنُّفور: جمع نافر، وهذا الجمع قياس في كل فاعل اشتق من فعل مصدره على فعول، مثل: ركوع وسجود وشهود. والنَّجوى: مصدر يوصف به الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث، وهو مقرٌّ على لفظه.

● **الإعراب:** قوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ في موضع نصب، بأنه مفعول له على كراهة أن يفقهوه، «نفوراً» نصب على الحال، وتقديره: ولّوا نافرين. وقيل: إنه مصدر «وَلَّوا» خرج على غير لفظه، لأن معنى: وَلَّوا: نفروا، فكأنه قال: نفروا نفوراً.

● **النزول:** قيل: نزل قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية، في قوم كانوا يؤذون النبي ﷺ بالليل إذا تلا القرآن، وصلى عند الكعبة، وكانوا يرمونه بالحجارة، ويمنعونه عن دعاء الناس إلى الدين، فحال الله سبحانه بينه وبينهم، حتى لا يؤذوه ـ عن الزجاج والجبائي.

● **المعنى:** لما تقدم قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ بيّن سبحانه حالهم عند قراءة القرآن، فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يا محمد ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ وهم المشركون ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ قال الكلبي: وهم أبو سفيان والنضر بن الحارث وأبو جهل وأم جميل امرأة أبي لهب، حجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يأتونه ويمرون به ولا يرونه. وقيل: أراد حجاباً ساتراً ـ عن الأخفش. والفاعل قد يكون في لفظ المفعول. يقال: مشؤوم وميمون، إنما هو شائم ويامن. وقيل: هو على بناء النسب لا على أن المفعول بمعنى الفاعل، والفاعل بمعنى المفعول. والمعنى: حجاباً ذا ستر، وهذا هو الصحيح. وقيل: حجاباً مستوراً عن الأعين لا يبصر إنما هو من قدرة الله تعالى، حجب نبيه بحجاب لا يرونه، ولا يراه النبي ﷺ. وقيل: إن المعنى في الآية: جعلنا بينك وبينهم حجاباً: بمعنى، باعدنا بينك وبينهم في القرآن، فهو لك وللمؤمنين معك شفاء وهدى، وهو للمشركين في آذانهم وقر وعليهم عمى، فهذا هو الحجاب ـ عن أبي مسلم، وهذا بعيد، والأول أوجه لأنه الحقيقة ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ مر تفسيره في سورة الأنعام. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ معناه: وإذا ذكرت الله بالتوحيد، وأبطلت الشرك ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ أي أعرضوا عنك مدبرين نافرين، والمعنى بذلك كفار قريش. وقيل: هم الشياطين ـ عن ابن عباس. وقيل: معناه، إذا سمعوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ولّوا. وقيل: إذا سمعوا قول ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ معناه: ليس يخفى علينا حال هؤلاء المشركين، وغرضهم في الاستماع إليك، وقد علمنا سبب استماعهم، وهذا كما يقال: فعلت ذلك بحرمتك ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي متناجون. وقيل: هم ذوو نجوى. والمعنى: أنا نعلمهم في حال ما يصغون إلى سماع قراءتك، وفي حال ما يقومون من عندك، ويتناجون فيما بينهم، فيقول بعضهم: هو ساحر، وبعضهم: هو كاهن، وبعضهم: هو شاعر. وقيل: يعنى به أبا جهل وزمعة بن الأسود وعمرو بن هشام وخويطب بن عبد العزي، اجتمعوا وتشاوروا في أمر النبي ﷺ فقال أبو جهل: هو مجنون، وقال زمعة: هو شاعر، وقال خويطب: هو كاهن، ثم أتوا الوليد بن المغيرة وعرضوا ذلك عليه فقال: هو ساحر.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ قيل فيه وجوه:

أحدها: أنهم يقولون: ما يتبعون إلا رجلًا قد سحر فاختلط عليه أمره، وإنما يقولون ذلك للتنفير عنه.

وثانيها: أن المراد بالمسحور المخدوع المعلل، كما في قول امرىء القيس:

أُرانا مُوضِعين لحتم غيبٍ ونُسحرُ في الطعام وفي الشراب(١)

وقول أمية بن أبي الصلت:

فإنْ تَسألينا: فيم نحنُ؟ فإننا عصافيرُ من هذا الأنام المسحَّر(٢)

وثالثها: أن المعنى: إن تتبعون إلا رجلًا ذا سحر، أي رئة خلقه الله بشراً مثلكم.

ورابعها: أن المسحور بمعنى الساحر، كما قيل في قوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي ساتراً، وقد زُيِّف هذا الوجه، والوجوه الثلاثة أوضح. وعلى هذا فمعنى الآية: البيان عما توجبه حال المعادي للدين الناصب للحق اليقين، وأن قلبه كأنه في كنان عن تفهمه، وكأن في أذنيه وقراً عن استماعه، فهو مُوَلٍّ نافر عنه، يناجي في حال الانحراف عنه جهالًا أمثاله قد بعدوا بالحجة، حتى نسبوا صاحبها إلى أنه مسحور لما لم يكن لهم إلى مقاومة ما أتى به سبيل، ولا على كسره بالمعارضة دليل.

ثم قال سبحانه على وجه التعجيب ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي شبهوا لك الأشياء فقالوا: مجنون وساحر وشاعر ﴿فَضَلُّوا۟﴾ بهذا القول عن الحق ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يجدون حيلة ولا طريقاً إلى بيان تكذيبك إلا البهت الصريح. وقيل: لا يجدون سبيلًا، أي لا يجدون حيلة وطريقاً إلى صد الناس عنك، وإلى إثبات ما ادعوا عليك. وقيل: ضلوا عن الطريق المستقيم، وهو الدين والإسلام، فلا يجدون إليه طريقاً بعد ما ضلوا عنه.

● ● ●

(١) قوله موضعين أي: مسرعين. وأراد من قوله «لحتم غيب»: الموت الذي قد غيب عنا وقته، وقد مر البيت أيضاً في الجزء الخامس من هذا التفسير.

(٢) نسبه في (التبيان) (واللسان) (والصحاح) إلى لبيد، وهو موجود في ديوانه: ١: ٨٠.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

قد ذكرنا اختلاف القراء في الاستفهامين من قوله: ﴿أإذا﴾ و ﴿أإنا﴾ في سورة الرعد، فلا معنى لإعادته.

● **اللغة:** الرفات: ما تكسر وبلى من كل شيء، ويكثر بناء فعال في كل ما يحطم ويرضض، يقال: حطام ودُقاق وتُراب. وقال المبرد: كل شيء مدقوق مبالغ في دقه حتى انسحق فهو رُفات. وقال الفراء: لا واحد له من لفظه، يقال: رُفِتَ الشيء رفتاً فهو مرفوت إذا صُيِّر كالحطام. ويقال: أنغض رأسه يُنغضه نَغض رأسه يَنغِضُهُ نغضاً إذا حركه. قالوا: والنَّغض تحريك الرأس بارتفاع وانخفاض، ومنه قيل للظليم(١): فمِغْض، لأنه يحرك رأسه في مشيه بارتفاع وانخفاض، قال العجاج:

أصكُّ نغضاً لا ينِي مستهدجاً(٢)

ونغض السنُّ إذا تحركت، قال:

فنغضت من هرمٍ أسنانها

الإعراب:: «وإذا» في موضع نصب بفعل يدل عليه قوله: ﴿**أإنا لمبعوثون**﴾ وتقديره: أنبعث في ذلك الوقت، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿مَبۡعُوثُونَ﴾ لأن ما بعد إنَّ ولام الابتداء لا يجوز أن يعمل فيما قبلهما، والباء في ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾ باء الحال، أي تستجيبون حامدين له. و ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ في موضع الجر بإضافة ﴿يَوۡمَ﴾ إليه و ﴿**تستجيبون**﴾ عطف عليه ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ ليس في موضع الجر، لأن الواو للحال، وتقديره: وحالكم إذ ذاك أن تظنوا. و ﴿قَلِيلًا﴾ نصب على الظرف، وتقديره: إن لبثتم إلا زمناً قليلًا.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر البعث والنشور، حكى سبحانه عن الكفار ما قالوا في إنكاره، فقال: ﴿**وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً**﴾ أي غباراً ـ عن ابن عباس. وقيل: تراباً ـ عن مجاهد ﴿**أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً**﴾ والمعنى: قال المنكرون للبعث: إنا إذا متنا وانتشرت لحومنا وصرنا عظاماً وتراباً: أنبعث بعد ذلك خلقاً جديداً؟ أي متجدداً، وهو إنكار في صورة الاستفهام ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهم ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ أي اجهدوا في ألا تعادوا وكونوا إن استطعتم حجارة في القوة أو حديداً في الشدة ﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ أي خلقاً هو أعظم من ذلك عندكم

---

(١) الظليم: الذكر من النعام.

(٢) هذا عجز بيت صدره: «واستبدلت رسومه سفنجاً» والصكك: اضطراب الركبتين والعرقوبتين من الإنسان وغيره. ومستهدجاً أي: مستعجلًا.

وأصعب فإنكم لا تفوتون الله تعالى، وسيحييكم بعد الموت وينشركم، إلا أن الكلام خرج مخرج الأمر لأنه أبلغ في الإلزام. وقيل: يعني بقوله: ما يكبر في صدوركم الموت ـ عن ابن عباس وسعيد بن جبير، أي لو كنتم الموت لأماتكم الله تعالى، وليس شيء أكبر في صدور بني آدم من الموت. وقيل: يعني به السماوات والأرض والجبال ـ عن مجاهد ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ معناه: فإنك إذا قلت لهم ذلك سيقولون لك: من يحيينا بعد الموت؟ قل يا محمد: يحييكم من خلقكم أول مرة، فإن من قدر على ابتداء الشيء كان على إعادته أقدر ما لم تبطل قدرته، ولم يتغير، فإن ابتداء الشيء أصعب من إعادته، وإنما قال ذلك لهم لأنهم كانوا يقرون بالنشأة الأولى. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي فسيحركون إليك رؤوسهم تحريك المستهزىء المستخف المستبطىء لما تنذرهم به ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي متى يكون البعث؟ ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ لأن ما هو آت قريب، ومن كلام الحسن: كأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ معناه: عسى أن يكون بعثكم قريباً أيها المشركون، يوم يدعوكم من قبوركم إلى الموقف على ألسنة الملائكة؟ وذلك عند النفخة الثانية، فيقولون: أيتها العظام النخرة، والجلود البالية عودي كما كنت، فتستجيبون مضطرين بحمده، أي حامدين لله على نعمه، وأنتم موحدون، وهذا كما يقول القائل: جاء فلان بغضبه، أي جاء غضبان. وقيل: معنى تستجيبون بحمده: أنكم تستجيبون معترفين بأن الحمد لله على نعمه، لا تنكرونه لأن المعارف هناك ضرورية. قال سعيد بن جبير: يخرجون من قبورهم يقولون: سبحانك وبحمدك، ولا ينفعهم في ذلك اليوم، لأنهم حمدوا حين لا ينفعهم الحمد ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وتظنون أنكم لم تلبثوا في الدنيا إما قليلًا، لسرعة انقلاب الدنيا إلى الآخرة. قال الحسن وقتادة: استقصروا مدة لبثهم في الدنيا، لما يعلمون من طول لبثهم في الآخرة، ومن المفسرين من يذهب إلى أن هذه الآية خطاب للمؤمنين، لأنهم ألين يستجيبون الله بحمده، ويحمدونه على إحسانه إليهم، ويستقلون مدة لبثهم في البرزخ، لكونهم في قبورهم منعَّمين غير معذَّبين، وأيام السرور والرخاء قصار.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

● **اللغة:** الوسيلة: القربة، والواسل: الراغب. قال لبيد:

بلى كلُّ ذي دين إلى الله واسل

قال الزجاج: الوسيلة والسؤل والطلبة في معنى واحد.

● **الإعراب:** ﴿يَقُولُوا﴾ جواب شرط محذوف تقديره: قل لعبادي قولوا التي هي أحسن يقولوا، وكان أبو عثمان يزعم أن ﴿يَقُولُوا﴾ واقع موقع قولوا وهو مبني، لأنه وقع موقع قولوا، ووقوع الفعل موقع الفعل المبني لا يوجب له البناء، ألا ترى أن قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ واقع موقع آمنوا وهو معرب، وإنما ذلك في الأسماء نحو يا زيد، بني لوقوعه موقع يا أنت ﴿أُولَٰئِكَ﴾ رفع بالابتداء. و ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ صفة لهم و ﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبر الابتداء. وقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ قال الزجاج: إن شئت كان ﴿أَيُّهُمْ﴾ رفعاً بالابتداء والخبر، قوله: ﴿أَقْرَبُ﴾ ويكون معناه: ينظرون أيهم أقرب إليه فيتوسلون به، والجملة متعلقة بينظرون المضمرة، ويجوز أن يكون ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدلًا من الواو في ﴿يَبْتَغُونَ﴾.

● **النزول:** كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بمكة فيقولون: يا رسول الله، إئذن لنا في قتالهم، فيقول لهم: إني لم أؤمر فيهم بشيء، فأنزل الله سبحانه ﴿قُل لِّعِبَادِي﴾ الآية ـ عن الكلبي.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه عباده باتباع الأحسن من الأقوال والأفعال، فقال: ﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿لِّعِبَادِي﴾ وهذا إضافة تخصيص وتشريف، أراد به المؤمنين. وقيل: هو عام في جميع المكلفين ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي يختاروا من المقالات والمذاهب المقالة التي هي أحسن المقالات والمذاهب. وقيل: معناه، مرهم يقولوا الكلمة التي هي أحسن الكلمات، وهي كلمة الشهادتين، وكل ما ندب الله إليه من الأقوال. وقيل: معناه، يأمروا بما أمر الله به، وينهوا عما نهى الله عنه ـ عن الحسن. وقيل معناه: قل لهم: يقل بعضهم لبعض أحسن ما يقال، مثل: رحمك الله، ويغفر الله لك. وقيل معناه: قل لعبادي إذا سمعوا قولك الحق، وقول المشركين، يقولوا ما هو أولى، ويتبعوا ما هو أحسن ـ عن أبي مسلم. وقال نظيره ﴿**فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يفسد بينهم ويغري بعضهم ببعض ويلقي بينهم العداوة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ﴾ في جميع الأوقات ﴿لِلْإِنسَانِ﴾ أي لآدم وذريته ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ مظهراً للعداوة، ثم خاطب سبحانه الفريقين فقال:

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ معناه: أنه أعلم بأحوالكم فيدبر أموركم على ما يعلمه من المصلحة لكم ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ قيل: أراد أنه سبحانه مالك للرحمة والعذاب، فيكون الرجاء إليه والخوف منه ـ عن الجبائي. وقيل معناه: إن يشأ يرحمكم بالتوبة، أو إن يشأ يعذبكم بالإصرار على المعصية ـ عن الحسن. وقيل معناه: إن يشأ يرحمكم بإخراجكم من مكة وتخليصكم من إيذاء المشركين أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم. وقيل: إن يشأ يرحمكم بفضله وإن يشأ يعذبكم بعدله، وهو الأظهر. ثم عاد إلى خطاب النبي ﷺ، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي وما أرسلناك موكلًا عليهم حفيظاً لأعمالهم يدخل الإيمان في قلوبهم

شاؤوا أم أبوا. ومعناه: أنك لا تؤاخذ بأعمالهم، فإنا أرسلناك داعياً لهم إلى الإيمان، فإن أجابوك وإلا فلا شيء عليك، فإن عقاب ذلك يحل بهم واللائمة تلزمهم ﴿**وربك أعلم بمن في السماوات والأرض**﴾ أي هو أعلم بمن في السماوات من الملائكة، وبمن في الأرض من الأنبياء، بين سبحانه بهذا أنه لم يختر الملائكة والأنبياء للميل إليهم، وإنما اختارهم لعلمه بباطنهم. وقيل: معناه، أنه أعلم بالجميع، فجعلهم مختلفين في الصور والرزق والأحوال، كما اقتضته المصلحة، كما فضل بعض النبيين على بعض ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ والمعنى: أن الأنبياء وإن كانوا في أعلى مراتب الفضل، فإنهم طبقات في ذلك، وبعضهم أعلى من بعض بزيادة الدرجة والثواب، وبالمعجزات والكتاب، ولما كان سبحانه عالماً ببواطن الأمور، اختارك للنبوة وفضلك على الأنبياء، كما فضل بعضهم على بعض، فسخر لبعضهم النار، وألان لبعضهم الحديد، وآتى بعضهم الملك، وكلّم بعضهم، وكذلك خصَّك بخصائص لم يعطها أحداً، وختم بك النبوة، ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ قال الحسن: كل كتاب زبور، إلا أن هذا الاسم غلب على كتاب داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما غلب اسم الفرقان على القرآن، وإن كان كل كتاب من كتب الله فرقاناً، لأنه يفرق بين الحق والباطل. وقال الزجاج: معنى ذكر داود هنا: أنه يقول: لا تنكروا تفضيل محمد ﷺ، وإعطاءه القرآن، فقد أعطينا داود الزبور.

ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أنها إلهة عند ضر ينزل بكم ليكشفوا ذلك عنكم، أو يحولوا تلك الحالة إلى حالة أخرى ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ للحالة التي تكرهونها إلى حالة تحبونها، يعني تحويل حال القحط إلى الخصب، والفقر إلى الغنى، والمرض إلى الصحة. وقيل معناه: لا يملكون تحويل الضر عنكم إلى غيركم. بين سبحانه أن من كان بهذه الصفة فإنه لا يصلح للإلٰهية، ولا يستحق العبادة، والمراد بالذين من دونه هم الملائكة، والمسيح وعزير ـ عن ابن عباس والحسن. وقيل: هم الجن، لأن قوماً من العرب كانوا يعبدون الجن ـ عن ابن مسعود. قال: وأسلم أولئك النفر من الجن وبقي الكفار على عبادتهم. قال الجبائي: ثم رجع سبحانه إلى ذكر الأنبياء في الآية الأولى فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ ومعناه: أولئك الذين يدعون إلى الله تعالى، ويطلبون القربة إليه بفعل الطاعات ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي ليظهر أيهم الأفضل والأقرب منزلة منه، وتأويله أن الأنبياء مع علوّ رتبهم، وشرف منزلتهم، إذ لم يعبدوا غير الله، فأنتم أولى ألا تعبدوا غير الله، وإنما ذكر ذلك حثاً على الاقتداء بهم. وقيل: إن معناه، أولئك الذين يدعونهم ويعبدونهم ويعتقدون أنهم آلهة من المسيح والملائكة يبتغون الوسيلة والقربة إلى الله تعالى بعبادتهم، ويجتهد كل منهم ليكون أقرب من رحمته، أو يطلب كل منهم أن يعلم أيهم أقرب إلى رحمته، أو إلى الإجابة، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ أي وهم مع ذلك يستغفرون لأنفسهم، فيرجون رحمته إن أطاعوا، ويخافون عذابه إن عصوا، ويعملون عمل العبيد ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي متقى يجب أن يحذر منه لصعوبته، وقد ذكرنا ما جاء في معنى الوسيلة عند قوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

● **اللغة:** المسطور: المكتوب. قال العطاج:

واعلمْ بأنْ ذا الجلالِ قد قدر   في الصُّحفِ الأولى الذي كان سَطر

والمنع: وجود ما لا يصح معه وقوع الفعل من القادر عليه، وإنما جاز في وصف الله تعالى منعاً للمبالغة في أنه لا يقع منه الفعل، فكأنه قد منع منه الفعل، وإن كان لا يجوز إطلاق مثل هذه الصفة عليه سبحانه، لأنه قادر لذاته ومقدوراته غير متناهية، فلا يصح أن يمانعه شيء.

● **الإعراب:** ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ ﴿أن﴾ الأولى نصب و ﴿أن﴾ الثانية رفع. والمعنى: وما منعنا الإرسال إلا تكذيب الأولين. و ﴿مُبْصِرَةً﴾ نصب على الحال. ﴿والشجرة الملعونة﴾ تقديرها: وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس أيضاً. والمعنى: الشجرة الملعونة أهلها وآكلوها وهم الكفرة والفجرة، فلما حذف المضاف استتر الضمير في اسم المفعول، فأنث المفعول لما جرى على الشجرة. وقوله: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾ أي فما يزيدهم التخويف، فأضمر التخويف لجرى ذكر الفعل، وانتصب قوله: ﴿طُغْيَـٰنًا﴾ على أنه مفعول ثانٍ لقوله: «يزيد».

● **المعنى:** ثم زاد سبحانه في الموعظة، فقال: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ معناه: وما من قرية إلا نحن مهلكوها بإماتة أهلها ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وهو عذاب الاستئصال، فيكون هلاك الصالحين بالموت، وهلاك الطالحين بالعذاب في الدنيا، فإنه يفنى الناس ويخرب البلاد قبل يوم القيامة، ثم تقوم الساعة ـ عن الجبائي ومقاتل. وقيل: إن المراد بذلك قرى الكفر والضلال، دون قرى الإيمان، والمراد بالإهلاك التدمير ـ عن أبي مسلم. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ أخبر أن ذلك كائن لا محالة، ولا يكون خلافه، ومعناه: كان ذلك الحكم في الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته، وهو اللوح المحفوظ مكتوباً ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ ذكر فيه أقوال:

أحدها: أن التقدير: ما منعنا إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيب الأولين. ومعناه: أنا لم نرسل الآيات التي اقترحتها قريش في قولهم: حوّل لنا الصفا ذهباً، وفجر لنا الأرض ينبوعاً، إلى غير ذلك، لأنا لو أرسلناها لم يؤمنوا فيستحقوا المعالجة بالعقوبة، كما أنا لما أجبنا الأولين من الأمم إلى آيات اقترحوها، فكذبوا بها عذبناهم بعذاب الاستئصال، لأن من حكم الآية المقترحة أنه إذا كذب بها وجب عذاب الاستئصال، ومن حكمنا النافذ في هذه الآيات ألا نعذبهم بعذاب الاستئصال، لشرف محمد ﷺ، ولما يعلم في ذلك من المصلحة، ولأن فيهم

من يؤمن به وينصره، ومن يولد له ولد مؤمن، ولأن أمته باقية، وشريعته مؤبدة إلى يوم القيامة، فلذلك لم نجبهم إلى ذلك، وأنزلنا من الآيات الواضحات، والمعجزات البيِّنات ما تقوم به الحجة، وتنقطع به المعذرة.

والثاني: أن معناه: أنا لا نرسل الآيات لعلمنا بأنهم لا يؤمنون عندها، فيكون إنزالنا إياها عبثاً لا فائدة فيه، كما أن من كان قبلهم لم يؤمنوا عند إنزال الآيات. والمعجزات ضربان:

أحدهما: ما لا يصح معرفة النبوة إلا به، وهذا الضرب لا بد من إظهاره، سواء وقع منه الإيمان أو لم يقع.

والثاني: ما يكون لطفاً في الإيمان، فهذا أيضاً يظهره الله سبحانه، وما خرج عن هاتين الصفتين من المعجزات لا يفعله سبحانه.

والثالث: أن المعنى: أنّا لا نرسل الآيات لأن آباءكم وأسلافكم سألوا مثلها ولم يؤمنوا عندها، وأنتم على آثار أسلافكم مقتدون، فكما لم يؤمنوا هم لا تؤمنون أنتم - عن أبي مسلم.

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي بيِّنة، أراد آية مبصرة، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ومعناه: دلالة واضحة ظاهرة. وقيل: ذات إبصار. وقيل: تبصرهم وتبين لهم حتى يبصروا بها الهدى من الضلال، وهي ناقة صالح المخرجة من الصخرة على الصفة التي اقترحوها ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي فكروا بتلك الآية، وجحدوا بأنها من عند الله. وقيل: ظلموا أنفسهم بسببها وبعقرها ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي لا نرسل الآيات التي نظهرها على الأنبياء إلا عظة للناس وزجراً وتخويفاً لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا، ثم خاطب سبحانه النبي ﷺ، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ أي واذكر الوقت الذي قلنا لك يا محمد ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي أحاط علماً بأحوالهم وبما يفعلونه من طاعة أو معصية وما يستحقونه على ذلك من الثواب والعقاب، وهو قادر على فعل ذلك بهم، فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته، وهذا معنى قول ابن عباس. وقيل: إن المراد به أنه عالم بجميع الأشياء، فيعلم قصدهم إلى إيذائك إذا لم تأتهم ما اقترحوا منك من الآيات، وهذا حثّ للرسول ﷺ على التبليغ، ووعد له بالعصمة من أذية قومه، وهذا معنى قول الحسن. وقيل معناه: أنه أحاط بأهل مكة فيستفتحها لك - عن مقاتل. وقال الفراء: معناه: أحاط أمره بالناس. وقيل معناه: أنه قادر على ما سألوه من الآيات، عالم بمصالحهم، فلا يفعل إلا ما هو الصلاح، فامض لما أمرت به من التبليغ، فإن الله سبحانه إن أنزلها فلما يعلم في إنزالها من اللطف، وإن لم ينزلها فلما يعلم من المصلحة - عن الجبائي.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: أن المراد بالرؤيا رؤية العين، وهي ما ذكره في أول السورة من إسراء النبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وإلى السماوات في ليلة واحدة، إلا أنه لما رأى ذلك ليلًا وأخبر بها حين أصبح سماها رؤيا، وسماها فتنة، لأنه أراد بالفتنة الامتحان وشدة التكليف، ليعرض المصدق بذلك لجزيل ثوابه، والمكذب لأليم عقابه، وهذا معنى قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد.

وثانيها: ما روي عن ابن عباس في رواية أخرى: أنها رؤيا نوم رآها أنه سيدخل مكة وهو بالمدينة، فقصدها فصدَّه المشركون في الحديبية عن دخر لها، حتى شك قوم ودخلت عليهم الشبهة، فقالوا: يا رسول الله، أليس قد أخبرتنا أنا ندخل المسجد الحرام آمنين؟ فقال ﷺ: أوقلت لكم إنكم تدخلونها العام؟ قالوا: لا، فقال: لندخلنَّها إن شاء الله، ورجع ثم دخل مكة في العام القابل، فنزل: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ وهو قول الجبائي وأبي مسلم، وإنما كان فتنة وامتحاناً وابتلاء لما ذكرناه.

وثالثها: أن ذلك رؤيا رآها النبي ﷺ في منامه، أن قروداً تصعد منبره وتنزل، فساءه ذلك واغتمّ به، روى سهل بن سعيد عن أبيه أن النبي ﷺ رأى ذلك، وقال: إنه ﷺ لم يستجمع بعد ذلك ضاحكاً حتى مات. وروى سعيد بن يسار أيضاً، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام، وقالوا على هذا التأويل: أن الشجرة الملعونة في القرآن هي بنو أمية، أخبره الله سبحانه بتغلبهم على مقامه، وقتلهم ذريته.

روي عن المنهال بن عمرو قال: دخلت على علي بن الحسين عليه السلام، فقلت له: كيف أصبحت يا ابن رسول الله؟ فقال: أصبحنا والله بمنزلة بني إسرائيل من آل فرعون يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وأصبح خير البرية بعد رسول الله ﷺ يلعن على المنابر، وأصبح من يحبنا منقوصاً حقه بحبه إيانا. وقيل لحسن: يا أبا سعيد، قتل الحسين بن علي عليه السلام، فبكى حتى اختلج جنباه، ثم قال: واذلاه لأمة قتل ابن دعيها ابن بنت نبيها. وقيل: إن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم - عن ابن عباس والحسن. وقيل: الشجرة الملعونة هي اليهود - عن أبي مسلم.

وتقدير الآية: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة إلا فتنة للناس، قالوا: وإنما سمي شجرة الزقوم فتنة لأن المشركين قالوا: إن النار تحرق الشجرة، فكيف تنبت الشجرة في النار؟ وصدق بها المؤمنون. وروى أن أبا جهل قال: إن محمداً يوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنه تنبت فيها الشجرة. وقوله: ﴿فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ معناه: التي ذكرت في القرآن ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي نرهبهم بما نقصُّ عليهم من هلاك الأمم الماضية. وقيل: بما نرسل من الآيات ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ أي عتوّاً في الكفر عظيماً، وتمادياً في الغيّ كبيراً، لأنهم لا يرجعون عنه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حفص: «ورَجِلك» بكسر الجيم. والباقون: بسكونها.

● **الحجة:** من سكن الجيم فهو جمع راجل، مثل راكب وركب، وصاحب وصحب، وتاجر وتجر. وأما قراءة حفص بكسر الجيم: فروى أبو علي عن أبي زيد يقال: رجل رجْلٌ للراجل، ويقال: جاءنا حافياً رَجِلاً، وأنشد:

أما أقاتلُ عن ديني على فَرسي ... ولا كذا رَجِلًا إلا بأصحاب(١)

كأنه قال: أما أقاتل فارساً وراجلًا. وروى ابن جني عن قطرب أنه قال: الرجل الرجال. وعليه قراءة عكرمة وقتادة: ورجالك، قال زهير في الرجْل:

همُ ضربوا عن فرجها بكتيبةٍ ... كبيضاءِ حَرْس في جوانبها الرجْل(٢)

● **اللغة:** الاحتناك: الاقتطاع من الأصل، يقال: احتنك فلان ما عند فلان من مال أو علم، إذا استقصاه فأخذه كله، واحتنك الجراد الزرع: إذا أكله كله، قال الشاعر:

أشكُو إليك سنةً قد أجحفَتْ ... جهداً إلى جُهد بنا وأضعفَتْ
واحتنكَتْ أموالَنا وجَلَّفت(٣)

وقيل: إنه من قولهم: حَنَكَ الدابة يحنِكها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلًا يقودها به. والموفور: المكمل، يقال: وفرته أفره وفراً، قال زهير:

ومن يجعل المعروفَ منْ دونِ عرضِه ... يفره، ومنْ لا يتقِ الشتْم يشتِم

والاستفزاز: الإزعاج والاستنهاض على خفة وإسراع، وأصله القطع، وتفزز الثوب إذا تخرق، وفززته تفزيزاً، فكأن معنى استفزة استزله بقطعه عن الصواب، ورجل فز: أي خفيف. والاستطاعة: قوة تنطاع بها الجورح للفعل، ومنه الطوع والطاعة وهو الانقياد للفعل. والإجلاب: السوق بجلبة من السائق، والجلبة: شدة الصوت، وقال ابن الأعرابي: أجلب الرجل على صاحبه إذا توعده بالشر وجمع عليه الجيش.

● **الإعراب:** قال الزجاج: ﴿طِينًا﴾ منصوب على الحال، بمعنى أنك أنشأته في حال كونه من طين، ويجوز أن يكون تقديره: من طين، فحذف من فوصل الفعل، ومثله قوله: **﴿أن يسترضعوا أولادكم﴾** أي لأولادكم. وقيل: إنه منصوب على التمييز. والكاف في قوله:

---

(١) قائله: يحيى بن وائلة. قيل إنه خرج يقاتل السلطان، فقيل له: أتخرج راجلًا تقاتل؟ فقال البيت. وكأنه قال: أما أُقاتل فارساً، ولا راجلاً، إلا ومعي أصحابي.

(٢) الفرج: الثغر. وحرس: جبل. ورواية الحموي في معجم البلدان: «كبيضاء حرس في طوائفها الرجل».

(٣) جلفه يجلفه - بالضم -: نزعه. ويقال للسنة الشديدة التي تذهب بالأموال: جالفة.

﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ لا مضوع لها من الإعراب، لأنها حرف خطاب جاء للتوكيد، وموضع ﴿هَٰذَا﴾ نصب بأرأيت، والجواب محذوف. المعنى: أخبرني عن هذا الذي كرمته عليَّ، ولم كرمته عليَّ وقد خلقتني من نار وخلقته من طين؟ فحذف ما ذكرناه لأن في الكلام دليلًا عليه.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه قصة آدم عليه السلام وإبليس، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد مر تفسيره في سورة البقرة[1]. ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿**أأسجد لما خلقت طيناً**﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار، أي كيف أسجد له وأنا أفضل منه، وأصلي أشرف من أصله؟ وفي هذا دلالة على أن إبليس فهم من ذلك تفضيل آدم على الملائكة، ولولا ذلك لما كان لامتناعه من السجود وجه، وإنما جاز أن يأمرهم سبحانه بالسجود لآدم عليه السلام، ولم يجز أن يأمرهم بالعبادة له، لأن السجود يترتب في التعظيم حسب ما يراد به، وليس كذلك العبادة التي هي خضوع بالقلب ليس فوقه خضوع، لأنه يترتب في التعظيم لجنسه، يبين ذلك أنه لو سجد ساهياً لم يكن له منزلة في التعظيم على قياس غيره من أفعال الجوارح ﴿**قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي**﴾ أي قال إبليس: أرأيت يا رب هذا الذي فضلته علي، يعني آدم عليه السلام ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لئن أخرت أجل موتي ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لأغوينّ ذريته وأقودنهم معي إلى المعاصي، كما تقاد الدابة بحنكها إذا شد فيها حبل تجر به، إلا الذين تعصمهم وهم المخلصون - عن أبي مسلم. وقيل: لأحتنكنهم، أي لأستولين عليهم - عن ابن عباس. وقيل: لأستأصلهم بالإغواء، من احتنكا الجراد الزرع، وهو أن يأكله ويستأصله - عن الجبائي. وإنما طمع الملعون في ذلك، لأن الله سبحانه أخبر الملائكة أنه سيجعل في الأرض من يفسد فيها، فكأن العلم قد سبق له بذلك - عن الجبائي. وقيل: لأنه وسوس إلى آدم فلم يجد له عزماً، فقال: إن أولاده أضعف منه - عن الحسن.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه له على وجه الاستهانة والاستصغار ﴿ٱذْهَبْ﴾ يا إبليس ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من ذرية آدم عليه السلام، واقتفى أثرك، وقبل منك ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي موفراً كاملًا لا نقصان فيه عن الاستحقاق. ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ أي واستزل من استطعت منهم وأضلهم بدعائك ووسوستك، من قولهم: صَوَّت فلان بفلان إذا دعاه، وهذا تهديد في صورة الأمر - عن ابن عباس. ويكون كما يقول الإنسان لمن يهدده: أجهد جهدك فسترى ما ينزل بك، وإنما جاء التهديد في صورة الأمر لأنه بمنزلة أن يؤمر الغير بإهانة نفسه. وقيل: بصوتك، أي بالغناء والمزامير والملاهي - عن مجاهد. وقيل: كل صوت يدعى به إلى الفساد فهو من صوت الشياطين ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي أجمع عليهم ما قدرت عليه من مكايدك وأتباعك وذريتك وأعوانك، وعلى هذا فيكون الباء مزيدة في ﴿**بخيلك**﴾ وكل راكب أو ماش في معصية الله من الإنس والجن فهو من خيل إبليس ورجله. وقيل: هو من أجلب القوم وجلبوا، أي صاحوا، أي صح بخيلك ورجلك واحشرهم عليهم بالإغواء ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ وهو كل مال أصيب من حرام وأخذ بغير حقه، وكل ولد زنا - عن ابن عباس

---

(١) راجع الجزء الأول من هذا التفسير.

والحسن ومجاهد. وقيل. إن مشاركتهم في الأموال أنه أمرهم أن يجعلوها سائبة وبحيرة وغير ذلك، وفي الأولاد أنهم هَوَّدوهم ونصَّروهم ومَجَّسوهم ـ عن قتادة. وقيل: إن كل مال حرام أو فرج حرام فله فيه شرك ـ عن الكلبي. وقيل: إن المراد بالأولاد تسميتهم عبد شمس وعبد الحرث ونحوهما. وقيل: هو قتل الموؤودة من أولادهم والقولان مرويان عن ابن عباس ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي ومَنِّهم البقاء وطول الأمل، وأنهم لا يبعثون، وكل هذا زجر وتهديد في صورة الأمر ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ هذا إخبار من الله عز وجل أن مواعيد الشيطان تكون غروراً، أي يزين لهم الخطأ أنه صواب وهو اعتراض ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ يعني الذين يطيعونني، أضافهم إلى نفسه تشريفاً لهم ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي قوة ونفاذ، لأنهم يعلمون أن مواعيدك باطلة فلا يغترون بها. وقيل: معناه، لا سلطان لك على جميع عبادي إلا في الوسوسة والدعاء إلى المعصية، فأما في أن تمنعهم عن الطاعة، وتحملهم على المعصية جبراً وكرهاً، فلا ـ عن الجبائي. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً لعباده من الشرك.

● **النظم:** الوجه في اتصال الآيات بما قبلها، على تقدير: **﴿وما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾** محققين ظن إبليس فيهم يوم قيل له: اسجد، فقال: كذا وكذا ـ عن علي ابن عيسى. وقيل: اتصلت بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ثم عاد إلى ذكر الشيطان لزيادة الإيضاح والبيان بما أبان عن قصته مع آدم عليه السلام ـ عن أبي مسلم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأبو عمرو «نخسف، ونرسل، ونعيدكم، فنرسل عليكم، فنغرقكم» كله بالنون. وقرأ أبو جعفر ويعقوب: «فتغرقكم» بالتاء، والباقي بالياء، وقرأ الباقون كلها بالياء.

● **الحجة:** من قرأ الجميع بالياء فلما تقدم من قوله: **﴿ضل من يدعون إلا إياه فلما نجاكم﴾** ومن قرأ بالنون فلأن هذا النحو قد تقطع بعضه من بعض، ولأن الانتقال من الغيبة إلى الخطاب جائز. ومن قرأ: «فتغرقكم» بالتاء، فإنه رد الضمير المؤنث في «فتغرقكم» إلى «الريح».

● **اللغة:** الإزجاء: سوق الشيء حالاً بعد حال. والحاصب: من قولهم: حصبه بالحجارة يحصبه حصباً إذا رماه بها رمياً متتابعاً. قال القتبي: الحاصب: الريح التي ترمي بالحصباء، وهي الحصا الصغار، قال الفرزدق:

مستقبلين شمالَ الشَّام يضربُنا بحاصبٍ كنديفِ القطنِ مندُوف(١)

والقاصف: الكاسر بشدة، قَصَفه يقصِفه قصْفاً.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الشيطان، وذكر المشركين، وعبدة الأوثان، احتج عليهم سبحانه بدلائل التوحيد والإيمان، فقال: ﴿رَبُّكُمُ﴾ أي خالقكم ومدبركم **﴿الذي يزجى لكم الفلك﴾** أي يجري لكم السفن ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ بما خلق من الرياح، وبأن جعل الماء على وجه يمكن جري السفن فيه ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي لتطلبوا من فضل الله تعالى بركوب السفن على وجه الماء فيما فيه صلاح دنياكم من التجارة، أو صلاح دينكم من الغرق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث أنعم عليكم بهذه النعم ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ أي الشدة ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ بسكون الرياح واحتباس السفن، أو باضطراب الأمواج، وغير ذلك من أهوال البحر ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي ذهب عنكم ذكر كل معبود إلا الله، فلا ترجون هناك النجاة إلا من عنده فتدعونه، ولا تدعون غيره ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من البحر ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وأمنتم الغرق ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإيمان به وعن طاعته كفراناً للنعمة ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ أي كثير الكفران.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ معناه: أن فعلكم هذا فعل من يتوهم أنه إذا صار إلى البر أمن المكاره، حتى أعرضتم عن شكر الله وطاعته، فهل أمنتم أن يخسف بكم، أي يغيبكم ويذهبكم في جانب البر، وهو الأرض، يقال: خسف الله به الأرض، أي غاب به فيها، وأراد به بعض البر، وهو موضع حلولهم فيه، فسماه: جانباً، لأنه يصير بعد الخسف جانباً. وقيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر فحذرهم ما أمنوه من البر، كما حذرهم ما خافوه من البحر ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي أو هل أمنتم أن يرسل عليكم حجارة تحصبون بها، أي ترمون بها. والمعنى: أنه سبحانه قادر على إهلاككم في البر، كما أنه قادر على إغراقكم في البحر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً يحفظكم عن عذاب الله، ودافعاً يدفعه عنكم ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أي أم هل أمنتم ﴿أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي في البحر مرة أخرى، بأن يجعل لكم حاجة أو يحدث لكم رغبة أو رهبة فترجعون إلى البحر مرة أخرى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ أي فإذا ركبتم البحر أرسل عليكم ريحاً شديدة كاسرة للسفينة. وقيل: الحاصب الريح المهلكة في البر، والقاصف المهلكة في البحر ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ من نعم الله ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ أي تابعاً يتبع إهلاككم للمطالبة بدمائكم، ويقول: لم فعلت هذا بهم؟ وهذا في معنى قول المفسرين يعني ثائراً ولا ناصراً.

●●●

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ

---

(١) الندف: طرق القطن بالمندف. والنديف: القطن. وفي رواية التبيان: «كنديف القطن منثور».

فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة: ﴿أَعْمَىٰ﴾ الأولى بالإمالة، و ﴿أَعْمَىٰ﴾ الثانية بالتفخيم. وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة فيهما، والباقون بالتفخيم فيهما. وقرأ زيد عن يقعوب «يوم يدعوا» بالياء، والباقون بالنون. وفي الشواذ قراءة الحسن: «يوم يُدْعَوا» بضم الياء وفتح العين(1).

● **الحجة:** قال أبو علي: من أمالهما فإنه حسن، لأنه ينحو بالألف نحو الياء، ليعلم أنها تنقلب إلى الياء، وإن كانت فاصلة أو مشبهة بالفاصلة، فالإمالة فيها حسنة، لأن الفاصلة موضع وقف، والألف تخفى في الوقف، فإذا أمالها نحى بها نحو الياء ليكون أظهر لها وأبين، ومما يقوي ذلك أن من العرب من يقلب هذه الألفات في الوقف ياءات، ليكون أبين لها، قالوا: أفعى وحبلى. ومنهم من يقول: أفعَوْ، وهم كأنهم أحرص على البيان من الأولين، من حيث كانت الواو أظهر من الياء، والياء أخفى منها من حيث كانت أقرب إلى الألف من الواو إليها.

وأما من أمال الألف من الكلمة الأولى ولم يمل من الثانية فإنه يجوز ألا يجعل ﴿أَعْمَىٰ﴾ الكلمة الثانية عبارة عن المؤوف الجارحة، ولكنه جعله أفعل من كذا، مثل أبلد من فلان، فجاز أن يقول فيه أفعل من كذا، وإن لم يجز أن يقول ذلك في المصاب ببصره، فإذا جعله كذلك لم يقع الألف في آخر الكلمة، لأن آخرها إنما هو من كذا، وإنما تحسن الإمالة في الأواخر لما تقدم، وقد حذف من أفعل الذي هو للتفضيل، الجار والمجرور، وهما مرادان في المعنى مع الحذف، وذلك نحو قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ المعنى: من السر، وكذلك قولهم: عام أول، أي أول من عامك، وكذلك قوله: ﴿فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي أعمى منه في الدنيا، ومعنى أعمى في الآخرة أنه لا يهتدي إلى طرق الثواب، ويؤكد ذلك ظاهر ما عطف عليه من قوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فكما »أن هذا لا يكون إلا على أفعل فكذلك المعطوف عليه، ومعنى أضل سبيلًا في الآخرة: أن ضلاله في الدنيا قد كان ممكناً من الخروج منه، وضلاله في الآخرة لا سبيل له إلى الخروج منه. ويجوز أن يكون ﴿أَعْمَىٰ﴾ فيمن تأوله أفعل من كذا على هذا التأويل أيضاً، قال ابن جني: قراءة الحسن «يوم يدعو» على لغة من أبدل الألف في الوصل واواً، نحو أفعَوْ وحبلَوْ، ذكر ذلك سيبويه، وأكثر هذا في الوقف.

● **المعنى:** لما تقدم قول إبليس ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ ذكر سبحانه بعد ذلك تكرمة لبني آدم بأنواع الإكرام وفنون الإنعام، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أي فضلناهم ـ عن ابن عباس. وأجريت الصفة على جميعهم من أجل من كان فيهم على هذه الصفة، كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وقيل: إنما عمهم بالتكرمة مع أن فيهم الكافر المهان، لأن المعنى: أكرمناهم بالنعم الدنيوية كالصور الحسنة، وتسخير الأشياء لهم، وبعث الرسل إليهم. وقيل

(1) وفي نسخة «بضم الياء والعين».

معناه: عاملناهم معاملة المكرم على وجه المبالغة في الصفة، واختلف فيما كرموا به، فقيل: بالقوة والعقل والنطق والتمييز ـ عن ابن عباس والضحاك. وقيل: إنهم يأكلون باليد وكل دابة تأكل بفمها، رواه ميمون بن مهران ـ عن ابن عباس. وقيل: بتعديل القامة وامتدادها ـ عن عطاء. وقيل: بالأصابع يعملون بها ما يشاؤون، روي ذلك جابر بن عبد اللّه. وقيل: بتسليطهم على غيرهم وتسخير سائر الحيوانات لهم ـ عن ابن جرير. وقيل: بأن جعل محمداً ﷺ منهم ـ عن محمد بن كعب. وقيل: بأنهم يعرفون الله ويأتمرون بأمره. وقيل: بجميع ذلك وغيره من النعم التي خصوا بها، وهو الأوجه ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ في البر على الإبل والخيل والبغال والحمير، وفي البحر على السفن ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من الثمار والفواكه والأشياء الطيبة، وسائر الملاذ التي خصَّ بها بنو آدم، ولم يشركهم شيء من الحيوان فيها ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ استدل بعضهم بهذا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، قال: لأن قوله: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾ يدل على أن ههنا من لم يفضلهم عليه، وليس إلا الملائكة، لأن بني آدم أفضل من كل حيوان سوى الملائكة بالاتفاق، وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أن التفضيل ههنا لم يُرد به الثواب، لأن الثواب لا يجز التفضيل به ابتداء، وإنما المراد بذلك ما فضلهم الله به من فنون النعم التي عددنا بعضها.

وثانيها: أن المراد بالكثير الجميع، فوضع الكثير موضع الجميع، والمعنى: أنا فضلناهم على من خلقنا وهم كثير، كما يقال: بذلت له العريض من جاهي، وأبحته المنيع من حريمي، ولا يراد بذلك أني بذلت له عريض جاهي، ومنعته ما ليس بعريض، ولم أبحه ما ليس منيعاً، بل المقصود أني بذلت له جاهي الذي من صفته أنه عريض، وفي القرآن ومحاورات العرب من ذلك ما لا يحصى، ولا يخفى ذلك على من عرف كلامهم، قال سويد بن أبي كاهل في شعرهم:

مــن أنــاسٍ لـيـس فـي أخـلاقـهـم عــاجـلُ الـفـحـشِ ولا سـوءُ الـجـزع
ولـم يرد أن في أخلاقهم فحشاً آجلًا ولـو أراد ذلـك لـم يـكـن مـادحاً لـهـم

وثالثها: أنه إذا سَلم أن المراد بالتفضيل زيادة الثواب، وأن لفظة «من» في قوله: ﴿مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ يفيد التبعيض، فلا يمتنع أن يكون جنس الملائكة أفضل من جنس بني آدم، لأن الفضل في الملائكة عام لجميعهم أو أكثرهم، والفضل في بني آدم يخص بقليل من كثير، وعلى هذا فغير منكر أن يكون الأنبياء أفضل من الملائكة، وإن كان جنس الملائكة أفضل من جنس بني آدم.

ومتى قيل: إذا كان معنى التكريم والتفضيل واحداً فما معنى التكرار؟.

فجوابه: أن قوله: ﴿كَرَّمْنَا﴾ ينبىء عن الإنعام ولا ينبىء عن التفضيل، فجاء بلفظ «التفضيل» ليدل عليه. وقيل: إن التكريم يتناول نعم الدنيا، والتفضيل يتناول نعم الآخرة. وقيل: إن التكريم بالنعم التي يصح بها التكليف، والتفضيل بالتكليف الذي عرضهم به للمنازل العالية. ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ فيه أقوال:

أحدها: أن معناه: بنبيهم ـ عن مجاهد وقتادة، ويكون المعنى على هذا أن يُنادَى يوم القيامة فيقال: هاتوا متبعي إبراهيم، هاتوا متبعي موسى، هاتوا متبعي محمد، فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء، فيأخذون كتبهم بأيمانهم، ثم يقال: هاتوا متبعي الشيطان، وهاتوا متبعي رؤساء الضلالة، وهذا معنى ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وروي أيضاً عن علي عليه السلام: أن الأئمة إمام هدى وإمام ضلالة، ورواه الوالبي عنه بأئمتهم في الخير والشر.

وثانيها: معناه: بكتابهم الذي أنزل عليهم، من أوامر الله ونواهيه، فيقال: يا أهل القرآن، ويا أهل التوراة ـ عن ابن زيد والضحاك.

وثالثها: أن معناه: بمن كانوا يأتمون به من علمائهم وأئمتهم ـ عن الجبائي وأبي عبيدة.

ويجمع هذه الأقوال ما رواه الخاص والعام عن الرضا علي بن موسى عليه السلام بالأسانيد الصحيحة أنه روي عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال فيه: يدعى كل أناس بإمام زمانهم، وكتاب ربهم، وسنة نبيهم، وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: ألا تحمدون الله؟. إذا كان يوم القيامة، فدعا كل قوم إلى من يتولونه، ودعانا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وفزعتم إلينا فإلى أين ترون يذهب بكم؟ إلى الجنة ورب الكعبة، قالها ثلاثاً.

ورابعها: أن معناه: بكتابهم الذي فيه أعمالهم ـ عن ابن عباس في رواية أخرى والحسن وأبي العالية.

وخامسها: معناه: بأمهاتهم ـ عن محمد بن كعب.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي فمن أعطى كتاب عمله الذي فيه طاعاته وثواب أعماله بيمينه ﴿**فأولئك يقرؤون كتابهم**﴾ فرحين مسرورين لا يجنبون عن قراءته، لما يرون فيه من الجزاء والثواب ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي لا ينقصون ثواب أعمالهم مقدار فتيل، وهو المفتول الذي في شق النواة ـ عن قتادة. وقيل: الفتيل في بطن النواة، والنقير في ظهرها، والقطمير قشر النواة ـ عن الحسن. جعل الله إعطاء الكتاب باليمين علامة الرضا والخلاص، وإعطاء الكتاب باليسار ومن وراء الظهر علامة السخط والهلاك. ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ ذكر في معناه أقوال:

أحدها: أن هذه إشارة إلى ما تقدم ذكره من النعم، ومعناه: أن من كان في هذه النعم، وعن هذه العبر أعمى، فهو عما غيب عنه من أمر الآخرة أعمى ـ عن ابن عباس.

وثانيها: أن «هذه» إشارة إلى الدنيا، ومعناه: من كان في هذه الدنيا أعمى عن آيات الله، ضالّاً عن الحق، ذاهباً عن الدين، فهو في الآخرة أشد تحيراً وذهاباً عن طريق الجنة، أو عن الحجة إذا سئل، فإن من ضل عن معرفة الله في الدنيا، يكون يوم القيامة منقطع الحجة، فالأول اسم، والثاني فعل من العمى، وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وثالثها: أن معناها: من كان في الدنيا أعمى القلب، فإنه في الآخرة أعمى العين، يحشر كذلك عقوبة له على ضلالته في الدنيا ـ عن أبي مسلم قال: وهذا كقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ وتأول قوله سبحانه: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ بأن معناه: الإخبار عن قوة المعرفة، والجاهل بالله سبحانه يكون عارفاً به في الآخرة، وتقول العرب: فلان بصير بهذا الأمر، وإنما أرادوا بذلك العلم والمعرفة، لا الإبصار بالعين، وعلى هذا فليس يكون قوله: ﴿فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ على سبيل المبالغة والتعجب، وإن عطف عليه بقوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ويكون التقدير: وهو أضل سبيلًا، قال: ويجوز أن يكون ﴿أَعْمَىٰ﴾ عبارة عما يلحقه من الغم المفرط، فإنه إذا لم ير إلا ما يسوء، فكأنه أعمى، كما يقال: فلان سخين العين.

ورابعها: أن معناه: من كان في الدنيا ضالًا، فهو في الآخرة أضل، لأنه لا يقبل توبته - عن الحسن. واختاره الزجاج على هذا القول، وقال تأويله أنه إذا عمي في الدنيا وقد عرفه الله الهدى، وجعل له إلى التوبة وُصلة فعمي عن رشده ولم يتب، فهو في الآخرة أشد عمى وأضل سبيلًا، لأنه لا يجد طريقاً إلى الهداية.

● **النظم**: قيل في وجه اتصال قوله: ﴿**يوم ندعو كل أناس بإمامهم**﴾ بما قبله وجوه:

أحدها: أنه سبحانه ذكر تفضيل بني آدم، ثم بين أن ذلك التفضيل إنما يكون في ذلك اليوم، فيستحق المهتدون الثواب بهدايتهم.

وثانيها: أنها اتصلت بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي فاحذروا يوم يدعو كل أمة بإمامهم.

وثالثها: أنها اتصلت بقوله: ﴿يُعِيدَكُمْ﴾ أي يعيدكم يوم يدعو.

ورابعها: أنه تعالى ذكر فيما تقدم من آمن ومن كفر، ثم بين في هاتين الآيتين ما أعد للفريقين من ثواب وعقاب، وأنه يعطيهم ذلك على ما هو مكتوب في كتبهم - عن أبي مسلم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

● **الإعراب**: «لولا أن ثبتناك» تقديره: لولا تثبيتنا إياك، فـ «أن» ها هنا في موضع رفع بالابتداء، وخبره مضمر، وهذا يدل على بطلان مذهب أبي سعيد حيث قال:

لـولا حُـدِدتُ ولا عُـذْرَى لـمـحـدود

واستدل به على أن «لولا» تدخل على الفعل وخفي عليه إضمار «أن» في البيت.

● **النزول**: في سبب نزوله أقوال:

أحدها: أن قريشاً قالت للنبي ﷺ: «لا ندعك تستلم الحجر حتى تلم بآلهتنا»، فحدث نفسه وقال: ما علي في أن ألم بها والله يعلم إني لكاره لها ويدعوني أستلم الحجر؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية - عن سعيد بن جبير.

وثانيها: أنهم قالوا له: كف عن شتم آلهتنا، وتسفيه أحلامنا، واطرد هؤلاء العبيد والسقاط الذين رائحتهم رائحة الصنان[1]، حتى نجالسك ونسمع منك، فطمع في إسلامهم، فنزلت الآية.

وثالثها: أن رسول الله ﷺ أخرج الأصنام من المسجد، فطلبت إليه قريش أن يترك صنماً كان على المروة، فهم بتركه، ثم أمر بعد بكسره، فنزلت الآية. رواه العياشي بإسناده.

ورابعها: أنها نزلت في وفد ثقيف، قالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال: لا ننحني بفنون الصلاة، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وتمتعنا باللات سنة. فقال ﷺ: «لا خير في صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود، فأما كسر أصنامكم بأيديكم فذاك لكم، وأما الطاعة للات فإني غير ممتعكم بها»، وقام رسول الله ﷺ وتوضأ، فقال عمر بن الخطاب: ما بالكم آذيتم رسول الله ﷺ؟ إنه لا يدع الأصنام في أرض العرب، فما زالوا به حتى أنزل الله هذه الآيات ـ عن ابن عباس.

وخامسها: أن وفد ثقيف قالوا: أجّلنا سنة حتى نقبض ما يهدي لآلهتنا، فإذا قبضنا ذلك كسرناها وأسلمنا، فهم بتأجيلهم، فنزلت الآية ـ عن الكلبي رواه عن عطية عن ابن عباس.

● **المعنى**: ثم حكى الله سبحانه عن الكفار، فقال: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾. «إن» هذه مخففة من الثقيلة، والمعنى: أن المشركين الذين تقدم ذكرهم في هذه السورة همُّوا وقاربوا أن يزلوك ويصرفوك عن القرآن الذي أوحينا إليك، أي من حكمه ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ أي لتخترع علينا غير ما أوحيناه إليك، والمعنى: لتحل محل المفتري لأنك تخبر أنك لا تنطق إلا عن وحي، فإذا اتبعت أهواءهم أو هممت أنك تفعله بأمر الله فكنت كالمفتري ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ معناه: وإنك لو أجبتهم إلى ما طلبوا منك لتولوك وأظهروا خلتك، أي صداقتك لموافقتك معهم. وقيل: هو من الخلة التي هي الحاجة، أي فقيراً محتاجاً إليهم، والأول أوجه ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ أي ثبتنا قلبك على الحق والرشد بالنبوة والعصمة والمعجزات. وقيل: بالألطاف الخفية ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أي ركوناً قليلاً. والمعنى: لقد قاربت أن تسكن إليهم بعض السكون، وأن تميل إليهم ميلاً قليلاً، فتعطيهم بعض ما سألوك، يقال: كدت أفعل كذا، أي قاربت أن أفعله ولم أفعله، وقد صح عنه ﷺ قوله: «وضع عن أمتي ما حدثت به نفسها ما لم تعمل به أو تتكلم به»، قال ابن عباس: يريد حيث سكت عن جوابهم، والله أعلم بنبيه.

ثم توعده سبحانه على ذلك لو فعله فقال: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي لو فعلت ذلك لعذبناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات، أي مثلي ما نعذب به المشرك في الدنيا ومثلي ما نعذب به المشرك في الآخرة، لأن ذنبك يكون أعظم. وقيل: إن المراد بالضعف العذاب المضاعف ألمه. والمعنى: لأذقناك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ـ عن أبان بن تغلب. وأنشد قول الشاعر:

(١) الصنان: نتن الإبط.

لِمَقتل مالكٍ إذ بانَ منّي أبيتُ الليلَ في ضِعفٍ أليمِ

أي عذاب، قال ابن عباس: رسول الله ﷺ معصوم، ولكن هذا تخويف لأمته، لئلا يركن أحد من المؤمنين إلى أحد من المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ أي ناصراً ينصرك، وقال: إنه لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً» ـ عن قتادة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وأبو بكر: «خَلْفك» بغير ألف، والباقون: «خلافك» بالألف. وقرأ رويس عن يعقوب بالوجهين.

● **الحجة:** قال أبو علي: زعم أبو الحسن أن «خلافك» في معنى «خَلْفك» ومعناه: بعدك، فمن قرأ «خلفك» أو «خلافك» فهو في القراءتين جميعاً على تقدير حذف المضاف، أي بعد خروجك، فيكون مثل قول ذي الرمة:

لـه واجفٌ بالقلبِ حتى تقطعتْ خِلافَ الثريا من أريك مآربهُ[(١)]

والمعنى: خلاف طلوع الثريا، وكذلك من جعل قوله: ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ اسماً للجهة كان على حذف المضاف، كأنه: خلاف خروج رسول الله، ومن جعله مصدراً جعله مضافاً إلى مفعول به، وعلى أي الأمرين حمل ذلك في سورة التوبة كان ﴿بمقعدهم﴾ المقعد فيه مصدر لا اسم مكان، لأن اسم المكان لايتعلق به شيء.

● **الإعراب:** قال: ﴿لَّا يَلْبَثُونَ﴾ بالرفع، لأن «إذاً» إذا وقعت بعد الواو جاز فيها الإلغاء، لأنها متوسطة في الكلام، كما أنه لا بد من أن تلغى إذا وقعت حشواً، و ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ انتصب بمعنى قوله: ﴿لَّا يَلْبَثُونَ﴾ لأن تأويله: أنا سننا هذه السنة فيمن أرسلناهم قبلك. والتقدير: أهلكناهم إهلاكاً وسنة مثل سنة من قد أرسلنا قبلك.

● **النزول:** نزلت في أهل مكة لما هموا بإخراج النبي ﷺ من مكة ـ عن مجاهد وقتادة. وقيل: نزلت في اليهود بالمدينة لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قالوا له: إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء، وإنما أرض الأنبياء الشام، فأت الشام ـ عن ابن عباس.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه أن الكفار لما يئسوا من إجابته إياهم فيما التمسوه منه كادوا له، فقالوا: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ معناه: وإن المشركين أرادوا أن

---

(١) وجف القلب: واريك: اسم واد أو جبل على خلاف ذكره الحموي في المعجم.

يزعجوك من أرض مكة بالإخراج - عن قتادة ومجاهد. وقيل: عن أرض المدينة يعني اليهود - عن ابن عباس. وقيل: يعني جميع الكفار أرادوا أن يخرجوك من أرض العرب - عن الجبائي. وقال الحسن: ليستفزونك معناه: ليقتلونك ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معناه: أنهم لو أخرجوك لكانوا لا يلبثون بعد خروجك إلا زماناً قليلًا، ومدة يسيرة. قيل: وهي المدة بين خروج النبي ﷺ من مكة وقتلهم يوم بدر - عن الضحاك. وقيل: إنهم أخرجوه وأهلكوا، والمراد بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا ناساً قليلًا منهم، يريد من انفلت منهم يوم بدر وآمنوا بعد ذلك ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ معناه: أنهم لو أخرجوك لاستأصلناهم بعد خروجك، كسنتنا فيمن قبلك. قال سفيان بن عيينة: يقول: لم نرسل قبلك رسولًا فأخرجه قومه إلا أهلكوا، فقد سننا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك إليهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي تبديلا، ومعناه: ما يتهيأ لأحد أن يقلب سنة الله، ويبطلها، والسنة هي العادة الجارية، والصحيح: أن المعنيين في الآية مشركو مكة، وأنهم لم يخرجوه من مكة، ولكنهم هموا بإخراجه، كما في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ ثم خرج ﷺ لما أمر بالهجرة خوفاً منهم، وندموا على خروجه، ولذلك ضمنوا الأموال في رده فلم يقدروا على ذلك، ولو أخرجوه لاستؤصلوا بالعذاب ولماتوا طراً.

●●●

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

● **اللغة:** الدلوك: الزوال، وقال المبرد: دلوك الشمس من لدن زوالها إلى غروبها. وقيل: هو الغروب، وأصله في الدلك، فسمي الزوال دلوكاً، لأن الناظر إليها يدُلك عينيه لشدة شعاعها، وسمي الغروب دلوكاً، لأن الناظر يدلك عينيه ليتبينها. قال ثعلب: دلكت الشمس: مالت. وقال الزجاج: يقال: دلكت بَراح وبِراح، أي مالت للزوال، حتى صار الناظر يحتاج إذا تبصرها أن يكسر الشعاع عن بصره براحته، قال الزاجر:

هـذا مَـقـامُ قـدمـي ربـاح   لـلشـمـس حـتـى دلـكـت بـراح(١)

ورباح: اسم ساقي الإبل، ومن قال: براح - بفتح الباء - جعلها اسماً للشمس مبنياً على فعال مثل قطام وحذام. ومن روي براح - بكسر الباء - أراد براحته، وقال الفراء: أي قال بالراحة على العين، لينظر هل غابت الشمس بعد. وغسق الليل: ظهور ظلامه، يقال: غسقت القرحة إذا

(١) وفي رواية الجوهري: «ذبب حتى دلكت. اهـ» وذبب أي: كثرت كثرت عليه الذباب. وفي رواية الغنوي: «بكرة حتى دلكت. اهـ». ذكره في (اللسان).

انفجرت فظهر ما فيها. والتهجُّد: التيقظ والسهر بما ينفي النوم، والهجود: النوم، وهو الأصل هجد يهجد نام، وقد هجدته إذا نومته، قال لبيد:

قلت: هجّدنا وقد طال السُّرى وقدرنا إن خنا الدهر غفل[1]

وقال آخر:

ألا طرقتنا والرفاق هجود فباتت بعَلات النوال تجود

وقال الحطيئة:

ألا طرقت هند الهنودُ وصحبتي بحوران حوران الجنود هجود[2]

قال المبرد: التهجد: السهر للصلاة أو لذكر الله، وقال علقمة: التهجد يكون بعد نومه، والنافلة والنَفَل: الغنيمة، قال لبيد:

إن تقوى ربنا خير نَفَل وبإذن الله رَيْثي وعجل[3]

أي وعجلي. وعسى من الله واجبة، وقد أنشد لابن مقبل في وجوبها:

ظني بهم كعسى وهم بتنوفة[4] يتنازعون جوائز الأمثال

يريد كيقين. والزهوق: الهلاك والبطلان، يقال: زهقت نفسه إذا خرجت، فكأنها قد خرجت إلى الهلاك.

● **الإعراب:** ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ منصوب على تقدير: وأقم قرآن الفجر، وانتصب قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ لأنه في موضع الحال.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه بعد إقامة البينات، وذكر الوعد والوعيد، بإقامة الصلاة، فقال مخاطباً للنبي ﷺ، والمراد هو وغيره: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ اختلف المفسرون في الدلوك.

فقال قوم: دلوك الشمس زوالها، وهو قول ابن عباس بخلاف، وابن عمر وجابر وأبي العالية والحسن والشعبي وعطاء ومجاهد وقتادة، والصلاة المأمور بها على هذا، هي صلاة الظهر، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبد الله عليه السلام، ومعنى قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي عند دلوكها.

---

(١) السرى): سير الليل كله. وقدرنا أي: قدرنا على التهجيد، أو على السير. وخنى الدهر: آفته وفساده أي: إن غفل عنا فساد الدهر فلم يعقنا.

(٢) حكي عن الثعلب أنه قال: إن أهل الشام يسمون كل كورة جنيداً. وحوران: كورة واسعة من أعمال دمشق ذات قرى كثيرة وحوران الجنود أي: بها جنود.

(٣) مر البيت في الجزء الثاني من هذا التفسير.

(٤) التنوفة: القفر من الأرض.

وقال قوم: دلوكها غروبها، وهو قول النخعي والضحاك والسدي، والصلاة المأمور بها على هذا، هي المغرب، وروي ذلك عن ابن مسعود وابن عباس.

والقول الأول هو الأوجه لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس، فصلاتا دلوك الشمس الظهر والعصر، وصلاتا غسق الليل هما المغرب والعشاء الآخرة، والمراد بقرآن الفجر صلاة الفجر، فهذه خمس صلوات، وهذا معنى قوله الحسن، واختاره الواحدي، وغسق الليل: هو أول بدء الليل ـ عن ابن عباس وقتادة. وقيل: هو غروب الشمس ـ عن مجاهد. وقيل: هو سواد الليل وظلمته ـ عن الجبائي. وقيل: هو انتصاف الليل ـ عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام.

واستدل قوم من أصحابنا بالآية على أن وقت صلاة الظهر موسع إلى آخر النهار، لأنه سبحانه أوجب إقامة الصلاة من وقت دلوكها إلى غسق الليل، وذلك يقتضي أن ما بينهما وقت، ولم يرتضه الشيخ أبو جعفر قدس الله روحه، قال: لأن من قال: إن الدلوك هو الغروب، فلا دلالة فيه عنده، بل يقول: أوجب سبحانه إقامة المغرب من عند الغروب إلى وقت اختلاط الظلام الذي هو غروب الشفق، ومن قال: الدلوك هو الزوال أمكنه أن يقول: إن المراد بالآية بيان وجوب الصلوات الخمس، على ما ذكره الحسن لا بيان وقت صلاة واحدة.

وأقول: أنه يمكن الاستدلال بالآية على ذلك، بأن يقال: إن الله سبحانه جعل من دلوك الشمس، الذي هو الزوال إلى غسق الليل، وقتاً للصلوات الأربع، إلا أن الظهر والعصر اشتركا في الوقت من الزوال إلى الغروب، والمغرب والعشاء الآخرة اشتركا في الوقت من الغروب إلى الغسق، وأفرد صلاة الفجر بالذكر في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ ففي الآية بيان وجوب الصلوات الخمس، وبيان أوقاتها، ويؤيد ذلك ما رواه العياشي بالإسناد عن عبيد بن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في هذه الآية قال: إن الله افترض أربع صلوات وأول وقتها من زوال الشمس إلى انتصاف الليل، منها صلاتان أول وقتهما من عند زوال الشمس إلى غروبها، إلا أن هذه قبل هذه، ومنها صلاتان أول وقتهما من غروب الشمس إلى انتصاف الليل، إلا أن هذه قبل هذه، وإلى هذا ذهب المرتضى علم الهدى قدّس الله روحه في أوقات الصلوات.

وقال الزجاج: إن في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة، لأن قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأقم قرآن الفجر، قد أمر فيه أن يقيم الصلاة بالقراءة، حتى سميت الصلاة قرآناً، فلا يكون صلاة إلا بقراءة.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ كلهم قالوا: معناه، إن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «تفضل صلاة الجماعة صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءاً»، ويجتمع ملائكة الليل والنهار في صلاة الفجر. أورده البخاري في الصحيح.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، أي فصَل بالقرآن ـ عن ابن عباس، ولا يكون التهجد إلا بعد النوم ـ عن مجاهد والأسود وعلقمة وأكثر المفسرين. وقال بعضهم: ما تنفلت به في كل الليل يسمى تهجداً، والمتهجد: الذي يلقي الهجود عن نفسه، كما يقال

المتحرج والمتأثم ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي زيادة لك على الفرائض، وذلك أن صلاة الليل كانت فريضة على النبي ﷺ مكتوبة عليه، ولم تكتب على غيره، وكانت فضيلة لغيره ـ عن ابن عباس. وقيل: كانت واجبة عليه، فنسخ وجوبها بهذه الآية، وقيل: إن معناه، فضيلة لك وكفارة لغيرك، فإن كل إنسان يخاف ألا يقبل فرضه، فيكون نفله كفارة، والنبي لا يحتاج إلى كفارة ـ عن مجاهد. وقيل: معناه، نافلة لك ولغيرك، وإنما اختصه بالخطاب لما في ذلك من دعاء الغير إلى الاقتداء به، والحثّ على الاستنان بسنته. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ عسى من الله واجبة، والمقام بمعنى البعث، فهو مصدر من غير جنسه، أي يبعثك يوم القيامة بعثاً أنت محمود فيه، ويجوز أن يجعل البعث بمعنى الإقامة، كما يقال بعثت بعيري، أي أثرته وأقمته، فيكون معناه يقيمك ربك مقاماً محموداً يحمدك فيه الأولون والآخرون، وهو مقام الشفاعة تشرف فيه على جميع الخلائق، تسأل فتعطى، وتشفع فتشفع، وقد أجمع المفسرون على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة، وهو المقام الذي يشفع فيه للناس، وهو المقام الذي يعطى فيه لواء الحمد، فيوضع في كفة ويجتمع تحته الأنبياء والملائكة فيكون ﷺ أول شافع وأول مشفع.

﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ المدخل والمخرج هنا مصدر الإدخال والإخراج، فالتقدير: أدخلني إدخال صدق، وأخرجني إخراج صدق، وفي معناه أقوال:

أحدها: أن المعنى، أدخلني في جميع ما أرسلتني به إدخال صدق، وأخرجني منه سالماً إخراج صدق، أي أعني على الوحي والرسالة ـ عن مجاهد.

وثانيها: أن معناه، أدخلني المدينة وأخرجني منها إلى مكة للفتح ـ عن ابن عباس والحسن وقتادة وسعيد بن جبير.

وثالثها: أنه ﷺ أمر بهذا الدعاء إذا دخل في أمر أو خرج من أمر، والمراد أدخلني كل أمر مدخل صدق ـ عن أبي مسلم.

ورابعها: أن المعنى، أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق، وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق ـ عن عطية عن ابن عباس. ومدخل الصدق ما تحمد عاقبته في الدنيا والدين، وإنما أضاف الإدخال والإخراج إليه سبحانه، وإن كانا من فعل العبد، لأنه سأله اللطف المقرب إلى خير الدين والدنيا.

﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ أي اجعل لي عزاً امتنع به ممن يحاول صدّي عن إقامة فرائضك، وقوة تنصرني بها على من عاداني فيك. وقيل: اجعل ملكاً عزيزاً أقهر به العصاة، فنصر بالرعب حتى خافه العدوّ على مسيرة شهر. وقيل: حجة بينة أتقوى بها على سائر الأديان الباطلة ـ عن مجاهد. قال: وسماه نصيراً لأنه تقع به النصرة على الأعداء فهو كالمعين.

﴿وَقُلْ﴾ يا محمد ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ظهر الحق وهو الإسلام والدين ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي وبطل الباطل وهو الشرك ـ عن السدي. وقيل: الحق التوحيد وعبادة الله، والباطل عبادة الأصنام

ـ عن مقاتل. وقيل: الحق القرآن، والباطل الشيطان، وزهق بطل واضمحل ـ عن قتادة. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ أورده البخاري في الصحيح. قال الكلبي: فجعل الصنم ينكبُّ لوجهه إذ قال ذلك، وأهل مكة يقولون ما رأينا رجلًا أسحر من محمد ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ أي مضمحلًا ذاهباً هالكاً لا ثبات له.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن عامر برواية ابن ذكوان: ﴿**وناء بجانبه**﴾ ممدودة مهموزة، وفي حم مثله. وقرأ حمزة إلا العجلي وأبو بكر برواية حماد ويحيى وعياش وأبو شعيب السوسي عن اليزيدي ونصير عن الكسائي «نئى» بفتح النون وكسر الهمزة، وقرأ حمزة برواية العجلي وخلف والكسائي «نئى» بكسر النون والهمزة، وقرأ الباقون «نأى» بفتح النون والهمزة، في وزن نعى.

● **الحجة:** قال أبو علي: «ناء» مثل فاع وهو على القلب. وتقديره: فلع، ومثله رأى وراء، قال:

فكل خليل راءني فهو قائل   من أجلك هذا هامة اليوم أو غد(١)

ومن أمال الفتحتين، فلأن الألف منقلبة من الياء التي في النأي، فإذا أراد أن ينحو نحوها أمال فتحة النون لإمالة فتحة الهمزة، وقد قالوا: رأيت عماداً، فأمالوا الألف لإمالة الألف، فكذلك أمالوا الفتحة لإمالة الفتحة، لأنهم يجرون الحركة مجرى الحرف في أشياء، ومن فتح النون وكسر الهمزة فإنه لم يمل الفتحة الأولى، لإمالة الفتحة الثانية، كما لم يميلوا الألف لإمالة الألف في رأيت عماداً.

● **اللغة:** الشاكلة: الطريقة والمذهب، يقال: هذا طريق ذو شواكل، أي ينشعب منه طرق جماعة.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن القرآن، فقال: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾: ووجه الشفاء فيه من وجوه:

منها: ما فيه من البيان الذي يزيل عمى الجهل، وحيرة الشك.

ومنها: ما فيه من النظم والتأليف والفصاحة البالغة حد الإعجاز، الذي يدل على صدق

---

(١) قائله كثير. وهامة اليوم أو غد أي: يموت اليوم أو غداً.

النبي ﷺ، فهو من هذه الجهة شفاء من الجهل والشك والعمى في الدين، ويكون شفاء للقلوب.

ومنها: أنه يتبرك به وبقراءته، ويستعان به على دفع العلل والأسقام، ويدفع الله به كثيراً من المكاره والمضار، على ما تقتضيه الحكمة.

ومنها: ما فيه من أدلة التوحيد والعدل، وبيان الشرائع والأمثال والحكم، وما في التعبد بتلاوته من الصلاح، الذي يدعو إلى أمثاله بالمشاركة التي بينه وبينه، فهو شفاء للناس في دنياهم وآخرتهم، ورحمة للمؤمنين، أي نعمة لهم، وخصهم بذلك لأنهم المنتفعون به.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ومعناه: أنهم لا يزدادون عنده إلا خساراً، يخسرون الثواب ويستحقون العقاب، لكفرهم به وتركهم للتدبر له والتفكر فيه، وهذا كقوله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ ويحتمل أن يريد أن القرآن يظهر خبث سرائرهم، وما يأتمرون به من الكيد والمكر بالنبي ﷺ فيفتضحون بذلك.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا، أي ولّى كأنه لم يقبل علينا بالدعاء والابتهال ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي بعد بنفسه عن القيام بحقوق إنعامنا فلا يشكره، كما أعرض عن النعمة بالقرآن، وقال مجاهد معناه: تباعد منا، وعلى هذا فيكون معناه: تجبر وتكبر وأعجب بنفسه، لأن المعجب نافر عن الناس متباعد عنهم ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ معناه: وإذا أصابه المحنة والشدة أو الفقر، لم يصبر وكان قنوطاً من رجاء الفرج من الله تعالى، بخلاف المؤمن الذي يرجو الفرج والروح، فيكون المراد بالآية خاصاً وإن كان اللفظ عاماً، وسمى الأمراض والبلايا شراً لكونها شراً عند الكافر، من حيث لا يرجو ثواباً ولا عوضاً، ولأن الطباع تنفر عنها وتكرهها، وإلا فهي في الحقيقة صلاح وحكمة وصواب ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي كل واحد من المؤمن والكافر يعمل على طبيعته وخليقته التي تخلق بها ـ عن ابن عباس. وقيل: على طريقته وسنته التي اعتادها ـ عن الفراء والزجاج. وقيل: على ما هو أشكل بالصواب وأولى بالحق عنده ـ عن الجبائي قال: ولهذا قال ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي إنه يعلم أي الفريقين على الهدى وأيهما على الضلالة. وقيل: معناه، أنه أعلم بمن هو أصوب ديناً، وأحسن طريقاً، وقال بعض أرباب اللسان: هذه الآية أرجى آية في كتاب الله، لأن الأليق بكرمه سبحانه وجوده العفو عن عباده، فهو يعمل به.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

● **اللغة:** الظهير: المعين، وهو المظاهر، وأصله من الظهر، كأن كل واحد يسند ظهره إلى ظهر صاحبه فيتقوى به والتصريف: تصيير الشيء دائراً في الجهات، وكذلك تصريف الكلام، وهو تصييره دائراً في المعاني المختلفة.

● **الإعراب:** ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ الرحمة استثناء من الأول، والمعنى: وسكن الله تعالى رحمك فأثبت ذلك في قلبك. ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ مرفوع لأنه غلب جواب القسم على جواب إن، واللام في «لئن» موطئة للقسم دالة عليه، والتقدير: فوالله لا يأتون بمثله، ومثله قول كثير:

لئن عاد لي عبد العزيز بمثلها وأمكنني منها إذاً لا أقيلها[1]

● **المعنى:** ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿ويسئلونك﴾ يا محمد ﴿عَنِ الرُّوحِ﴾ اختلف في الروح المسؤول عنه على أقوال:

أحدها: أنهم سألوه عن الروح الذي هو في بدن الإنسان، ما هو؟ ولم يجبهم، وسأله عن ذلك قوم من اليهود ـ عن ابن مسعود وعن ابن عباس وجماعة، واختاره الجبائي، وعلى هذا فإنما عدل النبي ﷺ عن جوابهم، لعلمه بأن ذلك أدعى لهم إلى الصلاح في الدين، ولأنهم كانوا بسؤالهم متعنتين لا مستفيدين، فلو صدر الجواب لازدادوا عناداً. وقد قيل: إن اليهود قالت لكفار قريش: سلوا محمداً عن الروح، فإن أجابكم فليس بنبي، وإن لم يجبكم فهو نبي، فإنا نجد في كتبنا ذلك، فأمر الله سبحانه بالعدول عن جوابهم، وأن يكلهم في معرفة الروح إلى ما في عقولهم، ليكون ذلك علماً على صدقه ودلالة لنبوته.

وثانيها: أنهم سألوا عن الروح أهي مخلوقة محدثة أم ليست كذلك؟ فقال سبحانه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي من فعله وخلقه، وكان هذا جواباً لهم عما سألوه عنه بعينه، وعلى هذا فيجوز أن يكون الروح الذي سألوا عنه هو الذي به قوام الجسد على قول ابن عباس وغيره، أم جبرائيل عليه السلام على قول الحسن وقتادة، أم ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله بجميع ذلك، على ما روي عن علي عليه السلام، أم عيسى عليه السلام فإنه قد سمي بالروح.

وثالثها: إن المشركين سألوه عن الروح الذي هو القرآن، كيف يلقاك به الملك؟ وكيف صار معجزاً؟ وكيف صار نظمه وترتيبه مخالفاً لأنواع كلامنا من الخطب والأشعار؟ وقد سمى الله تعالى القرآن روحاً في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ فقال سبحانه: قل يا محمد إن الروح الذي هو القرآن من أمر ربي أنزله دلالة على دلالة نبوتي، وليس من فعل المخلوقين، ولا مما يدخل في إمكانهم، وعلى هذا فقد وقع الجواب أيضاً موقعه، وأما على القول الأول فيكون معنى قوله: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ هو من الأمر الذي يعلمه ربي ولم يطلع عليه أحد.

---

(١) مر البيت في الجزء الخامس، سورة هود، آية ١٠.

واختلف العلماء في ماهية الروح، فقيل: إنه جسم رقيق هوائي متردد في مخارق الحيوان، وهو مذهب أكثر المتكلمين، واختاره الأجل المرتضى علم الهدى قدس الله روحه.

وقيل: جسم هوائي على بنية حيوانية في كل جزء منه حياة ـ عن علي بن عيسى قال: فلكل حيوان روح وبدن، إلا أن منه من الأغلب عليه الروح، ومنه من الأغلب عليه البدن.

وقيل: إن الروح عرض، ثم اختلف فيه، فقيل: هو الحياة التي يتهيأ به المحل لوجود القدرة والعلم والاختيار، وهو مذهب الشيخ المفيد أبي عبد الله محمد ابن محمد بن النعمان رضي الله عنه والبلخي وجماعة من المعتزلة البغداديين.

وقيل: هو معنى في القلب ـ عن الأسواري.

وقيل: إن الروح الإنسان، وهو الحي المكلف ـ عن ابن الأخشيد والنظام. وقال بعض العلماء: إن الله تعالى خلق الروح من ستة أشياء: من جوهر النور، والطيب، والبقاء، والحياة، والعلم، والعلو، ألا ترى أنه ما دام في الجسد كان الجسد نورانياً يبصر بالعينين، ويسمع بالأذنين، ويكون طيباً، فإذا خرج من الجسد نتن الجسد، ويكون باقياً، فإذا فارقه الروح بلى وفنى، ويكون حياً وبخروجه يصير ميتاً، ويكون عالماً فإذا خرج منه الروح لم يعلم شيئاً، ويكون علوياً لطيفاً توجد به الحياة بدلالة قوله تعالى في صفة الشهداء: **﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين﴾** وأجسامهم قد بليت في التراب.

وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قيل: هو خطاب للنبي ﷺ وغيره، إذا لم يبين له الروح، ومعناه: وما أوتيتم من العلم المنصوص عليه إلا قليلاً، أي شيئاً يسيراً، لأن غير المنصوص عليه أكثر، فإن معلومات الله تعالى لا نهاية لها. وقيل: خطاب لليهود الذين سألوه، فقالت له اليهود عند ذلك: كيف وقد أعطانا الله التوراة؟ فقال: التوراة في علم الله قليل، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن، ومعناه: أني أقدر أن آخذ ما أعطيتك كما منعت غيرك، ولكني دبرتك بالرحمة لك فأعطيتك ما تحتاج إليه، ومنعتك ما لا تحتاج إلى النص عليه، وإن توهم قوم أنه مما تحتاج إليه، فتدبر أنت بتدبير ربك، وأرض بما اختاره لك ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي ثم لو فعلنا ذلك لم تجد علينا وكيلاً يستوفي ذلك منا. وقيل: معناه، ولو شئنا لمحونا هذا القرآن من صدرك، وصدر أمتك حتى لا يوجد له أثر، ثم لا تجد له حفيظاً يحفظه عليك، ويحفظ ذكره على قلبك ـ عن الحسن وأبي مسلم والأصم قالوا: وفي هذا دلالة على أن السؤال وقع عن القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ معناه: لكن رحمة من الله ربك لك، أعطاك ما أعطاك من العلوم، ومنعك ما منعك منها، وأثبت القرآن في قلبك وقلوب المؤمنين ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ﴾ فيما مضى وفيما يستقبل ﴿عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ عظيماً إذ اختارك للنبوة، وخصك بالقرآن فقابله بالشكر، وقال ابن عباس: يريد حيث جعلك سيد ولد آدم، وختم بك النبيين، وأعطاك المقام المحمود.

ثم احتج سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ معناه: قل يا محمد لهؤلاء الكفار لئن اجتمعت الإنس

والجن متعاونين متعاضدين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في فصاحته وبلاغته ونظمه على الوجوه التي هو عليها، من كونه في الطبقة العليا من البلاغة، والدرجة القصوى من حسن النظم. وجودة المعاني، وتهذيب العبارة، والخلو من التناقض، واللفظ المسخوط، والمعنى الدخول على حد يشكل على السامعين ما بينهما من التفاوت، لعجزوا عن ذلك ولم يأتوا بمثله ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي معيناً على ذلك، مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه ـ عن ابن عباس. وفي هذا تكذيب للنضر بن الحارث حين قال: لو نشاء لقلنا مثل هذا. قال أبو مسلم: وفي هذا أيضاً دلالة على أن السؤال بالروح وقع عن القرآن، لأنه من تمام ما أمر الله نبيه ﷺ أن يجيبهم به ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ معناه: ولقد بينا لهم في هذا القرآن من كل ما يحتاج إليه من الدلائل والأمثال والعبر والأحكام، وما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم ليتفكروا فيها ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي جحوداً للحق، والمثل قد يكون الشيء بعينه، وقد يكون صفة للشيء، وقد يكون شبهه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة ويعقوب: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا﴾ بفتح التاء وضم الجيم، والباقون: «تُفجّر» بضم التاء وتشديد الجيم. وقرأ أبو جعفر وابن عامر «كِسَفاً» بفتح السين ها هنا، وفي سائر القرآن «كِسْفاً» ساكنة السين، وقرأ حفص بالفتح في جميع القرآن إلا في الطور، وقرأ أهل العراق وابن كثير بالسكون في جميع القرآن إلا في الروم، ولم يقرأ في الروم بسكون السين إلا أبو جعفر وابن عامر وابن كثير وابن عامر: ﴿**قال سبحان ربي**﴾ والباقون ﴿قُلْ﴾ على الأمر.

● **الحجة:** من قرأ ﴿تُفجّر﴾ بالتشديد، فلأنهم أرادوا كثرة الانفجار من الينبوع، وهو وإن كان واحداً فلتكثير الانفجار منه حسن أن يقال بتكرير العين، كما يقال: ضرب زيد، إذا كثر منه فعل الضرب، ومن قرأ «تفجُر» فلأن الينبوع واحد، فلا يكون كقوله: ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ لأن فجّرت الأنهار مثل: «غلقت الأبواب» فلذلك اتفق الجميع على التثقيل فيه. والكسف: القطع، واحدتها كسفة، ومن سكنه جاز أن يريد الجمع مثل سدرة وسدر، قال أبو زيد: كَسَفتُ الثوب أكسفه كسفاً، إذا قطعته. قال أبو علي: إذا كان المصدر الكَسْف فالكِسْف

الشيء المقطوع، كالطَّحْن والطِّحْن والسَّقي والسِّقي ونحو ذلك، فجاز أن يكون قوله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ بمعنى ذات كسف، وذلك أن أسقط لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد فوجب أن ينتصب كسفاً على الحال ذا الحال في المعنى، وإذا كان كذلك وجب أو يكون الكسف هو السماء، فيصير المعنى: أو تسقط السماء علينا مقطعة، أو قطعاً. ومن قرأ: ﴿قال سبحان ربي﴾ فالوجه فيه أن الرسول قال عند اقتراحهم هذه الأشياء ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ ومن قرأ ﴿قُلْ﴾ فهو على الأمر له بأن يقول ذلك.

● **اللغة:** التفجير: التشقيق عما يجري من ماء أو ضياء، ومنه سمي الفجر، لأنه ينشق عن عمود، ومنه الفجور، لأنه خروج إلى الفساد، يشقق به عمود الحق. والينبوع: يفعول من نبع الماء ينبع فهو نابع إذا فار. والقبيل: الكفيل، من قبِلت به أقبل قِبالة، أي كفلت، وتقبل فلان بالشيء، إذا تكفل به. قال الزجاج: وجائز أن يكون المعنى: تأتي بهم حتى تراهم مقابلة، أي معاينة، وأنشد غيره:

نصالحكم حتى تبوء بمثلها   كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها(١)

أي قابلتها التي هي مقابلتها، والعرب تجريه في هذا المعنى مجرى المصدر، فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث، وأصل الزخرف من الزخرفة، وهي الزينة، وزخرفت الشيء إذ أكملت زينته، ولا شيء في تحسين بيت وتزيينه وزخرفته كالذهب، ويقال في الصعود: رَقِيت أرقَى رَقياً، وفيما تداويه بالرُّقية: رَقَيت أرقي رُقية ورُقيا.

● **النزول:** قال ابن عباس: إن جماعة من قريش وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، اجتمعوا عند الكعبة، وقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك، فبادر ﷺ إليهم ظناً منه أنهم بدا لهم في أمره، وكان حريصاً على رشدهم، فجلس إليهم، فقالوا يا محمد: إنا دعوناك لنعذر إليك، فلا نعلم أحداً أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، شتمت الآلهة، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالًا أعطيناك، وإن كنت تطلب الشرف سودناك علينا، وإن كانت علة غلبت عليك طلبنا لك الأطباء، فقال ﷺ: ليس شيء من ذلك، بل بعثني الله إليكم رسولًا، وأنزل كتاباً فإن قبلتم ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه اصبر حتى يحكم الله بيننا، قالوا: فإذن ليس أحد أضيق بلداً منا، فاسأل ربك أن يسير هذه الجبال، ويجري لنا أنهاراً كأنهار العراق والشام، وأن يبعث لنا من مضى، وليكن فيهم قصي فإنه شيخ صدوق، لنسألهم عما تقول، أحق أم باطل؟ فقال ﷺ: ما

---

(١) ويروى «بشرتها - يسرتها قبيلها - قبولها» والقبيل والقبول: كلاهما بمعنى القابلة، سميت بذلك لقبولها الولد. وقوله: «أسلمته قبيلها» أي: يئست منها قاله في (اللسان).

بهذا بعثت. قالوا: فإن لم تفعل ذلك فاسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك، ويجعل لنا جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب، فقال ﷺ: ما بهذا بعثت، وقد جئتكم بما بعثني الله به فإن قبلتم وإلا فهو يحكم بيني وبينكم، قالوا: فأسقط علينا السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، قال: ذاك إلى الله إن شاء فعل، وقال قائل منهم: لا نؤمن حتى تأتي بالله والملائكة قبيلًا، فقام النبي ﷺ، وقام معه عبد اللّه بن أبي أمية المخزومي، ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثم سألوك لأنفسهم أموراً فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به فلم تفعل، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ سلماً إلى السماء، ثم ترقي فيه وأنا أنظر. ويأتي معك نفر من الملائكة يشهدون لك، وكتاب يشهد لك، وقال أبو جهل: إنه أبى إلا سب الآلهة وشتم الآباء، وأنا أعاهد الله لأحملنّ حجراً فإذا سجد ضربت به رأسه، فانصرف رسول الله ﷺ حزيناً لما رأى من قومه، فأنزل الله سبحانه الآيات.

● **المعنى:** لما بين سبحانه فيما تقدم أعجاز القرآن، عقب ذلك البيان بأنهم أبوا إلا الكفر والطغيان، واقترحوا من الآيات ما ليس لهم ذلك، فقال: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لن نصدقك فيما تدّعي من النبوة ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي تشقق لنا من أرض مكة فإنها قليلة الماء ﴿يَنبُوعًا﴾ أي عيناً ينبع منه الماء في وسط مكة ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ وهي ما تجنه الأشجار، أي تستره ﴿**من نخيل وعنب فتجر الأنهار**﴾ من الماء ﴿خِلَالَهَا﴾ أي وسطها ﴿تَفْجِيرًا﴾ أي تشقيقاً حتى يجري الماء تحت الأشجار ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أي قطعاً قد تركب بعضها على بعض ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقوله: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ معناه: كما خوفتنا به من انشقاق السماء وانفطارها. وقيل: معناه، كما زعمت أنك نبي تأتي بالمعجزات ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي كفيلًا، ومعناه: تأتي بكل واحد حتى يكون كفيلًا ضامناً لنا بما تقول ـ عن ابن عباس والضحاك. وقيل: هو جمع القبيلة، أي تأتي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة ـ عن مجاهد. وقيل: معناه، مقابلين لنا كالشيء يقابل الشيء، حتى نشاهدهم قبيلًا، أي مقابلة نعاينهم ويشهدون بأنك حق، ودعوتك صدق ـ عن الجبائي وقتادة. وهذا يدل على أن القوم كانوا مشبهة مع شركهم ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي من ذهب ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقيل: الزخرف النقوش ـ عن الحسن ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي تصعد ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ أي ولو فعلت ذلك لم نصدقك، حتى تنزل على كل واحد منا كتاباً من الله شاهداً بصحة نبوتك نقرؤه، وهو مثل قوله: ﴿**بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة**﴾. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أي تنزيهاً له من كل قبيح، وبراءة له من كل سوء، وفي ذلك من الجواب أنكم تتخيرون الآيات، وهي إلى الله سبحانه، فهو العالم بالتدبير الفاعل لما توجبه المصلحة، فلا وجه لطلبكم إياها مني. وقيل: معناه، تعظيماً له عن أن يحكم عليه عبيده، لأن له الطاعة عليهم. وقيل: إنهم لما قالوا: تأتي بالله وترقى في السماء إلى الله، لاعتقادهم أن الله تعالى جسم، قال: قل: سبحان ربي عن كونه بصفة الأجسام، حتى تجوز عليه المقابلة والنزول. وقيل: معناه، تنزيهاً له عن أن يفعل المعجزات تابعاً للاقتراحات ﴿هَلْ

كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ معناه: أن هذه الأشياء ليس في طاقة البشر أن يأتي بها وأن يفعلها، فلا أقدر بنفسي أن آتي بها، كما لم يقدر من كان قبلي من الرسل، والله تعالى إنما يظهر الآيات المعجزة على حسب المصلحة، وقد فعل، فلا تطالبوني بما لا يطالب به البشر.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي وما صرف المشركين عن الإيمان، أي التصديق بالله وبرسوله ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي حين أتاهم الحجج والبينات ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ أي إلا قولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ دخلت عليهم الشبهة في أنه لا يجوز أن يبعث الله رسولًا إلا من الملائكة، كما دخلت عليهم الشبهة في أن عبادتهم لا تصلح لله فوجهوها إلى الأصنام، فعظموا الله بجهلهم بما ليس فيه تعظيم، وإنما ذكر سبحانه هنا لفظ المنع مبالغة في وصف الصرف، وإلا فالمنع يستحيل معه الفعل، فلا يجوز أن يكون مراداً هنا، ولكن شبه الصرف بالمنع ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي ساكنين قاطنين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ منهم - عن الحسن. وقيل: معناه، مطمئنين إلى الدنيا ولذاتها غير خائفين، ولا متعبدين بشرع، لأن المطمئن من زال الخوف عنه - عن الجبائي. وقيل: معناه، لو كان أهل الأرض ملائكة لبعثنا إليهم ملكاً، ليكونوا إلى الفهم إليه أسرع - عن أبي مسلم. وقيل: إن العرب قالوا: كنا ساكنين مطمئنين فجاء محمد فأزعجنا، وشوش علينا أمرنا، فبين سبحانه أنهم لو كانوا ملائكة مطمئنين لأوجبت الحكمة إرسال الرسل إليهم، فكذلك كون الناس مطمئنين، لا يمنع من إرسال الرسول إليهم، إذ هم أحوج إليه من الملائكة، فكيف أنكروا إرسال الرسول إلهيم مع كونهم مطمئنين.

سؤال: قالوا: إذا جاز أن يكون الرسول إلى النبي ملكاً ليس من جنسه، فألا جاز أو يكون الرسول إلى الناس أيضاً ملكاً ليس من جنسهم؟.

وجوابه: أن صاحب المعجزة قد اختير للنبوة، فصارت حاله مقاربة لحال الملك، وليس كذلك غيره من الأمة، لأنه يجوز أن يرى الملائكة، كما يرى بعضهم بعضاً بخلاف الأمة، وأيضاً فإن النبي يحتاج إلى معجزة تعرف بها رسالة نفسه، كما احتاجت إليه الأمة فجعل الله المعجزة رؤيته الملك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

● **اللغة:** الخبو: سكون النار عن الالتهاب، يقال: خبت النار تخبو. قال عدي بن زيد:

وسطه كاليراع أو سُرج المجدل   حيناً يخبو وحيناً ينير(١)

وقال آخر:

وكنا كالحريق أصاب غاباً   فيخبو ساعة وينير ساعا

والقَتْر: التضييق، والقتور: فعول منه للمبالغة، ويقال: قَتر يقتِر ويقتُر وأقتر وقتّر، إذا قدر في النفقة.

● **الإعراب:** ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ المفعول محذوف، وهو الكاف والباء زيادة، و ﴿شَهِيدًۢا﴾ تمييز، والتقدير: كفاك الله من جملة الشهداء ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ و ﴿مَن يُضْلِلِ﴾ كلاهما شرط، ووحد الضمير المتصل بيهدي ويضلل على اللفظ، ثم قال: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ الخ، فجمع الضمير في كل ذلك على المعنى، وقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ الجملة في موضع الحال من ﴿جَهَنَّمُ﴾ لأن جهنم توضع موضع متلظ ومتسعر، ولولا ذلك لم يجز مجيء الحال عنها، ويجوز أن تكون الجملة لا محل لها من الإعراب، ويكون في تقدير العاطفة، والتقدير: وكلما خبت، فحذف الواو. ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ في موضع نصب على الحال، وتقديره: مجرورين على وجوههم، وقوله: ﴿ولو أنتم تملكون﴾ أنتم مرفوع بفعل مضمر يفسره هذا الظاهر الذي هو قوله: ﴿تَمْلِكُونَ﴾ لأن ﴿لَّوْ﴾ يقع بها الشيء لوقوع غيره، فلا يليها إلا الفعل، وإذا وليها اسم عمل فيه فعل مضمر، قال:

لو غيركم علق الزبير بحبله   أدى الجوار إلى بني العوام(٢)

● **المعنى:** ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: «قل» يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أني رسول الله إليكم، وقد مر معناه في سورة الرعد(٣) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ لايخفى عليه من أحوالهم شيء، والمراد به تأكيد الوعيد ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي من يحكم الله بهداه فهو المهتد، بإخلاصه وطاعته على الحقيقة ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي ومن يحكم بضلاله ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي لن تجد لهم أنصاراً يقدرون على إزالة اسم الضلال عنهم، وقد ذكرنا وجوه الهدى والضلال في سورة البقرة ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ أي نجمعهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي يسحبون على وجوههم إلى النار، كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانته وتعذيبه، وروى أنس بن مالك أن رجلًا قال: يا نبي الله: كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة. أورده البخاري ومسلم في الصحيح ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قيل المعنى: عمياً عما يسرهم،

---

(١) هذا البيت من قصيدة يغظ فيها النعمان بن المنذر، ومطلعها:

«أرواح مودع أم بكور   أنت فانظر لأي ذاك تصير»

(٢) مر البيت في الجزء الثاني من هذا التفسير.

(٣) في صفحة ٥٣ من هذا الجزء.

بُكماً عن التكلم بما ينفعهم، صما عماً يمتعهم - عن ابن عباس، أي كأنهم عدموا هذه الجوارح. وقيل: يحشرون على هذه الصفة عمياً كما عموا عن الحق في دار الدنيا، بكماً جزاء على سكوتهم عن كلمة الإخلاص، وصماً لتركهم سماع الحق وإصغائهم إلى الباطل. قال مقاتل: هذا حين يقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وقيل: يحشرون كذلك ثم يجعلون يبصرون ويسمعون وينطقون - عن الحسن ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي مستقرهم جهنم، كلما سكن التهابها زدناهم اشتعالاً، فيكون كذلك دائماً. ومتى قيل: كيف يبقى الحي حياً في تلك الحالة من الاحتراق دائماً؟ قلنا: إن الله تعالى قادر على أن يمنع وصول النار إلى مقاتلهم «ذلك» أي ذلك الذي تقدم ذكره من العقاب ﴿جَزَآؤُهُم﴾ استحقوه ﴿بأنهم كذبوا﴾ «كذا في النسخ، والصواب كفروا»[1] ﴿بآياتنا﴾ أي: بتكذيبهم بآيات الله ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾ مثل التراب مترضضين ﴿**أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً**﴾ مر معناه في هذه السورة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي أولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ لأن القادر على الشيء قادر على أمثاله إذا كان له مثل، أو أمثال في الجنس، وإذا كان قادراً على خلق أمثالهم كان قادراً على إعادتهم، إذ الإعادة أهون من الإنشاء في الشاهد. وقيل: أراد قادر على أن يخلقهم ثانياً، وأراد بمثلهم إياهم، وذلك أن مثل الشيء ومثاله في حالته، فجاز أن يعبر به عن الشيء نفسه، يقال: مثلك لا يفعل كذا، بمعنى أنت لا تفعله، ونحوه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وتم الكلام هٰهنا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي وجعل لإعادتهم وقتاً لا شك فيه أنه كائن لا محالة. وقيل: معناه، وضرب لهم مدة ليتفكروا ويعلموا فيها أن من قدر على الابتداء، قدر على الإعادة. وقيل: وجعل لهم أجلاً يعيشون إليه ويخترمون عنده لا شك فيه ﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لنفوسهم، الباخسون حقها بفعل المعاصي إلا كفوراً، أي جحوداً بآيات الله ونعمه، وفي الآية دلالة على أن القادر على الشيء يجب أن يكون قادراً على جنس مثله، إذا كان له مثل، وعلى أنه يجب أن يكون قادراً على ضده، لأن منزلته في المقدور منزلة مثله: وفيه دلالة أيضاً على أنه يقدر على إعادته إذا كان مما يفنى وتصح عليه الإعادة.

ثم قال سبحانه: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ أي لو ملكتم خزائن أرزاق الله. وقيل: لو ملكتم مقدورات ربي، أي ما يقدر عليه ربي من النعم، إذ لا يكون له سبحانه موضع يخزن فيه الرحمة ثم يخرج منه، كما يكون للعباد ورحمته نعمته ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ شحاً وبخلاً ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ أي خشية الفقر والفاقة - عن ابن عباس وقتادة. وقيل: خشية أن تنفقوا فتفتقروا - عن السدي. والمعنى: لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفقر للإنفاق ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ أي بخيلاً - عن ابن عباس وقتادة. وهذا جواب لقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ ويقال: نفِقت نفقات القوم إذا نفِدت، وأنفقها صاحبها، أي أنفدها حتى افتقر، وظاهر قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ العموم، وقد علمنا أن في الناس الجواد،

---

(١) قد خلت المخطوطة مما أوردناه بين المعقفتين، وكأنه مكتوباً في هامش بعض النسخ، فأدخله الناسخ في المتن سهواً.

والوجه فيه أحد أمرين: وهو أن يكون الأغلب عليهم من ليس بجواد، فجاز الإطلاق تغليباً للأكثر، وأيضاً فإن ما يعطيه الإنسان وإن عد جواداً بخل في جنب ما يعطيه الله سبحانه، لأن الإنسان إنما يعطي ما يفضل عن حاجته، ويمسك ما يحتاج إليه، والله سبحانه لا تجوز عليه الحاجة، فيفيض من النعم على المطيع والعاصي إفاضة من لا يخاف الحاجة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ الكسائي وحده ﴿لقدْ علمتُ﴾ بضم التاء. والباقون بفتحتها.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من فتح: أن فرعون ومن كان يتبعه، قد علموا صحة أمر موسى، بدلالة قوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ وقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ ومن قال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُ﴾ إذا قيل له: كيف يصح الاحتجاج عليهم بعلمه، وعلمه لا يكون حجة على فرعون، وإنما يكون علم فرعون بما علم من صحة أمر موسى حجة عليه، فالقول أنه لما قيل له: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ كان ذلك قدحاً في علمه، لأن المجنون لا يعلم، فكأنه نفي ذلك، فقال: لقد علمت صحة ما أتيتُ به، وأنه ليس بسحر علماً صحيحاً كعلم العقلاء، فصيَّر العقل حجة عليه من هذا الوجه، وزعموا أن هذه القراءة رويت عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

● **اللغة:** الثبور: الهلاك، ثبره الله يثبُره ويثبِره لغتان، ورجل مثبور محبوس عن الخيرات، قال:

إذ أجارى الشيطان في سنن الغي ومن قال مثله مثبور

وتقول العرب: ما ثبرك عن هذا الأمر؟ أي ما صرفك عنه؟ وما منعك منه؟ و «اللفيف» مصدر قولك: لففت الشيء، أي جمعته. يقال: لففته لفاً ولفيفاً، ومن ذلك قولهم: لففت الجيوش ضربت بعضها ببعض فاختلط الجميع، قال الزجاج: اللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه قصة موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي ولقد أعطينا موسى تسع دلالات، وحجج واضحات. واختلف في هذه الآيات

التسع. فقيل: هي يد موسى، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم ـ عن ابن عباس والضحاك. وقيل: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والبحر، والعصا، والطمسة، والحجر ـ عن محمد بن كعب وعن أبي علي الجبائي أيضاً. إلا أنه ذكر بدل الطمسة اليد، وعن قتادة ومجاهد وعكرمة وعطاء كذلك، إلا أنهم ذكروا بدل البحر والطمسة والحجر، اليد والسنين ونقص من الثمرات، والطمسة هي دعاء موسى وتأمين هارون، وقال الحسن مثل ذلك، إلا أنه جعل الآخذ بالسنين ونقص الثمرات آية واحدة، وجعل التاسعة تلقف العصا ما يأفكون. وقيل: أنها تسع آيات في الأحكام. روى عبد الله بن سلمة عن صفوان بن عسال أن يهودياً قال لصاحبه: تعال حتى نسأل هذا النبي، قال: فأتى الرسول ﷺ فسأله عن هذه الآية، فقال: هو ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا البريء إلى سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تولوا الفرار يوم الزحف، وعليكم خاصة يا يهود أن لا تعتدوا في السبت، فقبل يده وقال: أشهد أنك نبي.

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ هذا أمر للنبي ﷺ أن يسأل بني إسرائيل، لتكون الحجة عليهم أبلغ. وقيل: إن المعنى فاسأل أيها السامع لأن العلم قد وقع بخبر الله تعالى، فلا حاجة إلى الرجوع إلى أهل الكتاب. وقيل: إن معنى السؤال أن تنظر ما في القرآن من أخبار بني إسرائيل ـ عن الحسن. وروي عن ابن عباس أنه قرأ ﴿**فسأل بني إسرائيل**﴾ بمعنى فسأل موسى فرعون بني إسرائيل أن يرسلهم ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي معطي علم السحر، فهذه العجائب التي فعلتها من سحرك. وقيل: معناه، إني لأظنك ساحراً فوضع المفعول موضع الفاعل، كما يقال: مشؤوم وميمون، في معنى شائم ويامن. وقيل: معناه، إنك سحرت فأنت تحمل نفسك على ما تقوله للسحر الذي بك. وقيل: مسحوراً، أي مخدوعاً ـ عن ابن عباس ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ أنت يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ﴾ هذه الآيات ﴿**إلا رب السموات والأرض**﴾ الذي خلقهن ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي أنزلها حججاً وبراهين للناس يبصرون بها أمور دينهم. وقيل: أدلة على نبوتي لأنك تعلم أنها ليست من السحر. وروي أن علياً عليه السلام قال: في علمت، والله ما علم عدو الله، ولكن موسى هو الذي علم، فقال: لقد علمت ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ معناه: وإني لأعلمك يا فرعون هالكاً لكفرك وإنكارك ـ عن قتادة والحسن. وقيل: أعلمك ملعوناً ـ عن ابن عباس. وقيل: مخبولاً لا عقل لك ـ عن ابن زيد. وقيل: بعيداً عن الخير مصروفاً عنه ـ عن الفراء. وقيل: المراد به الظن على الظاهر، لأن الهلاك يكون بشرط الإصرار، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: فأراد فرعون أن يزعج موسى ومن معه من أرض مصر وفلسطين والأردن بالنفي عنها. وقيل: بأن يقتلهم ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من جنوده، ﴿جَمِيعًا﴾ لم ينج منهم أحد ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد هلاك فرعون وقومه ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض مصر والشام ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يعني يوم القيامة ـ عن أكثر المفسرين، أي وعد الكرة الآخرة. وقيل: أراد نزول عيسى ـ عن الكلبي وقتادة ﴿جِئْنَا بِكُمْ

﴿لَفِيفًا﴾ معناه: جئنا بكم من القبور إلى الموقف للحساب والجزاء مختلطين التف بعضكم ببعض لا تتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته. وقيل: لفيفاً أي جميعاً أولكم وآخركم ـ عن ابن عباس ومجاهد ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ معناه: وبالحق أنزلنا القرآن عليك ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ القرآن وتأويله، أردنا بإنزال القرآن الحق والصواب، وهو أن يؤمن به ويعمل بما فيه، ونزل بالحق لأنه يتضمن الحق ويدعو إلى الحق. وقال البلخي: يجوز أن يكون المراد أنزلنا موسى، فيكون كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ ويجوز أن يكون المراد: وأنزلنا الآيات، أي وأنزلنا ذلك، كما قال أبو عبيدة أنشدني رؤبة:

فيه خطوطٌ من سواد وبلق   كأنه في العين توليع البهق[1]

فقلت له: إن أردت الخطوط، فقل: كأنها، وإن أردت السواد والبياض، فقل: كأنهما[2]، قال: فقال لي: كان ذلك وتلك ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ مبشراً بالجنة لمن أطاع، ومنذراً بالنار لمن عصى.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

● **القراءة:** القراءة المشهورة في ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ بالتخفيف، وروي عن علي عليه السلام وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب والشعبي والحسن بخلاف، وقتادة وعمرو بن فائد ﴿فرقناه﴾ بالتشديد.

● **الحجة:** معنى: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ فصلناه ونزلناه آية آية وسورة سورة، ويدل عليه قوله: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ والمُكث والمَكث لغتان.

● **الإعراب:** «قرآناً» منصوب بفعل مضمر يفسره هذا الظاهر، أي وفرقنا قرآناً فرقناه، وجاء بالنصب، ولم يأت فيه الرفع، لأن صدره فعل وفاعل، وهو قوله: **﴿وبالحق أنزلنا﴾**. ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ في موضع نصب على الحال، أي متمهلاً متوقفاً غير مستعجل ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ في موضع رفع بكونه خبر «إن» و ﴿سُجَّدًا﴾ نصب على الحال **﴿أيا ما تدعو﴾** «تدعو» مجزوم بالشرط الذي يتضمنه، أي علامة الجزم فيه سقوط النون، و «ما» مزيدة مؤكدة للشرط، و «أياً» منصوب بـ «تدعو».

(١) وفي (اللسان): في مادة ولع «فيها خطوط اهـ». والتوليع: التلميع من البرص. والبهق: بياض دون البرص.
(٢) قال ابن المنظور بعد ذكر القصة قال ابن بري: ورواية الأصمعي كأنها أي: كأن الخطوط «انتهى».

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم، فقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ أي وأنزلنا عليك يا محمد قرآناً فصلناه سوراً وآيات ـ عن أبي مسلم. وقيل: معناه، فرقنا به الحق عن الباطل ـ عن الحسن. وقيل: معناه، جعلنا بعضه خبراً، وبعضه أمراً، وبعضه نهياً، وبعضه وعداً، وبعضه وعيداً، وأنزلناه متفرقاً لم ننزله جميعاً، إذ كان بين أوله وآخره نيف وعشرين سنة ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي على تثبت وتؤدة، فترتله ليكون أمكن في قلوبهم، ويكونوا أقدر على التأمل والتفكر إليه، ولا تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك ـ عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: معناه، لتقرأه عليهم مفرقاً شيئاً بعد شيء ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ على حسب الحاجة، ووقوع الحوادث. وروي عن ابن عباس أنه قال: لئن أقرأ سورة البقرة وأرتلها أحب إليّ من أن أقرأ القرآن هذاً(١). وعن عبد الله بن مسعود أنه قال: لا تقرأوا القرآن في أقل من ثلاث، واقرأوا في سبع.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فإن إيمانكم ينفعكم ولا ينفع غيركم، وترككم الإيمان يضركم ولا يضر غيركم، وهذا تهديد لهم، وهو جواب لقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا﴾. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي أعطوا علم التوراة من قبل نزول القرآن، كعبد الله بن سلام وغيره، فعلموا صفة النبي ﷺ قبل مبعثه ـ عن ابن عباس. وقيل: إنهم أهل العلم من أهل الكتاب وغيرهم. وقيل: إنهم أمة محمد ﷺ ـ عن الحسن ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي يسقطون على الوجوه ساجدين ـ عن ابن عباس وقتادة. وإنما خصّ الذقن، لأن من سجد كان أقرب شيء منه إلى الأرض ذقنه، والذقن مجمع اللحيين ويقولون ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي تنزيهاً لربنا، عزَّ اسمه عما يضيف إليه المشركون ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ إنه كان وعد ربنا مفعولاً حقاً يقيناً، ولم يكن وعد ربنا إلا كائناً ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي ويسجدون باكين إشفاقاً من التقصير في العبادة، وشوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ ما في القرآن من المواعظ ﴿خُشُوعًا﴾ أي تواضعاً لله تعالى واستسلاماً لأمر الله وطاعته. ثم قال سبحانه: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين نبوتك ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ وذكر في سببه أقوال:

أحدها: أن النبي ﷺ كان ساجداً ذات ليلة بمكة يدعو: يا رحمٰن يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أن له إلٰهاً واحداً وقد يدعو مثنى مثنى ـ عن ابن عباس.

وثانيها: أن المشركين قالوا: أما الرحيم فنعرفه، وأما الرحمٰن فلا نعرفه ـ عن ميمون بن مهران.

وثالثها: أن اليهود قالوا: إن ذكر الرحمٰن في القرآن قليل، وهو في التوراة كثير ـ عن الضحاك.

﴿أياً ما تدعو فله الأسماء الحسنى﴾ معناه: أي أسمائه تدعو، و «ما» ها هنا صلة، كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ وقيل: هي بمعنى أي شيء كررت مع أي لاختلاف اللفظين

---

(١) الهذّ: سرعة القراءة.

توكيداً، كما قالوا: ما رأيت كالليلة ليلة، وتقديره: أي شيء من أسمائه تدعونه به كان جائزاً، فإن معنى «أو» في قوله: ﴿أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الإباحة، أي إن دعوتم بأحدهما كان جائزاً، وإن دعوتم بهما كان جائزاً، فله الأسماء الحسنى، فإن أسماءه تنبىء عن صفات حسنة وأفعال حسنة، فأما أسماؤه المنبئة عن صفات ذاته فهو: القادر العالم الحي السميع البصير القديم، وأما أسماؤه المنبئة عن صفات أفعاله الحسنة فنحو: الخالق والرازق والعدل والمحسن والمجمل والمنعم والرحمٰن والرحيم، وأما ما أنبأ عن المعاني الحسنة فنحو: الصمد، فإنه يرجع إلى أفعال عباده، وهو أنهم يصمدونه في الحوائج، ونحو المعبود والمشكور، وبين سبحانه في هذه الآية أنه شيء واحد وإن اختلفت أسماؤه وصفاته، وفي الآية دلالة على أن الاسم عين المسمى، وعلى أن تقديم أسمائه الحسنى قبل الدعاء والمسألة مندوب إليه مستحب، وفيها أيضاً دلالة على أنه سبحانه لا يفعل القبائح مثل الظلم وغيره، لأن أسماءه حينئذٍ لا تكون حسنة، فإن الأسماء قد تكون مشتقة من الأفعال، فلو فعل الظلم لاشتق منه اسم الظالم، كما اشتق من العدل العادل.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ اختلف في معناه على أقوال:

أحدها: أن معناه: لا تجهر بإشاعة صلاتك عند من يؤذيك، ولا تخافت بها عند من يلتمسها منك ـ عن الحسن. وروي أن النبي ﷺ كان إذا صلّى فجهر في صلاته، تسمع له المشركون فشتموه وآذوه، فأمره سبحانه بترك الجهر وكان ذلك بمكة في أول الأمر، وبه قال سعيد بن جبير، وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

وثانيها: أن معناه: لا تجهر بدعائك ولا تخافت بها ولكن بين ذلك، فالمراد بالصلاة الدعاء ـ عن مجاهد وعطاء ومكحول، ونحوه روي عن ابن عباس.

وثالثها: أن معناه: لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ بأن تجهر بصلاة الليل، وتخافت بصلاة النهار ـ عن أبي مسلم.

ورابعها: لا تجهر جهراً يشغل به من يصلي بقربك، ولا تخافت بها حتى لا تسمع نفسك ـ عن الجبائي. وقريب منه ما رواه أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: الجهر بها رفع الصوت شديداً، والمخافتة ما لم تسمع أذنيك، واقرأ قراءة وسطاً ما بين ذلك، وابتغ بين ذلك سبيلاً، أي بين الجهر والمخافتة، ولم يقل بين ذينك لأنه أراد به الفعل، فهو مثل قوله: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيكون مربوباً لا رباً، لأن رب الأرباب لا يجوز أن يكون له ولد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ فيكون عاجزاً محتاجاً إلى غيره ليعينه، ولا يجوز أن يكون الإله بهذه الصفة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي لم يكن له حليف حالفه ينصره على من يناوئه، لأن ذلك من صفة الضعيف العاجز، ولا يجوز أن يكون الإله بهذه الصفة. قال مجاهد: لم يذل فيحتاج إلى من يتعزز به، يعني أنه القادر بنفسه، وكل ما عبد من دونه فهو ذليل مقهور. وقيل: معناه، ليس له ولي من أهل الذل، لأن الكافر والفاسق لا يكونان ولياً لله.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظّمه تعظيماً لا يساويه تعظيماً ولا يقاربه. وروي أن النبي ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية وما قبلها ـ عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير. وقيل: إن في هذه الآية رداً على اليهود والنصارى، حين قالوا: ﴿اتخذ الله الولد﴾ وعلى مشركي العرب حيث قالوا: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا: لولا أولياء الله لذل الله ـ عن محمد بن كعب القرظي.

سؤال: قالوا: كيف يحمد سبحانه أن لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك، والحمد إنما يستحق على فعل له صفة التفضل.

والجواب: أنه ليس له الحمد في الآية على أنه لم يفعل، وإنما الحمد له سبحانه على أفعاله المحمودة، وتوجه الحمد إلى من هذه صفته، كما يقال: أنا أشكر فلاناً الجميل، ولا نشكره على جماله بل على أفعاله.

سُورَةُ الكَهْفِ

مكية. قال ابن عباس: إلا آية: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ فإنها نزلت بالمدينة في قصة عيينة بن حصن الفزاري.

● **عدد آيها:** مائة وإحدى عشرة آية بصري، وعشر كوفي، وست شامي، وخمس حجازي.

● **اختلافها:** إحدى عشرة آية ﴿فزدناهم هدى﴾ غير الشامي ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مدني الأخير ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ غير الأخير ﴿ذرعاً ومن كل شيء سبباً﴾ عراقي شامي والأخير ﴿هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ غير شامي والأخير ﴿عِندَهَا قَوْمًا﴾ غير الكوفي والأخير ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ الثلاث عراقي ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ عراقي شامي.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: من قرأها فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة، فإن خرج الدجال في تلك الثمانية الأيام عصمه الله من فتنة الدجال، ومن قرأ الآية التي في آخرها ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الآية، حين يأخذ مضجعه، كان له في مضجعه نور يتلألأ إلى الكعبة، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه، حتى يقوم من مضجعه، فإن كان في مكة فتلاها كان له نوراً يتلألأ إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ.

سمرة بن جندب عن النبي ﷺ قال: من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظاً لم تضره فتنة الدجال، ومن قرأ السورة كلها دخل الجنة. وعن النبي ﷺ قال: ألا أدلكم على سورة شيّعها سبعون ألف ملك، حين نزلت ملأت عظمتها ما بين السماء والأرض، قالوا: بلى، قال: سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر الله له إلى الجمعة الأخرى وزياد ثلاثة أيام، وأعطى نوراً يبلغ السماء، ووقى فتنة الدجال. وروى الواقدي بإسناده عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ثم أدرك الدجال لم يضره، ومن حفظ خواتيم سورة الكهف كانت له نوراً يوم القيامة. وروي أيضاً بالإسناد عن سعيد بن محمد الجرمي عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: من قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ستة أيام من كل فتنة تكون، فإن خرج الدجال عصم منه. وروى العياشي بإسناده عن الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الكهف في كل ليلة جمعة لم يمت إلا شهيداً، وبعثه الله مع الشهداء، ووقف يوم القيامة مع الشهداء.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة بني إسرائيل بالتحميد والتوحيد، وذكر النبي ﷺ والقرآن، وافتتح سورة الكهف أيضاً بالتحميد والتوحيد، وذكر القرآن والنبي ﷺ، ليتصل أول هذه بآخر تلك اتصال الجنس بالجنس، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾

● **القراءة:** قرأ أبو بكر برواية يحيى ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ بإشمام الدال الضم وكسر الهاء والنون، وقرأ الباقون بضم الدال وسكون النون. وفي الشواذ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ برفع ﴿كلمةٌ﴾ قرأه يحيى بن يعمر والحسن وابن المحيصن وابن أبي إسحاق والثقفي والأعرج بخلاف وعمرو بن عبيد.

● **الحجة:** قال أبو علي: في «لَدُنْ» ثلاث لغات: «لَدُن» مثل سَبُع ويخفف الدال ويكون على ضربين:

أحدهما: أن يحذف الضمة من الدال فيقال: «لدْن».

والآخر: أن يحذف الضمة من الدال وينتقل إلى اللام فيقال: «لُدن» مثل عضد في عضد، وفي كلا الوجهين يجتمع في الكلمة ساكنان، فمن قرأ من لدنه بكسر النون، فإن الكسر فيه ليست كسرة إعراب، وإنما هي كسرة لالتقاء الساكنين، وذاك أن الدال أسكنت كما أسكنت الباء في سبع، والنون ساكنة، فالتقى الساكنان فكسر الثاني منهما، فأما إشمام الدال الضمة فليعلم أن الأصل كان في الكلمة الضمة، ومثل ذلك قولهم: أنت تغرين، وقولهم: قيل اشمت الكسرة فيهما الضمة، ليدل على أن الأصل فيهما التحريك بالضم، وإن كان الإشمام في لدنه ليس في حركة خرجت إلى اللفظة، وإنما هو بهيئة العضو لإخراج الضمة. وأما الجار في قوله: ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ فيحتمل ضربين:

أحدهما: أن يكون صفة متعلقاً بشديد.

والآخر: أن يكون صفة للنكرة، وفيها ذكر للموصوف.

● **اللغة:** العوج: بالفتح فيما يرى كالقناة والخشبة، وبالكسر فيما لا يرى شخصاً قائماً، كالدين والكلام، والقيم والمستقيم. والباخع: القاتل المهلك، يقال: بخَع نفسَه يبخَعُها بخعاً وبُخوعاً، قال ذو الرمة:

ألا أيهذا الباخِع الوجدُ نفسَه(١) ... لشيء نحته عن يديه المقادِرُ

---

(١) الوجد: الحزن.

يريد: تحته فخفف. والأسف: المبالغة في الحزن والغضب، يقال: أسف الرجل فهو آسف وأسيف، قال الأعشى:

ترى رجلًا منهم أسيفاً كأنه يضمُّ إلى كشحَيْه كفًّا مخضَّباً

﴿قِيَمًا﴾ نصب على الحال من الكتاب، والعامل فيه ﴿أَنزَلَ﴾ وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا﴾ تقديره: بأن لهم أجراً، فحذف الجار، و ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ نصب على الحال في معنى: خالدين. وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ اختلف في نصب ﴿كَلِمَةً﴾ فقال السراج: انتصب على تفسير المجمل على حد قولهم: نعم رجل زيد، والتقدير على هذا: كبرت الكلمة كلمة، ثم حذف الأول لدلالة الثاني عليه، ومثله: كرم رجلًا زيد، وقدم صاحبا عمرو، ويكون المخصوص بالتكبير: هذه المسألة، محذوفاً لدلالة صفته عليه، والتقدير: كلمة تخرج من أفواههم، أي كلمة خارجة من أفواههم، فيكون مرفوعاً على وجهين:

أحدهما: أن يكون مبتدأ وما قبله الخبر.

والآخر: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: هي كلمة تخرج. وقيل: انتصب كلمة على التمييز المنقول عن الفاعل على حد قولك: تصببت عرقاً، وتفقأت شحماً والأصل كبرت كلمتهم الخارجة من أفواههم، قال الشاعر:

ولقد علمت إذا الرِّياحُ تناوحتْ[1] هَدَجَ الرِّئالَ تكُبُّهُنَّ شِمالَا

أي تكبهن الرياح شمالًا.

ومن قرأ: «كبرت كلمةٌ» فإنه جعل كلمة فاعل كبرت، وجعل قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ كلمة، كما قالوا للقصيدة: كلمة، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ في موضع رفع بكونه صفة لـ «كلمة» ولا يجوز أن يكون وصفاً لـ «كلمة» الظاهرة المنصوبة، لأن الوصف يقرب النكرة من المعرفة، والتمييز لا يكون معرفة البتة، ولا يجوز أن يكون في موضع نصب على الحال من «كلمة» المنصوبة لوجهين:

أحدهما: أن الحال يقوم مقام الوصف.

والثاني: أن الحال لا يكون من نكرة في غالب الأمر. و ﴿أَسَفًا﴾ منصوب بأنه مصدر وضع موضع الحال، ولو كان في غير القرآن لجاز أن لم يؤمنوا بالفتح، كما في قول الشاعر:

أتجزع أنْ بانَ الخليطُ المودِّع وحبلُ الصَّفا من عزة المتقطِّعُ

● **المعنى**: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يقول الله سبحانه لخلقه: قولوا: كل الحمد والشكر لله ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآن وانتجبه من خلقه وخصه برسالته، فبعثه نبياً رسولًا ﴿**ولم يجعل له عوجاً قيماً**﴾ فيه تقديم وتأخير، وتقديره: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً، وعني بقوله: ﴿قِيَمًا﴾ معتدلًا مستقيماً مستوياً لا تناقض فيه ـ

(١) تناوح الرياح: تقابلها في المهب.

عن ابن عباس. وقيل: قيماً على سائر الكتب المتقدمة ويحفظها، وينفي البطل عنها، وهو ناسخ لشرائعها - عن الفراء. وقيل: قيماً لأمور الدين يلزم الرجوع إليه فيها، فهو كقيم الدار يرجع إليه في أمرها - عن أبي مسلم. وقيل: قيماً دائماً يدوم ويثبت إلى يوم القيامة لا ينسخ - عن الأصم ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا﴾ أي لم يجعله ملتبساً لا يفهم ومعوجاً لا يستقيم، وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: لم يجعل فيه اختلافاً، كما قال عز وجل اسمه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ - عن الزجاج. ومعنى العوج في الكلام أن يخرج من الصحة إلى الفساد، ومن الحق إلى الباطل، ومما فيه فائدة إلى ما لا فائدة فيه. ثم بين سبحانه الغرض في إنزاله فقال: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ ومعناه: ليخوف العبد الذي أنزل عليه الكتاب الناس عذاباً شديداً ونكالاً وسطوة من عند الله تعالى إن لم يؤمنوا به ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ معناه: وليبشر المصدقين بالله ورسوله الذين يعملون الطاعات بعد الإيمان، أن لهم ثواباً حسناً في الآخرة على إيمانهم، وطاعاتهم في الدنيا، وذلك الثواب هو الجنة ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي لابثين في ذلك الثواب، خالدين مؤبدين، لا ينتقلون عنه ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أي وليحذر الكفار الذين قالوا: الملائكة بنات الله، وهم قريش - عن الحسن ومحمد بن إسحاق. وقيل: هم اليهود والنصارى - عن السدي والكلبي. فعم جميع الكفار بالإنذار في الآية الأولى، وخص في هذه الآية القائلين بهذه المقالة منهم لتقليدهم الآباء في ذلك، ولإصرارهم على الجهل، وقلة التفكر، ولصدّهم الناس عن الدين ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي ليس لهؤلاء القائلين بهذا القول الشنيع علم به، ولا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم على مثل ما هم عليه اليوم، وإنما يقولون ذلك عن جهل وتقليد، من غير حجة. وقيل: معناه، ليس لهم بالله من علم ولا لآبائهم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي عظمت الكلمة كلمة تخرج من أفواه هؤلاء الكفار، ووصف الكلمة بالخروج من الأفواه توسعاً ومجازاً، وإن كانت الكلمة عرضاً لا يجوز عليها الدخول والخروج، ولا الحركة والسكون، ولكن لما كانت الكلمة قد تحفظ وتثبت، وتوجد مكتوبة ومقروءة، في غير الموضع الذي فعلت فيه، وصفها بالخروج، وذكر الأفواه تأكيداً، والمعنى أنهم صرحوا بهذه الكلمة العظيمة في القبح وأظهروها **﴿إن يقولوا إلا كذباً﴾** أي ما يقول هؤلاء إلا كذباً وافتراء على الله.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي مهلك وقاتل نفسك على آثار قومك، الذين قالوا: لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ تمرداً منهم على ربهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ أي إن لم يصدقوا ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي بهذا القرآن الذي أنزل عليك ﴿أَسَفًا﴾ أي حزناً وتلهفاً ووجداً، بإدبارهم عنك وإعراضهم عن قبول ما آتيتهم به. وقيل: على آثارهم، أي بعد موتهم، لشدة شفقتك عليهم. وقيل: معناه، من بعد توليهم وإعراضهم عنك. ويل: أسفاً، أي غيظاً وغضباً - عن ابن عباس وقتادة. وهذه معاتبة من الله سبحانه لرسوله على شدة وجده، وكثرة حرصه على إيمان قومه، حتى بلغ ذلك به مبلغاً يقربه إلى الهلاك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾.

● **اللغة:** الصعيد: ظهر الأرض. وقال الزجاج: الصعيد: الطريق الذي لا نبات به. والجرز: الأرض التي لا تنبت، كأنها تأكل النبت أكلاً، يقال: أرض جرز وأرضون أجْراز، وقال سيبويه: يقال: جُرِزَت الأرض فهي مجروزه وجَرَزَها الجراز والنعم، ويقال للسنة المجدبة: الجرز، لجدوبها ويبسها وقلة أمطارها، قال الراجز:

(قد جرفتهن السنون الأجراز)

ويقال: أجرز القوم، إذا صارت أرضهم جرزاً، وجرزوهم أرضهم: إذا أكلوا نباتها كله.

● **الإعراب:** ﴿أَيُّهُمْ﴾ مرفوع بالابتداء، لأن لفظه لفظ الاستفهام، والاستفهام له صدر الكلام، أي لتختبر أهذا أحسن عملًا أم هذا؟ وهو تعليق لما في الخبرة من معنى العلم.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه أنه ابتدأ خلقه بالنعم، وأن إليه مصير الأمم، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من الأنهار والأشجار، وأنواع المخلوقات من الجماد والحيوان والنبات ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ أي حلية للأرض ولأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي لنختبرهم ونمتحنهم، والمعنى: لنعامل عبادنا معاملة المبتلى، وقد سبق ذكر أمثاله، والأحسن عملًا: الأعمل بطاعة الله والأطوع له. وقيل: إن معنى الابتلاء: الأمر والنهي، لأن بهما يظهر المطيع من العاصي. وقيل: أراد بالزينة الرجال، لأنهم زينة الأرض. وقيل: أراد الأنبياء والعلماء ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ معناه: وإنا مخربون الأرض بعد عمارتها، وجاعلون ما عليها مستوياً من الأرض يابساً لا نبات عليه، وقيل: بلاقع ـ عن مجاهد. وفي قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ دلالة على أنه سبحانه أراد من الخلق العمل الصالح، وعلى أن أفعالهم الصادرة منهم حادثة من جهتهم، ولولا ذلك لما صح الابتلاء، وفي ذلك بطلان قول أهل الجبر.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾.

● **اللغة:** الكهف: المغارة في الجبل، إلا أنه واسع، فإذا صغر فهو غار. والرقيم: أصله من الرقم وهو الكتابة، يقال: رقمت الكتاب أرقمه، فهو فعيل بمعنى مفعول كالجريح والقتيل، ومنه الرقم في الثوب، لأنه خطٌ يعرف به ثمنه، والأرقم: الحية المنقشة لما فيه من الخطوط، وتقول العرب: عليك بالرقمة ودع الضفة، أي عليك برقمة الوادي حيث الماء ودع الجانب. والأوِيُّ: الرجوع. والفتية: جمع فتى، وفعلة من أسماء الجمع وليس ببناء يقاس عليه، يقال:

صبي وصبية، وغلام وغلمة، ولا يقال: غني وغنية، لأنه غير مطرد في بابه. والضرب معروف، ومعنى: ﴿ضربنا على آذانهم﴾ سلّطنا عليهم النوم، وهو من الكلام البالغ في الفصاحة، يقال: ضربه الله بالفالج، إذا ابتلاه الله به. قال قطرب: هو كقول العرب: ضرب الأمير على يد فلان، إذا منعه من التصرف، قال الأسود بن يعفر، وكان ضريراً:

ومن الحوادث لا أبالك أنني ضُرِبَت عليَّ الأرضُ بالأسداد(١)

والحزب: الجماعة. والأمد: الغاية. قال النابغة:

ألا لمثلك أو من أنت سابقه سبقَ الجوادِ إذا استَولى على الأمد(٢)

● **الإعراب:** ﴿سِنِينَ﴾ نصب على الظرف، و ﴿عدداً﴾ منصوب على ضربين:

أحدهما: على المصدر، والمعنى: تعد عدداً.

ويجوز أن يكون نعتاً لـ ﴿سِنِينَ﴾ المعنى: سنين ذات عدد.

قال الزجاج: والفائدة في قولك: عدد، في الأشياء المعدودات أنك تريد توكيد كثرة الشيء، لأنه إذا قل فهم مقداره ومقدار عدده، فلم يحتج إلى أن يعد، فالعدد في قولك: أقمت أياماً عدداً، أنك تريد بها الكثرة، وجائز أن يؤكد بعدد معنى الجماعة في أنها قد خرجت من معنى الواحد، قال: و﴿أَمَدًا﴾ منصوب على نوعين:

أحدهما: التمييز.

والآخر: على أحصى أمداً. فيكون العامل فيه أحصى، كأنه قال لنعلم، أهؤلاء أحصى للأمد أم هؤلاء، ويكون منصوباً بـ ﴿لَبِثُوٓا﴾ ويكون ﴿أَحْصَىٰ﴾ متعلقاً بـ ﴿لِمَا﴾ فيكون المعنى: أي الحزبين أحصى للبثهم في الأمد. قال أبو علي: إن انتصابه على التمييز عندي غير مستقيم، وذلك لأنه لا يخلو من أن يحمل أحصى على أن يكون فعلًا ماضياً أو أفعل، نحو أحسن وأعلم، فلا يجوز أن يكون أحصى بمعنى أفعل من كذا، وغير مثال للماضي من وجهين:

أحدهما: أنه يقال: أحصى يحصى، وفي التنزيل: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ وأفعل يفعل لا يقال فيه: هو أفعل من كذا، وأما قولهم: ما أولاه بالخير، وما أعطاه الدرهم، فمن الشاذ النادر الذي حكمه أن يحفظ ولا يقاس عليه.

والآخر: أن ما ينتصب على التمييز في نحو قولهم: هو أكثر مالًا وأعز علماً، يكون في المعنى فاعلًا، ألا ترى أن المال هو الذي كثر، والعلم هو الذي عز، وليس ما في الآية كذلك، ألا ترى أن الأمد ليس هو الذي أحصى، فهو خارج عن حد هذه الأسماء، وإذا كان ماضياً كان المعنى: لنعلم أي الحزبين أحصى أمداً للبثهم، فيكون الأمد على هذا منتصباً بأنه مفعول به والعامل فيه أحصى.

---

(١) سدت عليّ الطريق أي: عميت عليّ مذاهبي. وواحد الإسداد أسد.

(٢) أمد الخيل في الرهان: مدافعها في السباق، ومنتهى غاياتها الذي تسبق إليه.

● **النزول:** محمد بن إسحاق بإسناده عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس أن النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط أنفذهما قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته وخبّراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن النبي ﷺ، وقالا لهم ما قالت قريش، فقال لهما أحبار اليهود: اسألوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فروْا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟.

وفي رواية أخرى: فإن أخبركم عن الثنتين ولم يخبركم بالروح فهو نبي، فانصرفا إلى مكة فقالا: يا معاشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، وقصا عليهم القصة، فجاؤوا إلى النبي ﷺ فسألوه، فقال: أخبركم بما سألتم عنه غداً، ولم يستثن، فانصرفوا عنه فمكث ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل حتى أرجف أهل مكة وتكلموا في ذلك، فشق على رسول الله ﷺ ما يتكلم به أهل مكة عليه، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام عن الله سبحانه بسورة الكهف، وفيها ما سألوه عنه عن أمر الفتية والرجل الطواف، وأنزل عليه ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآية. قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال لجبرائيل حين جاءه: لقد احتبست عني يا جبرائيل، فقال له جبرائيل عليه السلام: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ الآية.

● **المعنى:** ﴿أم حسبت﴾: معناه: بل أحسبت يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا﴾ فلخلق السماوات والأرض أعجب من هذا ـ عن مجاهد وقتادة. ويحتمل أنه لما استبطأ الجواب حين سألوه عن القصة قيل له: أحسبت أن هذا شيء عجيب حرصاً على إيمانهم حتى قوي طمعك أنك إذا أخبرتهم به آمنوا؟ والمراد بالكهف كهف الجبل الذي أوى إليه القوم الذين قصّ الله أخبارهم. واختلف في معنى الرقيم، فقيل: إنه اسم الوادي الذي كان فيه الكهف ـ عن ابن عباس والضحاك. وقيل: الكهف غار في الجبل، والرقيم: الجبل نفسه ـ عن الحسن. وقيل: الرقيم القرية التي خرج منها أصحاب الكهف ـ عن كعب والسدي. وقيل: هو لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف ـ عن سعيد بن جبير واختاره البلخي والجبائي. وقيل: جعل ذلك اللوح في خزائن الملوك لأنه من عجائب الأمور. وقيل: الرقيم كتاب، ولذلك الكتاب خبر فلم يخبر الله تعالى عما فيه ـ عن ابن زيد. وقيل: إن أصحاب الرقيم هم النفر الثلاثة الذين دخلوا في غار فانسد عليهم، فقالوا: ليدعوا الله تعالى كل واحد منا بعمله حتى يفرج الله عنا ففعلوا فنجاهم الله. ورواه النعمان بن بشير مرفوعاً.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي اذكر لقومك إذ التجأ أولئك الشبان إلى الكهف وجعلوه مأواهم هرباً بدينهم إلى الله ﴿فَقَالُوا۟﴾ حين أووا إليه ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي نعمة ننجو بها من قومنا، وفرج عنا ما نزل بنا ﴿وهيىء لنا من أمرنا رشداً﴾ أي هيىء وأصلح لنا من أمرنا ما

نصيب به الرشد. وقيل: هيىء لنا مخرجاً من الغار في سلامة ـ عن ابن عباس. وقيل: معناه، دلنا على أمر فيه نجاتنا، لأن الرشد والنجاة بمعنى. وقيل: يسّر لنا من أمرنا ما نلتمس به رضاك وهو الرشد. وقالوا: هؤلاء الفتية قوم آمنوا بالله تعالى وكانوا يخفون الإسلام خوفاً من ملكهم، وكان اسم الملك دقيانوس، واسم مدينتهم أفسوس، وكان ملكهم يعبد الأصنام ويدعو إليها، ويقتل من خالفه. وقيل: إنه كان مجوسياً يدعو إلى دين المجوس، والفتية كانوا على دين المسيح لما برح أهل الإنجيل. وقيل: كانوا من خواص الملك، وكان يسر كل واحد منهم إيمانه عن صاحبه، ثم اتفق أنهم اجتمعوا وأظهروا أمرهم فأووا إلى الكهف ـ عن عبيد بن عمير. وقيل: إنهم كانوا قبل بعث عيسى عليه السلام.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ معناه: أنمناهم سنين ذات عدد، وتأويله: فأجبنا دعاءهم وسددنا آذانهم بالنوم الغالب على نفوذ الأصوات إليها سنين كثيرة، لأن النائم إنما يتنبه بسماع الصوت، ودلّ سبحانه بذلك على أنهم لم يموتوا وكانوا نياماً في أمن وراحة وجمام نفس، وهذا من فصيح لغات القرآن التي لا يمكن أن يترجم بمعنى يوافق اللفظ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي أيقظناهم من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أَيُّ الحزبين ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ أي ليظهر معلومنا على ما علمنا وذكرنا الوجه في أمثاله فيما سبق، والمعنى: لننظر أي الحزبين من المؤمنين والكافرين من قوم أصحاب الكهف عد أمد لبثهم وعلم ذلك، وكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف بعد خروجهم من بيتهم، فبعثهم الله ليبين ذلك ويظهر. وقيل: يعني بالحزبين أصحاب الكهف لما استيقظوا اختلفوا في تعداد لبثهم، وذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

● **النظم:** اتصل قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾ الآية. بما قبلها من وجوه:

أحدها: أنه لما أخبر عن زينة الأرض وعن الابتلاء، عقبه بذكر الفتية التي تركت زينة الدنيا واختارت طاعة الله، وفارقت ديارها وأموالها حثاً على الاقتداء بهم.

والآخر: أنه اتصل بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي فلا تأسف عليهم، لأنه لا يضرك كفرهم والله ناصرك وحافظك من أعدائك كما حفظ أصحاب الكهف.

والثالث: أنه اتصل بقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وينصرهم كما نصر أصحاب الكهف.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وابن عامر والأعشى والبرجي عن أبي بكر: ﴿مَرْفَقًا﴾ بفتح الميم وكسر الفاء. والباقون: ﴿مِرْفَقًا﴾ بكسر الميم وفتح الفاء.

● **الحجة:** قال الزجاج: وذكر قطرب وغيره اللغتين جميعاً في مرفق الأمر، ومرفق اليد، ومرفق اليد بالكسر أجود. قال أبو الحسن. مرفقاً، أي شيئاً يرتفقون به، مثل المقطع ونحوه، ومرفقاً جعله اسماً مثل المسجد، أو يكون لغة، قال أبو علي: قوله جعله اسماً، أي جعل المرفق اسماً، ولم يجعلوه اسم المكان، ولا المصدر، من رفق يرفق، كما أن المسجد ليس باسم الموضع من سَجَد بسجُد، وقوله أو يكون لغة، أو يجعله في اسم المصدر، كما جاء المطلع ونحوه، ولو كان على القياس لفتحت اللام.

● **اللغة:** الشطط: الخروج عن الحد بالغلو فيه، وأصله مجاوزة الحد في البعد، وشطَّط الجارية تشطُّ شططاً وشطاطة: إذا جاوزت الحد في الطول، وأشطَّ في السوم: إذا جاوز القدر بالغلو فيه. والاعتزال: التنحي عن الأمر، والتعزل بمعناه، قال:

يا بيت عاتِكَةَ التي أتعزلُ حذَرَ العِدَى وبه الفؤادا موكَّل[1]

وسمي عمرو بن عبيد وأصحابه معتزلة لما اعتزلوا حلقة الحسن.

● **الإعراب:** كسر ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ على الاستئناف. ﴿إِذْ قَامُوا﴾ يتعلق ﴿بربطنا﴾ أي في الوقت الذي قاموا فيه. و ﴿شَطَطًا﴾ منصوب على المصدر. المعنى: لقد قلنا قولًا شططاً. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ في موضع نصب عطفاً على الهاء والميم في ﴿اعزلتموهم﴾ والمراد الأصنام التي يعبدونها من دون الله، ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أي وعبادتهم إلا عبادة الله، فحذف المضاف، والاستثناء على هذا من الهاء والميم، وإن جعلت «ما» موصولة كان الاستثناء من مفعول يعبدون استثناء منقطعاً.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه قصة أصحاب الكهف، فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي نتلو عليك يا محمد ﴿نَبَأَهُم﴾ أي خبرهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق والصحة ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أي أحداث وشباب ﴿ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ أي بصيرة في الدين ورغبة في الثبات عليه بالألطاف المقوية لدواعيهم إلى الأيمان، وحكم لهم سبحانه بالفتوة، لأن رأس الفتوة الإيمان. وقيل: الفتوة بذل الندى وترك الأذى، وترك الشكوى ـ عن مجاهد. وقيل؛ هي اجتناب المحارم، واستعمال المكارم. ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي شددنا عليها بالألطاف والخواطر المقوية للإيمان، حتى وطنوا أنفسهم على إظهار الحق، والثبات على الدين، والصبر على المشاق، ومفارقة الوطن ﴿إِذْ قَامُوا﴾ أي حين قاموا بين يدي ملكهم الجبار دقيانوس الذي كان يفتن أهل الإيمان عن دينهم ﴿فَقَالُوا﴾ بن يديه ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ربنا الذي نبعده خالق السماوات والأرض ﴿لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ أي لن نعبد إلهاً سواء معه ﴿لقد قلنا إذاً شططاً﴾ معناه: إن دعونا مع الله إلهاً آخر فلقد قلنا إذاً قولًا مجاوزاً للحق غاية في البطلان ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ أي أهل

---

(١) قائله الأحوص.

بلدنا ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون الله ﴿ءَالِهَةً﴾ يعبدونها ﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بي﴾ أي هلا يأتون على عبادتهم غير الله بحجة ظاهرة، وفي هذا ذم زجر للتقليد، وإشارة إلى أنه لا يجوز أن يقبل دين إلى بحجة واضحة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن له شريكاً في العبادة.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال ابن عباس: وهذا من قول تمليخا وهو رئيس أصحاب الكهف قال لهم: فإذا فارقتموهم وتنحيتم عنهم جانباً، يعني عبدة الأصنام، وفارقتم ما يعبدون، أي أصنامهم إلا الله، فإنكم لن تتركوا عبادته، وذلك أن أولئك كانوا يشركون بالله، ويجوز أنه كان فيهم من يعبد الله مع عبادة الأصنام، فقال: إذا اعتزلتم الأصنام ولم تعتزلوا الله ولا عبادته فيكون الاستثناء متصلًا، ويجوز أن يكون جميعهم كانوا يعبدون الأوثان من دون الله، فيكون الاستثناء منقطعاً ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي صيروا إليه واجعلوه مأواكم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي يبسط عليكم ربكم من نعمته ﴿ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً﴾ أي ويسهل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه ويأتيكم باليسر والرفق واللطف ـ عن ابن عباس، وكلما ارتفقت فهو مرفق. وقيل: معناه، ويصلح لكم من أمر معاشكم ما ترتفقون به. وفي هذا دلالة على عظم منزلة الهجرة في الدين، وعلى قبح المقام في دار الكفر، إذا كان لا يمكن المقام فيها إلا بإظهار كلمة الكفر. وبالله التوفيق.

●●●

قوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر ويعقوب ﴿تزوَّر﴾ بتشديد الزاي، وقرأ أهل الكوفة: ﴿تَزَٰوَرُ﴾ بالتخفيف، والباقون: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ بتشديد الزاي. وقرأ أهل الحجاز: ﴿وَلَمُلِّئْتَ﴾ بالتشديد، والباقون بالتخفيف، وفي الشواذ قراءة الجحدي: ﴿تزور﴾ وقراءة الحسن: ﴿وتقلبهم﴾ بفتح التاء والقاف والباء وضم اللام.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ فإنه تتزاور، فأدغم التاء في الزاي ومن قرأ ﴿تَزَٰوَرُ﴾ حذف الثانية، وخفف الكلمة بالحذف، كما حذف أولئك بالإدغام، ومن قرأ ﴿تزور﴾ فقد قال أبو الحسن: لا معنى له في هذا الموضع، إنما يقال: هو مُزورٌ عني، أي منقبض عني، يدل عليه قول عنترة:

فــازْوَرَّ مــن وقْــع الــقــنــا بــلــبــانــه   وشــكــا إلــى بــعــبْــرة وتــحــمــحــم(١)

قال أبو علي: والذي حسن للقراءة به قول جرير:

عَــســفْــنَ عــن الأداعِــسِ مــن مَــهــيــلِ   وفــي الأضــغــان عــن طــلــح ازْورارُ(٢)

فظاهر استعمال هذا في الأظعان مثل استعماله في الشمس، وتزاور: على وزن تفاعل وتزوار على وزن تفعال من الأزويرار. وقوله: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ﴾ بالتشديد للتكثير، قال أبو الحسن: الخفيفة أجود، لا يكادون يقولون: ملأ مني رعباً، وإنما يقولون: ملأتني رعباً. قال أبو علي: يدل على قول أبي الحسن قول امرىء القيس:

(فــمــلأ بــيــتــنــا إقــطــاً وســمــنــا)(٣)

وقول الأعشى:

(وقــد مُــلــئــتْ بــكــر ومــن لــفَّ لــفَّــهــا)

وأنشدوا في التثقيل قول المخبل السعدي:

(فــمــلأ مــن كــعــبِ بــن عــوفِ سَــلاسَــله)

ومن قرأ «أو تقلبهم» فإنه نصبه بفعل مضمر دل عليه ما قبله. فكأنه قال: وترى أو تشاهد تقلبهم.

● **اللغة:** القرض: القطع، يقال: قرضت الموضع إذا قطعته، وجاوزته، قال الكسائي: هو المجازاة، يقال: قرضي فلان يقرضني، وجذاني يجذوني بمعنى، قال ذو الرمة:

إلــى ظُــعْــن يــقــرضْــن أجــواز مُــشــرِف   شِــمــالًا وعــن أيــمــانِــهــنَّ الــفــوارسُ(٤)

ويستعمل القرض في أشياء غير هذا، منه القطع للثوب وغيره، ومنه المقراض، ومنه قرض الفأر. قال أبو الدرداء: إن قارضتهم قارضوك وإن تركتهم لم يتركوك. يعني إن طعنت فيهم وعبتهم فعلوا بك مثله، وإن تركتهم من ذلك لم يتركوك. والقراض بلغة الحجاز المضاربة، والقرض هو قول الشعر القصيدة منه خاصة دون الرجز، ومنه قيل للشعر القريض، قال الأغلب العجلي:

(أرجــزاً تــريــد أم قــريــضــاً؟)

---

(١) يصف فرسه وشكواه من وقوع الرماح على صدره في الحرب. وللّبان: الصدر. والتحمحم: حنين الفرس في صهيله.

(٢) الدعس: الأثر. والمهيل: التل من الرمل. والطلح: موضع.

(٣) بعده: «وحسبك من غنى شبع وري».

(٤) الظعن: جمع الظعينة: الهودج. والأجواز جمع الجوز: وسط الشيء. ومشرف والفوارس: موضعان يقول نظرت إلى ظعنن يجزن بين هذين الموضعين.

والفجوة: المتسع من الأرض، وجمعه فجوات وفجاء ممدود، وفجوة الدار ساحتها. والأيقاظ: جمع يقظ ويقظان، قال الراجز:

(ووجـــدوا إخـــوتـــهـــم أيـــقـــاظـــاً)

والرقود: جمع راقد ورقد يرقد رقاداً ورقوداً. والوصيد: من أوصدت الباب، أي أغلقته، وجمعه وصائد، ويقال: وصيد وأصيد وأوصدت وأصدت، مثل ورخت الكتاب وأرخته، ووكدت الأمر وأكدته.

● **الإعراب:** ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ متعلق بالرؤية، وقوله: ﴿إِذَا طَلَعَت﴾ ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ كلاهما بجوابهما في موضع المفعول الثاني، والحال والجملة التي هي وهم. ﴿فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ في موضع الحال ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أعمل اسم الفاعل حيث نصب به ﴿ذِرَاعَيْهِ﴾ وإن كان بمعنى الماضي لأنه حكاية حال، كما قال: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وهذا يشار به إلى الحاضر، ولم يكن المشار إليهما حاضرين حين قص القصة على النبي ﷺ، ولكنه على تلك الحال قص القصة. ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ كتب في المصحف هنا بغير ياء، وفي الأعراف بالياء، وحذف الياء جائز في الأسماء خاصة، ولا يجوز في الأفعال، لأن حذف الياء في الفعل دليل الزم، وحذف الياء في الأسماء واقع إذا لم يكن الألف واللام، نحو مهتد، فأدخلت الألف واللام وترك الحرف على ما كان عليه ودلت الكسرة على الياء المحذوفة، قال الزجاج: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ﴾ بكسر الواو، ويجوز الضم، والكسر أجود، لأن الواو ساكنة والطاء ساكنة، والأصل في التقاء الساكنين الكسر، وجاز الضم لأن الضم من جنس الواو، ولكنه إذا كان بعد الساكن مضموم فالضم هنا أحسن، نحو ﴿أَوِ ٱنقُصْ﴾ قرىء بالضم والكسر. ﴿فِرَارًا﴾ منصوب على المصدر، لأن المعنى وليت فررت. و ﴿رُعْبًا﴾ منصوب على التمييز، يقال: امتلأت فرقاً، وامتلأ الإناء ماء.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه حالهم في الكهف، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ أي لو رأيتها لرأيت ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي تميل وقت طلوعها عن كهفهم إلى جهة اليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي تعدل عنهم وتتركهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ إلى جهة الشمال الكهف، أي لا تدخل كهفهم، وقيل: تقرضهم: أي تجاوزهم منحرفة عنهم ـ عن ابن عباس ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي في متَّسع من الكهف. وقيل: في فضاء منه ـ عن قتادة. وقيل: كان متسعاً داخل الكهف بحيث لا يراه من كان ببابه، وينالهم نسيم الريح. ثم أخبر سبحانه عن لطفه بهم وحفظه إياهم في مضجعهم، واختياره لهم أصلح الواضع لرقادهم، فبوّأهم مكاناً من الكهف مستقبلاً بنات النعش، تميل الشمس عنهم طالعة وغاربة، كيلا يؤذيهم حرها، أو تغير ألوانهم، أو تبلى ثيابهم، وهم في متسع ينالهم فيه روْح الريح، وكان باب الغار مقابل القطب الشمالي ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي من أدلته وبرهانه ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ مثل أصحاب الكهف ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ مثل قوم أصحاب الكهف.

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا﴾ أي لو رأيتهم لحسبتهم منتبهين ﴿وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾ أي نائمون في الحقيقة، قال الجبائي وجماعة: لأنهم مفتحو العيون يتنفسون كأنهم يريدون أن يتكلموا ولا يتكلمون. وقيل: إنهم ينقلبون كما ينقلب اليقظان ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ معناه: ونقلبهم تارة عن اليمين إلى الشمال، وتارة عن الشمال إلى اليمين، كما يتقلب النائم، لأنهم ولم يتقلبوا لأكلتهم الأرض ولبليت ثيابهم لطول مكثهم على جانب واحد. وقيل: كانوا يقلبون كل عام تقلبتين - عن أبي هريرة. وقيل: كان تقلبهم كل عام مرة - عن ابن عباس. وقوله: ﴿وَكَلۡبُهُم﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين: إنهم هربوا من ملكهم ليلاً، فمروا براع معه كلب، فتبعهم على دينهم وتبعه كلبه. وقيل: إنهم مروا بكلب فتبعهم فطردوه، فعاد ففعلوا ذلك مراراً، قال لهم الكلب: ما تريدون مني؟ لا تخشوا خيانة فأنا أحب أولياء الله، فناموا حتى أحرسكم - عن كعب. وقيل: كان ذلك كلب صيدهم. وقيل: كان ذلك الكلب أصفر اللون - عن مقاتل. وقيل؛ كان أنمر واسمه قطمير - عن ابن عباس. وفي تفسير الحسن أن ذلك الكلب مكث هناك ثلاثة مائة وتسع سنين بغير طعام ولا شراب ولا نوم ولا قيام ﴿بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ﴾ هو أن يلقيهما على الأرض مبسوطتين كافتراش السبع ﴿بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ أي بفنا الكهف - عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقيل: بالباب. وقيل: بباب الفجوة أو فناء الفجوة لا باب الكهف، لأن الكفار خرجوا إلى باب الكهف في طلبهم ثم انصرفوا، ولو رأوا الكلب على باب الغار لدخوله، وكذلك لو كان بالقرب من الباب، ولما انصرفوا آيسين عنهم فإنهم سدوا باب الغار بالحجارة، فجاء رجل بماشيته إلى باب الغار وأخرج الحجارة، واتخذ لماشيته كنًا عند باب الغار، وهم كانوا في فجوة من الغار - عن الجبائي. وقيل: الوصيد عتبة الباب - عن عطاء ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ معناه: لو أشرفت عليهم، ورأيتهم في كهفهم على حالتهم لقررت عنهم، وأعرضت عنهم هرباً لاستيحاشك الموضع ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ أي ولملىء قلبك خوفاً وفزعاً، وذلك أن الله منعهم بالرعب لئلا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيهم. وقيل: كانوا في مكان موحش من رآه فزع، ولا يمتنع أن الكفار لما أتوا باب الكهف فزعوا من وحشة المكان، فسدوا باب الكهف ليهلكوا فيه وجعل سبحانه ذلك لطفاً لئلا ينالهم مكروه من سبع وغيره، وليكونوا محروسين من كل سوء. وقيل: إنهم كانت أظفارهم قد طالت، وكذلك شعورهم، ولذلك يأخذ بالرعب منهم، وهذا لا يصح لقوله تعالى حكاية عنهم ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: غزوت مع معاوية نحو الروم، فمروا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقلت له: ليس هذا لك، فقد منع ذلك من هو خير منك، قال الله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم، فبعث رجالاً فلما دخلوا الكهف أرسل الله عليهم ريحاً أخرجتهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة وخلف: ﴿بورْقكم﴾ ساكنة الراء، والباقون بكسر الراء، وروي عن أبي عمرو: بإدغام الكاف في القاف، وفي الشواذ قراءة أبي رجاء: ﴿بورقكّم﴾ بكسر الواو والإدغام.

● **الحجة:** في ﴿ورقكم﴾ أربع لغات: فتح الواو وكسر الراء وهو الأصل، وفتح الواو وسكون الراء. وكسر الواو وسكون الراء، والإدغام، قال ابن جني: هذا عند أصحابنا مخفى غير مدغم، لكنه أخفى كسرة القاف فظنها القراء مدغمة، ومعاذ الله لو كانت مدغمة لوجب نقل كسرة القاف إلى الراء، كقولهم: برد وبرق، وللقراء في هذا عادة أن يعبروا عن المخفي بالمدغم للطف ذلك عليهم.

● **الإعراب:** ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ تقديره: كم يوماً لبثتم، فـ «كم» منصوبة بـ ﴿لَبِثْتُمْ﴾ والمميز محذوف، ألا ترى أن جوابه ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ الجملة التي هي ﴿أَيُّهَآ أَزْكَىٰ﴾ مفعول ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ و ﴿طَعَامًا﴾ تمييز.

● **المعنى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ معناه: وكما فعلنا بهم الأمور العجيبة وحفظناهم تلك المدة المديدة بعثناهم من تلك الرقدة، وأحييناهم من تلك النومة التي أشبهت الموت ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليكون بينهم تساؤل وتنازع واختلاف في مدة لبثهم، فينتبهوا بذلك إلى معرفة صانعهم ويزدادوا يقيناً إلى يقينهم ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في نومكم ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قال المفسرون: إنهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله في آخر النهار، فلذلك قالوا: يوماً، فلما رأوا الشمس قالوا: أو بعض يوم. وكان قد بقيت من النهار بقية ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وهذا القائل هو تلميخا رئيسهم ـ عن ابن عباس. رد علم ذلك إلى الله تعالى ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ والورق: الدراهم، وكان معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم ـ عن ابن عباس ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني المدينة التي خرجوا منها ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي أطهر وأحل ذبيحة ـ عن ابن عباس قال: لأن عامتهم كانت مجوساً وفيهم قوم مؤمنون يخفون إيمانهم. وقيل: أطيب طعاماً ـ عن الكلبي. وقيل: أكثر طعاماً، من قولهم: زكى المال إذا زاد ـ عن عكرمة، وذلك لأن خير الطعام إنما يوجد عند من كثر طعامه. وقيل: كان من طعام أهل المدينة ما لا يستحله أصحاب الكهف ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي فليأتكم بما ترزقون أكله ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي وليدقق النظر ويتحيل حتى لا يطلع عليه وقيل: وليتلطف في الشراء فلا يماكس البائع ولا ينازعه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي لا يخبرن بكم ولا بمكانكم أحداً من

أهل المدينة ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يشرفوا ويطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي يقتلوكم بالرجم، وهو من أخبث القتل - عن الحسن. وقيل معناه: يؤذوكم ويشتموكم، يقال: رجمه بلسانه - عن ابن جريج ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي يردوكم إلى دينهم ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ معناه: ومتى فعلتم ذلك لن تفوزوا أبداً بشيء من الخير.

ومتى قيل: من أكره على الكفر فأظهره فإنه مفلح، فكيف تصح الآية؟.

فالجواب: يجوز أن يكون أراد يعيدوكم إلى دينهم بالاستدعاء دون الإكراه، ويجوز أن يكون في ذلك الوقت كان لا يجوز التقية في إظهار الكفر.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

● **اللغة:** عثر على الشيء يعثر عثراً: إذا اطلع عليه، وأعثرت عليه غيري، والعاثور: حفرة تحفر ليصطاد به الأسد، يقال للرجل إذا تورط: وقع في عاثور، وأصله من العثار. والمراء: الجدال، ماريت الرجل أماريه مراء.

● **الإعراب:** ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ﴾ يجوز أن يكون منصوباً بقوله: ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أي أطلعنا عليهم في وقت المنازعة في أمرهم، ويجوز أن يكون منصوباً بقوله: ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ وإنما دخلت الواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ﴾ ولم يدخل في الأولين، لأن ها هنا عطف جملة على جملة، وهناك وصف النكرة بجملة، فإن التقدير: هم سبعة وهم ثلاثة، فثلاثة مرفوع بأنه خبر مبتدأ محذوف، ورابعهم كلبهم وصف لثلاثة، وكذلك سادسهم كلبهم صفة لخمسة، وهذا قول علي بن عيسى قال: وفرق ما بينهما أن السبعة أصل للمبالغة في العدد، لأن جلائل الأمور سبعة سبعة. وأقول: قد وجدت لأبي علي الفارسي في هذا كلاماً طويلاً، سألخصه لك وأهذبه أفضل تهذيب. قال: إن الجملتين الملتبسة إحداهما بالأخرى، وهي أن تكون غير أجنبية منها على ضربين:

أحدهما: أن تعطف بحرف العطف.

والآخر: أن تكون حالًا.

والثالث: أن تكون تفسيراً.

والرابع: أن لا تكون على أحد هذه الأوجه الثلاثة، لكن يكون في الجملة الثانية ذكر مما في الأولى أو ممن فيها، فالأول نحو: مررت برجل أبوه قائم، وبغلام يقوم، ولا وجه لإدخال حرف العطف على هذا، لأن الصفة تبين الموصوف تخصصه، فلو عطفت لخرجت بالعطف من أن تكون صفة، لأن العطف ليس الثاني وهو المعطوف فيه بالأول، وإنما يشرك الثاني في إعراب الأول، والصفة هو الموصوف في المعنى.

وأما الثاني: وهو أن تكون حالًا فلا مدخل لحرف العطف عليه أيضاً، لأن الحال مثل الصفة في أنها تفرق بين هيأتين أو هيآت، كما أن الصفة تفرق بين موصوفين أو موصوفات، وهي مثل المفعول في أنها تكون بعد كلام تام، فكما لا يدخل الحرف العاطف بين الصفة والموصوف، ولا بين المفعول وما عمل فيه، كذلك لا يدخل بين الحال وذي الحال، والجمل الواقعة موقع الحال: إما أن تكون من فعل وفاعل، أو من مبتدأ وخبر، نحو: رأيت زيداً يضحك، وجاء زيد أبوه منطلق، قال الشاعر:

ولولا جَنان الليل ما آب عامرٌ إلى جعفرٍ سرباله لم يمزَّقِ(١)

وأما الثالث: وهي الجملة التي تكون تفسيراً لما قبلها فنحو قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم قال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فالمغفرة تفسير الوعد الذي وعدوا، فأما قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم﴾ ثم قال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فتؤمنون على لفظ الخبر ومعناه الأمر بدلالة قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وحسن أن يكون الأمر على لفظ الخبر لوقوعه كالتفسير لما قبله من ذكر التجارة، وحكم التفسير أن يكون خبراً، فلذلك حسن كون الأمر على لفظ الخبر هنا.

وأما الرابع: الذي لا يكون اتصاله على الوجوه الثلاثة، ويكون في الجملة الثانية ذكر مما في الأولى، فإن هذا الوجه يتصل بما قبله على وجهين:

أحدهما: بحرف عطف كما يتبع الأجنبية إياها بحرف عطف، وذلك نحو: زيد أبوك وأخوه عمرو، فهذه قد نزلت منزلة الأجنبية من الأولى في العطف بالواو، ونحو: قام زيد وخرج عمرو، وزيد قائم وبكر خارج.

والآخر: أن يتبع الثانية الأولى بغير حرف عطف، كقوله سبحانه: ﴿**أنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون**﴾ ويقول في آية أخرى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ﴾ بالواو، وقوله: ﴿**سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم**﴾ والدليل على هذا نوع آخر خارج عن الأنواع الثلاثة أن قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ بعد الجملة المحذوف مبتدأها لا يخلو من أن يكون حالًا أو صفة أو تفسيراً أو جملة منقطعة من الأول.

---

(١) قائله سلامة بن جندل وجنان الليل أي: ما ستر من ظلمته. وآب: رجع والشاهد في «سرباله لم يمزق» فإن هذه جملة اسمية من مبتدأ وخبر، وقد وقعت حالًا من (عامر) الذي هو فاعل «آب». وقد ربط الشاعر جملة الحال الإسمية بالضمير.

ولا يجوز أن يكون في موضع الحال، لأن ما قبلها من الكلام لا معنى فعل فيه عاملًا في الحال، والحال لا بد لها من عامل فيها، ولا يمكن أن يجعل المبتدأ المضمر ﴿هَٰذَا﴾ وما أشبهه من أسماء الإشارة فينتصب الحال عنها، لأن المخبر عنهم ها هنا ليسوا بمشار إليهم في وقت الإخبار، وإنما المراد الإخبار عن عددهم، ولو كانوا بحيث يشار إليهم لم يقع الاختلاف في عددهم.

ولا يجوز أن يكون تفسيراً، لأن التفسير هو المفسر في المعنى.

ولا يجوز أن يكون شيء من جزء الجملة التي هي ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ شيئاً من جزء الجملة التي هي: هم ثلاثة.

ولا يجوز أيضاً أن يكون صفة للنكرة التي قبلها، لأنه لا يخلو في الوصف من أحد أمرين:

إما أن يعمل اسم فاعل كما يعمل سائر أسماء الفاعلين الجارية على أفعالها فيرتفع ما بعده به.

وإما أن يجعل جملة في موضع وصف ولا يعمل اسم الفاعل عمل الفعل، فيكون مبتدأ وخبراً.

ولا يجوز الأول لأنه في معنى الماضي، والماضي لا يقدر فيه الانفصال، وإنما يقدر في الحاضر والآتي، لأنه كما أعرب من الأفعال المضارعة ما كان حاضراً وآتياً، كذلك لم يعمل الماضي من أسماء الفاعلين، ولولا المضي لم يمتنع إعمال قوله: رابعهم، وسادسهم.

ولا تكون أيضاً الجملة صفة ﴿لثلاثة﴾ كما توصف النكرات بالجمل، لأن هذه جملة مستأنفة وليست على حد الصفة، بل على حد ما بعدها من قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فحذفت الواو واستغنى عنها إذا كانت إنما تذكر لتدل على الاتصال، وما في الجملة من ذكر ما في الأولى كأنه يستغنى به عن ذكر الواو، لأن الحرف يدل على إيصاله، وما في الجملة من ذكر ما تقدمها اتصال أيضاً، فيستغنى به ويكتفى بذلك منه. وهذا فصل جامع في النحو، جليل الموقع، كثير الفائدة، إذا تأمله المتأمل حق التأمل وأحكمه، أشرف به على كثير من المسائل إن شاء الله.

وأما من قال: إن هذه الواو واو الثمانية، واستدل بقوله: ﴿**حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها**﴾ لأن للجنة ثمانية أبواب، فشيء لا يعرفه النحويون.

● **المعنى**: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي وكما أنمناهم وبعثناهم أطلعنا وأعثرنا عليهم أهل المدينة. وجملة أمرهم وحالهم على ما قاله المفسرون أنهم لما هربوا من ملكهم ودخلوا الكهف، أمر الملك أن يسد عليهم باب الكهف، ويدعوهم كما هم في الكهف فيموتوا عطشاً وجوعاً، وليكن كهفهم الذي اختاروه قبراً لهم، وهو يظن أنهم أيقاظ، ثم إن رجلين مؤمنين كتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسماءهم وخبرهم في لوح من رصاص، وجعلاه في تابوت من نحاس،

وجعلا التابوت في البنيان الذي بنوا على باب الكهف، وقالا: لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة، ليعلموا خبرهم حين يقرأون هذا الكتاب، ثم انقرض أهل ذلك الزمان، وخلفت بعدهم قرون وملوك كثيرة، وملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له: تدليس. وقيل: بندوسيس - عن محمد بن إسحاق، وتحزب الناس في ملكه أحزاباً، منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق، ومنهم من يكذب، فكبر ذلك على الملك الصالح، وبكى إلى الله وتضرع وقال: أي رب قد ترى اختلاف هؤلاء، فابعث لهم آية تبين لهم بها أن البعث حق، وأن الساعة حق آتية لا ريب فيها، فألقى الله في نفس رجل من أهل ذلك البلد الذي فيه الكهف أن يهدم البنيان الذي عمَّ الكهف فيبني به حظيرة لغنمه ففعل ذلك، وبعث الله الفتية من نومهم، فأرسلوا أحدهم ليطلب لهم طعاماً، فاطلع الناس على أمرهم، وبعثوا إلى الملك الصالح يعلمونه الخبر، ليعجل القدوم عليهم وينظر إلى آية من آيات الله جعلها الله في ملكه، فلما بلغه الخبر حمد الله وركب معه مدينته حتى أتوا أهل الكهف، فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾. ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ أي أن القيامة لا شك فيها، فإن من قدر على أن ينيم جماعة تلك المدة المديدة أحياء، ثم يوقظهم، قادر أيضاً على أن يميتهم ثم يحييهم بعد ذلك.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي فعلنا ذلك حين تنازعوا في البعث، فمنهم من أنكره، ومنهم من قال: يبعث الأرواح دون الأجسام، ومنهم من أثبت البعث فيهما وأضاف الأمر إليهم لتنازعهم فيه، كما يقال: ما صنعتم في أمركم - عن عكرمة. وقيل: إن معناه، إذ يتنازعون في قدر مكثهم في الكهف، وفي عددهم، وفيما يفعل بهم بعد أن اطلعوا عليهم، وذلك أنه لما دخل الملك عليهم مع الناس وجعلوا يسألونهم سقطوا ميتين، فقال الملك: إن هذا الأمر عجيب فما ترون؟ فاختلفوا، فقال بعضهم: ابنوا عليهم بنياناً كما تبنى المقابر، وقال بعضهم: اتخذوا مسجداً على باب الكهف، وهذا التنازع كان منهم بعد العلم بموتهم - عن ابن عباس ﴿فَقَالُوا۟﴾ أي قال مشركو ذلك الوقت ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ أي استروهم من الناس بأن تجعلوهم وراء ذلك البنيان، كما يقال: بنى عليه جداراً إذا حوطه وجعله وراء الجدار ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ معناه: ربهم أعلم بحالهم فيما تنازعوا فيه. وقيل: إنه قال ذلك بعضهم، ومعناه: ربهم، أي خالقهم الذي أنامهم وبعثهم أعلم بحالهم وكيفية أمرهم. وقيل: معناه، ربهم أعلم بهم: أأحياء نيام هم أم أموات؟ فقد قيل إنهم ماتوا. وقيل: إنهم لا يموتون إلى يوم القيامة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ يعني الملك المؤمن وأصحابه. وقيل: أولياء أصحاب الكهف من المؤمنين. وقيل: رؤساء البلد الذين استولوا على أمرهم - عن الجبائي ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أي معبداً وموضعاً للعبادة والسجود يتعبد الناس فيه ببركاتهم، ودل ذلك على أن الغلبة كانت للمؤمنين. وقيل: مسجداً يصلي فيه أصحاب الكهف إذا استيقظوا - عن الحسن. وقد روي أيضاً أن أصحاب الكهف لما دخل صاحبهم إليهم وأخبرهم بما كانوا عنه غافلين من مدة مقامهم، سألوا الله تعالى أن يعيدهم إلى حالتهم الأولى فأعادهم إليها وحال بين من قصدهم وبين الوصول إليهم، بأن أضلهم عن الطريق إلى الكهف الذي كانوا فيه فلم يهتدوا إليه.

ثم بين سبحانه تنازعهم في عددهم، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي سيقول قوم من المختلفين في عددهم ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ أي هم ثلاثة ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ﴾ أي ويقول آخرون هم ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي قذفاً بالظن من غير يقين ـ عن قتادة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي ويقول آخرون هم ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وقيل. إن هذا إخبار من الله تعالى بأنه سيقع نزاع في عددهم. ثم وقع ذلك لما وفد نصارى نجران إلى النبي ﷺ، فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقالت اليعقوبية منهم: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقالت النسطورية: كانوا خمسة سادسهم كلبهم، وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ من الناس ـ عن قتادة. وقيل: قليل من أهل الكتاب ـ عن عطاء. وقال ابن عباس: أنا من ذلك القليل هم سبعة وثامنهم كلبهم، والأظهر أن يكون عرف ذلك من جهة النبي ﷺ. وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: هم مكسلمينا، وتمليخا، ومرطولس، ونينونس، وساربنونس، ودربونس، وكشوطبنونس وهو الراعي ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي فلا تجادل الخائضين في عددهم وشأنهم ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ فيه وجوه:

أحدها: أن معناه: لا تجادلهم إلا بما أظهرنا لك من أمرهم ـ عن ابن عباس وقتادة ومجاهد، أي لا تجادل إلا بحجة ودلالة وإخبار من الله سبحانه، وهو المراء الظاهر.

وثانيها: أن المراد: لا تجادلهم إلا جدالًا ظاهراً، وهو أن تقول لهم: أثبتم عدداً وخالفكم غيركم، وكلا القولين يحتمل الصدق والكذب، فهلموا بحجة تشهد لكم.

وثالثها: أن المراد: إلا مراء يشهده الناس ويحضرونه، فلو أخبرتهم في غير ملأ من الناس لكذبوا عليك، ولبّسوا على الضعفة فادعوا أنهم كانوا يعرفونه لأن ذلك من غوامض علومهم.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ معناه: ولا تستخبر في أهل الكهف، وفي مقدار عددهم من أهل الكتاب أحداً، ولا تستفتهم من جهتهم ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره، لئلا يرجعوا في ذلك إلى مساءلة اليهود، فإنه كان واثقاً بخبر الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قد ذكر في معناه وجوه:

أحدها: أنه نهى من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول: إني أفعل شيئاً في الغد إلا أن يقيد ذلك بمشيئة الله تعالى فيقول: إن شاء الله. قال الأخفش: وفيه إضمار القول، وتقديره: إلا أن تقول إن شاء الله، ولما حذف تقول نقل إن شاء الله إلى لفظ الاستقبال، فيكون هذا تأديباً من الله للعباد، وتعليماً لهم أن يعلقوا ما يخبرون به بهذه اللفظة حتى يخرج عن حسد القطع، فلا يلزمهم كذب أو حنث إذا لم يفعلوا ذلك لمانع، وهذا معنى قول ابن عباس.

وثانيها: أن قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بمعنى المصدر، وتعلق بما تعلق به على ظاهره، وتقديره: ولا تقولن: إني فاعل شيئاً غداً إلا مشيئة الله ـ الفراء، وهذا وجه حسن يطابق الظاهر، ولا يحتاج فيه إلى بناء الكلام على محذوف، ومعناه: ولا تقل: إني أفعل إلا ما يشاء الله

ويريده، وإذا كان الله تعالى لا يشاء إلا الطاعات فكأنه قال: لا تقل: إني أفعل إلا الطاعات، ولا يطعن على هذا جواز الإخبار عما يفعل من المباحات التي لا يشاؤها الله تعالى، لأن هذا النهي نهي تنزيه لا نهي تحريم، بدلالة أنه لو لم يقل ذلك لم يأثم بلا خلاف.

وثالثها: أنه نهى عن أن يقول الإنسان: سأفعل غداً وهو يجوز الاخترام قبل أن يفعل ما أخبر به فلا يوجد مخبره على ما أخبر به فهو كذب، ولا يأمن أيضاً ألا يوجد مخبره بحدوث شيء من فعل الله تعالى نحو المرض والعجز، وبأن يبدو له هو في ذلك فلا يسلم خبره من الكذب إلا بالاستثناء الذي ذكره الله تعالى، فإذا قال: إني صائر غداً إلى المسجد إن شاء الله، أمن من أن يكون خبره هذا كذباً، لأن الله تعالى إن شاء أن يلجئه إلى المصير إلى المسجد غداً حصل المصير إليه منه لا محالة، فلا يكون خبره هذا كذباً، وإن لم يوجد المصير منه إلى المسجد لأنه لم يوجد ما استثناه في ذلك من مشيئة الله تعالى ـ عن الجبائي، وقد ذكرنا فيما قبل ما جاء في الرواية أن النبي ﷺ سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين فقال: أخبركم عنه غداً، ولم يستثن، فاحتبس الوحي عنه أياماً حتى شق عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله تعالى.

وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه كلام متصل بما قبله، ثم اختلف في ذلك فقيل: معناه، واذكر ربك إذا نسيت الاستثناء، ثم تذكرت فقل: إن شاء الله، وإن كان بعد يوم أو شهر أو سنة ـ عن ابن عباس. وقد روي ذلك عن أئمتنا عليهم السلام، ويمكن أن يكون الوجه فيه أنه إذا استثنى بعد النسيان فإنه يحصل له ثواب المستثنى، من غير أن يؤثر الاستثناء بعد انفصال الكلام في الكلام، وفي إبطال الحنث، وسقوط الكفارة في اليمين، وهو الأشبه بمراد ابن عباس في قوله. وقيل: فاذكر الاستثناء ما لم تقم من المجلس ـ عن الحسن ومجاهد. وقيل: فاذكر الاستثناء إذا تذكرت ما لم ينقطع الكلام، وهو الأوجه. وقيل: معناه، واذكر ربك إذا نسيت الاستثناء بأن تندم على ما قطعت عليه من الخبر ـ عن الأصم.

والآخر: أنه كلام مستأنف غير متعلق بما قبله، ثم اختلف في معناه، فقيل معناه: واذكر ربك إذا غضبت بالاستغفار ليزول عنك الغضب ـ عن عكرمة. وقيل: إنه أمر بالانقطاع إلى الله تعالى، ومعناه: واذكر ربك إذا نسيت شيئاً بك إليه حاجة يذكره لك ـ عن الجبائي. وقيل؛ المراد به الصلاة، والمعنى: إذا نسيت صلاة فصلها إذا ذكرتها ـ عن الضحاك والسدي.

قال السيد الأجل المرتضى قدس الله روحه: اعلم أن للاستثناء الداخل على الكلام وجوهاً مختلفة، فقد يدخل في الإيمان والطلاق والعتوق وسائر العقود، وما يجري مجراها من الأخبار، فإذا دخل في ذلك اقتضى التوقف عند إمضاء الكلام، والمنع من لزوم ما يلزم به، ولذلك يصير ما يتكلم به كأنه لا حكم له، ولذلك يصح على هذا الوجه أن يستثنى الإنسان في الماضي، فيقول؛ قد خلت الدار إن شاء الله تعالى، ليخرج بهذا الاستثناء من أن يكون كلامه خبراً قاطعاً أو يلزم به حكم، وإنما لم يصح دخوله في المعاصي على هذا الوجه، لأن فيه إظهار الانقطاع إلى الله تعالى، والمعاصي لا يصح ذلك فيها، وهذا الوجه أحد ما يحتمله تأويل الآية.

وقد يدخل الاستثناء في الكلام ويراد به اللطف والتسهيل، وهذا الوجه يختص بالطاعات، ولهذا جرَى قول القائل: لأقضين غداً ما عليّ من الدين، أو لأصلين غداً إن شاء الله ـ: مجرى أن يقول: إني فاعل إن لطف الله تعالى فيه وسهله، ومتى قصد الحالف هذا الوجه لم يجب إذا لم يقع منه الفعل أن يكون حانثاً أو كاذباً، لأنه إذا لم يقع علمنا أنه لم يلطف فيه لأنه لا لطف له، وهذا الوجه لا يصح أن يقال في الآية لأنه يختص الطاعات، والآية تتناول كل ما لم يكن قبيحاً، بدلالة إجماع المسلمين على حسن استثناء ما تضمنه في كل فعل لم يكن قبيحاً.

وقد يدخل الاستثناء في الكلام ويراد به التسهيل والإقدار والتخلية والبقاء على ما هو عليه من الأحوال، وهذا هو المراد إذا دخل في المباحات، وهذا الوجه يمكن في الآية.

وقد يدخل في الكلام استثناء المشيئة في الكلام وإن لم يرد به شيء من المتقدم ذكره، بل يكون الغرض الانقطاع إلى الله تعالى من غير أن يقصد به إلى شيء من هذه الوجوه، ويكون هذا الاستثناء غير معتد به في كونه كاذباً أو صادقاً، لأنه في الحكم كأنه قال: لأفعلن كذا إن وصلت إلى مرادي مع انقطاعي إلى الله تعالى، وإظهاري الحاجة إليه، وهذا الوجه أيضاً يمكن في الآية، ومتى تؤمل جملة ما ذكرناه من الكلام عرف به الجواب عن المسألة التي لا يزال يسأل عنها من يذهب إلى خلاف العدل من قولهم: لو كان الله تعالى إنما يريد الطاعات من الأفعال دون المعاصي، لوجب إذا قال [مَنْ] عليه الدين لغيره وطالبه به: والله لأعطينك حقك غداً إن شاء الله أن يكون كاذباً أو حانثاً، إذا لم يفعل، لأن الله تعالى قد شاء ذلك منه عندكم وإن كان لم يقع. ولكان يجب أن تلزمه به الكفارة، وألا يؤثر هذا الاستثناء في يمينه، ولا يخرجه من كونه حانثاً، كما أنه لو قال: والله لأعطينك حقك غداً إن قام زيد، فقام ولم يعطه يكون حانثاً، وفي التزام الحنث خروج من الإجماع. انتهى كلامه رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ معناه: قل: عسى ربي أن يعطيني من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب من الرشد، وأدل من قصة أصحاب الكهف ـ عن الزجاج. ثم إن الله سبحانه فعل به ذلك حيث آتاه من علم غيوب أخبار المرسلين وآثارهم، ما هو واضح في الدلالة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف. وقيل: إن معناه، ادع الله أن يذكرك إذا نسيت شيئاً، وقيل: إن لم يذكرني الله ذلك الذي نسيت فإنه يذكرني ما هو أنفع لي منه ـ عن الجبائي.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةِ سِنِينَ﴾ مضافاً، والباقون بالتنوين. وقرأ: ﴿**ولا تشرك**﴾ بالتاء مجزوماً ابن عامر وروح وزيد عن يعقوب وسهل، والباقون: ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ بالرفع والياء.

● **الحجة:** قال أبو الحسن: يكون السنين لثلاثمائة، قال: ولا يحسن إضافة المائة إلى السنين، لا تكاد العرب تقول: مائة سنين، قال: وهو جائز في ذا المعنى، وقد يقوله بعض العرب، قال أبو علي: ومما يدل على صحة قول من قال؛ ثلاثمائة سنين أن هذا الضرب من العدد الذي يضاف في اللغة المشهورة إلى الآحاد نحو: ثلاثمائة رجل وأربعمائة ثوب قد جاء مضافاً إلى الجمع في قول الشاعر:

فما زوّدوني غير سحق عمامة   وخمس مِيءٍ منها قِسي وزايف[1]

وذلك أن قوله: ميء لا يخلو من أن يكون في الأصل كأنه فعلة فجمع على فعل، مثل سدرة وسدر، أو يكون فعلة فجمع على فعول، مثل بدرة وبُدور، ومائة[2] ومؤن، قال:

(عظيمات الكلاكل والمؤون)

والأولى حمله على فعول، وأنه خفف كما يخفف في القوافي كقوله:

(كنهور كان من أعقاب المسِيء)[3]

ثم كسر فاؤه كما يكسر في نحو: حلى، وقال غيره: إن العرب قد تضع الجمع هنا موضع الواحد، لأن الأصل أن تكون الإضافة إلى الجمع، قال الشاعر:

ثلاثمائين قد مضين كواملا   وهأنذا قد ابتغي مر أربع

فجاء به على الأصل. ومن نون ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ ففي نصب سنين قولان:

أحدهما: أن يكون سنين بدلًا من ثلاثمائة أو عطف بيان.

والآخر: أن يكون تمييزاً، كما تقول: عندي عشر أرطال زيتاً، قال الربيع بن ضبيع الفزاري:

إذا عاش الفتى مائتين عاماً   فقد ذهب اللذاذة والفناء

قال الزجاج: ويجوز أن يكون ﴿سِنِينَ﴾ من نعت المائة، فيكون مجروراً، وهو راجع في المعنى إلى ثلاث، كما قال عنترة:

فيها اثنتان وأربعون حلوبة   سودا كخافية الغراب الأسحم

---

(١) السحق: الثوب الخلق البالي. ودرهم قسي زائف: رديء.

(٢) المائة: الخاصرة.

(٣) الكنهور من السحاب: المتراكب الثخين. والسمى على فعول جمع سماء: المطر. وذكر في هامش (اللسان) أن هذا الشطر لا وزن له معروف.

فجعل سودا نعتاً لحلوبة، وهو في المعنى نعت لجملة العدد، قال أبو علي: لا يمتنع أن يكون الشاعر جعل: حلوبة جمعاً، وجعل سودا وصفاً لها، وإذا كان المراد به الجمع فلا يمتنع أن يقع تفسيراً لهذا الضرب من العدد من حيث كان على لفظ الآحاد، كما يقال: عشرون نفراً وثلاثون قبيلًا.

ومن قرأ: ﴿ولا تشرك﴾ بالتاء، فإنه على النهي عن الإشراك، والقراءة الأخرى أشيع وأولى لتقدم أسماء الغيبة، وهو قوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ والمعنى: ولا يشرك الله في حكمه أحداً.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن مقدار مدة لبثهم، فقال: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ معناه: وأقام أصحاب الكهف من يوم دخلوا الكهف إلى أن بعثهم الله وأطلع عليهم الخلق ثلاثمائة سنة ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ أي تسع سنين، إلا أنه استغنى بما تقدم عن إعادة ذكر تفسير التسع، كما يقال: عندي مائة درهم وخمسة ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ معناه: إن حاجَّك يا محمد أهل الكتاب في ذلك فقل: الله أعلم بما لبثوا، وذلك أن أهل نجران قالوا: أما الثلاثمائة فقد عرفناها وأما التسع فلا علم لنا بها. وقيل: إن معناه، الله أعلم بما لبثوا إلى أن ماتوا، وحكى عن قتادة أنه قال: قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ﴾ الآية. حكاية عن قول اليهود، وقوي ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ فذكر أنه سبحانه العالم بمقدار لبثهم دون غيره، وقد ضعف هذا الوجه بأن أخبار الله لا ينبغي صرفها إلى الحكاية إلا بدليل قاطع، ولو كان الأمر على ما قاله لم تكن مدة لبثهم مذكورة، ومن المعلوم أن الله سبحانه أراد بالآية الاستدلال على عجيب قدرته وباهر آيته، وذلك لا يتم إلا بعد معرفة مدة لبثهم، فالمراد بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ بعد بيان مدة لبثهم إبطال قول أهل الكتاب واختلافهم في مدة لبثهم، فتقديره: قل يا محمد: الله أعلم بمدة لبثهم، وقد أخبر بها، فخذوا بما أخبر الله تعالى، ودعوا قول أهل الكتاب فهو أعلم بذلك منهم ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والغيب: أن يكون الشيء بحيث لا يقع عليه الإدراك، أي لا يغيب عن الله سبحانه شيء، لأنه لا يكون بحيث لا يدركه فيعلم ما غاب في السماوات والأرض عن إدراك العباد ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ هذا لفظ التعجب، ومعناه: ما أبصره وأسمعه، أي ما أبصر الله تعالى لكل مبصر، وما أسمعه لكل مسموع، فلا يخفى عليه من ذلك، وإنما أخرجه مخرج التعجب على وجه التعظيم. وروي أن يهودياً سأل علي بن أبي طالب عليه السلام عن مدة لبثهم، فأخبره بما في القرآن، فقال: إنا نجد في كتابنا ثلاثمائة، فقال عليه السلام: ذاك بسنيّ الشمس، وهذا بسنيّ القمر، وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ أي ليس لأهل السماوات والأرض من دون الله من ناصر يتولى نصرتهم. ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ الله ﴿فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ فلا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم الله تعالى به. وقيل: معناه، أنه لا يشرك الله في حكمه بما يخبر به من الغيب أحداً، وعلى القراءة الأخرى معناه: ولا تشرك أنت أيها الإنسان في حكمه أحداً.

ثم قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي واقرأ عليهم ما أوحى الله إليك من أخبار أصحاب الكهف وغيرهم، فإن الحق فيه. وقيل: معناه، اتبع القرآن

واعمل به ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي لا مغيِّر لما أخبر الله به فيه وما أمر به، وعلى هذا فيكون التقدير: لا مبدّل لحكم كلماته ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ معناه: إن لم تتبع القرآن فلن تجد من دون الله ملجأ ـ عن مجاهد. وقيل: حرزاً ـ عن ابن عباس. وقيل: موئلًا ـ عن قتادة. وقيل: معدلًا ومحيصاً ـ عن الزجاج وأبي مسلم، والأقوال متقاربة في المعنى، يقال: لحد إلى كذا أو التحد إذا مال إليه.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وحده: ﴿**بالغُدْوة**﴾ والباقون: ﴿**بِٱلْغَدَوٰةِ**﴾ وفي الشواذ قراءة الحسن ﴿**ولا تُعْدِ عينيك**﴾ وقراءة عمرو بن قائد ﴿مَنْ أغفَلَنا قلبُه﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: أما ﴿**غُدوة**﴾ فهو اسم موضوع للتعريف، وإذا كان كذلك فلا ينبغي أن تدخل عليه الألف واللام، كما لا تدخل على سائر الأعلام وإن كانت قد كتبت في المصحف بالواو، ولم يدل على ذلك، كما أنهم كتبوا الصلوة بالواو وهي ألف، وحجة من أدخل اللام المعرفة عليها أنه قد يجوز وإن كانت معرفة أن تتنكر، كما حكاه أبو زيد من أنهم يقولون: لقيته فينة والفينة بعد الفينة، ففينة مثل غدوة في التعريف بدلالة امتناع الإنصراف، وقد دخلت عليه لام التعريف، وذلك أن يقدر من أمة كلها له مثل هذا الاسم فيدخل التنكير لذلك ويقوي هذا تثنية الأعلام وجمعها، وقوله:

(لا هيثم الليلة للمَطِيِّ)

وقولهم: أما النضرة فلا نضرة لك، فأجرى مجرى ما يكون شائعاً في الجنس، وكذلك الغدوة.

وأما قوله: ﴿**ولا تعد عينيك**﴾ فإنه منقول من عدت عيناك، إذا جاوزتا، وهو من قولهم: جاء القوم عدا زيد، أي جاوز بعضهم زيداً، ثم نقل إلى أعديت عيني عن كذا، أي صرفتها عنه، قال الشاعر:

حتى لحقنا بهم تُعدِي فوارسَنا ... كأننا رَعْنُ قفٌّ ترفع الألا[1]

---

(١) الرعن: الأنف العظيم من الجل تراه متقدماً. والقف: ما ارتفع من الأرض والأل: شيء كالسراب تراه في أول النهار وآخره، كأنه يرفع الشخوص. وقوله: «يرفع الألا» مقلوب أي يرفعه الأل.

أي تعدى فوارسنا خيلهم عن كذا، فحذف المفعول بعد المفعول، أو تعديها، من عدا الفرس إذا جرى، وعلى أن أصلهما واحد، لأن الفرس إذا عدا فقد جاوز مكاناً إلى غيره.

وأما من قرأ: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُمْ﴾ فمعناه: ولا تطع من ظننا غافلين عنه، وهو من قولهم: أغفلت الرجل، أي وجدته غافلًا، قال الأعشى:

أثــوي وقــصــر لــيــلة لــيُــزَوِّدا ومـضـى وأخـلف مـن قـتـيـلة مـوعـدا[1]

أي صادفه مخلفاً.

● **اللغة:** الفرط: التجاوز للحق والخروج عنه، من قولهم: أفرط إفراطاً إذا أسرف. والسرادق: الفسطاط المحيط بما فيه، ويقال: السرادق ثوب يدار حول الفسطاط، قال رؤبة:

يـا حـكـمُ بـنُ الـمـنـذِرِ بـن الـجـارود سـرادق الـمـجـد عـلـيـك مـمـدود

والمهل: خثارة الزيت. وقيل: هو النحاس الذائب. والمرتفق: المتكأ من المرفق، يقال: ارتفق إذا اتكأ على مرفقه، قال أبو ذؤيب:

بـات الـخـليُّ وبـت الـلـيـل مـرتـفـقـاً كـأن عـيـنـي فـيـهـا الـصَّـابُ مذبـوح[2]

ويقال: إنه مأخوذ من الرفق والمنفعة.

النزول: نزلت الآية الأولى في سلمان وأبي ذر وصهيب وعمار وحباب وغيرهم من فقراء أصحاب النبي ﷺ، وذلك أن المؤلفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ عيينة بن الحصين والأقرع بن حابس وذووهم فقالوا: يا رسول الله، إن جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء، روائح صنانهم[3] ـ وكانت عليهم جبات الصوف ـ جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء، فلما نزلت الآية قام النبي ﷺ يلتمسهم فأصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله عز وجل، فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات.

● **المعنى:** ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالصبر مع المؤمنين فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ يا محمد، أي احبس نفسك ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي يداومون على الصلاة والدعاء عند الصباح والمساء لا شغل لهم غيره، ويستفتحون يومهم بالدعاء ويختمونه بالدعاء ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي رضوانه. وقيل: يريدون تعظيمه والقربة إليه دون الرياء والسمعة ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي ولا تتجاوز عيناك عنهم بالنظر إلى غيرهم من أبناء الدنيا ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿تُرِيدُ﴾ في موضع الحال، أي مريداً مجالسة أهل الشرف والغنى، وكان النبي ﷺ

---

(١) قوله فمضى أي: مضى العاشق.

(٢) الخلي: الفارغ. والصاب: شجر مر. وقيل: عصارة شجر مر، وربما نزت منه قطرة فتقع في العين، كأنها شهاب نار، وربما أضعف البصر.

(٣) الصنان: نتن الإبط.

حريصاً على إيمان العظماء من المشركين طمعاً في إيمان أتباعهم، ولم يمل إلى الدنيا وزينتها قط، ولا إلى أهلها، وإنما كان يلين في بعض الأحايين للرؤساء طمعاً في إيمانهم، فعوتب بهذه الآية وأمر بالإقبال على فقراء المؤمنين، وألا يرفع بصره عنهم مريداً مجالسة الأشراف ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ قيل في معناه أقوال:

أحدها: أن معناه: ولا تطع من جعلنا قلبه غافلًا عن ذكرنا بتعريضه للغفلة، ولهذا قال: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ومثله ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

وثانيها: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أي نسبنا قلبه إلى الغفلة، كما يقال: أكفره إذا نسبه إلى الكفر وسماه كافراً، كقول الكميت:

وطائفة قد أكفروني بحبكم وطائفة قالوا مسيء ومذنب

وثالثها: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ صادفناه غافلًا عن ذكرنا، كما قالت العرب: سألناكم فما أفحمناكم، وقاتلناكم فما أجبناكم.

ورابعها: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أي جعلناه غفلًا لم نسمه بسمة قلوب المؤمنين، ولم نعلم فيه علامة المؤمنين لتعرفه الملائكة بتلك السمة، تقول العرب: أغفل فلان ماشيته إذا لم يسمها بسمة تعرف.

وخامسها: أن معناه: ولا تطع من تركنا قلبه، خذلناه وخلينا بينه وبين الشيطان، بتركه أمرنا ـ عن الحسن.

﴿**واتبع هواه**﴾ أي تطع من اتبع هواه في شهواته وأفعاله ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي سرفاً وإفراطاً ـ عن مقاتل والجبائي. وقيل: تجاوزاً للحد ـ عن الأخفش وقيل: ضياعاً وهلاكاً ـ عن مجاهد والسدي. قال الزجاج: ومن قدم العجز في أمره أضاعه وأهلكه، فيكون المعنى في هذا أنه ترك الإيمان والاستدلال بآيات الله واتبع الهوى. ثم قال سبحانه: ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين أمروك بتنحية الفقراء ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي هذا الحق من ربكم، يعني القرآن. وقيل: معناه، الذي أتيتكم به الحق ـ عن الزجاج، من ربكم يعني، لم آتكم به من قبل نفسي وإنما آتيتكم به من قبل الله. وقيل: معناه، ظهرت الحجة ووضح الحق من ربكم وزالت الشبهة ﴿**فمن شاء فليؤمن من شاء فليكفر**﴾ هذا وعيد من الله سبحانه وإنذار، ولذلك عقبه بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ وإنما جاز التهديد بلفظ الأمر، لأن المهدد كالمأمور بإهانة نفسه، ومعناه: فليختر كلٌ لنفسه ما شاء، فإنهم لا ينفعون الله تعالى بإيمانهم، ولا يضرونه بكفرهم، وإنما يرجع النفع والضر إليهم ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي هيأنا وأعددنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله تعالى ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ والسرادق حائط من نار يحيط بهم ـ عن ابن عباس. وقيل: هو دخان النار ولهبها يصل إليهم قبل وصولهم إليها، وهو الذي في قوله: ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ ـ عن قتادة. وقيل: أراد أن النار أحاطت بهم من جميع جوانبهم، فشبه ذلك في السرادق ـ عن أبي مسلم ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ من شدة العطش وحر النار ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو كل شيء أذيب كالرصاص والنحاس والصفر ـ عن ابن مسعود. وقيل: كعكر الزيت إذا قرب إليه

سقطت فروة رأسه. روي ذلك مرفوعاً. وقيل: كدرديّ الزيت ـ عن ابن عباس. وقيل: هو القيح والدم ـ عن مجاهد. وقيل: هو الذي انتهى حره ـ عن سعيد بن جبير. وقيل: إنه ماء أسود وإن جهنم سوداء وماؤها أسود وشجرها أسود وأهلها سود ـ عن الضحاك ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ أن ينضجها عند دنوه منها ويحرقها، وإنما جعل سبحانه ذلك إغاثة لاقترانه بذكر الإغاثة ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذلك المهل ﴿وساءت﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي متكأ لهم. قيل؛ ساءت مجتمعاً مأخوذ من المرافقة وهي الاجتماع ـ عن مجاهد. وقيل: منزلًا ومستقراً ـ عن ابن عباس وعطاء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

● **اللغة:** العدن: الإقامة، يقال: عدن بالمكان يعدن عدناً. والأساور: جمع إسوار على حذف الزيادة، لأن الأصل أساوير ـ عن قطرب وأبي عبيدة. وقيل: جمع أسورة وأسورة جمع سوار ـ عن الزجاج، وهو سوار اليد بالكسر. وقد حكي سوار بالضم. والسندس: ما رق من الديباج، واحده سندسة. والأستبرق: الغليظ من الديباج. وقيل: هو الحرير، قال المرقش:

تراهن يلبسن المشاعر مرة   واستبرق الديباج طوراً لباسها[١]

والأرائك: جمع أريكة وهي السرير، قال:

خدود جفت في السير حتى كأنما   يباشرن بالمعزاء مس الأرائك[٢]

قال الزجاج: الأرائك: الفرش في الحجال، قال الأعشى:

بين الرواق وجانب من سيرها   منها وبين أريكة الأنضاد[٣]

● **الإعراب:** قيل في خبر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أقال:

أحدها: أنه قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وعلى هذا فيكون في الخبر محذوفاً، كأنه لا نضيع أجر من أحسن عملًا منهم.

والثاني: أن يكون الخبر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ ويكون ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ الخ اعتراضاً بين الاسم والخبر.

---

(١) المشاعر جمع المشعر بمعنى الشعار؛ ما تحت الدثار من اللباس، وهو ما يلي شعر الجسد.

(٢) المعزاء: الأرض الحزنة ذات الحجارة.

(٣) الأنضاد جمع النضد: السرير يجعل عليه المتاع، والثياب.

والثالث: أن المعنى: أنّا لا نضيع أجرهم، لأن من أحسن عملاً في المعنى هم الذين آمنوا.

● **المعنى**: لما تقدم الوعيد عقبه سبحانه بذكر الوعد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الطاعات ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي لا نترك أعمالهم تذهب ضياعاً، بل نجازيهم ونوفيهم أجورهم من غير بخس ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي إقامة لهم، لأنهم يبقون فيها ببقاء الله دائماً أبداً. وقيل: عدن بطنان الجنة، أي وسطها، وهي جنة من الجنان ـ عن ابن مسعود، وعلى هذا فإنما جمع سعتها، ولأن كل ناحية منها تصلح أن تكون جنة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لأنهم على غرف في الجنة، كما قال: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ وقيل: إن أنهار الجنة تجري في أخاديد من الأرض، فلذلك قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ أي يجعل لهم فيها حلى من أساور. وقيل: إنه يحلى كل واحد بثلاثة أساور: سوار من فضة، وسوار من ذهب، وسوار من لؤلؤ وياقوت ـ عن سعيد بن جبير ﴿**ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق**﴾ أي من الديباج الرقيق والغليظ. وقيل: إن الاستبرق فارسي معرب أصله استبره. وقيل: هو الديباج المنسوج بالذهب ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي متنعمين في تلك الجنات على السرر في الحجال، وإنما قال: متكئين لأن الاتكاء يفيد أنهم منعمون في الأمن والراحة، فإن الإنسان لا يتكىء إلا في حال الأمن والسلامة ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ أي طاب ثوابهم وعظم ـ عن ابن عباس ﴿**وحسنت**﴾ الأرائك ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي موضع ارتفاق. وقيل: منزلاً ومجلساً ومجتمعاً.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

● **القراءة**: قرأ أبو جعفر وعاصم ويعقوب وسهل: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ في الموضعين بالفتح، ووافق رويس في الأول، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم في الموضعين، والباقون: بضم الثاء والميم في الحرفين. وقرأ أهل الحجاز وابن عامر: ﴿**خيراً منهما**﴾ بزيادة ميم، وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ أهل العراق ﴿مِنْهَا﴾ بغير ميم.

● **الحجة**: قال أبو علي: الثمرة ما يجتنى من ذي الثمر، وجمعها ثمرات ويجمع على ثمر، كبقرة وبقر، وعلى ثمار كرقبة ورقاب، وعلى هذا تشبيه المخلوقات بغير المخلوقات، وقد يشبه كل واحد منهما بالآخر، ويجوز في القياس أن يكسر ثمار على ثمر ككتاب وكتب، وقراءة

أبي عمرو ﴿وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ﴾ يجوز أن يكون جمع ثمار كما يخفف كتب، ويجوز أن يكون ﴿ثُمُرٌ﴾ جمع ثمرة، كبدنة وبدن، وخشبة وخشب، ويجوز أن يكون ﴿ثُمُرٌ﴾ واحدة، كعنق وطنب، فعلى أي هذه الوجوه كان جاز إسكان العين منه، كذلك في قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وقال بعض أهل اللغة: الثمر المال، والثمر المأكول، وجاء في التفسير قريب من هذا، قالوا: الثمر النخل والشجر، ولم يرد به الثمرة والثمر، على ما روي عن عدة من السلف بل الأصول التي تحمل الثمرة لا نفس الثمر، بدلالة قوله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي في الجنة، والنفقة إنما تكون على ذوات الثمرة في أغلب العرف، وكانت الآفة التي أرسلت إليها اصطلمت الأصول واجتاحتها، كما جاء في صفة الجنة الأخرى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي كالليل في سوادها لاحتراقها، وكالنهار في بياضها وما بطل من خضرتها بالآفة النازلة بها وحكي عن أبي عمرو: الثَّمر والثُّمر أنواع المال، فإذا اضطلم الثمر فاجتيح دخلت الثمرة فيه، ولا يمكن أن يصاب الأصل ولا تصاب الثمرة، وإذا كان كذلك فمن قرأ: بثُمُره وثمره كان قوله أبين ممن قرأ بالفتح، ويجوز القراءة بالفتح، كأنه أخبر عن بعض ما أصيب، وأمسك عن بعض. وقوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ فالإفراد لأنه أقرب إلى الجنة المفردة في قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ والتثنية لتقدم ذكر الجنتين.

● **اللغة:** حف القوم بالشيء: إذا أطافوا به، وحفافا الشيء جانباه، كأنهما أطافا به، قال طرفة:

كأن جناحي مضرحي تكنفا حفافيه شكا في العسيب بمسرد(١)

والمحاورة: مراجعة الكلام في المخاطبة، ويقال: كلمت فلاناً فما رجع إلى حوار ومحورة وحوائر.

● **الإعراب:** إنما قال: ﴿ءَاتَتْ﴾ على لفظ ﴿كِلْتَا﴾ فإنه بمنزلة كل في إنه مفرد اللفظ، ولو قال: أتتا، على المعنى لجاز، قال الشاعر في التوحيد:

وكلتاهما قد خط لي في صحيفتي فلا العيش أهواه ولا الموت أروح(٢)

● **المعنى:** ثم ضرب الله لعباده مثلاً يستفيئهم به إلى طاعته، ويزجرهم عن معصيته وكفران نعمته، فقال مخاطباً لنبيه ﷺ: «واضرب لهم مثلًا رجلين» روي عن ابن عباس أنه قال: يريد ابني ملك كان في بني إسرائيل توفي وترك ابنين وترك مالًا جزيلًا، فأخذ أحدهما حقه منه، وهو المؤمن منهما فتقرب إلى الله تعالى، وأخذ الآخر حقه فتملك به ضياعاً منها هاتان الجنتان، وفي تفسير علي بن إبراهيم بن هاشم، إنه يريد رجلًا كان له بستانان كبيران كثيرا الثمار كما حكي سبحانه، وكان له جار فقير، فافتخر الغني على الفقير، وقال له: أنا أكثر منك مالًا

---

(١) يصف ناحيتي عسيب ذنب الناقة، وشبه شعر ذنبها في طوله بجناحي النسر. والمضرحي: النسر. وشك الشيء بالشيء: انتظمه. والعسيب: عظم الذنب. والمسرد: الإبرة.

(٢) أروح الشيء: وجد ريحه.

وأعز نفراً، وهذا أليق بالظاهر ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي بستانين أجنهما الاشجار ﴿**من أعناب وحففناهما بنخل**﴾ أي جعلنا النخل مطيفاً بهما ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي وجعلنا بين البستانين مزرعة، فكملت النعمة بالعنب والتمر والزرع ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي كل واحدة من البستانين آتت غلتها وأخرجت ثمرتها، وسماه «أكلا» لأنه مأكول ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي لم تنقص منه شيئاً، بل أدته على التمام والكمال، كما قال الشاعر:

أيظلمني مالي كذا ولوى يدي لوى يده الله الذي هو غالبه[(١)]

أي ينقصني مالي ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي شققنا وسط الجنتين نهراً يسقيهما حتى يكون الماء قريباً منهما يصل إليهما من غير كد وتعب، ويكون ثمرهما وزرعهما بدوام الماء فيهما أوفى وأزوى ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قيل إن معناه: وكان للنخل الذي فيهما ثمر. وقيل: معناه، وكان للرجل ثمر ملكه من غير جنتيه كما يملك الناس ثماراً لا يملكون أصلها ـ عن ابن عباس. وقيل: كان لهذا الرجل مع هذين البستانين الذهب والفضة ـ عن مجاهد. وقيل: كان له معهما جميع الأموال ـ عن قتادة وابن عباس في رواية أخرى ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي فقال الكافر لصاحبه المؤمن وهو يخاطبه ويراجعه في الكلام ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي أعز عشيرة ورهطاً، وسمي العشيرة نفراً، لأنهم ينفرون معه في حوائجه. وقيل: معناه، أعز خدماً وولداً ـ عن قتادة ومقاتل ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي ودخل الكافر بستانه وهو ظالم لنفسه بكفره وعصيانه ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ أي ما أقدر أن تفنى هذه الجنة وهذه الثمار أبداً، وقيل: يريد ما أظن هذه الدنيا تفنى أبداً ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي وما أحسب القيامة آتية كائنة على ما يقوله الموحدون ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ معناه: ولئن كانت القيامة والبعث حقاً كما يقوله الموحدون، لأجدن خيراً من هذه الجنة. قال الزجاج: وهذا يدل على أن صاحبه المؤمن قد أعلمه أن الساعة تقوم، وأنه يبعث، فأجابه بأن قال له: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي كما أعطاني هذه في الدنيا سيعطيني في الآخرة أفضل منها لكرامتي عليه، ظن الجاهل أنه أوتي ما أوتي لكرامته على الله تعالى. وقيل: معناه، لأكتسبن في الآخرة خيراً من هذه التي اكتسبتها في الدنيا، ومن قرأ ﴿مِنْهُمَا﴾ رد الكناية إلى الجنتين اللتين تقدم ذكرهما، وفي هذا دلالة على أنه لم يكن قاطعاً على نفي المعاد، بل كان شاكاً فيه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ

(١) قائله: فرعان بن أعرف التميمي: وكان له ابن عاق يقال له منازل، وفيه يقول البيت. وفي رواية (اللسان): «تظلم مالي هكذا. اهـ». وفي رواية غيره: «تغمط حقي باطلًا. اهـ».

رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وابن فليح والبرجمي ويعقوب: ﴿لكنا﴾ بإثبات الألف في الوصل والوقف، وقرأ الباقون: ﴿لَٰكِنَّ۠﴾ بحذف الألف في الوصل. وقرأ البخاري لورش بالوجهين بالوصل، ولا خلاف في إثبات الألف في الوقف إلا قتيبة فإنه قرأ بغير ألف في الوصل والوقف. وفي الشواذ قراءة أبي بن كعب والحسن ﴿**لكن أنا**﴾ وقراءة عيسى الثقفي ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ وقرأ البرجمي عن أبي بكر ﴿غُوراً﴾ بضم الغين ها هنا وفي الملك، وقرأ: ﴿**ولم يكن له فية**﴾ بالياء أهل الكوفة غير عاصم، والباقون: ﴿وَلَمۡ تَكُن﴾ بالتاء، وقرأ أبو عمرو ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ بفتح الواو، و﴿للهِ الحقُّ﴾ بالرفع، وقرأ الكسائي، ﴿الوِلاية﴾ بكسر الواو، و ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ بالرفع، وقرأ حمزة وخلف ﴿الوِلاية﴾ بكسر الواو، و﴿الحقِّ﴾ بالجر، وقرأ الباقون ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ بفتح الواو، و﴿الحقِّ﴾ بالجر، وقرأ عاصم وحمزة وخلف ﴿عُقۡبٗا﴾ ساكنة القاف، والباقون بضم القاف.

● **الحجة:** قال الزجاج: من قرأ ﴿وَلَٰكِنَّا۠﴾ بتشديد النون فهو ﴿**لكن أنا**﴾ في الأصل، فطرحت الهمزة على النون فتحركت بالفتح، فصارت لكنن بنونين مفتوحين، فاجتمع الحرفان من جنس واحد، فأدغمت النون الأولى في الثانية وحذفت الألف في الوصل، لأن ألف أنا تثبت في الوقف وتحذف في الأصل في أجود اللغات، نحو: أن قمت، بغير الألف، ويجوز: أنا قمت، بإثبات الألف، وهو ضعيف جداً.

ومن قرأ ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ فأثبت الألف في الوصل، فإنه على لغة من قال: أنا قمت فأثبت الألف، قال الشاعر:

أنا شيخ العشيرة فاعرفوني حميداً قد تذريت السناما[1]

إلا أن إثبات الألف في «لكنا» هو الجيد، لأن الهمزة قد حذفت من «أنا» فصار إثبات الألف عوضاً من الهمزة.

قال أبو علي: لا أرى قوله: إن إثبات الألف هو الجيد لأنه صار عوضاً عن الهمزة كما قال، لأن هذه الألف تلحق للوقف، مثل الهاء في: ماهية وحسابيه. والهاء في مثل هذا الطرف مثل ألف الوصل في ذلك الطرف، فكما أن إثبات همزة الوصل في الوصل خطأ، كذلك الهاء

(١) سنام كل شيء: أعلاه وتذريب السنام أي علوته وفرعته.

والألف في الوصل خطأ، فلا يلزم أن يثبت عوض من الهمزة المحذوفة، ألا ترى أن الهمزة في: ويلمه، قد حذفت حذفاً على غير ما يوجبه قياس التخفيف، ولا يعوض منها، فألا يعوض منها في التخفيف القياسي أجدر، لأن الهمزة هنا في تقدير الثبات، ولولا ذلك لم يحرك حرف اللين في نحو: جيل في جيأل، ومونة في مؤنة، قال: وقد تجيء هذه الألف مثبتة في الشعر، نحو قول الأعشى:

فكيف أنا وانتحالي القوافي بعد المشيب كفى ذاك عارا

وقول الآخر [أنا شيخ العشيرة. البيت] ولا يكون ذلك مختاراً في القراءة.

ومن قرأ ﴿لكنا﴾ في الوصل فإنه يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يجعل الضمير المتصل مثل المنفصل الذي هو نحن، فيدغم النون من لكن لسكونها في النون من علامة الضمير، فيكون على هذا ﴿لكنا﴾ بإثبات الألف وصلًا ووقفاً لا غير، ألا ترى أن أحداً لا يحذف الألف من نحو: فعلنا.

وقوله: هو، من ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ ضمير الحديث والقصة، كما أنه في قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ﴾ وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كذلك، والتقدير: الأمر الله أحد لأن هذا الضمير يدخل على المبتدأ والخبر، فيصير المبتدأ والخبر موضع خبره، كما أنه في إن وكأن وظننت وما يدخل على المبتدأ والخبر كذلك، وعاد الضمير على الضمير الذي دخلت عليه لكن على المعنى، ولو عاد على اللفظ لكان: لكنا هو الله ربنا، ودخلت لكن مخففة على الضمير كما دخلت في قوله: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم﴾.

والوجه الآخر: أن سيبويه حكي أنه سمع من يقول: أعطني ابيضة، فشدد والحق الهاء بالتشديد للوقف، والهاء مثل الألف في سبسباء، والياء في عيهلى، وأجرى الهاء مجراهما في الإطلاق كما كانت مثلهما، في نحو قوله:

صفية قُومي ولا تجزعي وبكِّي النساء على حمزة

فهذا الذي حكاه سيبويه في الكلام وليس في الشعر، وكذلك الآية يكون الألف فيها كالهاء، ولا يكون الهاء للوقف، ألا ترى أن الهاء للوقف لا يبين بها المعرب ولا ما ضارع المعرب.

فعلى أحد هذين الوجهين يكون قول من أثبت الألف في الوصل أو عليهما جميعاً، ولو كانت فاصلة لكانت مثل: فأضلونا السبيلا.

وأما قراءة أبي ﴿لكن أنا﴾ فهي الأصل في قراء الجماعة ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ على ما تقدم بيانه، لأن ألف أنا محذوف في الوصل، قال الشاعر:

وترمينني بالطرف أي أنت مذنب وتقلينني لكن إياك لا أقلي[1]

---

(١) يقول: تشيرين إلى بالعين أنك مذنب وتبغضينني ولكن لا أبغضك

أي لكن أنا، وأنا مرفوع بالابتداء وخبره الجملة المركبة من المبتدأ والخبر التي هي ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ والعائد على المبتدأ من الجملة الياء في ﴿رَبِّى﴾.

ومن قرأ: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ فإعرابه واضح.

وأما من قرأ: ﴿غَوْرًا﴾ فيمكن أن يكون: غوراً لغة في غور، وإنما جاز أن يقع المصدر موقع الصفة للمبالغة، كما قال الشاعر:

تظل جياده نوحاً عليه مقلدة أعنتها صفونا

وأما قوله: ﴿ولم يكن له فية﴾ بالياء، فإن الياء والتاء هنا حسن. وأما قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ فقد حكى أبو عبيدة عن أبي عمرو: أن الولاية هنا لحن، لأن الكسرة في فعالة يجيء فيما كان صنعة ومعنى متقلداً، كالكتابة والإمارة والخلافة وما أشبه ذلك، وليس هنا معنى تولى أمر، إنما هو الولاية من الدين، وكذلك التي في الأنفال ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ وقال بعض أهل اللغة: الولاية: النصر، يقال. هم أهل ولاية عليك، أي متناصرون عليك، والولاية: ولاية السلطان، قال: وقد يجوز الفتح في هذه والكسر في تلك، كما قالوا: الوكالة والوكالة، والوصاية والوصاية بمعنى واحد، فعلى هذا يجوز الكسر في الولاية في هذا الموضع، ومن كسر القاف من ﴿الحقِ﴾ فجعله من وصف الله تعالى، وصفه بالحق وهو مصدر، كما وصفه بالعدل والسلام، والمعنى: ذو الحق وذو السلام، وكذلك الإله معنى ذو العبادة، ويدل عليه قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ ومن رفع ﴿ٱلْحَقُّ﴾ جعله صفة للولاية، ومعنى وصف الولاية بالحق أنه لا يشوبها غيره، ولا يخاف فيها ما يخاف في سائر الولايات من غير الحق. وأما قوله: ﴿عُقْبًا﴾ فإن ما كان على فعل جاز تخفيفه على ما تقدم ذكره.

● **اللغة:** أصل الحسبان: السهام التي ترمى لتجري في طلق واحد، وكأن ذلك من رمى الأساورة، وأصل الباب الحساب، وإنما يقال لما يرمي به: حسبان لأنه يكثر كثرة الحساب: قال الزجاج: الصعيد: الطريق الذي لا نبات فيه. والزلق: الأرض الملساء المستوية لا نبات فيها ولا شيء، وأصل الزلق: ما تزلق عنه الأقدام فلا يثبت عليه.

● **الإعراب:** ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يحتمل أن يكون ﴿مَا﴾ رفعاً، وتقديره: الأمر ما شاء الله، فيكون موصولًا، والضمير العائد إليه يكون محذوفاً لطول الكلام، ويجوز أن يكون التقدير: ما شاء الله كائن.

ويحتمل أن يكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب على معنى الشرط والجزاء، ويكون الجواب محذوفاً، وتقديره: أي شيء شاء الله كان، ومثله في حذف الجواب قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ﴾ ﴿أَقَلَّ﴾ منصوب بأنه مفعول ثان ﴿لترن﴾ و ﴿أَنَا﴾ إن شئت كان توكيداً أو وصفاً لياء المتكلم، وإن شئت كان فصلًا، كما تقول: كنت أنت القائم يا هذا - قاله الزجاج. ويجوز رفع ﴿أَقَلَّ﴾ وقد قرأ بها عيسى بن عمر، فيكون ﴿أَنَا﴾ مبتدأ و ﴿أَقَلَّ﴾ خبره، والجملة في موضع نصب بأن يكون المفعول الثاني ﴿لترن﴾ وقوله: ﴿فَعَسَىٰ﴾ الفاء جواب قوله: ﴿إن ترن﴾ و ﴿ثَوَابًا﴾ و ﴿عُقْبًا﴾ منصوبان على التمييز.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه جواب المؤمن للكافر، فقال: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي يخاطبه ويجيبه مكفراً له بما قاله ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ يعني أصل الخلقة، أي خلق أباك من تراب، وهو آدم عليه السلام. وقيل: لما كانت النطفة خلقها الله سبحانه بمجرى العادة من الغذاء، والغذاء ينبت من تراب، جاز أن يقول: خلقك من تراب ﴿**ثم من نطفة ثم سواك رجلا**﴾ أي نقلك من حال إلى حال حتى جعلك بشراً سوياً معتدل الخلقة القامة، وإنما كفره بإنكاره المعاد، وفي هذا دلالة على أن الشك في البعث والنشور كفر ﴿**لكنا هو الله ربي**﴾ تقديره: لكن أنا أقول: «هو الله ربي وخالقي ورازقي، فإن افتخرت عليّ بدنياك فإن افتخاري بالتوحيد» ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي لا أشرك بعبادتي إياه أحداً سواه، بل أوجهها إليه وحده خالصاً، وإنما استحال الشرك في العبادة لأنها لا تستحق إلا بأصول النعم وبالنعمة التي لا يوازنها نعمة منعم، وذلك لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى، ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ معناه: وقال لصاحبه الكافر هلا حين دخلت بستانك فرأيت تلك الثمار والزرع شكرت الله تعالى وقلت: ما شاء الله كان، وإني وإن تعبت في جمعه وعمارته، فليس ذلك إلا بقدرة الله وتيسيره، ولو شاء لحال بيني وبين ذلك ولنزع البركة عنه، فإنه لا يقوي أحد على ما في يديه من النعمة إلا بالله، ولا يكون له إلا ما شاء الله. ثم رجع إلى نفسه فقال: ﴿**إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك**﴾ معناه: إن كنت تراني اليوم فقيراً أقل منك مالًا وعشيرة وأولاداً، فلعل الله يؤتيني بستاناً خيراً من بستانك في الآخرة أو في الدنيا والآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي ويرسل على جنتك عذاباً أو ناراً من السماء فيحرقها ـ عن ابن عباس وقتادة. وقيل: يرسل عليها عذاب حسبان، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك ـ عن الزجاج. وقيل: ويرسل عليها مرامي من عذابه، إما برداً، وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي أرضاً مستوية لا نبات عليها تزلق عنها القدم، فتصير أضر أرض بعد أن كانت أنفع أرض ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً ذاهباً في باطن غامض منقطعاً فيكون أعدم أرض للماء بعد أن كانت أوجد أرض للماء ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي فلن تقدر على طلبه إذا غار ولا يبقى له أثر تطلبه به، فلن تستطيع رده. قيل معناه: فلن تستطيع طلب غير ذلك الماء بدلًا عنه. إلى هنا انتهى مناظرة صاحبه وإنذاره.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ معناه: أهلك وأحيط العذاب بأشجاره ونخيله، فهلكت عن آخرها، تقول: أحيط ببني فلان إذا هلكوا عن آخرهم، وأصل الإحاطة على الشيء. وفي الخبر: أن الله عز وجل أرسل عليها ناراً فأهلكها وغار ماؤها ﴿فَأَصْبَحَ﴾ هذا الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ تأسفاً وتحسراً ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ من المال، وهو أن يضرب يديه واحدة على الأخرى ـ عن ابن عباس. وتقليب الكفين يفعله النادم كثيراً، فصار عبارة عن الندم ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة على سقوفها وما عرش لكرمها، وذلك أن السقف ينهدم أولاً ثم ينهدم الحائط على السقف. وقيل: إن العروش الأبنية، ومعناه: خالية على بيوتها قد ذهب شجرها وبقيت جدرانها لا خير فيها ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ ندم على الكفر لفناء ماله لا لوجوب الإيمان فلم ينفعه، ولو ندم على الكفر فآمن بالله تحقيقاً لانتفع به. وقيل: إنه ندم على ما كان منه من

الشرك بالله تعالى وآمن ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لم يكن لهذا الكافر جماعة يدفعون عذاب الله عنه. وقيل: الفئة الجند، قال العجاج:

(كـمـا يـجـوز الـفـئـة الـكـمـي)

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي وما كان ممتنعاً ـ عن قتادة. قيل معناه: وما كان مسترداً بدل ما ذهب عنه. قال ابن عباس: وهذان الرجلان هما اللذان ذكرهما الله تعالى في سورة الصافات في قوله: **﴿إني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدقين﴾** إلى قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وروى هشام بن سالم وأبان بن عثمان عن الصادق عليه السلام قال: عجبت لمن خاف، كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: حسبنا الله ونعم الوكيل؟ فإني سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ وعجبت لمن اغتم، كيف لا يفزع إلى قوله: **﴿لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين﴾** فإني سمعت الله سبحانه يقول بعقبها: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعجبت لمن مكر به، كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فإني سمعت الله عز وجل يقول بعقبها: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها، كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فإني سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ وعسى موجبة.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أخبر سبحانه أن في ذلك الموضع، وفي ذلك الوقت الذي يتنازع فيه الكافر والمؤمن، الولاية بالنصرة والإعزاز لله عز وجل فهو الذي يتولى أمر عباده المؤمنين، ويملك النصرة لمن أراد. وقيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، وتقديره: الولاية يوم القيامة لله، يريد يومئذ يتولون الله ويؤمنون به ويتبرؤون مما كانوا يعبدون ـ عن القتيبي. وقيل: معناه، هنالك ينصر المؤمنين ويخذل الكافرين، فالولاية يومئذٍ خالصة له لا يملكها أحد من العباد ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي هو أفضل ثواباً ممن يرجى ثواباً، على تقدير: لو كان يثيب غيره لكان هو خير ثواباً ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره، فهو خير عقب طاعة، ثم حذف المضاف إليه. والعقب والعقبى والعاقبة بمعنى.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأبو عمرو وان عامر: ﴿**ويوم تسير**﴾ بضم التاء وفتح الياء ﴿الجِبَالُ﴾ رفع. والباقون: ﴿نُسَيِّرُ﴾ بالنون وكسر الياء، و ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ نصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من بني الفعل للمفعول به قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ ومن قرأ: «نسير» فلأنه أشبه بما بعده من قوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

● **اللغة:** الهشيم: ما يكسر ويحطم من يبس النبات. والذرو التذرية: تطيير الريح الأشياء الخفيفة في كل جهة، يقال: ذرته الريح تذروه وذرته وأذرته وأذريت الرجل عن الدابة إذا ألقيته عنها، قال الشاعر:

فقلت له صوبْ ولا تجهدنه　　فيذرك من أخرى القطاةَ فيزلق(١)

والمغادرة: الترك، ومنه الغدر، لأنه ترك للوفاء، ومنه الغدير، لترك الماء فيه. والإشفاق: الخوف من وقوع مكروه مع تجويز ألا يقع، وأصله الرقة، ومنه الشفق الحمرة الرقيقة التي تكون في السماء، وشفقة الإنسان على ولده: رقته عليه.

● **الإعراب:** ﴿صَفًّا﴾ نصب على الحال، أي مصفوفين، ﴿**أن لن نجعل**﴾ أن هذه مخففة من الثقيلة، و ﴿**لن نجعل لكم موعداً**﴾ خبره، وقال [بعضهم في قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ قد كتبت في المصحف اللام مفصولة ولا وجه له. ﴿**ولا يغادر**﴾ في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يضرب المثل للدنيا تزهيداً فيها وترغيباً في الآخرة، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ يا محمد ﴿لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي نبت بذلك الماء نبات التف بعضه ببعض، يروق حسناً وغضاضة، وهذا مفسر في سورة يونس عليه السلام: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ أي كثيراً مفتتاً ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ فتنقله من موضع إلى موضع، فانقلاب الدنيا كانقلاب هذا النبات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي قادراً لا يجوز عليه المنع. قال الحسن: أي كان الله مقتدراً على كل شيء قبل كونه. قال الزجاج: وتأويله أن ما شاهدتم من قدرته ليس بحادث، وأنه كذلك كان لم يزل، هذا مذهب سيبويه. وقيل: إنه إخبار عن الماضي ودلالة على المستقبل، وهذا المثل إنما هو للمتكبرين الذين اغتروا بأموالهم، واستنكفوا عن مجالسة فقراء المؤمنين، أخبرهم الله سبحانه أن ما كان من الدنيا لا يراد الله سبحانه به، فهو كالنبت الحسن على المطر لا مادة له، فهو يروق ما خالطه ذلك الماء، فإذا انقطع عنه عاد هشيماً لا ينتفع به، ثم قال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي يتفاخر بهما ويتزين بهما في الدنيا، ولا ينتفع بهما في الآخرة، وإنما سماهما زينة لأن في المال جمالاً وفي البنين قوة ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا، وكلاهما لا يبقى للإنسان فينتفع به في الآخرة ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ وهي الطاعات لله تعالى وجميع الحسنات لأن ثوابها يبقى أبداً ـ عن ابن عباس وقتادة ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ

---

(١) صوب الفرس: أرسله في الجري. والقطاة: مقعد الرديف من الدابة.

﴿ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي أفضل ثواباً وأصدق أملًا من المال والبنين وسائر زهرات الدنيا، فإن من الآمال كواذب وهذا أمل لا يكذب، لأن من عمل الطاعات وجد ما يأمله عليها من الثواب. وقيل: إن الباقيات الصالحات هي ما كان يأتي به سلمان وصهيب وفقراء المسلمين وهو: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ـ عن ابن عباس في رواية عطاء ومجاهد وعكرمة، وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال لجلسائه: خذوا جُنتكم، قالوا: أنحذر عدواً؟ قال: خذوا جنتكم من النار، قولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهم المقدمات، وهن المجيبات، وهن المعقبات، وهن الباقيات الصالحات، ورواه أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عن النبي ﷺ ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: ذكر الله عندما أحل أو حرم. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه، وعن العدو أو تجاهدوه، فلا تعجزوا عن قول: سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإنهن من الباقيات الصالحات فقولوها. وقيل: هي الصلوات الخمس ـ عن ابن مسعود وسعيد بن جبير ومسروق والنخعي. وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. وروى عنه أيضاً: إنَّ من الباقيات الصالحات القيام بالليل لصلاة الليل. وقيل: إن الباقيات الصالحات هنّ البنات الصالحات. والأولى حملها على العموم فيدخل فيها جميع الطاعات والخيرات. وفي كتاب ابن عقدة أن أبا عبد الله عليه السلام قال للحصين بن عبد الرحمٰن: يا حصين، لا تستصغر مودتنا فإنها من الباقيات الصالحات. قال: يا ابن رسول الله، ما استصغرها ولكن أحمد الله عليها، وإنما سميت الطاعات صالحات لأنها أصلح الأعمال للمكلف من حيث أمر بها، ووعد الثواب عليها، وتوعد بالعقاب على تركها.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ قيل: إنه يتعلق بما قبله، وتقديره: والباقيات الصالحات خير ثواباً في هذا اليوم وقيل: إنه ابتداء كلام، وتقديره: اذكر يوم نسير الجبال يعني يوم القيامة، وتسيير الجبال قلعها من أماكنها، فإن الله سبحانه يقلعها ويجعلها هباء منثوراً. وقيل: نسيرها على وجه الأرض كما نسير السحاب في السماء، ثم يجعلها كثيباً مهيلًا، كما قال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ الآية، ثم يصيرها كالعهن المنفوش، ثم يصيرها هباء منبثاً في الهواء، كما قال: **﴿وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً﴾** ثم يصيرها بمنزلة السراب، كما قال: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي ظاهرة ليس عليها شيء من جبل أو بناء أو شجر يسترها عن عيون الناظرين. وقيل: إن معناه، وترى باطن الأرض ظاهراً قد برز من كان في بطنها فصاروا على ظهرها ـ عن عطاء. وتقديره: وترى ما في الأرض بارزاً فهو مثل قول النبي ﷺ: ترمى الأرض بأفلاذ كبدها. ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي وبعثناهم من قبورهم وجمعناهم في الموقف ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي فلم نترك منهم أحداً إلا حشرناه ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني المحشورين يعرضون على الله تعالى يوم القيامة ﴿صَفًّا﴾ أي مصفوفين كل زمرة وأمة صفاً. وقيل: يعرضون صفاً بعد صف كالصفوف في الصلاة. وقيل: يعرضون صفاً واحداً لا يحجب بعضهم بعضاً، ويقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ معناه: لقد جئتمونا ضعفاء فقراء عاجزين في الموضع الذي لا يملك فيه الحكم غيرنا، كما كنتم في ابتداء الخلق لا تملكون شيئاً. وقيل: معناه، ليس معكم شيء مما اكتسبتموه في الدنيا من الأموال والأولاد والخدم تنتفعون به، كما

كنتم في أول الخلق، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: يحشر الناس من قبورهم يوم القيامة حفاة عراة غرلاً[١]، فقالت عائشة: يا رسول الله، أما يستحي بعضهم من بعض؟ فقال ﷺ: لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه. ﴿**بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً**﴾ أي ويقال لهم أيضاً: بل زعمتم في دار الدنيا أن الله لم يجعل لكم موعداً للبعث والجزاء والحساب يوم القيامة.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي ووضع الكتاب فإن الكتاب اسم جنس، والمعنى: ووضعت صحائف بني آدم في أيديهم. وقيل: معناه، ووضع الحساب فعبر عن الحساب بالكتاب، لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة ـ عن الكلبي ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي خائفين مما فيه من الأعمال السيئة ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ هذه لفظة يقولها الإنسان إذا وقع في شدة فيدعو على نفسه بالويل والثبور ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي شيء لهذا الكتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي لا يترك صغيرة من الذنوب ولا كبيرة إلا عدها وأثبتها وحواها، وقد مر تفسير الصغيرة والكبيرة في سورة النساء، وأنث الصغيرة والكبيرة بمعنى الفعلة والخصلة ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ أي مكتوباً في الكتاب مثبتاً. وقيل معناه: وجدوا جزاء ما عملوا حاضراً، فجعل وجود الجزاء كوجود الأعمال توسعاً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ معناه: ولا ينقص ربك ثواب محسن ولا يزيد في عقاب مسيء. وفي هذا دلالة على أنه سبحانه لا يعاقب الأطفال، لأنه إذا كان لا يزيد في عقوبة المذنب، فكيف يعاقب من ليس بمذنب.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: ﴿**ما أشهدناهم**﴾ بالنون على التعظيم، والباقون: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ التاء. وقرأ حمزة: ﴿**ويوم نقول**﴾ بالنون، والباقون: بالياء.

● **الحجة:** من قرأ ﴿**نقول**﴾ بالنون حمله على ما تقدم في المعنى، فكما أن كنت للمتكلم فكذلك نقول، ومن قرأ بالياء فحجته أن الكلام قد انقضى، فالمعنى: ويوم يقول الله نادوا شركائي، وهذا يقوي القراءة بالياء، لأنه لو كانت بالنون لكان الأشبه أن يقول: نادوا شركاءنا.

● **اللغة:** الفسق: الخروج إلى حال تضر، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، وفسقت الفأرة إذا خرجت في جحرها، قال رؤبة:

(١) الغرل جمع الأغرل: الأقلف.

يهوين في نجد وغوراً غائراً فواسقاً عن قصدها جوائرا

قال أبو عبيدة: هذه التسمية لم نسمعها في شيء من أشعار الجاهلية ولا أحاديثها، وإنما تكلم بها العرب بعد نزول القرآن. وقال المبرد: الأمر على ما ذكره أبو عبيدة، وهي كلمة فصيحة على ألسنة العرب. وقال قطرب: فسق عن أمر ربه، أي عن ردِّ أمر ربه، كقولهم: كسوته عن عرى، وأطعمته عن جوع. والعضد: ما بين المرفق إلى الكتف. وفيه خمس لغات: عضُد وعَضْد وعَضِد وعُضُد وعُضْد. وعضدت فلاناً أعنته، وفلان عضدي استعارة، وأعتضد به، أي استعان. قال تغلب: كل شيء حال بين شيئين فهو مَوْبِق من وَبَق يَبِقُ وبُوقاً إذا هلك. وحكى الزجاج: وبق الرجل يَوْبَقَ وَبَقاً.

● **الإعراب:** ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ اسم بئس مضمر فسر بقوله ﴿بَدَلًا﴾ وقوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ فصل بين ﴿بِئْسَ﴾ وبين ما انتصب على التمييز، والتقدير: بئس البدل للظالمين ذرية إبليس، فذرية إبليس هو المخصص بالذم - عن أبي علي الفارسي.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يذكر هؤلاء المتكبرين عن مجالسة الفقراء قصة إبليس وما أورثه الكبر، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي واذكر يا محمد إذ قلنا ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد مر تفسيره فيما تقدم، وإنما تقرر هذا القول في القرآن لأجل ما بعده مما يحتاج اتصاله به، فهو كالمعنى الذي يفيد أمراً في مواضع كثيرة للإخبار عنه بأخبار مختلفة، وقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ من قال: إن إبليس لم يكن من الملائكة استدل بهذا، لأن الجن غير الملائكة، كما أنهم غير الإنس، ومن قال: إنه كان من الملائكة قال: إن المعنى كان من الذين يستترون عن الأبصار مأخوذ من الجَنّ وهو السَّتر. وقيل: كان من قبيل من الملائكة يقال لهم: الجن، كانوا خزائن الجنان فأضيفوا إليها، كقولك: كوفي وبصري، وضعف الأولون هذين الوجهين، لأن لفظ الجن إذا أطلق فالمفهوم منه هذا الجنس المعروف لا الملائكة ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي خرج عن طاعة ربه، ثم خاطب الله سبحانه المشركين، فقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ معناه: أفتتبعون أمر إبليس وأمر ذريته وتتخذونهم أولياء تتولونهم بالطاعة من دوني وهم جميعاً أعداء لكم، والعاقل حقيق بأن يتهم عدوه على نفسه، وهذا استفهام بمعنى الإنكار والتوبيخ. قال مجاهد: ذريته الشياطين. وقال الحسن: الجن من ذريته ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ تقديره: بئس البدل للظالمين بدلًا، ومعناه: بئس ما استبدلوا بعبادة ربهم إذ أطاعوا إبليس - عن الحسن. وقيل: بئس البدل طاعة الشيطان عن طاعة الرحمٰن - عن قتادة.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي ما أحضرت إبليس وذريته خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم مستعيناً بهم على ذلك، ولا استعنت ببعضهم على خلق بعض، وهذا إخبار عن كمال قدرته واستغنائه عن الأنصار والأعوان، ويدل عليه قوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي الشياطين الذين يضلون الناس أعواناً يعضدونني عليه، وكثيراً ما يستعمل العضد بمعنى العون، وإنما وحده هنا لوفاق الفواصل. وقيل: إن معنى الآية: أنكم اتبعتم الشيطان كما يتبع من يكون عنده علم لا ينال إلا من جهته وأنا ما أطلعتهم على خلق

السماوات والأرض ولا على خلق أنفسهم، ولم أعطهم العلم بأنه كيف تخلق الأشياء، فمن أين تتبعونهم؟ وقيل: معناه، ما أحضرت مشركي العرب وهؤلاء الكفار خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، أي وما أحضرت بعضهم خلق بعض، بل لم يكونوا موجودين فخلقتهم، فمن أين قالوا: إن الملائكة بنات الله؟ ومن أين ادعوا ذلك؟.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ يريد يوم القيامة يقول الله للمشركين وعبدة الأصنام ﴿نَادُوا شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا أنهم شركائي ليدفعوا عنكم العذاب ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ يعني المشركين يدعون أولئك الشركاء الذين عبدوهم مع الله ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي فلا يستجيبون لهم ولا ينفعونهم شيئاً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ أي بين المؤمنين والكافرين ﴿مَّوْبِقًا﴾ وهو اسم واد عميق فرق الله به سبحانه بين أهل الهدى وأهل الضلالة ـ عن مجاهد وقتادة. وقيل: بين المعبودين وعبدتهم موبقاً، أي حاجزاً ـ عن ابن الأعرابي، أي فأدخلنا من كانوا يزعمون أنهم معبودهم مثل الملائكة والمسيح الجنة، وأدخلنا الكفار النار. وقيل: معناه، جعلنا تواصلهم في الدنيا موبقاً، أي مهلكاً لهم في الآخرة ـ عن الفراء. وروي ذلك عن قتادة وابن عباس. فالبين على هذا القول معناه: التواصل، والمعنى: أن تواصلهم وتوادّهم في الكفار صار سبب هلاكهم في الآخرة. وقيل: موبقاً عداوة ـ عن الحسن، فكأنه قال: عداوة مهلكة. وروي عن أنس بن مالك أنه قال: الموبق وادٍ في جهنم من قيح ودم.

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ بما قبله، أنه يتصل اتصال الحجة التي تكشف حيرة الشبهة، لأنه بمنزلة أن يقال: إنكم قد أقبلتم على اتباع إبليس وذريته، وتركتم أمر الله تعالى مع كثرة الحجج، ولو أشهدتم خلق السمٰوات والأرض لم تزيدوا على ما فعلتم من اتباعهم. وقيل: إنه سبحانه بين بذلك أنه المتفرد بالخلق والاختراع لا شريك له فيه، فلا ينبغي أن تشركوا معه في العبادة غيره، وتدعوا غيره إلهاً.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوٓا ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة ﴿قُبُلًا﴾ بضمتين، والباقون ﴿قِبَلًا﴾.

● **الحجة:** قد ذكرنا الوجه في سورة الأنعام(١).

---

(١) راجع ج٢ من هذه الطبعة.

● **اللغة:** المواقعة: ملابسة الشيء بشدة، ومنه وقائع الحروب، وأوقع به إيقاعاً، والتوقع الترقب لوقوع الشيء. والمصرف: المعدل، قال أبو كثير:

أزهير هل عن شيبة من مصرف أم لا خلود لباذل متكلف

والتصريف: تنقيل المعنى في الجهات المختلفة. والإدحاض: الإذهاب بالشيء إلى الهلاك، ومكان دحض، أي مزلق مزل لا يثبت عليه خف ولا حافر ولا قدم، قال:

(وحاد كما حاد البعير عن الدحض)(١)

● **الإعراب:** ﴿أَن تُؤْمِنُوٓا۟﴾ في موضع نصب، والمعنى: ما منع الناس من الإيمان إلا طلب أن يأتيهم، فيكون ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ﴾ فيم وضع رفع، و ﴿ما أنذروا﴾ في موضع نصب عطفاً على ﴿ءَايَٰتِى﴾ و ﴿هُزُوًا﴾ هو المفعول الثاني ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟﴾.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه حال المجرمين، فقال: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ يعني المشركين، رأوا النار وهي تتلظى حنقاً عليهم ـ عن ابن عباس. وقيل: هو عام في أصحاب الكبائر ﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي علموا أنهم داخلون فيها واقعون في عذابها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي معدلاً وموضعاً ينصرفون إليه ليتخلصوا منها ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بينا ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ وتصريفها ترديدها من نوع واحد وأنواع مختلفة ليتفكروا فيها، وقد مر تفسيره في سورة بني إسرائيل ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ يريد بالإنسان النضر بن الحارث ـ عن ابن عباس. ويريد أبي خلف ـ عن الكلبي. وقال الزجاج: معناه: وكان الكافر، يدل عليه قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾. ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ معناه: ما منعهم من الإيمان بعد مجيء الدلالة ومن أن يستغفروا ربهم على ما سبق من معاصيهم ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا طلب أن تأتيهم العادة في الأولين من عذاب الاستئصال حيث آتاهم العذاب من حيث لا يشعرون حين امتنعوا من قبول الهدى والإيمان ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أو طلب أن يأتيهم العذاب عياناً مقابلة من حيث يرونه، وتأويله أنهم بامتناعهم عن الإيمان بمنزلة من يطلب هذا حتى يؤمنوا كرهاً، لأنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، وهذا كما يقول القائل لغيره: ما منعك أن تقبل قولي إلا أن تضرب، على أن المشركين قد طلبوا مثل ذلك، فقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ومن قرأ ﴿قُبُلًا﴾ فهو في معنى الأول، ويجوز أن يكون أيضاً جمع قبيل وهو الجماعة، أي يأتيهم العذاب ضروباً من كل جهة.

ثم بين سبحانه أنه قد أزاح العلة وأظهر الحجة وأوضح المحجة، فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي لم نرسل الرسل إلى الخلق إلا مبشرين لهم بالجنة إذا أطاعوا، أو مخوفين لهم بالنار إذا عصوا ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي ويناظر الكفار دفعاً عن

(١) هذا عجز بيت قاله طرفة وقبله: «رديت ونجى اليشكري حذاره».

مذاهبهم بالباطل ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾ أي ليزيلوا الحق عن قراره، قال ابن عباس: يريد المستهزئين والمتقسمين وأتباعهم وجدالهم بالباطل أنهم ألزموه أن يأتي بالآيات على أهوائهم على ما كانوا يقترحونه ليبطلوا به ما جاء به محمد ﷺ، يقال: أدحضت حجته، أي أبطلتها ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ يعني القرآن ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ أي ما تخوفوا به من البعث والنار ﴿هُزُوٗا﴾ مهزواً به استهزؤوا به.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ۝٥٧ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ۝٥٨ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ۝٥٩﴾.

● **القراءة:** قرأ حفص عن عاصم: ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾ بفتح الميم وكسر اللام، وكذلك في النمل ﴿وما شهدنا مهلك﴾ وقرأ حماد ويحيى عن أبي بكر بفتح الميم واللام وقرأ الأعشى والبرجمي عنه ها هنا بالضم وهناك بالفتح، وقرأ الباقون ﴿لمهلكهم﴾ و﴿مُهلَك﴾ بضم الميم وفتح اللام.

● **الحجة:** من قرأ ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾ فإن المُهلَك يجوز أن يكون مصدراً، ويجوز أن يكون وقتاً، فيكون معناه: لإهلاكهم أو لوقت إهلاكهم، ومن قرأ ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾ فالمراد لوقت هلاكهم، ومن قرأ بفتح الميم واللام، فهو مصدر مثل الهلاك، وقد حكي أن تميماً يقول: هلكني زيد، وعلى هذا حمل بعضهم قوله:

(ومهمه هالك من تعرجا)(١)

فقال هو بمعنى مهلك، فيكون ﴿هَالِكٌ﴾ مضافاً إلى المفعول به، وإذا لم يكن بمعنى مهلك يكون ﴿هَالِكٌ﴾ مضافاً إلى الفاعل مثل: حسن الوجه، وكذلك قوله: ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾ على قراءة حفص، أو لمهلكهم بفتح اللام والميم، فإنه مصدر، فعلى قول من عدى هلكت يكون مضافاً إلى المفعول به، وعلى قول من لم يعده يكون مضافاً إلى الفاعل.

● **الإعراب:** ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ تلك رفع بالابتداء، والقرى صفة لها مبينة لها، و ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ في موضع رفع بأنه خبر المبتدأ، ويجوز أن يكون موضع ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ نصباً بفعل مضمر يكون ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ مفسراً لذلك الفعل، وتقديره: وأهلكنا تلك القرى أهلكناهم.

---

(١) هذا صدر بيت قاله العجاج، وبعده: «هائلة أهواله من أدلجا» والمه مه: المفازة البعيدة وحكي عن الأصمعي في قوله هالك من تعرجا أي: هالك المتعرجين إن لم يهذبوا في السير أي: من تعرض فيه هلك.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ معناه: ليس أحد أظلم لنفسه ممن ذكر، أي وعظ بالقرآن وآياته، ونبه على أدلة التوحيد فأعرض عنها جانباً ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي نسي المعاصي التي استحق بها العقاب. وقيل: معناه، تذكر واشتغل عنه استخفافاً به وقلة معرفة بعاقبته، لأنه نسي ذلك. ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ وهي جمع كنان ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي كراهة أن يفقهوه، أو لئلا يفقهوه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي ثقلاً، وقد تقدم بيان هذا فيما مضى، وجملته أنه على التمثيل، كما قال في موضع آخر: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ فالمعنى: كأن على قلوبهم أكنة أن يفقه وفي آذانهم وقراً أن يسمع ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ أخبر سبحانه أنهم لا يؤمنون أبداً، وقد خرج مخبره موافقاً لخبره فماتوا على كفرهم ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ معناه: وربك الساتر على عباده الغافر لذنوب المؤمنين، ذو النعمة والإفضال على خلقه. وقيل: الغفور التائب ذو الرحمة للمصرّ بأن يمهل ولا يعجل. وقيل: الغفور لا يؤاخذهم عاجلاً، ذو الرحمة يؤخرهم ليتوبوا ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو يوم القايمة والبعث ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أي ملجأ - عن ابن عباس وقتادة. وقيل: محرزاً - عن مجاهد. وقيل: منجاً ينجيهم - عن أبي عبيدة قال: يقال لا والت نفسه، أي لا نجت. قال الأعشى:

وقد أخالس رب البيت غفلته ... وقد يحاذر مني ثم لا يئل

وقال الآخر:

لا وألت نفسك، خليتها ... للعامريين ولم تكلم[1]

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إشارة إلى قرى عاد وثمود وغيرهم ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ بتكذيب أنبياء الله وجحود آياته ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ أي وجعلنا لوقت إهلاكهم أو لوقت هلاكهم ﴿مَّوْعِدًا﴾ معلوماً يهلكون فيه لمصلحة اقتضت تأخيره إليه، وإنما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ثم قال: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ ولم يقل: أهلكناها، لأن القرية هي المسكن، نحو: المدينة والبلدة وهي لا تستحق الهلاك، وإنما يستحق الهلاك أهلها ولذلك قال: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ يعني أهل القرية الذين أهلكناهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ

(١) كلمه كلماً: جرحه.

إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حفص: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾ بضم الهاء، وفي الفتح ﴿بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ بضم الهاء، والباقون: كسر الهاء من غير بلوغ الياء، إلا ابن كثير فإنه يثبت الياء في الوصل، وقد تقدم القول في وجه ذلك.

● **اللغة:** لا أبرح: أي لا أزال، ولو كان معناه لا أزول كان محالاً، لأنه إذا لم يزُل من مكانه لم يقطع أرضاً، قال الشاعر:

وأبرح ما أدام الله قومي رخي البال منتطقاً مجيداً(١)

أي لا أزال. والحقب: الدهر والزمان، وجمعه أحقاب، قال الزجاج: والحقب. ثمانون سنة. والسرب: المسلك والمذهب، ومعناه في اللغة: المحفور في الأرض لا نفاذ له، ويقال: للذاهب في الأرض سارب، قال الشاعر:

أني سربت وكنت غير سروب وتقرب الأحلام غير قريب

والنصب والوصب والتعب نظائر، وهو الوهن الذي يكون على الكد.

● **الإعراب:** ﴿سَرَبًا﴾ منصوب على وجهين:

أحدهما: أن يكون مفعولاً ثانياً ﴿لاتخذ﴾ كما يقال: اتخذت طريقي مكان كذا، واتخذت طريقي في السرب.

والآخر: أن يكون مصدراً يدل عليه ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فكأنه قال: فسرب الحوت سرباً. وقوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ في موضع نصب بدل من الهاء في ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾ والمعنى: وما أنساني أن أذكره إلا الشيطان. و ﴿عَجَبًا﴾ منصوب على وجهين:

أحدهما: أن يكون على قول يوشع، اتخذ الحوت سبيله في البحر عجباً.

والآخر: أن يكون قال يوشع: واتخذ سبيله في البحر، فأجابه موسى عليه السلام فقال: عجباً، فكأنه قال: أعجب عجباً. و ﴿قَصَصًا﴾ مصدر وضع موضع الحال. تقديره: يقصان الأثر قصصاً، والقصص: اتباع الأثر. وقال أحد المحققين: ﴿عَجَبًا﴾ في موضع حال، تقديره: قال ذلك متعجباً، وقصصاً مصدر لفعل مضمر يدل عليه قوله: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ فإن معناه: فاقتصا الأثر.

● **النزول:** ذكر علي بن إبراهيم في تفسيره قال: لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً بخبر أصحاب الكهف، قالوا: أخبرنا عن العالم الذي أمر الله موسى عليه السلام أن يتبعه، من هو؟ كيف تبعه؟ وما قصته؟ فأنزل الله تعالى.

---

(١) قائله خداش بن زهير وفي رواية الأشموني: «بحمد الله منتطقاً اها». ومنتطقاً أي: لا يزال يجنب فرسه الجواد من قولهم جاء فلان منتطقاً فرسه: إذا جنبه ولم يركبه. وقيل: أراد انه لا يزال ينطق القول.

● **المعنى:** ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ أكثر المفسرين على أنه موسى بن عمران، وفتاه يوشع بن نون، وسماه فتاه لأنه صحبه ولازمه سفراً وحضراً للتعلم منه. وقيل: لأنه كان يخدمه، ولهذا قال له: آتنا غداءنا، وهو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب. وقال محمد بن إسحاق: يقول أهل الكتاب: إن موسى الذي طلب الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف، وكان نبياً في بني إسرائيل قبل موسى بن عمران، إلا أن الذي عليه الجمهور أنه موسى بن عمران، ولأن إطلاقه يوجب صرفه إلى موسى بن عمران، كما أن إطلاق محمد ﷺ ينصرف إلى نبينا ﷺ. قال علي بن إبراهيم حدثني محمد بن علي بن بلال قال: اختلف يونس وهشام بن إبراهيم في العالم الذي أتاه موسى، أيهما كان أعلم؟ وهل يجوز أن يكون على موسى حجة في وقته وهو حجة الله على خلقه؟ فكتبوا إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام يسألونه عن ذلك، فكتب في الجواب: أتى موسى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر، فسلم عليه موسى فأنكر السلام، إذ كان بأرض ليس بها سلام، قال: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران، قال: أنت موسى بن عمران الذي كلمه الله تكليماً؟ قال: نعم، قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشداً، قال: إني وكلت بأمر لا تطيقه، ووكلت بأمر لا أطيقه الخبر بطوله ﴿**لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين**﴾ معناه: أزال أمضي وأمشي ولا أسلك طريقاً آخر حتى أبلغ ملتقى البحرين: بحر فارس وبحر الروم، ومما يلي المغرب بحر الروم، ومما يلي المشرق بحر فارس ـ عن قتادة. وقال محمد بن كعب: هو طنجة، وروي عنه: أفريقية، وكان وعد أن يلقي عنده الخضر ﴿**أو أمضي حقباً**﴾ أي دهراً ـ عن ابن عباس. وقيل: سبعين سنة ـ عن مجاهد. وقيل: ثمانين سنة ـ عن عبد الله بن عمر.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي فلما بلغ الموضع الذي يجتمع فيه رأس البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي تركاه. وقيل: إنه ضل الحوت عنهما حين اتخذ سبيله في البحر سرباً، فسمي ضلاله عنهما نسياناً منهما له. وقيل: إنه من النسيان، والناسي له كان أحدهما وهو يوشع، فأضيف النسيان إليهما، كما يقال: نسي القوم زادهم، إذا نسيه متعهد أمرهم. وقيل: إن النسيان وجد منهما جميعاً، فإن يوشع نسي أن يحمل الحوت، أو أن يذكر موسى ما قد رأى من أمره، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء، فصار كل واحد منهما ناسياً لغير ما نسيه الآخر، وقوله: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً يذهب فيه، وذلك أن موسى وفتاه تزودا حوتاً مملوحاً ـ عن ابن عباس. وقيل: حوتاً طرياً ـ عن الحسن. ثم انطلقا يمشيان على شاطىء البحر حتى انتهيا إلى صخرة على ساحل البحر، فأويا إليها وعنده عين ماء تسمى عين الحياة، فجلس يوشع بن نون وتوضأ من تلك العين، فانتضح على الحوت شيء من ذلك الماء، فعاش ووثب في الماء، وجعل يضرب بذنبه الماء، فكان لا يسلك طريقاً في البحر إلا صار ماء جامداً، فذلك معنى قوله: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ ذلك المكان قال موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ قيل: إنهما انطلقا بقية يومهما وليلتهما، فلما كان من الغد قال موسى ليوشع: آتنا غداءنا، أي أعطنا ما نتغدى به، والغداء طعام الغداة، والعشاء طعام العشي، والإنسان إلى الغداء أشد حاجة منه إلى العشاء ﴿لَقَدْ لَقِينَا

مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي تعباً وشدة. قالوا: أن الله تعالى ألقى على موسى الجوع ليتذكر حديث الحدث ﴿قَالَ﴾ له يوشع عند ذلك ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ ومعناه: أن يوشع تذكر قصة الحوت لما دعا موسى بالطعام ليأكل، فقال له: أرأيت حين رجعنا إلى الصخرة ونزلنا هناك فإني تركت الحوت وفقدته. وقيل: نسيته ونسيت حديثه. وقيل: فيه إضمار، أي نسيت أن أذكر لك أمر الحوت، ثم اعتذر فقال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ وذلك أنه لو ذكر لموسى عليه السلام قصة الحوت عند الصخرة لما جاوزها موسى، ولما ناله النصب الذي أشكاه، ولم يلق في سفره النصب إلا يومئذٍ ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي سبيلًا عجباً، وهو أن الماء انجاب عنه وبقي كالكوة لم يلتئم. وقيل: إن كلام يوشع قد انقطع عند قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ فقال موسى عند ذلك: ﴿عَجَبًا﴾ كيف كان ذاك؟ وقيل: إن معناه، واتخذ موسى سبيل الحوت في البحر عجباً ـ عن ابن عباس. والمعنى: دخل موسى الكوة على أثر الحوت فإذا هو بالخضر ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ قال موسى عليه السلام: ذلك ما كنا نطلب من العلامة ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي رجعا وعادا عودهما على بدئهما في الطريق الذي جاءا منه يقصان آثارهما ﴿قَصَصًا﴾ أي ويتبعانها ويوشع أمام موسى عليه السلام، حتى انتهيا إلى مدخل الحوت.

● **القصة:** سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أخبرني أبي بن كعب قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذا لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب، فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل(1)، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه، فسقط في البحر، واتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد، قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر الله تعالى به، فقال فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ الآية. قال: وكان للحوت سرباً، ولموسى ولفتاه عجباً، فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ الآية. قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلًا مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأني بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى، إني على علم من علم الله لا تعلمه علمنيه، وأنت على علم من علم الله علمك لا أعلمه أنا، فقال له موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً. فقال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً، فقال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة وكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم

---

(1) المكتل: الزنبيل يجعل فهي التمر وغيره.

يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم[1]، فقال له موسى: قوم قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً، قال ألم أقل: إنك لن تستطيع معي صبراً، قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً، قال: وقال رسول الله ﷺ: كانت الأولى من موسى عليه السلام نسياناً، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فبينا هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فأقلعه فقتله، فقال له موسى: أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً؟ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً، قال: وهذه أشد من الأولى، قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني. إلى قوله: يريد أن ينقض وكان مائلاً فقال الخضر عليه السلام بيده فأقامه، فقال موسى عليه السلام: قوم قد أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، لو شئت لاتخذت عليه أجراً، قال: هذا فراق بيني وبينك، فقال رسول الله ﷺ: وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما. قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، وكان يقرأ: وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين. رواه البخاري ومسلم في الصحيحين. وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً أنه كان يقرأ: كل سفينة صالحة غصباً، وروي ذلك أيضاً عن أبي جعفر قال: وهي قراءة أمير المؤمنين عليه السلام.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو ويعقوب: ﴿رَشداً﴾ بالفتح، والباقون: ﴿رُشْدًا﴾ بضم الراء وسكون الشين. وقرأ ﴿فَلَا تسألنّي﴾ مشددة النون مدني شامي، والباقون خفيفة النون، ولم يخالفوا في إثبات الياء فيه وصلاً ووقفاً لأنها مثبتة في جميع المصاحف. وقرأ ﴿ليغرق﴾ بفتح الياء والراء ﴿أَهْلُهَا﴾ بالرفع كوفي غير عاصم، والباقون ﴿لِتُغْرِقَ﴾ بضم التاء ﴿أَهْلَهَا﴾ بالنصب.

---

(١) القدوم: آلة النجر والنحت.

وقرأ ﴿زَكِيَّةً﴾ بغير ألف كوفي شامي وسهل، والباقون ﴿زاكية﴾ وقرأ ﴿نُكُرًا﴾ بضمتين مدني غير إسماعيل وأبو بكر ويعقوب وسهل وابن ذكوان، والباقون ﴿نُكْرًا﴾ ساكنة الكاف.

● **الحجة:** قال أبو علي: الرَّشد والرُّشد لغتان، وقد أجرى العرب كل واحد منهما مجرى الآخر، فقالوا: أَسَد وأُسْد، وخَشب وخُشب، فجمعوا فعَلان على فعُل، ثم فعَلا أيضاً على فعْل، وذلك قوله: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ وفي آية أخرى في ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فهذا يدلك على أنهم أجروهما مجرى واحداً. ومن قرأ: ﴿فَلَا تسألنّي﴾ بالتشديد، فإنه لما أدخل النون الثقيلة بني الفعل معها على الفتح. قال: والقراءة بالتاء في ﴿لِتُغْرِقَ﴾ أولى ليكون الفعل مسنداً إلى المخاطب، كما كان المعطوف عليه كذلك، وهو ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ وهذا يأتي في معنى الياء أيضاً، لأنهم إذا أغرقهم غرقوا. وقوله: ﴿نُكْرًا﴾ فعل، وهو من أمثلة الصفات. قالوا: ناقة أجد ومشية سجح، فمن خفف ذلك كما يخفف نحو العنق والطنب والشغل، فالتخفيف فيه مستمر.

● **اللغة:** الإمر: الداهية العظيمة، قال الشاعر:

لقد لقي الأقران مني نكراً داهية دهياء إذاً إمراً(١)

وهو مأخوذ من الإمر، لأنه الفاسد الذي يحتاج أن يؤمر بتركه إلى الصلاح، ومنه رجل إمر إذا كان ضعيف الرأي لأنه يحتاج أن يؤمر حتى يقوي رأيه، ومنه أمر القوم، أي كثروا، ومعناه: احتاجوا إلى من يأمرهم وينهاهم، ومنه الأمر من الأمور، أي الشيء الذي من شأنه أن يؤمر فيه.

● **الإعراب:** قوله: ﴿رُشْدًا﴾ يجوز أن ينتصب على أنه مفعول له، ويكون المعنى: هل اتبعك للرشد أو لطلب الرشد ﴿على أن تعلمني﴾ فيكون ﴿على أن تعلمني﴾ حالاً من قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ ويجوز أن يكون قوله: ﴿رُشْدًا﴾ مفعولاً به وتقديره: أتبعك على أن تعلمني رشداً مما علمته، ويكون العلم الذي يتعدى إلى مفعول واحد، فيتعدى بتضعيف العين إلى مفعولين، والمعنى: على أن تعلمني أمراً ذا رشد، وعلماً ذا رشد، أو ﴿خُبْرًا﴾ نصب على المصدر، والمعنى: لم يخبره خبراً.

● **المعنى:** ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ أي صادف موسى وفتاه وأدركا عبداً من عبادنا قائماً على الصخرة يصلي، وهو الخضر عليه السلام، واسمه بليا بن ملكان، وإنما سمي خضراً لأنه إذا صلى في مكان أخضر ما حوله، وروي مرفوعاً: أنه قعد على فروة بيضاء فاهتزت تحته خضراء. وقيل: إنه رآه على طنفسة خضراء فسلم عليه، فقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل، فقال له موسى: وما أدراك من أنا؟ ومن أخبرك أني نبي؟ قال: من دلك علي. واختلف في هذا العبد فقال بعضهم: إنه كان ملكاً أمر الله تعالى موسى أن يأخذ عنه ما حمله إياه من علم بواطن الأشياء. وقال الأكثرون: إنه كان من البشر، ثم اختلفوا، فقال الجبائي وغيره: إنه كان نبياً، لأنه لا يجوز أن يتبع النبي من ليس بنبي ليتعلم منه العلم، لما في ذلك من الغضاضة على النبي، وكان ابن الأخشيد يجوّز ألا يكون نبياً ويكون عبداً صالحاً أودعه الله

(١) قائله الراجز وفي اللسان «قد لقى اها».

من علم باطن الأمور ما لم يودعه غيره، وهذا ليس بالوجه. ومتى قيل: كيف يكون نبي أعلم من موسى في وقته؟ لنا: يجوز أن يكون الخضر خص بعلم ما لا يتعلق بالأداء، فاستعلم موسى من جهته ذلك العلم فقط، وإن كان موسى أعلم منه في العلوم التي يؤديها من قبل الله تعالى ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ يعني النبوة. وقيل: طول الحياة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي علماً من علم الغيب ـ عن ابن عباس. وقال الصادق عليه السلام: كان عنده علم لم يكتب لموسى عليه السلام في الألواح، وكان موسى يظن أن جميع الأشياء التي يحتاج إليها في تابوته، وأن جميع العلم قد كتب له في الألواح.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي علما ذا رشد. قال قتادة: لو كان أحد مكتفياً من العلم لاكتفى نجي الله موسى، ولكنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ الآية. عظمه عليه السلام بهذا القول غاية التعظيم حيث أضاف العلم إليه، ورضي باتباعه وخاطبه بمثل هذا الخطاب، والرشد: العلوم الدينية التي ترشد إلى الحق. وقيل: هو علوم الألطاف الدينية التي تخفى على الناس ﴿قَالَ﴾ العالم ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ أي يثقل عليك الصبر ولا يخف عليك، ولم يرد أنه لا يقدر على الصبر، وإنما قال ذلك لأن موسى عليه السلام كان يأخذ الأمور على ظواهرها، والخضر كان يحكم بما أعلمه الله من بواطنها، فلا يسهل على موسى مشاهدة ذلك. ثم قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ أي كيف تصبر على ما ظاهره عندك منكر، وأنت لم تعرف باطنه ولم تعلم حقيقته، والخبر: العلم. وفي هذا دلالة على أنه لم يرد بقوله: ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ نفى الاستطاعة للصبر، لأنه لو أراد ذلك لكان لا يستطيع الصبر سواء علم أو لم يعلم ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أي أصبر على ما أرى منك ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ تأمرني به ولا أخالفك فيه. قال الزجاج: وفيما فعله موسى عليه السلام، وهو من جملة الأنبياء من طلب العلم والرحلة فيه ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وإن كان قد بلغ نهايته، وأنه يجب أن يتواضع لمن هو أعلم منه، وإنما قيد عليه السلام صبره بمشيئة الله لأنه أخبر به على ظاهر الحال، فجوز أن لا يصبر فيما بعد بأن يعجز عنه، فقال: إن شاء الله ليخرج بذلك من أن يكون كاذباً.

﴿قَالَ﴾ الخضر له ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى﴾ واقتفيت أثري **﴿فلا تسئلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾** أي لا تسألني عن شيء أفعله مما تنكره ولا تعلم باطنه حتى أكون أنا الذي أفسره لك ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ يمشيان على شاطىء البحر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ ومعناه: أنهما أرادا أن يعبرا في البحر إلى أرض أخرى فأتيا معبراً فعرف صاحب السفينة الخضر عليه السلام فحملهما، فلما ركبا في السفينة خرق الخضر عليه السلام السفينة، أي شقها حتى دخلها الماء. وقيل: إنه قلع لوحين مما يلي الماء فحشاهما موسى عليه السلام بثوبه ﴿وَقَالَ﴾ منكراً عليه ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ولم يقل: لنغرق، وإن كان في غرقها غرق جميعهم، لأنه أشفق على القوم أكثر من إشفاقه على نفسه جرياً على عادة الأنبياء، ثم قال بعد إنكاره ذلك ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي منكراً عظيماً، يقال: أمِر الأمر أمراً إذا كبر، والإمر الاسم منه ﴿فَقَالَ﴾ له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾ لك ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ أي ألم أقل حين رغبت في اتباعي: إن نفسك لا تطوعك على الصبر معي، فتذكر

موسى ما بذل له من الشرط ثم ﴿قَالَ﴾ معتذراً مستقيلاً ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي غفلت من التسليم لك وترك الإنكار عليك، وهو من النسيان الذي هو ضد الذكر. وروي عن أبي بن كعب قال: إنه لم ينس، ولكنه من معاريض الكلام. وقيل: بما تركت من وصيتك وعددك ـ عن ابن عباس. وعلى هذا فيكون من النسيان بمعنى الترك لا بمعنى الغفلة والسهو ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي لا تكلفني مشقة، تقول: أرهقته عسراً إذا كلفته ذاك، والمعنى: عاملني باليسر ولا تعاملني بالعسر، ولا تضيق على الأمر في صحبتي إياك ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ ومعناه: فخرجا من البحر وانطلقا يمشيان في البر، يعني موسى والخضر، ولم يذكر يوشع لأنه كان تابعاً لموسى، أو كان قد تأخر عنهما وهو الأظهر، لاختصاص موسى بالنبوة واجتماعه مع الخضر عليه السلام في البحر، فلقيا غلاماً يلعب مع الصبيان فذبحه بالسكين ـ عن سعيد بن جبير. وكان من أحسن أولئك الغلمان وأصبحهم. وقيل: صرعه ثم نزع رأسه من جسده. وقيل: ضربه برجله فقتله. وقال الأصم: كان شاباً بالغاً، لأن غير البالغ لا يستحق القتل، وقد سمى الرجل غلاماً، قالت ليلى الأخيلية:

شفاها من الداء العضال الذي بها   غلام إذا هز القناة سقاها[1]

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي طاهرة من الذنوب، وزكية بريئة من الذنوب. وقيل: الزاكية التي لم تذنب، والزكية التي أذنبت ثم تابت، حكي ذلك عن أبي عمرو بن العلاء. وقيل: الزكية أشد مبالغة من الزاكية ـ عن تغلب. وقيل: الزاكية في البدن، والزكية في الدين ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل نفس يريد القود ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي قطعياً منكراً لا يعرف في شرع، والمنكر أشد من الإمر ـ عن قتادة، وإنما قال ذلك لأن قلبه صار كالمغلوب عليه، والتحقيق لما قاله أولاً مع النهي عن العود بمثل سؤاله.

●●●

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ

---

(١) داء عضال: شديد مُعْيٍ غالب.

سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا
﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ
لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن
يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا
لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب برواية روح وزيد: ﴿**فلا تصحَبْنيّ**﴾ والباقون: ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ وقرأ أهل المدينة وأبو بكر عن عاصم ﴿**من لدني**﴾ خفيفة النون، والباقون: ﴿**لدنّي**﴾ بالتشديد، وقرأ ابن كثير وأهل البصرة: ﴿**لتخذت**﴾ بكسر الخاء مخففة، وابن كثير يظهر منه الذال، والباقون: ﴿**لا اتخذت**﴾ عاصم يظهر الذال، والآخرون يدغمونها، وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو: ﴿**أن يبدِّلهما**﴾ بفتح الباء وتشديد الدال، وكذلك في التحريم ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ والباقون: بسكون الباء وتخفيف الدال. وقرأ ﴿**رحماً**﴾ بضم الحاء أبو جعفر وابن عامر وعاصم وعباس ويعقوب وسهل. والباقون: بسكون الحاء. وفي الشواذ قراءة النبي ﷺ: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يُنقَضَّ﴾ بضم الياء، وقراءة علي بن أبي طالب عليه السلام وعكرمة ويحيى بن يعمر: ﴿**ينقاص**﴾ بصاد غير معجمة وبالألف، وقراءة عبد الله والأعمش: ﴿**يريد لينقض**﴾.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿**فلا تصحبني**﴾ فمعناه: لا تكونن صاحبي. ومن قرأ: ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ فمعناه: إن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك. وأما قوله: ﴿**من لدني**﴾ فإن الأجود تشديد النون، لأن أصل: لدن الإسكان. فإذا أضفتها إلى نفسك زدت نوناً لتسلم سكون النون الأولى، تقول: من لدن زيد ومن لدني، كما تقول: عن زيد وعني، ومن قرأ ﴿**لدني**﴾ لم يجز له أن يقول: عني، لأن لدن اسم غير متمكن، ومِنْ وعَنْ حرفان جاء المعنى، ولدن مع ذلك أثقل من: من وعن، والدليل على أن الأسماء يجوز فيها حذف النون قولهم: قدني في معنى حسبي، ويجوز قدي، قال:

(قدني من نصر الخبيبين قدي)(١)

فجاء باللغتين. وقال أبو زيد: اتخذنا مالًا نتخذه اتخاذاً، وتخذت اتخذ تخذاً، وقال أبو علي: وجه الإدغام أن هذه الحروف متقاربة فيدغم بعضها في بعض، كما يدعم سائر المتقاربة، فالتاء والدال والطاء والظاء والذال والثاء يدغم بعضها في بعض للمقاربة، فأما الصاد والسين والذاء فيدغم بعضها في بعض، ويدغم فيها الحروف الستة ولا يدغمن في الستة لما يختل من

---

(١) هذا صدر بيت، وبعده: «ليس الإمام بالشحيح الملحد». ونسبه الجوهري إلى حميد بن ثور الهلالي. وفي كلام غيره إلى حميد الأرقط. تعرض فيه بعبد الله بن الزبير و«الخبيبين» يروى على صيغة المثنى، ويروى على الجمع: فعلى الأول: عنى عبد الله وأخاه مصعب، أو هو وابنه خبيباً. وعلى الثاني: أراد هو وشيعته. «والملحد» من ألحد الرجل أي: ظلم فسي الحرم، وانتهك حرمته.

إدغامها في مقاربها من الصفير. وأما قوله: ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ فإن أبدل وبدل متقاربان في المعنى، كما أن أنزل ونزل كذلك. وأما قوله: ﴿رحُماً﴾ فإن الرُحم والرُّحم ها هنا الرحمة، قال رؤبة:

يا منزل الرُّحم على إدريس   ومنزل اللعن على إبليس

قال ابن جني: قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ معناه: قد قارب أو شارف ذلك، فهو عائد إلى معنى يكاد، وقد جاء ذلك عنهم، وأنشد أبو الحسن:

كادت وكدت(١) وتلك خير إرادة   لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

وحسن هنا لفظ الإرادة، لأنه أقوى في وقوع الفعل، وذلك أنها داعية إلى وقوعه، وهي أيضاً لا تصح إلا مع الحياة، ولا يصح الفعل إلا لذي الحياة، وليس كذلك ﴿كَادَ﴾ لأنه قد يقارب الأمر ما لا حياة له، نحو ميل الحائط، وإشراق ضوء الفجر، وينقاص: أي ينكسر، يقال: قصته فانقاص، قال:

فراق كقيص السن فالصبر إنه   لكل أناس كسرة وجبور(٢)

وقالوا أيضاً: قضته فانقاض، بضاد معجمة، يعني هدمته فانهدم، قال:

(كأنها هدم في الجفر منقاض)(٣)

وقراءة العامة «ينقض» يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون ينفعل من القضة، وهي الحصى الصغار.

والآخر: أن يكون يفعل من نقضت الشيء، كقراءة النبي ﷺ: «يريد أن ينقض» فيكون كيزورُ ويرعوى ونحوهما مما جاء من غير الألوان والعيوب.

ومن قرأ: «لينقضَ» فإن شئت قلت: اللام زائدة فيه، واحتججت فيه بقراءة النبي ﷺ، وإن شئت قلت تقديره: إرادته لكذا، كقولك: قيامه لكذا، وجلوسه لكذا، ثم وضع الفعل موضع مصدره، كما أنشد أبو زيد:

فقالوا: ما تشاء؟ فقلت: ألهو   إلى الإصباح آثر ذي أثير(٤)

أي اللهو، فوضع ألهو موضع مصدره، وأنشد أيضاً:

وأهلكني لكم في كل يوم   تعوجكم على وأستقيم

أي واستقامتي، وكاللام هنا اللام في قوله:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما   تمثل لي ليلى بكل سبيل

---

(١) أي: أرادت وأردت.

(٢) قائله أبو ذؤيب. وفي (اللسان): «عثرة وجبور» ويروى «كقيض» بالضاد أيضاً.

(٣) الجفر: البئر الواسعة التي لم تطو.

(٤) قائله عروة بن الورد. وآثر ذي أثير أي: أول كل شيء.

فيحتمل اللام هنا الوجهين اللذين تقدم ذكرهما.

● **اللغة:** الإنقضاض: السقوط بسرعة، قال ذو الرمة:

(فانقض كالكوكب الدري منصلتاً)

والوراء والخلف واحد، وهو نقيض جهة القدام، ويستعمل وراء بمعنى القدام أيضاً على الاتساع، لأنها جهة مقابلة لجهة، فكأن كل واحدة من الجهتين وراء الأخرى، قال الشاعر:

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

وقال لبيد:

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تحنو عليها الأصابع

وقال الفراء: يجوز ذلك في الزمان دون الأجسام، قال علي بن عيسى وغيره: يجوز في الأجسام التي لا وجه لها، كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر. والإرهاق: إدراك الشيء بما يغشاه، ورهقه الفارس: أي غشيه وأدركه، وغلام مراهق: إذا قارب أن يغشاه حال البلوغ، ويقال: أرهقه أمراً، أي ألحقه إياه. قال الأزهري: الرهق جهل الإنسان، وأرهقه عسراً: كلفه إياه، وجاء في الحديث: كان النبي ﷺ إذا دخل مكة مراهقاً خرج إلى عرفة، أي ضاق عليه الوقت.

● **الإعراب:** قال الزجاج: قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ زعم سيبويه أن معنى مثل هذا: التوكيد، يعني: هذا فراق بيننا، أي هذا فراق اتصالنا، ومثله من الكلام: أخزى الله الكاذب مني ومنك، وهذا لا يكون إلا بالواو، ولا يجوز هذا فراق بيني فبينك، لأن معنى الواو الاجتماع، ومعنى الفاء أن يأتي الثاني في إثر الأول. و ﴿مَسَٰكِينَ﴾ لا ينصرف، لأنه جمع ليس له في الآحاد نظير. ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ منصوب على ضربين:

أحدهما: أن المعنى: فعلنا ذلك رحمة، أي للرحمة، كما تقول: أنقذتك من الهلكة رحمة لك.

والآخر: أن يكون منصوباً على المصدر، لأن معنى قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ رحمهما الله بذلك.

● **المعنى:** ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ أي قال له موسى جواباً: إن سألتك عن شيء بعد هذه المرة، أو بعد هذه النفس وقتلها فلا تتركني أصحبك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ أي قد أعذرت فيما بيني وبينك، وقد أخبرتني أني لا أستطيع معك صبراً ـ عن ابن عباس. وهذا إقرار من موسى عليه السلام بأن الخضر قد قدم إليه ما يوجب العذر عنده، فلا يلزمه ما أنكره، وروي أن النبي ﷺ تلا هذه الآية فقال: استحيى نبي الله موسى، ولو صبر لرأى ألفاً من العجائب ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وهي أنطاكية ـ عن ابن عباس. وقيل: أئلة ـ عن ابن سيرين ومحمد بن كعب. وقيل: هي قرية على ساحل البرح يقال لها: ناصرة، وبها سميت

النصارى نصارى، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ أي سألاهم الطعام ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ والتضييف والإضافة بمعنى واحد، أي لم يضيفهما أحد من أهل القرية، وروى أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: كانوا أهل قرية لئام، قال أبو عبد الله عليه السلام: لم يضيفوهما ولا يضيفون بعدهما أحداً إلى أن تقوم الساعة ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ وصف الجدار بالإرادة مجاز، ومعناه: قرب أن ينقض وأشرف على أن ينهدم، وذلك على التشبيه بحال من يريد الفعل في الثاني، وهذا من فصيح كلام العرب، ومثله في أشعارهم كثير، قال الراعي يصف الإبل:

في مهمة فلقت به هاماتها فلق الفؤوس إذا أردن نصولا

وقال الآخر:

يريد الرمح صدر أبي براء ويرغب في دماء بني عقيل

وقريب منه قول الآخر:

إن دهراً يلفُّ شملي بسعدي لزمانٌ يهمُّ بالإحسان

أي كأنه يهم. وقال عنترة يصف فرسه:

فازورَّ من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم[(١)]

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي سوَّاه، قيل: إنه دفع الجدار بيده فاستقام ـ عن سعيد بن جبير **﴿قال لو شئت لتخذت عليه أجراً﴾** معناه: أنهم لما بخلوا عليهما بالطعام، وأقام الخضر جدارهم المشرف على الانهدام، عجب موسى من ذلك فقال: لو شئت لعملت هذا بأجر تأخذه منهم، حتى كنا نسد به جوعتنا ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ معناه: هذا الكلام والإنكار على ترك الأجر هو المفرق بيننا. وقيل: معناه، هذا وقت فراق اتصالنا، وكرر ﴿بَيْنَ﴾ تأكيداً ـ عن الزجاج. وقيل: معناه، هذا الذي قلته سبب الفراق بيني وبينك. ثم قال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي سأخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي بتفسير الأشياء التي لم تستطع على الإمساك عن السؤال عنها صبراً.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ معناه: أما السبب في خرق السفينة فهو أنها كانت لفقراء لا شيء لهم يكفيهم قد سكنتهم قلة ذات أيديهم ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ يعملون بها في البحر ويتعيشون بها ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أحدث فيها عيباً ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ أي وكان قدامهم ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صحيحة أو غير معيبة **﴿غصباً﴾** ـ عن قتادة وابن عباس. قال عباد بن صهيب: قدمت الكوفة لأسمع من إسماعيل بن أبي خالد، فمررت بشيخ جالس فقلت: يا شيخ، كيف أمر إلى منزل إسماعيل بن أبي خالد؟ فقال لي: وراءك، فقلت: أرجع، فقال: أقول: وراءك وترجع؟ فقلت: أليس ورائي خلفي؟ قال: لا، ثم قال: حدثني عكرمة عن ابن عباس ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ

---

(١) مر البيت في ص٣١٨ من هذا الجزء.

﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ قال: ولو كان وراءهم لكانوا قد جاوزوه، ولكن كان بين أيديهم، قال الخضر: إنما خرقتها لأن الملك إذا رآها منخرقة تركها، ورقعها أهلها بقطعة خشب فانتفعوا بها. وقيل: يحتمل أن الملك كان خلفهم، وكان طريقهم في الرجوع عليه، ولم يعلم به أصحاب السفينة، وعلم به الخضر عليه السلام.

﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ﴾ وروي عن أبي وابن عباس أنهما كانا بقرآن، وأما الغلام فكان كافراً وأبواه مؤمنين، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام، ومعناه: وأما الغلام الذي قتلته فإنما قتلته لأنه كان كافراً ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ أي فعلمنا أنه إن بقي يرهق أبويه، أي يغشيهما طغياناً وكفراً، وهو من كلام الله تعالى. وقيل: معناه: فخفنا أن يحمل أبويه على الطغيان والكفر، بأن يباشر ما لا يمكنهما منعه منه، فيحملهما على الذب عنه والتعصب له فيؤدي ذلك إلى أمور تكون مجاوزة للحد في العصيان والكفر. وهو من كلام الخضر. لأن الله تعالى لا تجوز عليه الخشية. وقيل: معناه، فكرهنا أن يرهق الغلام أبويه إثماً وظلماً بطغيانه وكفره ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ﴾ أي ولداً خيراً منه ديناً وطهارة وصلاحاً ﴿وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ أي وأرحم بهما ـ عن قتادة، والزكاة الصلاح، والزكيّ الصالح، والرُّحم العطف والرحمة. وقيل: معناه، أبر بوالديه وأوصل للرحم ـ عن ابن عباس. ويل: معناه، وأقرب أن يُرحما به. قال قتادة: قال مطرف: ايم الله إنا لنعلم أنهما فرحا به يوم ولد، وحزنا عليه يوم قتل، ولو عاش كان فيه مهلكتهما، فرضي رجل بما قسم الله له، فإن قضاء الله للمؤمن خير من قضائه لنفسه، وما قضى لك يا ابن آدم فيما تكره خير مما قضى لك فيما تحب، فاستخر الله وارض بقضائه، وروي أنهما أبدلا بالغلام المقتول جارية، فولدت سبعين نبياً ـ عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: إنه تزوجها نبي من الأنبياء، فولدت له نبياً هدى الله على يديه أمة من الأمم ـ عن الكلبي.

وفي قتل الغلام دلالة على وجوب اللطف على ما نذهب إليه، لأن المفهوم من الآية أنه تدبير من الله تعالى لم يكن يجوز خلافه وأنه إذا علم من حال الإنسان أنه يفسد عند شيء يجب عليه في الحكمة أن يذهب ذلك الشيء حتى لا يقع هذا الفساد. ومتى قيل: إنه لو حصل لنا العلم بذلك كما حصل لذلك العالم، هل كان يحسن منا القتل؟ قلنا: إن هذا العلم لا يحصل إلا للأنبياء، وعند حصول العلم به يحسن ذلك، ومتى قيل: إن الله كان قادراً على إزالة حياة الغلام بالموت من غير ألم، فتزول التبقية التي هي المفسدة من غير إدخال إيلام عليه بالقتل، فلمَ أمر بالقتل؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى قد علم أن أبويه لا يثبتان على الإيمان إلا بقتل هذا الغلام، فتعين وجه الوجوب في القتل.

والآخر: أن تبقية الغلام إذا كانت مفسدة فالله تعالى مخير في إزالتها بالموت من غير ألم، وبالقتل، لأن القتل وإن كان فيه ألم يلحق المقتول فإن بإزائه أعواضاً كثيرة توازي ذلك الألم،

ويزيد عليه أضعافاً كثيرة فيصير القتل بالمنافع العظيمة التي بإزائه كأنه ليس بألم، ويدخل في قبيل النفع والإحسان.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ﴾ أي فإنما أقمته لأنه كان ﴿لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني القرية المذكورة في قوله: ﴿أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ والكنز هو كل مال مذخور من ذهب أو فضة وغير ذلك، واختلف في هذا الكنز فقيل: كانت صحف علم مدفونة تحته ـ عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد. وقال ابن عباس: ما كان ذلك الكنز إلا علماً. وقيل: كان كنزاً من الذهب والفضة ـ عن قتادة، وعنكرمة، واختاره الجبائي، ورواه أبو الدرداء عن النبي ﷺ. وقيل: كان لوحاً من ذهب وفيه مكتوب: عجباً لمن يؤمن بالقدر، كيف يحزن؟ عجباً لمن أيقن بالرزق كيف يتعب؟ عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ عجباً لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل؟ عجباً لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ـ عن ابن عباس والحسن وروي ذلك عن أبي عبد اللّه عليه السلام، وفي بعض الروايات زيادة ونقصان، وهذا القول يجمع القولين الأولين، لأنه يتضمن أن الكنز كان مالًا كتب فيه علم فهو مال وعلم ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ بين سبحانه أنه حفظ الغلامين بصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاحاً ـ عن ابن عباس. وروي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سبعة آباء، وقال ﷺ: إن الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده وأهل دُوَيْرتهِ ودُويراتٍ حوله، فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي ينتهيا إلى الوقت الذي يعرفان فيه نفع أنفسهما وحفظ مالهما، وهو أن يكبرا ويعقلا ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي نعمة من ربك، والمعنى: أن كل ما فعلته رحمة من الله تعالى، أي رحم الله بذلك المساكين، وأبوي الغلام واليتيمين رحمة.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي وما فعلت ذلك من قبل نفسي، وإنما فعلته بأمر الله تعالى. قال ابن عباس: يريد: انكشف لي من الله علم فعملت به، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي قلته لك **﴿تأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾** أي ثقل عليك مشاهدته ورؤيته، واستنكرته، يقال: استطاع يستطيع وأسطاع يسطيع.

قال أبو علي الجبائي: لا يجوز أن يكون الخضر حياً إلى وقتنا هذا، لأنه لو كان لعرفه الناس ولم يخف مكانه، ولأنه لا نبي بعد نبينا ﷺ، وهذا الذي ذكره غير صحيح، لأن تبقيته في مقدور الله تعالى، ويجوز أن تنخرق العادة للأنبياء صلوات الله عليهم بالإجماع، ولا يمتنع أيضاً أن يكون بحيث لا يتعرف إلى أحد، وأن الناس وإن كانوا يشاهدونه لا يعرفونه، وقوله: إنه لا نبي بعد نبينا مسلم، ولكن نبوة الخضر عليه السلام كانت ثابتة قبل نبوة نبينا محمد ﷺ، وأما شرعه لو كان له شرع خاص فإنه منسوخ بشريعة نبينا، ولو كان داعياً إلى شريعة من تقدمه من الأنبياء فإن شريعة نبينا ﷺ ناسخة لها، فلا يؤدي إلى ما قاله الجبائي.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وأهل الكوفة: ﴿فَأَتْبَعَ﴾، ﴿ثم أتبع﴾ بهمزة القطع وفتحها وتخفيف التاء وسكونها، والباقون: ﴿فاتبع﴾ بهمزة الوصل وتشديد التاء وفتحها، وقرأ أبو جعفر وابن عامر وأهل الكوفة غير حفص: ﴿حَامِيَةٍ﴾ والباقون: ﴿حَمِئَةٍ﴾ بغير ألف مهموز.

● **الحجة:** قال أبو علي: تبع: فعل يتعدى إلى مفعول واحد، فإذا نقلته بالهمزة تعدى إلى مفعولين، يدلك على ذلك قوله: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ وأما اتبع فإنه افتعل يتعدى إلى مفعول واحد، كما يتعدى فعل إليه مثل: حفرته وأحفرته، وشويته وأشويته، ومن قرأ: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ تقديره: فأتبع سببا سبباً، أو أتبع أمره سبباً، أو أتبع ما هو عليه سبباً، فحذف أحد المفعولين كما حذف في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾، ﴿ولا يكادون يفقهون قولاً﴾ والمعنى: لينذر الناس بأساً شديداً، ولا يكادون يفقهون أحداً قولًا. ومن قرأ: ﴿فاتبع سبباً﴾ فالمعنى: اتجه في كل وجه وجَّهناه له وأمرناه به السبب الذي ينال به صلاح ما مُكن منه. وقال أبو عبيدة: معناه: اتبع طريقاً وأثراً. ومن قرأ: ﴿حَمِئَةٍ﴾ فعلى فعلة. ومن قرأ: ﴿حَامِيَةٍ﴾ فهي فاعلة من حميت تحمى فهي حامية. وروي عن الحسن أنه قال: حارة، ويجوز فيمن قرأ: ﴿حَامِيَةٍ﴾ أن يكون فاعله من الحمأة، فخفف الهمزة على قياس قول أبي الحسن فيقلبها ياء محضة، وإن خففها على قول الخليل كانت بين بين. قال سيبويه: وهو قول العرب.

● **اللغة:** القرن: قرن الشاه وغيرها، وقرون الشعر: الذوائب، ومنه قول أبي سفيان: ولا الروم ذوات القرون. أراد قرون شعورهم، لأنهم كانوا يطولونه. والذكر: حضور المعنى للنفس، وقد يكون بالقلب وهو التفكر، وقد يكون باللسان. وكل ما وصل شيئاً إلى شيء فهو سبب، يقال للطريق إلى الشيء: سبب، وللحيل: سبب، وللباب: سبب. والحمأة: الطين الأسود، يقال: حمئت البئر تحمأ فهي حمئة إذا صار فيها الحمأة، قال أبو الأسود:

تجيء بملئها طوراً وطوراً   تجي بحمأة وقليل ماء

وحمأت البئر: أخرجت منه الحمأة، وأحمأتها: ألقيت فيها الحمأة.

● **الإعراب:** ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أن مع الفعل في موضع نصب بفعل مضمر، كما أن قوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ كذلك، ويجوز أن يكون أن مع الفعل في موضع المبتدأ والخبر مضمر، أي إما العذاب واقع منك فيهم، وإما اتخاذ أمر ذي حسن واقع منك فيهم، فحذف الخبر لطول الكلام بالصلة، وهذا أظهر، والأول عن أحمد بن يحيى.

● **المعنى**: ثم بيّن سبحانه قصة ذي القرنين، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أي عن خبره وقصته لا عن شخصه، واختلف فيه، فقيل: إنه نبي مبعوث فتح الله على يديه الأرض ـ عن مجاهد وعبد الله بن عمر. وقيل: إنه كان ملكاً عادلًا، وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه كان عبداً صالحاً أحب الله وأحبه الله، وناصح الله وناصحه، قد أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه ضربة بالسيف، فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إليهم فدعاهم إلى الله فضربوه على قرنه الآخر بالسيف، فذلك قرناه وفيكم مثله، يعني نفسه عليه السلام، وفي سبب تسميته بذي القرنين أقوال أخر:

منها: أنه سمي به لأنه كانت له ضفيرتان ـ عن الحسن.

ومنها: أنه كان على رأسه شبه القرنين تواريه العمامة ـ عن يعلى بن عبيد.

ومنها: أنه بلغ قطري الأرض من المشرق والمغرب، فسمي بذلك لاستيلائه على قرن الشمس من مغربها، وقرنها من مطلعها ـ عن الزهري، واختاره الزجاج.

ومنها: أنه رأى في منامه أنه دنى من الشمس حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها، فقص رؤياه على قومه، فسموه ذا القرنين ـ عن وهب.

ومنها: أنه عاش عيش قرنين فانقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي.

ومنها: أنه كان كريم الطرفين من أهل بيت الشرف من قبل أبيه وأمه، قال معاذ بن جبل: كان من أبناء الروم واسمه الإسكندر، وهو الذي بني الإسكندرية.

﴿**قل سأتلوا عليكم منه ذكراً**﴾ معناه: قل يا محمد سأقرأ عليكم منه خبراً وقصة ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بسطنا له في الأرض وملكناه حتى استولى عليها وقام بمصالحها، وروي عن علي عليه السلام أنه قال: سخر الله له السحاب فحمله عليها، ومد له في الأسباب وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء، فهذا معنى تمكينه في الأرض، وهو أنه سهل عليه المسير فيها، وذلل له طريقها وحزونها حتى تمكن منها أنى شاء ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ أي فأعطيناه من كل شيء علماً يتسبب به إلى إرادته، ويبلغ به إلى حاجته ـ عن ابن عباس وقتادة والضحاك. وقيل: معناه، وآتيناه من كل شيء يستعين به الملوك على فتح البلاد ومحاربة الأعداء ـ عن الجبائي. وقيل: معناه، وآتيناه من كل شيء سبيلًا، كما قال سبحانه: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي سبلها ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ معناه: فأتبع طريقاً واحداً في سلوكه، قال الزجاج معناه: فأتبع سبباً من الأسباب التي أوتي بها، وذلك أنه أوتي من كل شيء سبباً فأتبع من تلك الأسباب التي أوتي سبباً في المسير إلى المغرب، ومن قرأ: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ فمعناه: لحق، كقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ والأصل فيه ما مر ذكره في الحجة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي موضع غروبها، ومعناه: أنه انتهى إلى آخر العمارة من جانب المغرب، وبلغ قوماً لم يكن وراءهم أحد إلى موضع غروب الشمس، ولم يرد بذلك أنه بلغ إلى موضع الغروب لأنه لا يصل إليه أحد ﴿وَجَدَهَا﴾ تغرب، معناه: وجدها كأنها ﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وإن كانت تغرب في ورائها ـ عن الجبائي وابن مسلم والبلخي. لأن الشمس لا

تزايل الفلك ولا تدخل عين الماء، ولأنه قال: وجد عندها قوماً، ولكن لما بلغ ذو القرنين ذلك الموضع تراءى له كأن الشمس تغرب في عين، كما أن من كان في البحر رآها كأنها تغرب في الماء، ومن كان في البر يراها كأنها تغرب في الأرض الملساء، والعين الحمئة هي ذات الحمأة، وهي الطين الأسود المنتن، والحامية الحمارة. وعن كعب قال: أجدها في التوراة تغرب في ماء وطين. وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ معناه: ووجد عند العين ناساً ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ في هذا دلالة على أن القوم كانوا كفاراً، والمعنى: إما أن تعذب بالقتل من أقام منهم على الشرك، وإما أن تأسرهم وتمسكهم بعد الأمر لتعلمهم الهدى، وتستنقذهم من العمى. وقيل معناه: وإما أن تعفو عنهم.

واستدل من ذهب إلى أن ذا القرنين كان نبياً بهذا قال: لأن أمر الله تعالى لا يعلم إلا بالوحي، والوحي لا يجوز إلا على الأنبياء. وقال الكلبي: إن الله تعالى ألهمه ولم يوح إليه. وقال ابن الأنباري: إن كان ذو القرنين نبياً فإن الله تعالى قال له كما يقول للأنبياء، إما بتكليم أو بوحي، وإن لم يكن نبياً فإن معنى ﴿قُلْنَا﴾ ألهمنا، لأن الإلهام ينوب عن الوحي، قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ أي وألهمناها. قال قتادة: فقضى ذو القرنين فيهم بقضاء الله تعالى، وكان عالماً بالسياسة. قال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي أشرك ـ عن ابن عباس ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي نقتله إذا لم يرجع عن الشرك ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ بعد قتلي إياه ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي منكراً غير معهود، يعني في النار، وهو أشد من القتل في الدنيا.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر ويعقوب ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً﴾ بالنصب والتنوين، والباقون ﴿جَزَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالرفع والإضافة.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قال: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ كان المعنى: فله جزاء الخلال الحسنى التي عملها، لأن الإيمان والعمل الصالح خلال. ومن قال: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فالمعنى: له الحسنى جزاء، فجزاءً مصدر وقع موقع الحال، أي فله الحسنى مجزية. وقال أبو الحسن: وهذا لا يكاد العرب تتكلم به مقدماً إلا في الشعر.

● **المعنى:** ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مر معناه. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي سنقول له قولاً جميلاً، وسنأمره بما يتيسر عليه، ولا نؤاخذه بما مضى من كفره ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي طريقاً آخر من الأرض ليؤديه إلى مطلع الشمس ويوصله إلى المشرق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي بلغ موضع ابتداء العمارة من الجانب الذي تطلع منه الشمس ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ معناه: أنه لم يكن بها جبل ولا شجر ولا بناء. لأن أرضهم لم

يكن يثبت عليها بناء، فكانوا إذا طلعت الشمس يغورون في المياه والأسراب، وإذا غربت تصرفوا في أمورهم ـ عن الحسن وقتادة وابن جريج. وروى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: لم يعلموا صنعة البيوت. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ معناه: مثل ذلك القبيل الذي كانوا عند مغرب الشمس في أن حكمهم حكم أولئك. وقيل: إن معناه، أنه أتبع سبباً إلى مطلع الشمس، مثل ما أتبع سبباً إلى مغرب الشمس. وتم الكلام عند قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾.

ثم ابتدأ سبحانه فقال: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي علمنا ما كان عند ذي القرنين من الجيوش والعدة وآلات السياسة. وقيل معناه: أحطنا علماً بصلاحه واستقلاله بما ملكناه قبل أن يفعله، كما علمناه بعد أن فعله ولم يخف علينا حاله. وفي قوله: ﴿بِمَا لَدَيْهِ﴾ إشارة إلى حسن الثناء عليه والرضا بأفعاله، لامتثاله أمر الله تعالى في كل أحواله ﴿ثم اتبع سبباً﴾ معناه: ثم اتبع مسلكاً بالغاً مما يبلغه قطراً من أقطار الأرض، وهذا يقوي قول من قال: إن الأرض كروية الشكل، لأنه لم يأخذ في الطريق الذي كان قد عاد فيه، وإنما أخذ في طريق آخر.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿بين السدين وسداً﴾ بالفتح هنا في ياسين بالضم، وقرأ أهل الكوفة غير عاصم ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بضم السين و ﴿سَدًّا﴾ حيث كان بالفتح، وقرأ حفص الجميع بالفتح، وقرأ الباقون الجميع بالضم كل القرآن، وقرأ أهل الكوفة غير عاصم ﴿يفقهون﴾ بضم الياء وكسر القاف، والباقون بفتح الياء والقاف، وقرأ عاصم ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ بالهمزة، ومثله في الأنبياء، وقرأ الباقون بغير همزة فيهما في السورتين، وقرأ أهل الكوفة غير عاصم ﴿خراجاً﴾ في المؤمنين ﴿خراجاً فخراج ربك﴾ كله بالألف، والباقون «خرجا» بغير ألف في الموضعين ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ بالألف. وقرأ ابن كثير ﴿ما مكنني﴾ بنونين، والباقون بنون واحدة مشددة. وقرأ يحيى عن أبي بكر ﴿ردماً آتوني﴾ بالوصل، وقرأ حمزة ويحيى عن أبي بكر قال «إيتوني» بالوصل أيضاً، والباقون ﴿ءَاتُونِى﴾ بقطع الألف في الحرفين، وقرأ أهل المدينة والكوفة غير أبي بكر ﴿بين الصدفين﴾ بفتح الصاد والدال، وقرأ الباقون بضم الصاد والدال غير أبي بكر فإنه قرأ بضم الصاد وسكون الدال. وقرأ حمزة غير خلاد ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوٓا۟﴾ مشددة الطاء، والباقون خفيفة الطاء. وقرأ أهل الكوفة ﴿دَكَّآءَ﴾ بالمد والهمزة، والباقون ﴿دَكًّا﴾ منوناً غير مهموز.

● **الحجة:** قال أبو علي: كل شيء وجدته العرب من فعل الله من الجبال والشعاب فهو: سُدٌّ، بالضم، وما بناه الآدميون فهو: سَدٌّ. وقال غيره: هما لغتان كالضَّعف والضُّعف والفَقر والفُقر. قال أبو علي: يجوز أن يكون السد بالفتح مصدراً، والسد بالضم المشدود كالأشياء التي يفصل فيها بين المصادر والأسماء نحو: السَّقي والسُّقي والشَّرب والشُّرب، فإذا كان كذلك فالأشبه ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ لأنه المسدود، ويجوز فيمن فتح السدين أن يجعله اسماً للمسدود، نحو: نسج اليمن وضرب الأمير، بمعنى المنسوج والمضروب.

ومن قرأ ﴿لَا يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ﴾ فإن فقهت يتعدى إلى مفعول واحد نحو: فقهت السنة، فإذا نقلته تعدى إلى مفعولين، فيكون المعنى فيمن ضم: لا يكادون يفقهون أحداً قولًا، فحذف أحد المفعولين كما حذف من قوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ والمعنى: فأتبعوهم جندهم مشرقين، وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي فأتبعهم فرعون طلبه إياهم، أو يتبعه لهم، والحذف في هذا النحو كثير.

قال أبو علي: يأجوج إن جعلته عربياً فهو يفعول من أج، نحو يربوع، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفاً فهو على قوله يفعول أيضاً، وإن كانت الألف في يأجوج ليس في التخفيف، فإنه فاعول من ي ج ج، فإن جعلت الكلمة من هذا الأصل كانت الهمزة فيها كمن قال: سأق(١)، ونحو ذلك مما جاء مهموزاً ولم يتبع أن يهمز ويكون الامتناع من صرفه على هذا للتأنيث والتعريف كأنه اسم القبيلة كمجوس.

وأما مأجوج فمن همز فمفعول من أجَّ، فالكلمتان على هذا من أصل واحد، ومن لم يهمز فإنه فاعول من مج، فالكلمتان على هذا من أصلين وليسا من أصل واحد، ويكون ترك الصرف فيه أيضاً للتعريف والتأنيث، فإن جعلتهما من العجمية فهذه التمثيلات لا تصح فيهما، وإنما امتنعا من الصرف للعجمية والتعريف.

وقوله: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي هل نجعل لك عطية نخرجها إليك من أموالنا، وكذلك قوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي ما لا يخرجونه إليك، فأما المضروب على الأرض فالخراج، وقد يجوز في غير ضرائب الأرض الخراج بدلالة قول العجاج:

(يـومَ خـراجٌ يُـخـرج الـسَّـمـرجـا)(٢)

فهذا ليس على الضرائب التي ألزمت الأرضين، لأن ذلك لا يضاف إلى وقت من يوم وغيره، وإنما هو شيء مؤبد لا يتغير.

وقوله: ﴿ما مكنني﴾ بإظهار المثلين، فلأن الثاني منهما غير لازم، لأنك قد تقول: قد مكنتك ومكنته، فلا تلزم النون، فلما لم تلزم لم يعتد بها، كما أن التاء في اقتتلوا كذلك، ومن

---

(١) السأق: لغة في الساق.

(٢) السمرج: إستخراج الخراج في ثلاث مرات، فارسي ومعرب.

أدغم لم ينزله منزلة ما لا يلزم، فأدغم، كما أن من قال قتَّلوا في اقتتلوا كان كذلك. قال أبو علي: ومكن مكانة فهو مكين فعل غير متعد، فإذا ضعفت العين عديته بذلك.

وحجة من قرأ ﴿رد ما إيتوني﴾ إيتوني أن أشبه بأعينوني بقوة، لأنه كلفهم المعونة على عمل السد، ولم يقبل الخرج الذي بذلوه له. وقوله: إيتوني الذي معناه: جيؤني إنما هو معونة على ما كلفهم في قوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ وأما آتوني فمعناه: أعطوني، فأعطوني يجوز أن يكون على المناولة، ويجوز أن يكون على الاتّهاب، وإئتوني المقصورة لا يحتمل إلا جيئوني، فيكون أحسن هنا لاختصاصه بالمعونة فقط، دون أن يكون سؤال عين، والعطية قد تكون هبة، قال:

ومنا الذي أعطى الرسول عطية أسارى تميم والعيون دوامع

فالعطية تجري مجرى الهبة لهم والإنعام عليهم في فك الأسر، وقد تكون بمعنى المناولة.

ووجه قراءة من قرأ ﴿ءَاتُونِي﴾ أنه لم يرد بأتوني العطية والهبة، ولكن تكليف المناولة بالأنفس، كما كان قراءة من قرأ ﴿أيتوني﴾ لا ينصرف إلى استدعائه تمليك عين بهبة ولا بغيرها.

فأما انتصاب ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ فإنك تقول: أتيتك بدرهم، قال:

أتيت بعبد الله في القيد موثقاً فهلا سعيداً ذا الخيانة والغدر

فيصل الفعل إلى المفعول الثاني بحرف جر، ثم يجوز أن يحذف الحرف اتساعاً، فيصل الفعل إلى المفعول الثاني على حد [أمرتك الخير] ونحوه، والصَّدَف والصُّدُف والصُّدْف لغات فاشية، قال أبو عبيدة: الصَّدفان جنبتا الجبل. ومن قرأ ﴿ائتوني أفرغ عليه قطراً﴾ فمعناه: جيئوني به، كما قلنا في ﴿ائتوني زبر الحديد﴾ في اتصال الفعل إلى المفعول الثاني بحرف الجر، إلا أنه أعمل الفعل الثاني فلو أعمل الفعل الأول لكان ﴿ائتوني أفرغه عليه قطراً﴾ بقطر، إلا أن يقدر أن الفعل يصل إلى المفعول الثاني بلا حرف، كما كان كذلك في قوله: ﴿ائتوني زبر الحديد﴾ وجميع ما مر بنا في التنزيل من هذا النحو إنما هو على إعمال الثاني، كما يختاره سيبويه، فمن ذلك قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ ومنه قوله: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾.

وجه من قرأ ﴿ءَاتُونِي﴾ أن المعنى: ناولوني قطراً أفرغ عليه قطراً، إلا أنه أعمل الثاني من الفعلين كما أعمل الثاني من قصر ﴿ٱئْتُونِي﴾.

وقراءة حمزة ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ إنما هو على إدغام التاء في الطاء، ولم يلق حركتها على السين فيحرك ما لا يتحرك، ولكن أدغم مع أن الساكن الذي قبل المدغم ليس حرف مد، وقد قرأت القراء غير حرف من هذا النحو، وقد تقدم ذكر وجه هذا النحو، ومما يؤكد ذلك أن سيبويه أنشد:

كأنه بعد كلال الزاجر ومسحه مر عقاب كاسر(١)

---

(١) مر البيت مفسراً في ج١ من هذا التفسير فراجع.

والحذف في اسطاعوا، والإثبات في استطاعوا، كل واحد منهما أحسن من الإدغام على هذا الوجه الذي هو جمع بين السين الساكنة والتاء المدغمة وهي ساكنة أيضاً.

وأما قوله: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآ﴾ فإنه يحتمل أمرين:

أحدهما: أنه لما قال: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآ﴾ كان بمنزلة خلق وعمل، فكأنه قال: دكه دكاً، فحمله على الفعل الذي دل عليه قوله: ﴿جَعَلَهُۥ﴾.

والوجه الآخر: أن يكون جعله ذا دك، فحذف المضاف، ويمكن أن يكون حالاً في هذا الوجه.

ومن قرأ ﴿دكاء﴾ فعلى حذف المضاف، كأنه جعله مثل دكاء، قالوا: ناقة دكاء، أي لا سنام لها، ولا بد من تقدير الحذف، لأن الجبل مذكر فلا يوصف بدكاء.

● **اللغة:** السد: وضع ما ينتفى به الخرق، يقال: سده يسده، ومنه: سدد السهم، لأنه سد عليه طرق الاضطراب، ومنه السداد: الصواب. والردم: السد والحاجز، يقال: ردم فلان موضع كذا يردمه ردماً، والثوب المردَّم: الخَلق المرقع، ومنه قول عنترة:

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم

أي هل تركوا من قول يؤلف تأليف الثوب المرقع. والزبرة: الجملة المجتمعة من الحديد والصفر ونحوهما، وأصله الاجتماع، ومنه الزبور، وزبرت الكتاب: إذا كتبته لأنك جمعت حروفه، قال أبو عبيدة: القطر: الحديد المذاب، وأنشد:

حسام كلون الثلج صاف حديده ... جُراز من أقطار الحديد المُنَعَّتِ[1]

وأصله من القطر، لأن الرصاص والحديد إذا أذيب قطر كما يقطر الماء. وفي استطاع ثلاث لغات: استطاع يستطيع وأسطاع يستطيع واستاع يستيع، بحذف الطاء، استثقلوا اجتماعهما وهما من مخرج واحد، فأما أسطاع يسطيع بقطع الألف وهو أطاع أفعل، فزادوا السين عوضاً من ذهاب حركة الواو، لأن أصل أطاع أطوع، ومثله أهراق يهريق، زادوا الهاء في أراق يريق، وليس هذا العوض بلازم، ألا ترى أن ما كان نحوه لم يلزمه هذا العوض.

● **المعنى:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ ثم أخبر سبحانه عن حال ذي القرنين بعد منصرفه عن المشرق أنه سلك طريقاً إلى أن بلغ بين السدين ووصل إلى ما بينهما وهما الجبلان اللذان جعل الردم بينهما، وهو الحاجز بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم - عن ابن عباس وقتادة والضحاك. وقيل: أراد بالسدين الموضع الذي فيه السدان اليوم، لأنه لو كان هناك سد لم يكن لطلبهم السد معنى، والسد: الموضع المسدود لا المنفتح ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ أي خصوا بلغة كادوا لا يعرفون غيرها، قال ابن عباس: كادوا لا يفقهون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم، وإنما قال: لا يكادون، لأنهم فهموا بعض الأشياء عنهم، وإن كان

(١) سيف جراز: قاطع.

بعد شدة، ولذلك حكى الله عنهم أنهم ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويجوز أن يكون الله سبحانه فهم ذا القرنين لسانهم كما فهم سليمان عليه السلام منطق الطير، أو قالوا له بترجمان: إن يأجوج ومأجوج مفسدون في أرضهم، وفسادهم أنهم كانوا يخرجون فيقتلونهم ويأكلون لحومهم ودوابهم. وقيل: كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يدعون شيئاً أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه ـ عن الكلبي. وقيل: أرادوا أنهم سيفسدون في المستقبل عند خروجهم.

وورد في الخبر عن حذيفة قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن يأجوج ومأجوج، فقال: يأجوج أمة، ومأجوج أمة، كل أمة أربعمائة أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كل قد حمل السلاح، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: هم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرز، قلت: يا رسول الله، وما الأرز؟ قال: شجر بالشام طوال، وصنف منهم طولهم وعرضهم سواء، وهؤلاء الذين لا يقوم لهم خيل ولا حديد، وصنف منهم يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى، ولا يمرون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام، وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية، قال وهب ومقاتل: إنهم من ولد يافث بن نوح أبي الترك. وقال السدي: الترك سرية من يأجوج ومأجوج، خرجت تغير فجاء ذو القرنين فضرب السد، فبقيت خارجه. وقال قتادة: إن القرنين بني السد على إحدى وعشرين قبيلة، وبقيت منهم قبيلة دون السد، فهم الترك. وقال كعب: هم نادرة في ولد بني آدم، وذلك أن آدم عليه السلام احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب، فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج، فهم متصلون بنا من جهة الأب دون الأم، وهذا بعيد، وقوله: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أو خراجاً معناه: فهل نجعل لك بعضاً من أموالنا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي حائطاً.

وقيل: في الفرق بين الخرج والخراج أن الخراج اسم لما يخرج من الأرض، والخرج اسم لما يخرج من المال. وقيل: الخراج الغلة، والخرج الأجرة. وقيل: الخراج ما يؤخذ عن الأرض، والخرج ما يؤخذ عن الرقاب ـ قاله أبو عمرو. وقيل: الخراج ما يؤخذ في كل سنة، والخرج ما يؤخذ دفعة ـ عن تغلب.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ أي أعطاني ربي من المال ومكني فيه من الاتساع في الدنيا خير مما عرضتموه عليّ من الأجر ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ أي برجال، فيكون معناه: بقوة الأبدان. وقيل: يعمل تعملونه معي ـ عن الزجاج. وقيل: بآلة العمل، وذلك زبر الحديد والصفر ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي سداً وحاجزاً. قال ابن عباس: الردم أشد الحجاب. وقيل: هو السد المتراكب بعضه على بعض ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي أعطوني قطع الحديد، أو جيئوا بقطع الحديد على القراءة الأخرى، وفي الكلام حذف، وهو أنهم آتوه بما طلبه منهم من زبر الحديد ليعمل الردم في وجوه يأجوج ومأجوج فبناه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي سوّى بين جانبي الجبل، بما جعل بينهما من الزبر، قال الأزهري: يقال لجانبي الجبل: صدفان

لتصادفهما، أي تحاذيهما وتلاقيهما. وقيل: هما جبلان كل واحد منهما منعزل عن الآخر، كأنه قد صدف عنه. وقوله: ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ معناه: قال ذو القرنين: انفخوا النار على الزبر، أمرهم أن يؤتي بمنافخ الحدادين، فينفخوا في نار الحديد التي أوقدت فيه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي حتى إذا جعل الحديد كالنار في منظره من الحمى واللهب، فصار قطعة واحدة لزم بعضها بعضاً ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ أي أعطوني نحاساً مذاباً أو صفراً مذاباً أو حديداً مذاباً أصبه على السدين الجبلين حتى ينسد الثقب الذي فيه، ويصير جداراً مصمتاً، فكانت حجارته الحديد، وطينه النحاس الذائب ـ عن ابن عباس ومجاهد والضحاك قال قتادة: فهو كالبرد المحبر طريقة سوداء، وطريقة حمراء ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ معناه: فلما تَمَّ لم يستطع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوه، يقال: ظهرت السطح إذا علوته ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ أي ولم يستطيعوا أن ينقبوا أسفله لكثافته وصلابته، ونفى بذلك كل عيب يكون في السد. وقيل: إن هذا السد وراء بحر الروم بين جبلين هناك يلي مؤخرهما البحر المحيط. وقيل: إنه وراء دربند وخزران من ناحية أرمنية وأذربيجان. وقيل: إن مقدار ارتفاع السد مائتا ذراع، وعرض الحائط نحو من خمسين ذراعاً ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾ أي هذا السد نعمة من الله لعباده أنعم بها عليهم في دفع شر يأجوج ومأجوج عنهم ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ يعني إذا جاء وقت أشراط الساعة، ووقت خروجهم الذي قدره الله تعالى ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي جعل السد أرضاً مستوياً مع الأرض مدكوكاً، أو ذا دك، وإنما يكون ذلك بعد قتل عيسى بن مريم الدجال ـ عن ابن مسعود. وجاء في الحديث: أنهم يدأبون في حفره نهارهم حتى إذا أمسوا وكادوا يبصرون شعاع الشمس قالوا نرجع غداً ونفتحه ولا يستثنون، فيعودون من الغد وقد استوى كما كان، حتى إذا جاء وعد الله قالوا: غداً نفتح ونخرج إن شاء الله، فينشفون المياه، ويتحصن الناس في حصونهم منهم، فيرمون سهامهم إلى السماء فترجع وفيها كهيئة الدماء، فيقولون قد قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً في أقفائهم(١) فيدخل في آذانهم فيهلكون بها، فقال النبي ﷺ: والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم شكراً. وفي تفسير الكلبي: أن الخضر واليسع يجتمعان كل ليلة على ذلك السد يحجبان يأجوج ومأجوج عن الخروج ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ أي وكان ما وعد الله بأن يفعله لا بد من كونه فإنه حق، إذ لا يجوز أن يخلف وعده.

●●●

قوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا
٩٩ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ
لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا

(١) النغف: دود يسقط من أنوف الإبل والغنم. وقيل: دود أبيض يكون في النوى إذا اتقع.

جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى
هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو بكر في رواية الأعشى والبرجمي عنه وزيد بن يعقوب ﴿أفحسبُ﴾ برفع الباء وسكون السين، وهو قراءة أمير المؤمنين عليه السلام وابن يعمر والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وابن أبي ليلى، وهذا من الأحرف التي اختارها أبو بكر وخالف عاصماً فيها، وذكر أنه أدخلها في قراءة عاصم من قراءة أمير المؤمنين عليه السلام، حتى استخلص قراءته، وقرأ الباقون ﴿أَفَحَسِبَ﴾ بكسر السين وفتح الباء.

● **الحجة:** قال ابن جني معناه: أفحسبُ الكافرين وحظُّهم ومطلوبهم أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء؟ بل يجب أن يعدُّوا أنفسهم مثلهم فيكون كلهم عبيداً وأولياء لي، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي اتخذتهم عبيداً لك، وهذا أيضاً هو المعنى إذا كانت القراءة: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إلا أن ﴿حسْب﴾ ساكنة السين أذهب في الذم لهم، وذلك لأنه جعله غاية مرادهم، ومجموع مطلوبهم، وليست القراءة الأخرى كذلك.

● **اللغة:** الترك: التخلية، والتريكة: بيضة النعام، كأنها تركت بالعراء، والتريكة أيضاً الروضة يغفلها الناس فلا يرعَونها، والترك ضد الأخذ، والترك في الحقيقة يجوز على الله تعالى، وإنما يجوز على العاذر بعذره، إلا أنه يتوسع فيه فيعبر فيه عن الإخلال بالشيء بالترك. والموج: اضطراب الماء بتراكب بعضه على بعض، والنزل ما يهيأ للنزيل وهو الضيف، قال الشاعر:

نزل القوم أعظمهم حقوقاً   وحقُّ الله في حقِّ النزيل

وطعام ذو نُزل ونزل بفتح النون والزاء أيضاً ذو فضل.

● **الإعراب:** ﴿أَن يَتَّخِذُوا۟﴾ في موضع نصب بوقوع حسب عليه، ومن قرأ ﴿فحسب﴾ بالرفع وسكون السين، فـ ﴿أَن يَتَّخِذُوا۟﴾ في موضع رفع ﴿أَعْمَٰلًا﴾ منصوب على التمييز، لأنه لما قال: ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ﴾ كان مبهماً لا يدل على ما خسروه فبين ذلك الخسران في أي نوع وقع، و ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يصلح أن يكون في موضع جر على الصفة ﴿للأخسرين﴾ ويصلح أن يكون في موضع رفع على الاستئناف، أي هم الذين ضل سعيهم.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن حال تلك الأمم، فقال: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ أي وتركنا يأجوج ومأجوج يوم انقضاء أمر السد يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم، ويكون حالهم كحال الماء الذي يتموج باضطراب أمواجه. وقيل: إنه أراد سائر الخلق من الجن والإنس، أي وتركناهم يوم خروج يأجوج ومأجوج يختلطون بعضهم ببعض، لأن ذلك علم

للساعة. ثم ذكر سبحانه نفخ الصور فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لأن خروج يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة، واختلف في الصور فقيل: هو قرن ينفخ فيه ـ عن ابن عباس وابن عمر. وقيل: هو جمع صورة، فإن الله سبحانه يصوّر الخلق في القبور كما صوَّرهم في أرحام الأمهات، ثم ينفخ فيهم الأرواح كما نفخ وهم في أرحام أمهاتهم ـ عن الحسن وأبي عبيدة، وقيل: إنه ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات: فالنفخة الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق التي يصعق من في السماوات والأرض بها فيموتون، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين فيحشر الناس بها من قبورهم ﴿فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا﴾ أي حشرنا الخلق يوم القيامة كلهم في صعيد واحد ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ أي أظهرنا جهنم وأبرزناها لهم حتى شاهدوها، ورأوا ألوان عذابها قبل دخولها ثم وصف الكافرين فقال ﴿**الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى**﴾ ذكر سبحانه السبب الذي استحقوا به النار يعني الذين غفلوا عن الاعتبار بقدرتي الموجب لذكري، وأعرضوا عن التفكر في آياتي ودلائلي، فصاروا بمنزلة من يكون في عينه غطاء يمنعه من الإدراك ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي وكان يثقل عليهم سماع القرآن، وذكر الله تعالى، كما يقال: فلان لا يستطيع النظر إليك، ولا يستطيع أن يسمع كلامك، أي يثقل عليه ذلك، وأراد بالعين هنا عين القلب، كما يضاف العمى إلى القلب.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معناه أفحسب الذين جحدوا توحيد الله أن يتخذوا من دوني أرباباً ينصرونهم ويدفعون عقابي عنهم، والمراد بالعباد المسيح والملائكة الذين عبدوهم من دون الله، وهم براء منهم ومن كل مشرك بالله تعالى، وقيل معناه: أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا من دوني آلهة وأنا لا أغضب لنفسي عليهم، ولا أعاقبهم ـ عن ابن عباس ويدل على هذا المحذوف قوله ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أي منزلاً ـ عن الزجاج، وهو معنى قول ابن عباس، يريد هي مثواهم ومصيرهم، وقيل معناه: إنا جعلنا جهنم معدة مهيأة للكافرين عندنا كما يهيأ النزل للضيف ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي هل نخبركم ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا﴾ أي بأخسر الناس أعمالاً، والمعنى بالقوم الذين هم أخسر الناس فيما عملوا، وهم كفار أهل الكتاب اليهود والنصارى ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ أي بطل عملهم واجتهادهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي يظنون أنهم بفعلهم محسنون، وأن أفعالهم طاعة وقربة، وروى العياشي بإسناده. قال: قام ابن الكواء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فسأله عن أهل هذه الآية. فقال: أولئك أهل الكتاب كفروا بربهم، وابتدعوا في دينهم، فحبطت أعمالهم وما أهل النهر منهم ببعيد يعني الخوارج.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ أي جحدوا بحجج الله وبيناته ولقاء جزائه في الآخرة فبطلت وضاعت أعمالهم التي عملوها، لأنهم أوقعوها على خلاف الوجه الذي أمرهم الله به ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي لا قيمة لهم عندنا ولا كرامة ولا نعتد بهم، بل نستخف بهم ونعاقبهم، تقول العرب: ما لفلان عندنا وزن أي قدر ومنزلة، ويوصف الجاهل بأنه لا وزن له لخفته بسرعة بطشه وقلة تثبته، وروي في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ معناه: الأمر ذلك الذي ذكرت من حبوط أعمالهم، وخيبة قدرهم. ثم ابتدأ سبحانه. فقال: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾. ﴿بِمَا

كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي بكفرهم واتخاذهم آياتي أي أدلتي الدالة على توحيدي يعني القرآن ورسلي هزواً أي مهزوءاً به.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم ﴿أن ينفد﴾ بالياء والباقون ﴿تَنفَدَ﴾ بالتاء وفي الشواذ قراءة ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وسليمان التيمي ﴿ولو جئنا بمثله مداداً﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي ﴿تَنفَدَ﴾ بالتاء أحسن لأن المسند إليه الفعل مؤنث والمذكر حسن أيضاً لأن التأنيث ليس بحقيقي، ومن قرأ ﴿مَدَدًا﴾ فهو منصوب على الحال كما يقال: جئتك بزيد عوناً لك، ومدداً لك، ويجوز أن ينتصب على المصدر بفعل مضمر يدل عليه قوله: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ فكأنه قال: أمددنا به إمداداً ثم وضع مداداً موضع إمداداً، وقال الزجاج: هو منصوب على التمييز، ومن قال: ﴿جئنا بمثله مداداً﴾ فإنه ينتصب على التمييز، والمعنى بمثله من المداد ويكون مثل قولك: لي ﴿مثله عبداً﴾ أي من العبيد، وعلى التمرة مثلها زبداً أي من الزبد.

● **اللغة:** الفردوس البستان الذي يجتمع فيه التمر والزهر وسائر ما يمتع ويلذ، قال الزجاج: هو البستان الذي يجمع محاسن كل بستان. قال: وقال قوم: إن الفردوس الأودية التي تنبت ضروباً من النبت، وقالوا: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية ولم نجده في أشعار العرب إلا في بيت حسان:

فإن ثوابَ الله كل موحد جنان من الفردوس فيها يخلد

والحول التحول يقال: قد حال من مكانه حولاً كما قالوا في المصادر: صغر صغراً وعظم عظماً وعاد في حبها عوداً، وقيل: إن الحول أيضاً الحيلة، وقيل: إن الحول بمعنى التحويل يقال حولوا عنها تحويلاً وحولاً عن الأزهري وابن الأعرابي، والمداد الذي يكتب به والمدد المصدر، وهو مجيء شيء بعد شيء؛ والكلمة: الواحدة من الكلام، وقد يقال للقصيدة: كلمة لأنها قطعة واحدة من الكلام.

﴿وَمِمَّا﴾ يسأل عنه فيقال: إن الكلمات لأقل العدد، فكيف جاء بها ها هنا؟

والجواب أن العرب تستغني بالجمع القليل عن الجمع الكثير، وبالكثير عن القليل، قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ والغرف في الجنة أكثر من أن تحصى وقال: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ وقال حسان:

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دَماً[١]

وكان أبو علي الفارسي ينكر الحكاية التي تروى عن النابغة وأنه قال لحسان قللت جفناتكم وأسيافكم[٢]. فقال لا يصح هذا من النابغة.

● **الإعراب:** إن جعلت ﴿نُزُلًا﴾ بمعنى المنزل فهو خبر كان على ظاهره، وإن جعلته بمعنى ما يقام للنازل قدرت المضاف، على معنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمهما نزلًا، ويجوز أن يكون ﴿نُزُلًا﴾ جمع نازل فيكون نصباً على الحال من الضمير في لهم، ومعنى كان: أنه كان في علم الله تعالى قبل أن يخلقوا ـ عن ابن الأنباري وقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ يجوز كسر اللام وإسكانها والأصل الكسر إلا أنه يثقل في اللفظ.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر حال الكافرين، عقبه سبحانه بذكر حال المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي صدقوا الله ورسوله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ أي كان في حكم الله وعلمه لهم بساتين الفردوس، وهو أطيب موضع في الجنة، وأوسطها وأفضلها وأرقمها ـ عن قتادة، وقيل: هو الجنة الملتفة الأشجار ـ عن قتادة، وقيل هو البستان الذي فيه الأعناب ـ عن كعب، وروى عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، الفردوس أعلاها درجة، منها تفجر أنهار الجنة الأربعة، فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس ﴿نُزُلًا﴾ أي منزلًا ومأوى، وقيل: ذات نزول ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي دائمين فيها ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي لا يطلبون عن تلك الجنات تحولًا إلى موضع آخر لطيبتها وحصول مرادهم فيها.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد لجميع المكلفين ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾ وهو اسم الجنس أي لو كان البحر بمائه ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ أي مداداً ليكتب به ما يقدر الله عليه من الكلام والحكم، وقيل: أراد بالكلمات ما يقدر الله سبحانه على أن يخلقه من الأشياء ويأمر به، كما قال في عيسى عليه السلام، وكلمته ألقاها إلى مريم، وقيل: أراد بالكلمات ما وعد لأهل الثواب وما وعد لأهل العقاب ـ عن أبي مسلم ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ أي لفني ماء البحر ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ وقيل: إن كلماته المراد بها مقدوراته وحكمته وعجائبه، وقوله: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ أي ولو جئنا بمثل البحر مداداً له أي عوناً وزيادة لما نفد ذلك وقيل: أراد بكلمات ربي معاني كلمات ربي وفوائدها، وهي القرآن وسائر كتبه ولم يرد بذلك أعيان الكلمات لأنه قد فرغ من كتابتها،

---

(١) الجفنات: القصاع. والغر: البيض. أراد أنها بيض من كثرة الشحم، وبياض اللحم. يصف قومه بالجود والشجاعة.

(٢) حكي أن النابغة الذبياني كان يضرب له بسوق عكاظ قبة حمراء من أدم، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها. فصدف أن أنشده حسان يوماً هذا البيت، فقال النابغة: أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، أراد إن أسياف: جمع لأدنى العدد، والكثير السيوف، والجفنات كذلك لأدنى العدد، والكثير الجفان. وفي هذا البيت كلام للخنساء أيضاً فإنها قالت لحسان: لقد قلت: «يلمعن بالضحى» وكان حقه بالدجى وقلت: «الغر» وكان حقه البيض. «ويقطرن» وكان الأجمل يسلن، أو يفضن.

فيكون تقدير قل لو كان البحر مداداً لكتابة معاني كلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفد كتابة معاني كلمات ربي، فحذف لأن المعنى مفهوم، والمداد هو الجائي والآتي شيئاً بعد شيء. قال ابن الأنباري: سمي المداد مداداً لأمداده الكاتب، ويقال للزيت الذي يوقد به السراج مداد ـ وروى عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزل قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة وفيها علم كثير، فأنزل الله هذه الآية، ولذلك قال الحسن أراد بالكلمات العلم، فإنه لا يدرك ولا يحصى، ونظيره ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية.

ثم قال ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ قال ابن عباس: علم الله نبيه التواضع لئلا يزهي على خلقه، فأمره أن يقر على نفسه بأنه آدمي كغيره، إلا أنه أكرم بالوحي، وهو قوله: ﴿**يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد**﴾ لا شريك له أي لا فضل لي عليكم إلا بالدين والنبوة، ولا علم لي إلا ما علمنيه الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي فمن كان يطمع في لقاء ثواب ربه ويأمله ويقر بالبعث إليه والوقوف بين يديه، وقيل: معناه فمن كان يخشى لقاء عقاب ربه، وقيل: أن الرجاء يشتمل على كلا المعنيين الخوف والأمل، وأنشد ذلك قول الشاعر:

فلا كل ما ترجو من الخير كائن ولا كل ما نرجو من الشر واقع

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي خالصاً لله تعالى يتقرب به إليه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ غيره من ملك أو بشر أو حجر أو شجر ـ عن الحسن، وقيل معناه: لا يرائي في عبادته أحداً ـ عن سعيد بن جبير، وقال مجاهد: جاء رجل إلى النبي ﷺ. فقال: إني أتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرني ذلك وأعجب به، فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً فنزلت الآية.

قال عطاء عن ابن عباس إن الله تعالى قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ولم يقل: ولا يشرك به، لأنه أراد العمل الذي يعمل لله ويجب أن يحمد عليه، قال: ولذلك يستحب للرجل أن يدفع صدقته إلى غيره ليقسمها كيلا يعظمه من يصله بها.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء فهو الذي أشرك أورده مسلم في الصحيح.

روي عن عبادة بن الصامت وشداد بن أوس قالا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: من صلى صلاة يرائي بها فقد أشرك، ومن صام صوماً يرائي به فقد أشرك، ثم قرأ هذه الآية.

وروي أن أبا الحسن الرضا عليه السلام دخل يوماً على المأمون فرآه يتوضأ للصلاة والغلام يصب على يده الماء، فقال لا تشرك بعبادة ربك أحداً، فصرف المأمون الغلام وتولى إتمام وضوئه بنفسه.

وقيل: إن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن، وروى الشيخ أبو جعفر بن بابويه بإسناده ـ عن عيسى بن عبد الله ـ عن أبيه ـ عن جده ـ عن علي عليه السلام. قال: ما من عبد يقرأ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلى آخره إلا كان له نوراً في مضجعه إلى بيت الله الحرام، فإن كان من أهل

البيت الحرام كان له نوراً إلى بيت المقدس، وقال أبو عبد الله عليه السلام ما من أحد يقرأ آخر الكهف عند النوم إلا يتيقظ في الساعة التي يريدها.

● **النظم**: وجه اتصال الآية الثانية وهي قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ بما قبلها أنه لما تقدم الأمر والنهي والوعد والوعيد وعقب ذلك سبحانه ببيان أن مقدوراته لا تتناهى، وأنه قادر على ما يشاء في أفعاله وأوامره على حسب المصالح فمن الواجب على المكلف أن يمتثل أمره ونهيه ويثق بوعده ويتقي وعيده.

سُورَةُ مَرْيَمَ

وهي مكية بالإجماع.

● **عدد آيها:** وهي ثمان وتسعون آية عراقي شامي، والمدني الأول، وتسع مكي والمدني الأخير.

● **اختلافها:** ثلاث آيات و﴿كهيعص﴾ كوفي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾ غير الكوفي ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ مكي والمدني الأخير.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: من قرأها أعطي من الأجر بعدد من صدق بزكريا وكذب به ﴿وَيَحۡيَىٰ﴾ ومريم، وعيسى وموسى وهارون، وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وإسماعيل عشر حسنات، وبعدد من دعى لله ولداً، وبعدد من لم يدع له ولداً، وقال الصادق عليه السلام: من أدمن قراءة سورة مريم لم يمت في الدنيا حتى يصيب منها ما يغنيه في نفسه، وماله وولده، وكان في الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم عليه السلام، وأعطى من الأجر في الآخرة ملك سليمان بن داود في الدنيا.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة الكهف بذكر التوحيد والدعاء إليه، وافتتح هذه السورة بذكر الأنبياء الذين كانوا على تلك الطريقة بعثاً على الاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم وحثاً عليه فقال:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ بإمالة «ها» وفتح «يا»، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان وحمزة وخلف بفتح «ها» وإمالة «يا»، وقرأ الكسائي بإمالة «ها ويا»، وروي ذلك عن اليزيدي عن أبي عمرو - عن يحيى - عن أبي بكر، والباقون بفتحها، وقرأ أبو عمرو والكسائي ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ بالجزم فيه، والباقون بالرفع فيه، وفي الشواذ قراءة الحسن ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ وقراءة عثمان وابن عباس وزيد بن ثابت وعلي بن الحسين ومحمد بن علي الباقر وابن يعمر وسعيد بن جبير ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾ بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء، وقراءة علي بن أبي

طالب عليه السلام وابن عباس وجعفر بن محمد وابن يعمر والحسن والجحدري وقتادة وأبي نهيك ﴿يرثني وأرث من آل يعقوب﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: القول في إمالة هذه الحروف إنها لا تمتنع لأنها ليست بحروف معنى، وإنما هي أسماء لهذه الأصوات، قال سيبويه: قالوا بإمالاتها لأنها أسماء لما يتهجى به فجازت فيها الإمالة كما جازت في الأسماء، ويدلك على أنها أسماء أنك إذا أخبرت عنها أعربتها، وإن كنت لا تعربها قبل ذلك كما أن أسماء العدد إذا أخبرت عنها أعربتها، فكما أن أسماء العدد قبل أن تعربها أسماء فكذلك هذه الحروف، وإذا كانت أسماء ساغت الإمالة فيها، فأما من لم يمل فعلى مذهب أهل الحجاز، وكلهم أخفى نون ﴿عٓسٓقٓ﴾ إلا حفصاً فإنه بين النون.

وقال أبو عثمان: وبيان النون مع حروف الفم لحن إلا أن هذه الحروف تجري على الوقف عليها والقطع لها عما بعدها فحكمها البيان وألا تخفى، فكذلك أسماء العدد حكمها على الوقف، وعلى أنها منفصلة عما بعدها، ومما يبين أنها على الوقف أنهم قالوا: ثلاثة أربعة نقلوا حركة الهمزة إلى الهاء لسكونها، ولم يقدرها تاء، وإن كانت موصولة لما كانت النية بها الوقف، فكذلك النون ينبغي أن تبين لأنها في نية الوقف والانفصال مما بعدها، ولمن لم يبين أن يستدل بتركهم قطع الهمزة في ﴿آلم الله﴾ ألا ترى أن الهمزة لم تقطع وإن كان ما هي منه في تقدير الانفصال مما قبله، فكذلك لم يبين النون من ﴿عٓسٓقٓ﴾ لأنها جعلت في حكم الاتصال كما كانت الهمزة فيما ذكرناه كذلك.

قال أبو الحسن التبيين يعني تبيين النون أجود في العربية لأن حروف الهجاء والعدد يفصل بعضها من بعض كما قال، وعامة القراء على خلاف التبيين.

ووجه الرفع في قوله ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ أنه سأل ربه ولياً وارثاً، وليس المعنى على الجزاء، أي إن وهبته يرث.

ووجه الجزم أنه على الجزاء وجواب الدعاء، ومن قرأ ﴿يرثني وارث﴾ فمعناه التجريد وتقديره فهب لي ولياً يرثني منه وارث من آل يعقوب، وهذا الوارث نفسه. قال ابن جني. قال: وهذا ضرب من العربية غريب، فكأنه جرد منه وارثاً ومثله قوله تعالى: ﴿ولهم فيها دار الخلد﴾ وهي نفسها دار الخلد، فكأنه جرد من الدار دار، وعليه قول الأخطل:

بنزوة لص بعد ما مر مصعب ... بأشعث لا يفلى ولا هو يقمل

ومصعب نفسه هو الأشعث، فكأنه استخلص منه أشعث.

وأما قراءة الحسن ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ فإن فاعل ذكر ضمير ما تقدم، أي هذا المتلو من القرآن الذي هذه الحروف أوله وفاتحته يذكر رحمة ربك، وعلى هذا أيضاً يرتفع قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي هذا القرآن ذكر رحمة ربك، وإن شئت كان التقدير، ومما نقص عليك ذكر رحمة ربك فيكون على الوجه الأول ذكر خبر مبتدأ وعلى الوجه الثاني يكون مبتدأ.

ومن قال ﴿خِفَّتِ ٱلْمَوَالِىَ﴾ فمعناه قل بنو عمي وأهلي ومعنى ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي من أخلفه بعدي، فقوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ حال متوقعة محكية، أي متصوراً متوقعاً كونهم بعدي، ومثله مسألة الكتاب: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، أي متصوراً به صيده به غداً.

● **اللغة:** الوهن: الضعف ونقصان القوة، يقال: وهن يهن وهنا والاشتعال انتشار شعاع النار، وقوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ من أحسن الاستعارات، والمعنى اشتعل الشيب في الرأس، وانتشر كما ينتشر شعاع النار، قال الزجاج: يقال للشيب إذا كثر جداً: قد اشتعل رأس فلان وأنشد للبيد:

إن تـرى رأسـي أمـسـى وضـحـاً سـلط الـشـيـب عـلـيـه فـاشـتـعـل

والدعاء طلب الفعل من المدعو، وفي مقابلته الإجابة، كما أن في مقابلة الأمر الطاعة، والمولي أصله من الولي، وهو القرب وسمي ابن العم مولي لأنه يليه في النسب، وقال ابن الأنباري في كتاب مشكل القرآن: المولي في اللغة ينقسم على ثمانية أقسام: المنعم المعتق، والمنعم عليه المعتق، والولي والأولى بالشيء. وابن العم والجار، والصهر والحليف، واستشهد على كل قسم من هذه الأقسام بشيء من الشعر، ومما استشهد به في أنه بمعنى الولي والأولى قول الأخطل:

فـأصـبـحـت مـولاهـا مـن الـنـاس بـعـده وأحـرى قـريـش أن تـهـاب وتـحـمـدا

وقوله أيضاً يخاطب بني أمية:

أعـطـاكـم الله جـداً تـنـصـرون بـه لا جـد إلا صـغـيـر بـعـد مـحـتـقـر
لـم يـأشـروا فـيـه إذ كـانـوا مـوالـيـه ولـو يـكـون لـقـوم غـيـرهـم أشـروا

والعاقر: المرأة التي لا تلد، يقال: امرأة عاقر، ورجل عاقر، لا يولد له ولد قال الشاعر:

لـبـئـس الـفـتـى إن كـنـت أسـود عـاقـراً جـبـانـاً فـمـا عـذري لـدى كـل مـحـضـر

والعقر في البدن: الجرح، ومنه أخذ العاقر لأنه نقص أصل الخلقة إما بالجراحة وإما بامتناع الولادة، وعقرت الفرس بالسيف: ضربت قوائمه، والجعل على أربعة أقسام: بمعنى الإحداث كقولهم: جعل البناء أي أحدثه، وبمعنى أن يحدث ما يتغير به كقولهم: جعل الطين خزفاً، وبمعنى أن يحدث فيه حكماً كقولهم: جعل فلاناً فاسقاً، أي بما أحدث فيه من حكمه وتسميته، وبمعنى أن يحدث ما يدعوه إلى أن يفعل كقولهم: جعله أن يقتل زيداً أي بأن أمره به ودعاه إلى قتله.

● **الإعراب:** ﴿ذِكْرُ﴾ مرتفع بالمضمر وتقديره: هذا الذي يتلوه عليك ذكر رحمة ربك، وهو مصدر مضاف إلى ما هو المفعول في المعنى ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ مصدر مضاف إلى الفاعل و ﴿عِبَادِهِۦ﴾ مفعول رحمة و ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل من ﴿عَبْدِهِۦ﴾ أو عطف بيان، ويقرأ بالقصر والمد وقوله قال: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ بيان وتفسير للنداء الخفي و ﴿شَيْبًا﴾ منصوب على التمييز،

والتقدير واشتعل الرأس من الشيب بدعائك تقديره: بدعائي إياك، فالمصدر مضاف إلى المفعول كقوله ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ و ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾.

● **المعنى:** ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قد بينا في أول البقرة اختلاف العلماء في الحروف المعجم التي في أوائل السور، وشرحنا أقوالهم هناك، وحدث عطاء بن السائب ـ عن سعيد بن جبير ـ عن ابن عباس أنه قال: إن كاف من كريم، وها من هاد، وياء من حكيم، وعين من عليم، وصاد من صادق، وفي رواية عطاء والكلبي عنه: أن معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق في وعده، وعلى هذا فإن كل واحد من هذه الحروف يدل على صفة من صفات الله عز وجل وروي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: في دعائه أسألك يا كهيعص ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي هذا خبر رحمة ربك زكريا عبده، ويعني بالرحمة إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد، وزكريا اسم نبي من أنبياء بني إسرائيل كان من أولاده هارون بن عمران أخي موسى بن عمران، وقيل: إن معناه ذكر ربك عبده بالرحمة ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ أي حين دعا ربه دعاء خفياً خافياً سراً غير جهر، يخفيه في نفسه لا يريد به رياء، وفي هذا دلالة على أن المستحب في الدعاء الإخفاء، وأن ذلك أقرب إلى الإجابة، وفي الحديث: خير الدعاء الخفي وخير الرزق ما يكفي، وقيل: إنما أخفاه لئلا يهزأ به الناس فيقولوا انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكبر.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي ضعف، وإنما أضاف الوهن إلى العظم، العظم مع صلابته إذا ضعف وتناقص، فكيف باللحم والعصب، وقيل: إنما خصّ العظم لأنه شكا ضعف البطش، والبطش إنما يكون بالعظم دون اللحم وغيره ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ معناه أن الشيب قد عم الرأس وهو نذير الموت ـ عن أبي مسلم، وقيل: معناه: تلألأ الشيب في رأسي لكثرته ـ عن ابن الأنباري وصف حاله خضوعاً وتذللاً تعريفاً ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي ولم أكن بدعائي إياك فيما مضى مخيباً محروماً، والمعنى أنك قد عودتني حسن الإجابة، وما خيبتني فيما سألتك، ولا حرمتني الإستجابة فيما دعوتك، فلا تخيبني فيما أسألك، ولا تحرمني إجابتك فيما أدعوك، يقال: شقي فلان بحاجته إذا تعب بسببها ولم يحصل مطلوبه منها ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ وهم الكلالة ـ عن ابن عباس، وقيل: العصبة ـ عن مجاهد، وقيل: لهم العمومة وبنو العم ـ عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: بنو العم وكانوا أشرار بني إسرائيل ـ عن الجبائي، وقيل: هم الورثة ـ عن الكلبي ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي من خلفي ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي عقيماً لا تلد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي ولداً يليني فيكون أولى بميراثي ﴿يَرِثُنِي﴾ إن قرأته بالجزم فالمعنى: إن تهبه لي يرثني، وإن رفعته جعلته صفة لولي، والمعنى: ولياً وارثاً لي ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وهو يعقوب بن ماتان، وأخوه عمران بن ماتان أبو مريم ـ عن الكلبي ومقاتل. وقيل: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، لأن زكريا كان متزوجاً بأخت أم مريم بنت عمران، ونسبها يرجع إلى يعقوب، لأنها من ولد سليمان بن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو من ولد يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولد هارون، وهو من ولد لاوي بن يعقوب ـ عن السدي.

ثم اختلف في معناه، فقيل معناه: يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة ـ عن أبي صالح. وقيل معناه: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب ـ عن الحسن ومجاهد. واستدل أصحابنا بالآية على أن الأنبياء يورثون المال، وأن المراد بالإرث المذكور فيها المال دون العلم والنبوة، بأن قالوا: إن لفظ الميراث في اللغة والشريعة لا يطلق إلا على ما ينتقل من الموروث إلى الوارث كالأموال، ولا يستعمل في غير المال إلا على طريق المجاز والتوسع، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة أيضاً، فإن زكريا عليه السلام قال في دعائه: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي اجعل يا رب ذلك الولي الذي يرثني مرضياً عندك، ممتثلًا لأمرك، ومتى حملنا الإرث على النبوة لم يكن لذلك معنى وكان لغواً عبثاً، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول أحد: اللهم ابعث لنا نبياً واجعله عاقلًا مرضياً في أخلاقه، لأنه إذا كان نبياً فقد دخل الرضا، وما هو أعظم من الرضا في النبوة.

ويقوي ما قلناه أن زكريا صرح بأنه يخاف بني عمه بعده، بقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ وإنما يطلب وارثاً لأجل خوفه، ولا يليق خوفه منهم إلا بالمال دون النبوة والعلم، لأنه عليه السلام كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبياً من ليس بأهل للنبوة، وأن يورث علمه وحكمته من ليس لهما بأهل، ولأنه إنما بعث لإذاعة العلم ونشره في الناس، فكيف يخاف من الأمر الذي هو الغرض في بعثته؟.

فإن قيل: إن هذا يرجع عليكم في وراثة المال، لأن في ذلك إضافة الضن والبخل إليه، قلنا: معاذ الله أن يستوي الأمران، فإن المال قد يرزق [به] المؤمن والكافر، والصالح والطالح، ولا يمتنع أن يأسى على بني عمه إذا كانوا من أهل الفساد أن يظفروا بماله فيصرفوه فيما لا ينبغي، بل في ذلك غاية الحكمة، فإن تقوية الفساق وإعانتهم على أفعالهم المذمومة محظورة في الدين، فمن عد ذلك بخلًا وضناً فهو غير منصف. وقوله: ﴿خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ يفهم منه أن خوفه إنما كان من أخلاقهم وأفعالهم ومعان فيهم لا من أعيانهم، كما أن من خاف الله تعالى فإنما خاف عقابه، فالمراد به خفت تضييع الموالي مالي، وإنفاقهم إياه في معصية الله تعالى.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا
(٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ
عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا
(٩) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا
(١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)﴾

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي: عتياً، وصلياً، وجثياً، وبكياً، بكسر أوائلها، وحفص كذلك إلا في: بكياً، فإنه يضم الياء منها، والباقون: بالضم في الجميع. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿**خلقناك**﴾ والباقون: «خلقتك».

● **الحجة:** قال أبو علي: اعلم أن ما كان على فعول كان على ضربين:

أحدهما: أن يكون جمعاً.

والآخر: أن يكون مصدراً، وقد جاءت أحرف في غير المصادر وهي قليلة. والجمع إذا كان على فُعول من معتل اللام جاء على ضربين:

أحدهما: أن يكون اللام واواً.

والآخر: أو يكون ياء. فما كانت اللام منه واواً من هذه الجموع قلبت إلى الياء، وذلك نحو: حَقْو وحِقي، وعصا وعِصِيّ، وقد جاءت حروف قليلة من ذلك على الأصل، فمن ذلك ما حكاه سيبويه من قولهم: إنكم لتنظرون في نحو كثيرة، وقولهم: فُتوّ في جمع فتى، فما كان كذلك فإن كسر الفاء فيه مطرد، وذلك نحو: ولي وحِقي وعِصي، وإنما جاز ذلك لأنها غيرت تغييرين، وهما أن الواو التي هي لام قلبت، والواو التي كانت قبلها قلبت أيضاً، فلما غيرت تغييرين قويا على هذا التغيير من كسر الفاء.

وأما ما كان لامه ياء نحو: ثدي وحَلْي ونجْي فقد كسروا الفاء أيضاً منه، فقالوا: حِلي وثِديّ وإن لم يغير تغييرين، فقد أجروا الياء ها هنا مجرى الواو، كما أجروا الياء في: اتسر واتبس افتعل من اليسر والييس، مجرى الواو في اتصل واتهب.

فأما ما كان من ذلك مصدراً فما كان من الواو فالقياس فيه أن يصح نحو: العُتو والعُلو، لأن واوه لم يلزمها الانقلاب كما لزمها الانقلاب في الجمع، ولكن لما كانوا قد قلبوا الواو في هذا النحو وإن كان مفرداً نحو: معديّ ومَرضي، قلبوا ذلك أيضاً في نحو: عِتي، ثم أجرى المصدر مجرى الجمع في كسر الفاء منه.

فأما ما كان من هذه المصادر من الياء فليس يستمر الكسر في فائه كما استمر في الجمع وفي المصادر التي من الواو، ألا ترى أن المضي في نحو: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ ليس أحد يروي فيه الكسر فيما علمنا. وحكي أبو عمرو عن أبي زيد: آوى إليه أوياً، ومما يؤيد الكسر في هذا النحو أنهم قد قالوا: قمي، فألزموها كسر القاف، وذلك إنه قلبت الواو إلى موضع اللام، فلما وقعت موقعها قلبت كما تقلب الواو إذا كانت لاماً، وكسرت الفاء وألزمت الكسرة.

وحجة من قال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ أن قبله: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ وحجة من قال: ﴿**خلقناك**﴾ قوله فيما بعد: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ ولأنه قد جاء بلفظ الجمع بعد لفظ الإفراد، قال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

● **اللغة:** الغلام: اسم المذكر أول ما يبلغ، ومنه اشتق: اغتلم الرجل إذا اشتدت شهوته للجماع، ثم يستعمل في التلميذ، فيقال: غلام تغلب. العني والعمى بمعنى، يقال: عتا يعتو عتواً وعتياً، وعسى يعسوا عسوًّا وعسيًّا، فهو عات وعاس إذا غيره طول الزمان إلى حال اليبس والجفاف، وفي حرف أبي ﴿**وقد بلغت من الكبر عتياً**﴾ والإيحاء: إلقاء المعنى إلى النفس في خفية بسرعة، وأصله من قولهم: الوحي الوحي، أي الإسراع الإسراع.

● **الإعراب:** ﴿ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ جملة اسمية مجرورة الموضع صفة ﴿ٱلۡغُلَٰمِ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع لأنه خبر مبتدأ محذوف، أي الأمر كما قيل لك ﴿ولم تك﴾ أصله: لم تكن، حذفت النون منه لكثرته في الكلام، فكأنه جزم مرتين. و ﴿سَوِيّٗا﴾ منصوب على الحال ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾ يجوز أن يكون التقدير: أي سبحوا، ويجوز أن يكون: أنه سبحوا، فخفف وأضمر الاسم ولم يعوض من المضمر شيئاً كقوله: ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ كما جاء العوض في قوله: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ﴾ و ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾، ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ فيمن رفع. و ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ منصوبان على الظرف.

● **المعنى:** ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ ها هنا حذف معناه: فاستجاب الله دعاء زكريا. وأوحى إليه: يا زكريا إنا نخبرك على ألسنة الملائكة بخبر يرى السرور به في وجهك، وهو أن يولد لك ابن ﴿ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ وقد تقدم تفسيره في سورة آل عمران[1] ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ أي لم يسم أحد قبله باسمه - عن قتادة وابن جريج والسدي وابن زيد، وفي هذا تشريف له من وجهين.

أحدهما: أن الله سبحانه تولى تسميته ولم يكلها إلى الأبوين.

والآخر: أنه سماه باسم لم يسبق إليه يدل ذلك الاسم على فضله، وقال أبو عبد الله عليه السلام، وكذلك الحسين عليه السلام: لم يكن له من قبل سمياً، ولم تبك السماء إلا عليهما أربعين صباحاً، قيل له: وما كان بكاؤها؟ قال: كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء، وكان قاتل يحيى ولد زنا، وقاتل الحسين عليه السلام ولد زنا. وروى سفيان بن عيينة عن علي بن زيد عن علي بن الحسين عليه السلام قال: خرجنا مع الحسين عليه السلام، فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلا ذكر يحيى بن زكريا، وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله عز وجل أن رأس يحيى بن زكريا أهدى إلى بغي من بغايا بني إسرائيل. وقيل: إن معنى قوله: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ لم تلد العواقر مثله ولداً، وهو كقوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ أي مثلاً - عن ابن عباس ومجاهد.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ فسرناه في سورة آل عمران[2] ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ قال الحسن: إنما قال ذلك على جهة الاستخبار، أي: أتعيدنا شابين أم ترزقنا الولد شيخين؟ ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ معناه: وقد بلغت من كبر السن إلى حال اليبس والجفاف ونحول العظم - عن قتادة ومجاهد. قال قتادة: كان له بضع وتسعون سنة ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي قال الله سبحانه الأمر على ما أخبرتك من هبة الولد على الكبر ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ أرد عليك قوتك حتى تقوي على الجماع، وافتق رحم امرأتك بالولد - عن ابن عباس ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ﴾ أي من قبل يحيى ﴿وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ أي أنشأتك وأوجدتك ولم تك شيئاً موجوداً، فإزالة عُقر زوجتك وإزالة ما يمنع قبول الولد أيسر في الاعتبار من ابتداء الإنشاء. وروى الحكم بن عيينة عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنما ولد يحيى بعد البشارة له من الله بخمس سنين.

---

(١) راجع الجزء الأول من هذا التفسير. (٢) المصدر السابق.

﴿قَالَ﴾ زكريا يا ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ أي دلالة وعلامة استدل بها على وقت كونه ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿ءَايَتُكَ﴾ أي علامتك في ذلك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ أي وأنت سوي صحيح سليم من غير علة. قال ابن عباس: اعتُقل لسانه من غير مرض ثلاثة أيام. وقال قتادة والسدي: اعتقل لسانه من غير بأس ولا خرس، فإنه كان يقرأ الزبور ويدعو إلى الله ويسبحه ولا يمكنه أن يكلم الناس، وهذا أمر خارج عن العادة ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ أي من مصلاه - عن ابن زيد، وسمي المحراب محراباً لأن المتوجه إليه في صلاته كالمحارب للشيطان على صلاته، والأصل فيه مجلس الأشراف الذي يحارب دونه ذباً عن أهله. قالوا: وكان زكريا قد أخبر قومه بما بشر به، فلما خرج عليهم وامتنع من كلامهم علموا إجابة دعائه فسُروا به ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي أشار إليهم وأومى بيده. وقيل: كتب لهم في الأرض - عن مجاهد ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ أي صلوا بكرة وعشياً - عن الحسن وقتادة، وتسمى الصلاة سبحة وتسبيحاً لما فيها من التسبيح. وقيل: أراد التسبيح بعينه. وقال ابن جريج: أشرف عليهم زكريا من فوق غرفة كان يصلي فيها لا يصعد إليها إلا بسلم، وكانوا يصلون معه الفجر والعشاء، فكان يخرج إليهم فيأذن لهم بلسانه، فلما اعتقل لسانه خرج على عادته وأذن لهم بغير كلام، فعرفوا عند ذلك أنه قد جاء وقت حمل امرأته بيحيى، فمكث ثلاثة أيام لا يقدر على الكلام معهم، ويقدر على التسبيح والدعاء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾

● **اللغة:** أصل الحنان: الرحمة، يقال: حنانك وحنانيك، وقال امرؤ القيس:

ويمنحها بنو شَمَجي بن جرم ... معيزهم حنانك ذا الحنان[1]

وقال آخر:

فقالت: حنان، ما أتى بك ها هنا؟ ... أذو نسب أم أنت بالحي عارف؟

أي أمرنا حنان. قال أبو عبيدة: وأكثر ما يستعمل بلفظ التثنية. قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض

---

(١) بنو شمجى بن جرم: حي من قضاعة والمعيز: جمع المعز. وقوله «ويمنحها» أي يعطيها وهو على رواية الأصمعي كما في اللسان لكن في رواية ابن الأعرابي «ويمنعها» وقوله «حنانك» ا. هـ قال ابن المنظور فسره ابن الأعرابي فقال: معناه رحمتك يا رحمان فأغنني عنهم. وفسر الأصمعي حنانك برحمتك أيضاً أي أنزل عليهم رحمتك ورزقك فرواية ابن الأعرابي وتفسيره تسخط وذم. ورواية الأصمعي وتفسيره تشكر وحمد.

وتحنن عليه، أي تعطف عليه. قال الحطيئة لعمر بن الخطاب:

تحنَّن على هداك المليك فإن لكلِّ مقام مقالا

وحننت عليه أحن حنيناً وحناناً، وحَنة الرجل: امرأته. والجبار: الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، وفيه جبربة وجبروت، والجبار من النخل ما فات اليد.

● **الإعراب:** ﴿بِقُوَّةٍ﴾ الباء في موضع الحال، أي خذ الكتاب مجداً مجتهداً.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ ها هنا اختصار عجيب، تقديره: فوهبنا له يحيى وأعطيناه الفهم والعقل، وقلنا له: يا يحيى، خذ الكتاب، يعني التوراة، بما قواك الله عليه وأيدك به، ومعناه: وأنت قادر على أخذه قوي على العمل به. وقيل معناه: بجد وصحة عزيمة على القيام بما فيه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي آتيناه النبوة في حال صباه وهو ابن ثلاث سنين ـ عن ابن عباس. وروى العياشي بإسناده عن علي بن أسباط قال: قدمت المدينة وأنا أريد مصر، فدخلت على أبي جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام، وهو إذ ذاك خماسي، فجعلت أتأمله لأصفه لأصحابنا بمصر، فنظر إلي فقال لي: يا علي: إن الله قد أخذ في الإمامة كما أخذ في النبوة، قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ فقد يجوز أن يعطي الحكم ابن أربعين سنة، ويجوز أن يعطاه الصبي. وقيل: إن الحكم الفهم، وهو أنه أعطى فهم الكتاب حتى حصل له عظيم الفائدة ـ عن مجاهد، وعن معمر قال: إن الصبيان قالوا ليحيى: اذهب بنا لنلعب، فقال: ما للعب خلقنا، فأنزل الله فيه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وروي ذلك عن أبي الحسن الرضا عليه السلام.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ والحنان العطف والرحمة، أي وآتيناه رحمة من عندنا ـ عن ابن عباس وقتادة والحسن. وقيل معناه: تحننا على العباد ورقة قلب عليهم ليدعوهم إلى طاعة الله تعالى ـ عن الجبائي. وقيل معناه: محبة منا ـ عن عكرمة. وأصله الشفقة والرقة، ومنه حنين الناقة، وهو صوتها إذا اشتاقت إلى ولدها، وقيل معناه: تحنن الله عليه كان إذا قال يا رب، قال الله: لبيك يا يحيى، وهو المروي عن الباقر عليه السلام. وقيل معناه: تعطفاً منا ـ عن مجاهد. فهذه خمسة أقوال ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي وعملاً صالحاً زاكياً ـ عن قتادة والضحاك وابن جريج. وقيل: زكاة لمن قبل دينه حتى يكونوا أزكياء ـ عن الحسن. وقيل: يعني بالزكاة طاعة الله والإخلاص ـ عن ابن عباس. وقيل معناه: وصدقة تصدق الله به على أبويه ـ عن الكلبي. وقيل معنه: وزكيناه بحسن الثناء عليه كما يزكي الشهود الإنسان ـ عن الجبائي. فهذه خمسة أقوال ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي مخلصاً مطيعاً متقياً لما نهى الله عنه. قالوا: وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها.

سؤال: يقال: لم أضاف الله سبحانه كونه زكاة إلى نفسه، وهو إنما كان مطيعاً زكياً بفعله.

وجوابه: أنه إنما صار كذلك بألطاف من الله لا سيما في تلك الحالة من الصغر ولأنه إنما اهتدى بهداية الله إياه.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي باراً بوالديه محسناً إليهما، مطيعاً لهما، لطيفاً بهما، طالباً مرضاتهما

﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ أي متكبراً متطاولاً على الخلق. وقيل: الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب ـ عن ابن عباس ﴿عَصِيًّا﴾ أي عاصياً لربه فعيل بمعنى فاعل ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ أي سلام عليه منا في هذه الأيام ـ عن عطاء. وقيل: وسلامة وأمان له منا ـ عن الكلبي. ومعناه: سلامة وأمن له يوم ولد من عبث الشيطان به وإغوائه إياه، ويوم يموت من بلاء الدنيا، ومن عذاب القبر ويوم يبعث حياً من هول المطلع وعذاب النار، وإنما قال: ﴿حَيًّا﴾ تأكيداً لقوله: ﴿يُبْعَثُ﴾ وقيل: يعني أنه يبعث مع الشهداء، لأنهم وصفوا بأنهم أحياء. قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن: يوم ولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، وأحكاماً ليس له بها عهد، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، فخص الله سبحانه يحيى بالكرامة والسلام، والسلامة في المواطن الثلاثة. وقيل: إن السلام الأول يوم الولادة تفضل، والثاني والثالث على وجه الثواب والجزاء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو وورش وقالون برواية الحلواني ويعقوب: ﴿ليهب﴾ بالياء، والباقون: ﴿لِأَهَبَ﴾ بالهمزة.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قال: ﴿لِأَهَبَ﴾ فأسند الفعل إلى المتكلم والهبة لله تعالى، ومنه أن الرسول والوكيل قد يسند هذا النحو إلى نفسه وإن كان الفعل للموكل أو المرسل للعلم بأنه مترجم عنه. ومن قال: ﴿ليهب لك﴾ فهو على تصحيح اللفظ في المعنى، ففي قوله تعالى: ليهب، ضمير من قوله: ﴿رَبِّكِ﴾ وهو سبحانه الواهب، وزعموا أن في حرفي أبيّ وابن مسعود ﴿ليهب﴾ ولو خففت الهمزة من ﴿لِأَهَبَ﴾ لكان في قول أبي الحسن ﴿ليهب﴾ فتقلبها ياء محضة، وفي قول الخليل: ﴿لِأَهَبَ﴾ يجعلها بين الياء والهمزة.

● **اللغة:** النبذ: أصله الطرح، والانتباذ افتعال منه، ومنه قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي ألقوه، وانتبذ فلان ناحية، أي تنحى ناحية، وجلس فلان نبذة من الناس ونبذة بفتح النون وضمها، أي ناحية، وإنما يقال ذلك إذا جلس قريباً منهم حتى لو نبذوا إليه شيئاً لوصل إليه، فالانتباذ اتخاذ الشيء بإلقاء غيره عنه. والمكان الشرقي: الذي كان في جهة الشرق، قال جرير:

هبت جنوب فذكرى ما ذكرتكم عند الصفاة إلى شرقي حورانا

● **الإعراب:** ﴿مَكَانًا﴾ نصب على الظرف ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ منصوب على الحال.

● **المعنى**: ثم عطف سبحانه قصة مريم وعيسى عليه السلام على قصة زكريا ويحيى عليه السلام، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي في كتابك هذا وهو القرآن ﴿مَرۡيَمَ﴾ أي حديث مريم وولادتها عيسى، وصلاحها، ليقتدى الناس بها، ولتكون معجزة لك ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي انفردت من أهلها إلى مكان في جهة المشرق، وقعدت ناحية منهم. قال ابن عباس: إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة لأنها انتبذت مكاناً شرقياً. وقيل: اتخذت مكاناً تنفرد فيه للعبادة لئلا تشتغل بكلام الناس ـ عن الجبائي. وقيل: تباعدت عن قومها حتى لا يرونها ـ عن الأصم وأبي مسلم. وقيل: إنها تمنت أن تجد خلوة فتفلي رأسها فخرجت من يوم شديد البرد فجلست في مشرفة للشمس ـ عن عطاء ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ أي فضربت من دون أهلها ـ لئلا يروها ـ ستراً وحاجزاً بينها وبينهم ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ يعني جبرائيل عليه السلام ـ عن ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم، وسماه الله روحاً لأنه روحاني، وأضافه إلى نفسه تشريفاً له ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ معناه: فأتاها جبرائيل فانتصب بين يديها في صورة آدمي صحيح لم ينقص منه شيء، وقال أبو مسلم: إن الروح الذي خلق منه المسيح تصور لها إنسان، والأول هو الوجه لإجماع المفسرين عليه. وقال عكرمة: كانت مريم إذا حاضت خرجت من المسجد، وكانت عند خالتها امرأة زكريا أيام حيضها، فإذا طهرت عادت إلى بيتها في المسجد، فبينا هي في مشرفة لها في ناحية الدار، وقد ضربت بينها وبين أهلها ستراً لتغتسل وتمتشط، إذ دخل عليها جبرائيل في صورة رجل شاب أمرد سوى الخلق، فأنكرته فاستعاذت بالله منه ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ معناه: إني أعتصم بالرحمٰن من شرك، فأخرج من عندي إن كنت تقياً.

سؤال: يقال: كيف شرطت في التعوذ منه أن يكون تقياً، والتقيُّ لا يحتاج أن يتعوذ منه، وإنما يتعوذ من غير التقي.

والجواب: أن التقي إذا تعوذ بالرحمٰن منه ارتدع عما يسخط الله، ففي ذلك تخويف وترهيب له، وهذا كما تقول: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني، فالمعنى: إن كنت تقياً فاتعظ واخرج. وروي عن علي عليه السلام أنه قال: علمت أن التقي ينهاه التُّقى عن المعصية. وقيل: إن معنى قوله: ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ ما كنت تقياً حيث استحللت النظر إلي وخلوت بي. فلما سمع جبرائيل عليه السلام منها هذا القول ﴿قَالَ﴾ لها ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾ وقد بينا معنى القرائتين ﴿غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ أي ولداً طاهراً من الأدناس. وقيل: نامياً في أفعال الخير. وقيل: يريد نبياً ـ عن ابن عباس ﴿قَالَتۡ﴾ مريم ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ أي كيف يكون لي ولد ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ على وجه الزوجية ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ أي ولم أكن زانية، وإنما قالت ذلك لأن الولد في العادة يكون من إحدى هاتين الجهتين، والمعنى: أني لست بذات زوج، وغير ذات الزوج لا تلد إلا عن فجور ولست فاجرة، وإنما يقال للفاجرة: بغى، بمعنى أنها تبغي الزنا، أي تطلبه.

وفي هذه الآيات دلالة على جواز إظهار المعجزات لغير الأنبياء، لأن من المعلوم أن مريم

ليست بنبية، وأن رؤية الملك على صورة البشر، وبشارة الملك إياها، وولادتها من غير وطيء، إلى غيرها من الآيات التي أتاها الله بها من أكبر المعجزات، ومن لم يجوز إظهار المعجزات على غير النبي اختلفت أقوالهم في ذلك. فقال الجبائي وابنه: إنها معجزات لزكريا عليه السلام. وقال البلخي: إنها معجزات لعيسى على سبيل الإرهاص والتأسيس لنبوته.

●●●

قوله تعالى:﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾

● **القراءة:** قرأ حمزة وحفص: ﴿نَسيًا﴾ بفتح النون، والباقون: ﴿نِسيا﴾ بكسر النون. وقرأ: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ بكسر الميم أهل المدينة والكوفة غير أبي بكر وسهل. والباقون: ﴿مَن تَحْتَهَا﴾ وقرأ حفص عن عاصم: ﴿تُسَاقِطْ﴾ بضم التاء وكسر القاف، وقرأ حماد عن عاصم وبصير عن الكسائي ويعقوب وسهل: ﴿يسّاقط﴾ بالياء وتشديد السين، وقرأ حمزة: ﴿تَساقط﴾ بفتح التاء وتخفيف السين والباقون: ﴿تَسّاقط﴾ بفتح التاء وتشديد السين. وفي الشواذ قراءة مسروق: ﴿يُساقط﴾ بضم الياء وتخفيف السين. وقرأ طلحة بن سليمان: ﴿رُطَباً جِنيا﴾ بكسر الجيم ﴿فإمّا ترين﴾ بسكون الياء والتخفيف.

● **الحجة:** قال أبو علي: قال أبو الحسن: ﴿النسي﴾: هو الشيء الحقير ينسى نحو: النعل والسوط. وقال غيره: النسي: ما أغفل من شيء حقير، وقال بعضهم: ما إذا ذكر لم يطلب، وقالوا: الكسر أعلى اللغتين، قال الشنفري:

كأن لها في الأرض نسياً تقصه ... على أمها وإن تخاطبك تبلت[1]

وقال في قوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إنه جبرائيل أو عيسى. وقال بعض أهل التأويل: لا يكون إلا

(١) النسي: الشيء المطروح لا يأبه له. وبلت - بالفتح -: إذا قطع. وبالكسر: إذا سكن. قيل: إنه يصف جارية بالحياء.

عيسى عليه السلام، ولا يكون جبرائيل، لأنه لو كان جبرائيل لناداها من فوقها، وقد يجوز أن يكون جبرائيل وليس قوله: ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ يراد به الجهة السفلى، وإنما المراد من دونها، بدلالة قوله: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ ولم يكن النهر محاذياً لهذه الجهة، ولكن المعنى جعله دونك، وقد يقال: فلان تحتنا، أي دوننا في الموضع، والأشبه أن يكون المنادي لها عيسى، فإنه أشد إزالة لما خامر قلبها من الاغتمام، وإذا قال: ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ كان عاماً وضع موضع الخاص، والمراد به عيسى، قال: والوجوه كلها كما في ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ متفقة في المعنى، إلا قراءة حفص، ألا ترى أن من قرأ: تساقط إنما هي: تتساقط، فحذف التاء التي يدغمها غيره، وكلهم جعل فاعل الفعل الذي هو: تَساقط أو تُساقط في رواية حفص النخلة، ويجوز أن يكون فاعل تساقط أو تساقط هي جذع النخلة، إلا أنه لما حذف المضاف أسند الفعل إلى النخلة في اللفظ، فإما تعديتهم تساقط فهو تفاعل، لأن تفاعل مطاوع فاعل، فكما عدي نحو تفعل في نحو: تجرعته وتمززته فكذلك عدي تفاعل، فمما جاء من ذلك في الشرع قول أوفى بن مطر:

تخاطأت النبل أحشاءه ... وآخر يومي فلم يعجل(1)

وقول الآخر:

تطالعنا خيالات لسلمى ... كما يتطالع الدين الغريم

وقول امرىء القيس:

ومثلك بيضاء العوارض طفلة ... لعوب تناساني إذا قمت سربالي(2)

أراد تنسيني، ومن قرأ بالياء أمكن أن يكون فاعله الهز، لأن قوله: ﴿وَهُزِّيٓ﴾ قد دل عليه، فإذا كان كذلك جاز أن يضمره كما أضمر الكذب في قوله: **﴿من كذب كان شراً له﴾** ويمكن أن يكون **﴿الجذع﴾** ويجوز في الفعل إذا أسند إلى الجذع وجهان:

أحدهما: أن الفعل أضيف إلى الجذع كما أضيف إلى النخلة برمتها، لأن الجذع معظمها.

والآخر: أن يكون الجذع منفرداً عن النخلة يسقط عليها، ويكون سقوط الرطب من الجذع آية لعيسى عليه السلام، ويصير سقوط الرطب من الجذع أسكن لنفسها وأشد إزالة لاهتمامها، وسقوط الرطب من الجذع منفرداً من النخل، مثل رزقها الذي كان يأتيها المحراب في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ وقوله: **﴿رطباً﴾** في هذه الوجوه منصوب على أنه مفعول به، ويجوز في قوله: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ﴾ أي تساقط عليك ثمرة النخلة رطباً، فحذف المضاف الذي هو الثمرة، ويكون انتصاب رطب على الحال، وجاز أن يضمر الثمر وإن لم يجر لها ذكر، لأن ذكر النخلة يدل عليها.

---

(1) وقيل هذا البيت قوله:

ألا أبلغا خلتي جابراً ... بأن خليلك لم يقتل

(2) جارية طفلة: ناعمة.

فأما الباء في قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ فيحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون زيادة كقوله: ألقى بيده وألقى يده، وقوله:

بواد يمان ينبت الشث صدره وأسفله بالمرخ والشهبان(١)

ونحو ذلك. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ بهز جذع النخلة رطباً كما قال ذو الرمة:

وصوح البقل نئاج تجيء به هيف يمانية في مرها نكب

أي تجيء بمجيئة هيف، يعني إذا جاء النئاج جاء الهيف، وكذلك إذا هزت الجذع هزت بهزه رطباً، أي فإذا هززت الرطب سقط.

وأما قراءة مسروق ﴿يُساقط﴾ فإنه بمعنى يسقط شيئاً بعد شيء، وأنشد ابن جني قول ضابىء البرجمي:

يساقط عنه ورقه ضارياتها سقاط حديد القين أخول أخولا

أي يسقط قرن هذا الثور ضاريات كلاب الصيد نطعنه إياها به شيئاً بعد شيء.

وأما قراءة طلحة: ﴿رِطَبًا جِنِيًّا﴾ فإنه اتبع كسرة الجميع كسرة النون، قال ابن جني: شبه النون وإن لم يكن من حروف الحلق بهن في نحو: الشخير والنخير والرغيف. وأمّا ﴿تَرَيِنَّ﴾ فهي شاذ، لكنه جاء في لغة إثبات النون في الجزم، وأنشد أبو الحسن:

لولا فوارس من قيس وأسرتهم يوم الصُّليفاء لم يوفون بالجار(٢)

● **اللغة:** القصي: البعيد، والقاصي خلاف الداني، وقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ أي جاء بها المخاض، وهو مما يعدي تارة بالباء، وتارة بهمزة النقل، قال زهير:

وجارٍ سار معتمداً علينا أجاءته المخاوفُ والرجاءُ

أي جاءت به. ويروى جاء. قال الكسائي تميم تقول: ما أجاءك إلى هذا؟ وما أمشاك إليه؟ ومن أمثالهم: شرٌّ أجاءك إلى مخة عرقوب(٣)، وتميم تقول: أمشاك. والسريّ: النهر، لأنه يسري بجريانه، قال لبيد:

فتوسطا عرض السريِّ فصدَّعا مسجورة متجاوراً قُلامُها(٤)

---

(١) نسبه في (اللسان) إلى الأحول اليشكري. والشث: شجر طيب الريح. والمرخ والشبهان أيضاً: قسمان من الأشجار البرية.

(٢) وفي اللسان: «لولا فوارس من نعم وأسرتهم. ا. هـ» وقال ابن المنظور: صليفاء: موضع.

(٣) المخة: القطعة من المخ. مثل يضرب في الحاجة إلى لئيم، لأن المراد من العرقوب عرقوب الرجل، وأنه لا مخ له.

(٤) البيت من معلقته المشهورة. وضمير التثنية من توسطا وصدعا يرجع إلى العير والأتان. والتصديع: التشقيق: ومسجورة أي: مملوءة ماء. والقلام: ضرب من النبت. قال الزوزني: وتحرير المعنى أنهما قد وردا عين ممتلية ماء فدخلا فيها في عرض نهرها، وقد تجاوز نبتها.

ويقال: قررت به عيناً أقر قروراً، فهي لغة قريش وأهل نجد، يقولون: قررت به - بفتح العين - أقر قرار، كما يقولون: قررت بالمكان - بالفتح. والجنى: بمعنى المجني، من جنيت الثمر وأجنيتها، إذا قطعتها، قال ابن أخت جذيمة:

هذا جناي وخياره فيه ... إذ كل خانٍ يده إلى فيه(١)

وفي معناه قول الكميت يمدح أهل البيت عليهم السلام:

خيارها يجتنون فيه إذ الـ ... ـجانون فيذي أكفهم أربوا(٢)

قال أبو مسلم: الفرى: مأخوذ من فرى الأديم إذا قطعه على وجه الإصلاح، ثم يستعمل في الكذب. وقال الزجاج: يقال: فلان يفري الفرى، إذا كان يعمل عملًا يبالغ فيه، قال الراجز:

(قد كنت تفرين به الفريا)(٣)

● **الإعراب:** ﴿عَيۡنٗاۖ﴾ منصوب على التميز ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ أصله: ترأين. إلا أن الاستعمال بغير همز، والياء فيه ضمير المؤنث، وإنما حركت لالتقاء الساكنين، وهما الياء والنون الأولى من المشددة، كما تقول للمرأة: ارضين زيداً. وقوله: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ كان هنا بمعنى الحدوث والوقوع، والتقدير: كيف نكلم من وجد في المهد صبياً؟ نصب على الحال من كان، ومثل كان ها هنا قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ﴾ ومثله قول الربيع:

إذا كان الشتاء فأدفئوني ... فإن الشيخ يهدمه الشتاء(٤)

ويجوز أن يكون ﴿كَانَ﴾ هنا مزيدة، كما في قول الشاعر:

جياد بني أبي بكر تسامى ... علي كان المسومة العراب(٥)

فعلى هذا يكون العامل في الحال ﴿نُكَلِّمُ﴾ قال الزجاج: الأجود أن يكون ﴿مَن﴾ في معنى الشرط والجزاء، فيكون المعنى: من يكن في المهد صبياً فكيف نكلمه؟ ويكون صبياً حالًا، كما تقول: من كان لا يسمع ولا يعقل فكيف أخاطبه؟.

● **المعنى:** قال كذلك: أي قال لها جبرائيل حين سمع تعجبها من هذه البشارة: الأمر كذلك، أي كما وصفت لك ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ﴾ أي إحداث الولد من غير زوج للمرأة سهل متأت لا يشق عليّ ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ معناه: ولنجعله علامة ظاهرة وآية باهرة للناس

---

(١) قائله عمرو بن عدي ابن أُخت جذيمة، وله في هذا البيت قصة. ذكره الميداني في (مجمع الأمثال ج٢: ٣٦١) وقد تمثل به أمير المؤمنين عليه السلام حين أمر بكنس بيت المال ورشه، وقد قسم بين المسلمين ما فيه من الأموال.

(٢) أربت يده: أي: قطعت وافتقر صاحبها.

(٣) ذكره بتمامه في (اللسان) في مادة «فرى».

(٤) أدفأه: أسخنه. وقائله ربيع بن ضبع الفزاري، وهو من المعمرين. وهذا البيت من قصيدة قالها بعد ما بلغ من العمر مأتي سنة. ذكره الشريف المرتضى (ره) في(الأمالي ج١: ٢٥٤) فراجع.

(٥) قوله: تسامى أصله تتسامى، من السمو بمعنى الرفعة. وفي رواية الأشموني: «سراة بني أبي بكر اه».

على نبوته، ودلالة على براءة أمه ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ له ولنجعله نعمة منا على الخلق يهتدون بسببه ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي وكان خلق عيسى من غير ذكر أمراً كائناً مفروغاً عنه محتوماً، قضى الله سبحانه بأن يكون وحكم به ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي فحملت مريم بعيسى فحبلت في الحال، قيل: إن جبرائيل أخذ ردن قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت مريم من ساعتها ووجدت حس الحمل. وقيل: نفخ في كمها فحملت ـ عن ابن جريج. وروي عن الباقر عليه السلام أنه تناول جيب مدرعتها فنفخ فيه نفخة فكمل الولد في الرحم من ساعته، كما يكمل الولد في أرحام النساء تسعة أشهر، فخرجعت من المستحم وهي حامل مجح مثقل، فنظرت إليها خالتها فأنكرتها، ومضت مريم على وجهها مستحية من خالتها ومن زكريا ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي تنحت بالحمل إلى مكان بعيد. وقيل معناه: انفردت به مكاناً بعيداً من قومها حياء من أهلها، وخوفاً من أن يتهموها بسوء.

واختلفوا في مدة حملها، فقيل. ساعة واحدة، قال ابن عباس: لم يكن بين الانتباذ والحمل إلا ساعة واحدة، لأنه تعالى لم يذكر بينهما فصلًا، لأنه قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ﴾. ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ والفاء للتعقيب. وقيل: حملت به في ساعة، وصور في ساعة، ووضعته في ساعة حين زاغت الشمس من يومها وهي بنت عشر سنين ـ عن مقاتل. وقيل: كانت مدة حملها تسع ساعات، وهذا مروي عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: ستة أشهر. وقيل: ثمانية أشهر. وكان ذلك آية وذلك أنه لم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غيره.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي ألجأها الطلق، أي وجع الولادة ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ فالتجأت إليها لتستند إليها ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي. وقيل: أجاءها، أي جاء بها. قال ابن عباس: نظرت مريم إلى أكمة فصعدت مسرعة إليها فإذا عليها جذع نخلة نخرة ليس لها سعف، والجذع: ساق النخلة، والألف واللام دخلت للعهد لا للجنس، أي النخلة المعروفة. فلما ولدت ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي شيئاً حقيراً متروكاً ـ عن ابن عباس. وقيل: شيئاً لا يذكر ولا يعرف ـ عن قتادة. وقيل: حيضة ملقاة ـ عن عكرمة والضحاك ومجاهد. قال ابن عباس: فسمع جبرائيل كلامها وعرف جزعها ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ وكان أسفل منها تحت أكمة ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ وهو قول السدي وقتادة والضحاك أن المنادى جبرائيل ناداها من سفح الجبل. وقيل: ناداها عيسى ـ عن مجاهد والحسن ووهب وسعيد بن جبير وابن زيد وابن جرير والجبائي. وإنما تمنت عليها السلام الموت كراهية لأن يعصى الله فيها. وقيل: استحياء من الناس أن يظنوا بها سوءاً ـ عن السدي. وروي عن الصادق عليه السلام: لأنها لم تر في قومها رشيداً ذا فراسة ينزهها من السوء ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي ناداها جبرائيل أو عيسى ليزول ما عندها من الغم والجزع: لا تغتمي قد جعل ربك تحت قدميك نهراً تشربين منه وتتطهرين من النفاس ـ عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير. قالوا: وكان نهراً قد انقطع الماء عنه، فأرسل الله الماء فيه لمريم، وأحيى ذلك الجذع حتى أثمر وأورق. وقيل: ضرب جبرائيل عليه السلام برجله فظهر ماء عذب. وقيل: بل ضرب عيسى برجله فظهرت عين ماء تجري، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام وقيل: السريّ:

عيسى عليه السلام - عن الحسن وابن زيد والجبائي. والسريّ: هو الشريف الرفيع. قال الحسن: كان والله عبداً سريًا.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ معناه: اجذبي إليك بجذع النخلة، والباء مزيدة وقال الفراء: العرب تقول: هزه وهز به ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ مر معناه. وقال الباقر عليه السلام: لم تستشف النفساء بمثل الرطب، إن الله أطعمه مريم في نفاسها. وقالوا: إن الجذع كان يابساً لا ثمر عليه، إذ لو كان عليه ثمر لهزته من غير أن تؤمر به، وكان في الشتاء فصار معجزة بخروج الرطب في غير أوانه، وبخروجه دفعة واحدة، فإن العادة أن يكون نوْراً أولاً ثم يصير بلحاً ثم بسراً، وروي أنه لم يكن للجذع رأس، فضربته برجلها فأورقت وأثمرت وانتثر عليها الرطب جنياً، والشجرة التي لا رأس لها لا تثمر في العادة. وقيل: إن تلك النخلة كانت برنية. وقيل: كانت عجوة، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام. ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي﴾ أي كلي يا مريم من هذا الرطب واشربي من هذا الماء ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ جاء في التفسير: وطيبي نفساً. وقيل معناه: لتقر عينك سروراً بهذا الولد الذي ترين، لأن دمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة. وقيل معناه: لتسكن عينك سكون سرور برؤيتك ما تحبين.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ فسألك عن ولدك ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ أي صمتاً - عن ابن عباس. والمعنى: أوجبت على نفسي لله ألا أتكلم. وقيل: صوماً، أي إمساكاً عن الطعام والشراب والكلام - عن قتادة. وإنما أمرت بالصمت ليكفيها الكلام ولدها بما يبرىء به ساحتها - عن ابن مسعود وابن زيد ووهب. وقيل: كان في بني إسرائيل من أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام، فلا يتكلم الصائم حتى يمسي، يدل على هذا قوله: ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ أي إني صائم فلن أكلم اليوم أحداً، وكان قد أذن لها أن تتكلم بهذا القدر، ثم تسكت ولا تتكلم بشيء آخر - عن السدي. وقيل: كان الله تعالى أمرها بأن تنذر لله الصمت وإذا كلمها أحد تومىء بأنها نذرت لله صمتاً، لأنه لا يجوز أن يأمرها بأن يخبر بأنها نذرت ولم تنذر، لأن ذلك كذب - عن أبي علي الجبائي.

﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ﴾ أي فأتت مريم بعيسى حاملة له، وذلك أنها لفته في خرقة وحملته إلى قومها ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ أي أمراً عظيماً بديعاً، إذ لم تلد أنثى قبلك من غير رجل - عن مجاهد وقتادة والسدي. وقيل: أمراً قبيحاً منكراً من الافتراء وهو الكذب - عن الجبائي ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: أن هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح - عن ابن عباس وقتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة برفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله. وقيل: إنه لما مات شيع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمى هارون، فقولهم: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ معناه: يا شبيهة هارون في الصلاح ما كان هذا معروفاً منك.

وثانيها: أن هارون كان أخاها لأبيها ليس من أمها، وكان معروفاً بحسن الطريقة - عن الكلبي.

وثالثها: أن هارون أخو موسى عليه السلام، فنسبت إليه لأنها من ولده، كما يقال: يا أخا تميم ـ عن السدي.

ورابعها: أنه كان رجلًا فاسقاً مشهوراً بالعهر والفساد، فنسبت إليه، وقيل لها: يا شبيهته في قبح فعله ـ عن سعيد بن جبير.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي كان أبواك صالحين فمن أين جئت بهذا الولد ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي فأومت إلى عيسى عليه السلام بأن كلموه واستشهدوه على براءة ساحتي، فتعجبوا من ذلك ثم ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ معناه: كيف نكلم صبياً في المهد؟ وقيل: صبياً في الحجر رضيعاً، وكان المهد حجر أمه الذي تربيه فيه، إذ لم تكن هيأت له عهداً ـ عن قتادة. وقيل: إنهم غضبوا عند إشارتها إليه وقالوا: لسخريتها بنا أشد علينا من زناها، فلما تكلم عيسى عليه السلام قالوا: إن هذا الأمر عظيم ـ عن السدي ﴿قَالَ﴾ عيسى عليه السلام ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ قدم إقراره بالعبودية ليبطل به قول من يدعي له الربوبية، وكأن الله سبحانه أنطقه بذلك لعلمه بما يقوله الغالون فيه، ثم قال: ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ أي حكم لي بإتيان الكتاب والنبوة. وقيل: إن الله تعالى أكمل عقله في صغره، وأرسله إلى عباده، وكان نبياً مبعوثاً إلى الناس في ذلك الوقت مكلفاً عاقلًا، ولذلك كانت له تلك المعجزة ـ عن الحسن والجبائي. وقيل: إنه كلمهم وهو ابن أربعين يوماً ـ عن وهب. وقيل: يوم ولد ـ عن ابن عباس وأكثر المفسرين وهو الظاهر. وقيل إن معناه: أني عبد الله سيؤتيني الكتاب، وسيجعلني نبياً، وكان ذلك معجزة لمريم عليها السلام على براءة ساحتها.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ عاصم وابن عامر ويعقوب: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ بالنصب، والباقون: بالرفع. وفي الشواذ قراءة أبي مجلز وأبي نهيك: ﴿وبِراً﴾ بكسر الباء.

● **الحجة:** قال أبو علي: ﴿قَوْلُ الحَقِّ﴾ الرفع فيه على أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ كلام، والمبتدأ المضمر ما دل عليه هذا الكلام، أي هذا الكلام قول الحق، ويجوز أن يضمر: هو، ويجعله كناية عن عيسى عليه السلام، أي هو قول الحق، لأنه قد قيل فيه: روح الله وكلمته، والكلمة قول. وأما النصب فعلى أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ يدل على: أحقّ قول الحقّ، وتقول: هذا زيد الحق لا الباطل، لأن قولك: هذا زيد عندك بمنزلة أحق، فكأنك قلت: أحق الحق وأحقّ قول الحقّ. ومن قال: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ فكأنه قال: وألزمني براً بوالدتي،

ويكون معطوفاً على موضع الجار والمجرور من قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ وعليه بيت الكتاب:

(يذهبن في نجد وغوراً غائراً)

أي ويسكن غوراً، وإن شئت حملته على حذف المضاف، بمعنى: وجعلني ذا بر، وإن شئت جعلته إياه على المبالغة، كقول الخنساء:

(فإنما هي إقبال وإدبار)(١)

● **اللغة:** السلام: مصدر سلمت، والسلام جمع سلامة، والسلام اسم من أسماء الله تعالى، وسلام مما يبتدأ به في النكرة لأنه اسم يكثر استعماله، يقال: سلام عليك، والسلام عليك، وأسماء الأجناس يكثر الابتداء بها، وفائدة نكرتها قريب من فائدة معرفتها، تقول: لبيك وخير بين يديك، وإن شئت قلت: والخير بين يديك، إلا أنه لما جرى ذكر ﴿سَلَٰمٌ﴾ قبل هذا الموضع بغير ألف ولام، كان الأحسن أن يرد ثانية بالألف واللام.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه تمام كلام عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي وجعلني معلماً للخير - عن مجاهد. وقيل: نفاعاً حيث ما توجهت، والبركة: نماء الخير، والمبارك الذي ينتمي الخير به. وقيل: ثابتاً دائماً على الإيمان والطاعة، وأصل البركة الثبوت - عن الجبائي ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي بإقامة الصلاة وأداء الزكاة ﴿مَا دُمْتُ﴾ أي ما بقيت ﴿حَيًّا﴾ مكلفاً ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي وجعلني باراً بها، أؤدي شكرها فيما قاسته بسببي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أي متجبراً ﴿شَقِيًّا﴾ والمعنى: أني بلطفه وتوفيقه كنت محسناً إلى والدتي متواضعاً في نفسي حتى لم أكن من الجبابرة الأشقياء ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ أي والسلامة عليّ من الله ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي في هذه الأحوال الثلاث، وقد مر تفسيرها قبل في قصة يحيى، وفي هذه الآيات دلالة على أنه يجوز أن يصف الإنسان نفسه بصفات المدح، إذا أراد تعريفها إلى غيره لا على وجه الافتخار. وقيل: ولما كلمهم عيسى عليه السلام بهذا علموا براءة مريم، ثم سكت عيسى عليه السلام فلم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ معناه: ذلك الذي قال إني عبد اللّه عيسى ابن مريم، لا ما يقوله النصارى من أنه ابن الله، وأنه إله ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ مر معناه في الحجة ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون، يعني اليهود والنصارى، فزعمت اليهود أنه ساحر كذاب، وزعمت النصارى أنه ابن الله وثالث ثلاثة. وقيل: هو امتراء النصارى واختلافهم، فبعضهم قالوا: هو الله، وقال بعضهم: ابن الله، وقال بعضهم: ثالث ثلاثة، ثم كذبهم الله تعالى فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ معناه: ما كان ينبغي لله أن يتخذ من ولد، أي ما يصلح له ولا يستقيم - عن ابن الأنباري. قال: فنابت اللام عن الفعل، وذلك أن من اتخذ ولداً فإنما يتخذه من جنسه، لأن الولد مجانس

(١) وقبله: «ترتع ما رتعت حتى إذا أدكرت» وقد مرّ في ص١٧ سورة الرعد، آية: ٨.

للوالد، والله تعالى ليس كمثله شيء، فلا يكون له سبحانه ولد ولا يتخذ ولداً، وقوله: ﴿مِن وَلَدٍ﴾ ﴿مِن﴾ هذه هي الذي تدل على نفي الواحد والجماعة، فالمعنى: أنه لا يجوز أن يتخذ ولداً واحداً ولا أكثر، ثم نزه سبحانه نفسه عن ذلك فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ ثم بين السبب في كون عيسى من غير أب فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وقد مر تفسيره فيما مضى، والمعنى: أنه لا يتعذر عليه إيجاد شيء على الوجه الذي أراده.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة وابن عامر وروح وزيد عن يعقوب: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ بكسر الهمزة، والباقون: بالفتح.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من كسر أنه جعله مستأنفاً، كما أن المعطوف عليه مستأنف، وحجة من فتح أنه حمله على قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ و ﴿**بأن الله ربي وربكم**﴾.

الإعراب والمعنى: قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ من فتح الهمزة ففيه أربعة أوجه:

أحدها: أن المعنى: وقضى أن الله ربي وربكم ـ عن أبي عمرو بن العلاء.

والثاني: أنه معطوف على كلام عيسى، أي وأوصاني بأن الله ربي وربكم.

والثالث: ذلك عيسى ابن مريم، وذلك أن الله ربي وربكم ـ عن الفراء.

والرابع: أن العامل فيه فاعبدوه، والتقدير: ولأن الله ربي وربكم ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ فحذف الجار.

ومن كسر الهمزة جاز أن يكون معطوفاً على قوله قال: إني عبد اللّه، أي وقال: إن الله ربي وربكم. وجاز أن يكون ابتداء كلام من الله تعالى، أو أمر من الله لرسوله أن يقول ذلك. وقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ معناه: هذا طريق واضح فالزموه. وقيل إن المعنى: هذا الذي أخبرتكم إن الله أمرني به هو الدين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ الاختلاف في المذهب أن يعتقد كل قوم خلاف ما يعتقده الآخرون، والأحزاب: جمع حزب، وهو الجمع المنقطع في رأيه عن غيره، وتحزبوا: أي صاروا أحزاباً، فالمعنى: أن الأحزاب من أهل الكتاب اختلفوا في عيسى عليه السلام، فقال قوم منهم: هو الله وهم اليعقوبية. وقال آخرون: هو ابن الله، وهم النسطورية. وقال آخرون: هو ثالث ثلاثة، وهم الإسرائيلية. وقال المسلمون: هو عبد اللّه ـ عن قتادة ومجاهد. وإنما قال: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ لأن منهم من ثبت على الحق. وقيل: إن ﴿مِن﴾ زائدة، والمعنى: اختلفوا بينهم

﴿فَوَيۡلٞ﴾ أي فشدة عذاب، وهي كلمة وعيد ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله بقولهم في المسيح ﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ المشهد بمعنى الشهود والحضور، أي من حضورهم ذلك اليوم، وهو يوم القيامة، وسمي عظيماً لعظم أهواله. وقيل: ويل لهم في مجمع يوم، أي من الفضيحة على رؤوس الجمع يومئذٍ ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ قيل فيه وجهان:

أحدهما: أن التقدير: صاروا ذوي سمع وبصر، والجار والمجرور في موضع رفع لأنه فاعل ﴿أَسۡمِعۡ﴾ والمعنى: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة، وإن كانوا في الدنيا صماً وبكماً عن الحق ـ عن الحسن. ومعناه: الإخبار عن قوة علومهم بالله تعالى في تلك الحال. ومثله قوله: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يعني أن الكافرين في الدنيا آثروا الهوى على الهدى، فهم في ذهاب عن الدين وعدول عن الحق، والمراد أنهم في الدنيا جاهلون وفي الآخرة عارفون حيث لا تنفعهم المعرفة. وقال أبو مسلم: وهذا يدل على أن قوله سبحانه: ﴿صم بكم عمي﴾ ليس معناه الآفة في الأذن واللسان والعين. بل هو أنهم لا يتدبرون ما يسمعون ويرون ولا يعتبرون، ألا ترى أنه جعل قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ في مقابلته، فأقام السمع والبصر مقام الهدى إذ جعله في مقابلة الضلال المبين.

والثاني: أن معناه: أسمعهم وأبصرهم، أي: بصرهم وبين لهم أنهم إذا أتوا مع الناس إلى موضع الجزاء سيكونون في ضلال مبين عن الجنة والثواب ـ عن الجبائي قال: ويجوز أن يكون المعنى: أسمع الناس بهؤلاء الأنبياء وأبصرهم بهم ليعرفوهم ويعرفوا خبرهم فيؤمنوا بهم، لكن من كفر بهم من الظالمين اليوم ـ يعني يوم القيامة ـ في ضلال عن الجنة، وهذا بعيد، وقد استدرك على الجبائي في قوله، والأولى والأظهر في الآية على الوجه الأول.

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى: خوِّف يا محمد كفار مكة يوم يتحسر المسيء هلا أحسن العمل، والمحسن هلا ازداد من العمل، وهو يوم القيامة. وقيل: إنما يتحسر المستحق للعقاب، فأما المؤمن فلا يتحسر. وروى مسلم في الصحيح بالإسناد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار قيل: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، وقيل: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيجاء بالموت كأنه كبش أملح فيقال لهم: تعرفون الموت؟ فيقولون: هذا هذا وكل قد عرفه، قال: فيقدم فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت، قال: وذلك قوله: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ الآية. ورواه أصحابنا عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام، ثم جاء في آخره: فيفرح أهل الجنة فرحاً لو كان أحدٌ يومئذ ميتاً لماتوا فرحاً، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً لماتوا ﴿إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي فرغ من الأمر وانقطعت الآمال، وأدخل قوم النار وقوم الجنة. وقيل معناه: انقضى أمر الدنيا فلا يرجع إليها ولا استدراك للفائت. وقيل معناه: حكم بين الخلائق بالعدل. وقيل: قضى على أهل الجنة بالخلود، وقضى على أهل النار بالخلود ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ في الدنيا عن ذلك، ومعناه: أنهم مشغولون اليوم بما لا يعنيهم غافلون عن أحوال الآخرة ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون بذلك.

ثم أخبر سبحانه عن نفسه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي نميت سكانها فنرثها، ومن عليها من العقلاء لأنا نميتهم ونهلكهم، فلا يبقى فيها مالك ومتصرف ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي إلينا يردون بعد الموت، أي إلى حيث لا يملك الأمر والنهي غيرنا.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قد ذكرنا الاختلاف بين القراء في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ والوجه في ذلك في سورة يوسف عليه السلام.

● **اللغة:** الصديق: هو كثير التصديق بالحق حتى يصير علماً فيه. والرغبة: عن الشيء نقيض الرغبة فيه، والترغيب: الدعاء إلى الرغبة في الشيء. والانتهاء: الامتناع من الفعل المنهي عنه، يقال: نهاه عن الأمر فانتهى، وأصله النهاية، والنهي: زجر عن الخروج من النهاية المذكورة، والتناهي: بلوغ نهاية الحد. والرجم: الرمي بالحجارة، والرجم الشتم، وأصله من الرُّجم والرِّجام وهو الحجارة. والملي: الدهر الطويل، قال الفراء: يقال: كنت عندنا ملوًّا ومَلوة ومُلوة ومَلاوة ومُلاوة، وكله من طول المقام. والحفيُّ: المستقصى في السؤال، والحفي: اللطيف بعموم النعمة، وأصل الباب الاستقصاء، تقول: تحفيت به، أي بالغت في إكرامه وحفوته من كل خير: بالغت في منعه، وأحفيت شاربي: بالغت في أخذه حتى استأصلته، وأحفيت في السؤال: بالغت، وكل شيء استؤصل فقد احتفى. وتقول العرب: جاءني لسان فلان، أي مدحه وذمُّه، قال عامر بن الحرث:

إني أتتني لسان لا أسرُّ بها ... من علو لا عجب منها ولا سخر

جاءت مرجَّمة قد كنت أحذرها ... لو كان ينفعني الإشفاق والحذر

● **الإعراب:** قال الزجاج: العرب تقول في النداء: يا أبت ويا أمت، ولا يقال: قال أبتي كذا، وقالت أمتي كذا، وزعم الخليل وسيبويه أنهما بمنزلة قولهم: يا عمة ويا خالة، وزعم أنه

بمنزلة قولهم: رجل ربعة، وغلام يفعة، وأن الهاء عوض من ياء الإضافة في: يا أبي، ويا أمي، وقوله: ﴿مَلِيًّا﴾ منصوب على الظرف، و ﴿كُلًّا﴾ مفعول ﴿جَعَلْنَا﴾.

● **المعنى**: ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي القرآن ﴿إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ أي كثير التصديق في أمور الدين - عن الجبائي. وقيل: صادقاً مبالغاً في الصدق فيما يخبر عن الله تعالى - عن أبي مسلم ﴿نَّبِيًّا﴾ أي علياً رفيع الشأن برسالة الله تعالى ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ أي يا أبي، ودخلت التاء للمبالغة في تحقيق الإضافة ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ دعاء من يدعوه ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ من يتقرب إليه ويعبده ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ من أمور الدنيا، أي لا يكفيك شيئاً. فلا ينفعك ولا يضرك ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بالله والمعرفة ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ على ذلك واقتدِ بي ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي أوضح لك طريقاً مستقيماً معتدلاً، غير جائر بك عن الحق إلى الضلال ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ أي لا تطعه فيما يدعوك إليه فتكون بمنزلة من عبده ولا شبهة أن الكافر لا يعبد الشيطان، ولكن من أطاع شيئاً فقد عبده ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ أي عاصياً ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ أي يصيبك عذاب من جهة الله سبحانه لإصرارك على الكفر ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ أي فتكون موكولاً إلى الشيطان وهو لا يغني عنك شيئاً - عن الجبائي. وقيل معناه: فتكون لاحقاً بالشيطان باللعن والخذلان، واللاحق يسمى التالي، والذي يتلو الشيء والذي يليه سواء - عن أبي مسلم. وقيل: فتكون له قريناً في النار. وقيل معناه: فيكون الشيطان ولي نصرتك، ولم يقل فيكون الشيطان وليك، لأنه أبلغ في الفضيحة، وإنما أراد زجره عن موالاة الشيطان لا تحقيق النصرة، يعني إذا لم يكن لك إلا نصرته فأنت مخذول لا ناصر لك.

وقد بينا فيما مضى أن الذي يقوله أصحابنا: إن هذا الخطاب من إبراهيم عليه السلام إنما توجه إلى من سماه الله أباً له، لأنه كان جداً لإبراهيم عليه السلام لأمه، وإن أباه الذي ولده كان اسمه تارخ، لإجماع الطائفة على أن آباء نبينا صلى الله عليه وآله إلى آدم عليه السلام كلهم مسلمون موحدون. ولما روي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: لم يزل ينقلني الله تعالى من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا، والكافر غير موصوف بالطهارة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

﴿قَالَ﴾ آزر مجيباً لإبراهيم عليه السلام حين دعاه إلى الإيمان ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى﴾ أي أمعرض أنت عن عبادة آلهتي التي هي الأصنام ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ وتارك لها وزاهد فيها؟ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ أي لئن لم تمتنع عن هذا ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالحجارة - عن الحسن والجبائي. وقيل: لأرمينك بالذنب والعيب وأشتمنك - عن السدي وابن جريج. وقيل معناه: لأقتلنك ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ أي فارقني دهراً طويلاً - عن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي. وقيل: ملياً: سويًّا سليماً عن عقوبتي - عن ابن عباس وقتادة وعطاء والضحاك، من قولهم: فلان مليء بهذا الأمر، إذا كان كاملاً فيه مضطلعاً به.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ سلام توديع وهجر على ألطف الوجوه، وهو سلام متاركة

ومباعدة منه ـ عن الجبائي وأبي مسلم. وقيل: هذا سلام إكرام وبر، فقابل جفوة أبيه بالبر تأدية لحق الأبوّة، أي هجرتك على وجه جميل من غير عقوق ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: أنه إنما وعده بالاستغفار على مقتضى العقل، ولم يكن بعد قد استقر فقبح الاستغفار للمشركين.

وثانيها: أنه قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ على ما يصح ويجوز من تركك عبادة الأوثان وإخلاص العبادة لله تعالى ـ عن الجبائي.

وثالثها: أن معناه: سأدعو الله ألا يعذبك في الدنيا ـ عن الأصم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ أي باراً لطيفاً رحيماً ـ عن ابن عباس ومقاتل. وقيل: إن الله عودني إحسانه وكان لي مكرِماً. وقيل: كان عالماً بي وبما أبتغيه من مجادلتك لعله يهديك.

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وأتنحى منكم جانباً وأعتزل عبادة ما تدعون من دونه من الأصنام ﴿وادعوا﴾ أي وأعبد ﴿رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ كما شقيتم بدعاء الأصنام، وإنما ذكر ﴿عَسَىٰ﴾ على وجه الخضوع. وقيل معناه: لعله يقبل طاعتي وعبادتي ولا أشقى بالرد، فإن المؤمن بين الرجاء والخوف ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي فارقهم وهاجرهم إلى الأرض المقدسة ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ﴾ ولداً ﴿وَيَعۡقُوبَۖ﴾ ولد ولد ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا﴾ أي نعمتنا سوى الأولاد، والنبوة من نعم الدين والدنيا ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ أي ثناء حسناً في الناس علياً مرتفعاً سائراً في الناس، وكل أهل الأديان يتولون إبراهيم وذريته، ويثنون عليهم ويدعون أنهم على دينهم. وقيل معناه: وأعلينا ذكرهم بأن محمداً ﷺ وأمته يذكرونهم بالجميل إلى قيام القيامة. وقيل: ما يتلى في التشهد: كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة: ﴿مُخۡلَصٗا﴾ بفتح اللام، والباقون: ﴿مخلِصاً﴾ بكسرها.

● **الحجة:** من كسر اللام فحجته ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ ومن فتحها فحجته ﴿إنا أخلصناهم﴾.

● **اللغة:** يقال: ناجاه يناجيه إذا اختصه بكلام ألقاه إليه، وأصل النجاة: الارتفاع من الأرض، ومنه النجاة أيضاً، وهو الارتفاع عن الهلكة، والنجاة السرعة، لأنه ارتفاع في السير، ومنه المناجاة، لأنه ارتفاع الحديث إلى المحدث، والنجي بمعنى المناجي كالجليس والضجيع. وقيل: نجيٌّ مصدر بمعنى ارتفاع، لأن معنى قربناه: رفعناه، ويجوز أن يكون التقدير: وقربناه مكاناً رفيعاً.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه حديث موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمد ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ الذي هو القرآن ﴿مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أخلص العبادة لله تعالى وأخلص نفسه لأداء الرسالة، وبفتح اللام يكون معناه: أخلصه الله بالنبوة واختاره للرسالة ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ إلى فرعون وقومه ﴿نَبِيًّا﴾ رفيع الشأن عالي القدر ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ الطور: جبل بالشام، ناداه الله تعالى من جانبه اليمين، وهي يمين موسى. وقيل: من جانب اليمين من الطور، يريد حيث أقبل من مدين، ورأى النار في الشجرة، وهو قوله: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ أي مناجياً كليماً. قال ابن عباس: قربه الله وكلمه، ومعنى هذا التقريب أنه أسمعه كلامه. وقيل: قربه حتى سمع صرير القلم الذي كتبت به التوراة. وقيل: قربناه، أي ورفعنا منزلته وأعلينا محله حتى صار محله منا في الكرامة والمنزلة محل من قربه مولاه في مجلس كرامته، فهو تقريب كرامة واصطفاه لا تقريب مسافة وإدناء، إذ هو سبحانه لا يوصف بالحلول في مكان، فيقرب من بعد أو يبعد من قرب، أو يكون أحد أقرب إليه من غيره ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أي أنعمنا عليه بأخيه هارون، حيث قال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ﴾ وجعلناه نبياً: أشركناه في أمره وشددنا به أزره.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ الذي هو القرآن ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم أيضاً ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ إذا وعد بشيء وفي به ولم يخلف ﴿وَكَانَ﴾ مع ذلك ﴿رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ إلى جرهم، وقد مضى معناه. قال ابن عباس: إنه واعد رجلاً أن ينتظره في مكان ونسي الرجل فانتظره سنة حتى أتاه الرجل، وذلك مروي عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: أقام ينتظره ثلاثة أيام ـ عن مقاتل. وقيل: إن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام مات قبل أبيه إبراهيم عليه السلام، وأن هذا هو إسماعيل بن حزقيل بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة وجهه، وفروة رأسه، فخيره الله فيما شاء من عذابهم فاستعفاه ورضي بثوابه، وفوض أمرهم إلى الله تعالى في عفوه وعقابه، ورواه أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام، ثم قال في آخره: أتاه ملك من ربه يقرئه السلام ويقول: قد رأيت ما صنع بك، وقد أمرني بطاعتك فمرني بما شئت، فقال: يكون لي بالحسين عليه السلام أسوة ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ أي قومه وعترته وعشيرته. وقيل: أمته ـ عن الحسن ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وقيل: إنه كان يأمر أهله بصلاة الليل وصدقة النهار ﴿وَكَانَ﴾ مع ذلك ﴿عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ قد رضي أعماله، لأنها كلها طاعات لم تكن فيها قبائح. وقيل: مرضياً معناه: صالحاً زكياً رضياً، فحصل له عنده المنزلة العظيمة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾.

● **اللغة:** العلي: العظيم العلو، والعلي: العظيم فيما يقدر به على الأمور، ومنه يوصف الله تعالى بأنه عليٌّ، والفرق بين العلي والرفيع: أن العلي قد يكون بمعنى الاقتدار، وبمعنى علو المكان، والرفيع من رفع المكان لا غير، ولذلك لا يوصف الله تعالى بأنه رفيع، وأما رفيع الدرجات: فإنه وصف للدرجات بالرفعة. وبكيٌّ: وزنه فعول، وهو جمع باك، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى البكاء. والخلف: بفتح اللام يستعمل في الصالح، وبسكون اللام في الطالح، وقد يستعمل كل واحد في الآخر، قال لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب(١)

● **الإعراب:** ﴿سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ نصب على الحال، وتقديره: خروا ساجدين وباكين. قال الزجاج: وهي حال مقدرة المعنى، خروا مقدرين السجود، لأن الإنسان في حال خروره لا يكون ساجداً ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ في موضع نصب، أي فسوف يلقون العذاب إلا التائبين، فيكون الاستثناء متصلًا، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً من غير الأول، ويكون المعنى: لكن من تاب وآمن فأولئك يدخلون الجنة.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه حديث إدريس، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي هو القرآن ﴿إِدْرِيسَ﴾ وهو جد أبي نوح عليه السلام، واسمه في التوراة أخنوخ. وقيل: إنه سمي إدريس لكثرة درسه الكتب، وهو أول من خط بالقلم، وكان خياطاً، وأول من خاط الثياب. وقيل: إن الله تعالى علمه النجوم والحساب وعلم الهيأة، وكان ذلك معجزة له ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ مر معناه ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي عالياً رفيعاً. وقيل: إنه رفع إلى السماء الرابعة ـ عن أنس وأبي سعيد الخدري وكعب ومجاهد. وقيل: إلى السماء السادسة ـ عن ابن عباس والضحاك. قال مجاهد: رفع إدريس عليه السلام كما رفع عيسى عليه السلام وهو حي لم يمت. وقال آخرون: إنه قبض روحه بين السماء الرابعة والخامسة، وروي ذلك عن أبي جعفر. وقيل إن معناه: ورفعنا محله ومرتبته بالرسالة، كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ولم يرد به رفعة المكان ـ عن الحسن والجبائي وأبي مسلم.

---

(١) هذا البيت من قصيدة مشهورة قالها في رثاء أخيه من أمه أربد بن قيس، وقد خرج مع عامر بن الطفيل ليغدرا برسول الله ﷺ، فدا عليهما في قصة مشهورة، فماتا من رجوعهما. وقد مر البيت بمعناه في الجزء الثاني من هذا التفسير فراجع.

ولما فصل سبحانه ذكر النبيين ووصف كلًا منهم بصفة تخصه جمعهم في المدح والثناء، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تقدم ذكرهم ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بالنبوة. وقيل: بالثواب وبسائر النعم الدينية والدنيوية ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إنما فرق سبحانه ذكر نسبهم مع أن كلهم كانوا من ذرية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لتبيان مراتبهم في شرف النسب، فكان لإدريس شرف القرب لآدم، لأنه جد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان إبراهيم من ذرية من حمل مع نوح، لأنه من ولد سام بن نوح، وكان إسماعيل وإسحاق ويعقوب من ذرية إبراهيم، لما تباعدوا من آدم حصل لهم شرف إبراهيم، وكان موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى من ذرية إسرائيل ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ قيل إنه تم الكلام عند قوله: ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ من الأمم قوم ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ فحذف لدلالة الكلام عليه ـ عن أبي مسلم. وروي عن علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: نحن عنينا بها. وقيل: بل المراد به الأنبياء الذين تقدم ذكرهم من ذرية آدم، وممن هديناهم واجتبيناهم، أي هديناهم إلى الحق فاهتدوا واخترناهم من بين الخلق، ثم وصفهم فقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي تقرأ عليهم ﴿ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهو القرآن ـ عن ابن عباس ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ أي ساجدين لله ﴿وَبُكِيًّا﴾ أي باكين متضرعين إليه. بين الله سبحانه أنهم مع جلالة قدرهم كانوا يبكون عند ذكر آيات الله، وهؤلاء العصاة ساهون لاهون مع إحاطة السيئات بهم. ثم أخبر سبحانه فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ والخلف البدل السيِّىء، معناه: من بعد النبيين المذكورين قوم سوء. وقيل: هم اليهود ومن تبعهم، لأنهم من ولد إسرائيل. وقيل: هم من هذه الأمة عند قيام الساعة ـ عن مجاهد وقتادة ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تركوها ـ عن محمد بن كعب وقيل: أضاعوها بتأخيرها عن مواقيتها من غير أن يتركوها أصلًا ـ عن ابن مسعود وإبراهيم وعمر بن عبد العزيز والضحاك. وهو المروي عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي أنفذوا الشهوات فيما حرم الله عليهم، فقال وهب: فخلف من بعدهم خلف شرابون للقهوات لعابون بالكعبات ركابون للشهوات متبعون للذات تاركون للجمعات مضيعون للصلوات ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي يلقون مجازاة الغي ـ عن الزجاج، وهذا كقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي مجازاة الآثام. وقيل: ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي شراً وخيبة ـ عن ابن عباس وابن زيد ومنه قول الشاعر:

(ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً)

أي يخب: وقيل: الغي واد في جهنم ـ عن ابن مسعود وعطاء وكعب ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ أي ندم على ما سلف ﴿وَءَامَنَ﴾ في مستقبل عمره ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من الواجبات والمندوبات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ومن قرأ يدخلون بضم الياء وفتح الخاء أراد أن الله سبحانه يدخلهم الجنة بأن يأمرهم بدخولها، وهذا يطابق قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ ومن قرأ ﴿يَدْخُلُونَ﴾ أراد أنهم يدخونها بأمر الله، والمعنيان واحد، ولا يبخسون شيئاً من ثوابهم، بل يوفيه الله إليهم على التمام والكمال. وفي هذا دلالة على أن الله لا يمنع أحداً ثواب عمله ولا يبطله، لأنه سبحانه سمي ذلك ظلماً.

●●●

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ رويس عن يعقوب: ﴿نورّث﴾ بالتشديد، والباقون: ﴿نُورِثُ﴾ وفي بعض الروايات عن أبي عمرو: ﴿هل تعلم﴾ يدغم اللام في التاء، والأكثر الإظهار.

● **الحجة:** يقال: أورثه وورثه بمعنى، قال أبو علي: يرى سيبويه أن إدغام اللام في التاء والدال والطاء والصاد والزاي والسين جائز، لأن مخرج اللام قريب من مخارجهن، وهي حروف طرف اللسان، وأنشد لمزاحم العقيلي:

فذر ذا ولكن هتّعين متيّماً على ضوء برق آخر الليل ناصب(١)

● **الإعراب:** ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ بالنصب على البدل من قوله: ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ وقوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ في موضع الحال، أي كائنة بالغيب، وذو الحال جنات عدن و ﴿سَلَٰمٗا﴾ استثناء منقطع، فكأنه قال: لا يسمعون فيها كلاماً يؤلمهم، ولكن يسمعون سلاماً. ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ﴾ تقديره: قل: ما نتنزل، فأضمر القول ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ قال أبو علي: هذه الآية تدل على أن الأزمنة ثلاثة: ماض وهو قوله: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا﴾ ومستقبل وهو قوله: ﴿وَمَا خَلۡفَنَا﴾ وحال وهو قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بدل من اسم كان، وإن شئت كان خبر مبتدأ محذوف، وإن شئت كان مبتدأ. وقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ خبره، وهذا على قول الأخفش دون سيبويه.

● **النزول:** قيل: إن العاص بن وائل السهمي لم يعط أجرة أجير استعمله، وقال: لو كان ما يقوله محمد حقاً فنحن أولى بالجنة ونعيمها، فحينئذٍ أوفر أجره، فنزل: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ﴾ الآية. وقيل: احتبس الوحي أياماً لما سئل النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فشق ذلك عليه، فلما أتاه جبرائيل عليه السلام استبطأه، فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ﴾ الآية ـ عن عكرمة والضحاك وقتادة والكلبي ومقاتل.

● **المعنى:** ثم وصف سبحانه الجنة، فقال: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ أي جنات إقامة، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به، ووحد في الآية المتقدمة وجمع ههنا، فكأنه جنة تشتمل على جنات. وقيل: لأن لكل واحد من المؤمنين جنة تجمعها الجنة العظماء ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ المراد بالعباد المؤمنين، كما قال: ﴿فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ وقيل: إنه يتناول المؤمن

---

(١) أصله: هل تعين، أدغم اللام في التاء.

والكافر، ولكن بشرط رجوع الكافر عن كفره، وقال: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ لأنهم غابوا عما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت - عن ابن عباس. والمعنى: أنه وعدهم أمراً لم يكونوا شاهدونه فصدقوه وهو غائب عنهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي موعوده ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي آتيا لا محالة، والمفعول هنا بمعنى الفاعل، لأن ما آتيته فقد أتاك، وما أتاك فقد آتيته، يقال: أتيت على خمسين سنة، وأتت علي خمسون سنة. وقيل: إن الموعود هو الجنة، والجنة مأتية يأتيها المؤمنون **﴿لا يسمعون بها لغواً﴾** أي لا يسمعون في تلك الجنات القول الذي لا معنى له يستفاد، وهو اللغو. وقيل: قد يكون اللغو الهزل وما يلغى من الكلام مثل الفحش والأباطيل ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ أي إلا سلام الملائكة عليهم، وسلام بعضهم على بعض. قال الزجاج: السلام اسم جامع لكل خير، لأنه يتضمن السلامة، أي يسمعون ما يسلمهم ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال المفسرون: ليس في الجنة شمس ولا قمر، فيكون لهم بكرة وعشياً، والمراد أنهم يؤتون برزقهم على ما يعرفونه من مقدار الغداء والعشاء. وقيل: كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء أعجبت به، وكانت تكره الوجبة وهي الأكلة الواحدة في اليوم، فأخبر الله تعالى أن لهم في الجنة رزقهم بكرة وعشياً على قدر ذلك الوقت، وليس ثم ليل، وإنما هو ضوء ونور - عن قتادة. وقيل: إنهم يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ومقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب.

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى﴾ هي مذكورة في قوله: فأولئك يدخلون الجنة التي **﴿نورث من عبادنا من كان تقياً﴾** أي إنما يملك تلك الجنة من كان تقياً في دار الدنيا بترك المعاصي وفعل الطاعات، وإنما قال: ﴿نُورِثُ﴾ مع أنه ليس بتمليك نقل من غيرهم إليهم، لأنه شبه بالميراث من جهة أنه تمليك بحال استؤنفت عن حال قد انقضت من أمر الدنيا، كما ينقضي حال الميت من أمر الدنيا - عن الجبائي. وقيل: إنه تعالى أورثهم من الجنة المساكن والمنازل التي كانت لأهل النار لو أطاعوا الله تعالى، وأضاف العباد إلى نفسه لأنه أراد المؤمنين ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: إن النبي ﷺ قال لجبرائيل: ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزل ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية، أي إذا أمرنا نزلنا عليك، وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك. وقيل: إنه قول أهل الجنة إنا لا نتنزل موضعاً من الجنة إلا بأمر الله تعالى - عن أبي مسلم ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ معناه: له ما بين أيدينا من أمر الآخرة، وما خلفنا، أي ما مضى من أمر الدنيا، وما بين ذلك، أي ما بين النفختين - عن ابن عباس وقتادة والضحاك والربيع. قال مقاتل: وما بين النفختين أربعون سنة. وقيل معناه: ابتداء خلقنا، ومنتهى آجالنا، ومدة حياتنا. وقيل: ما بين أيدينا: ما بقي من أمر الدنيا، وما خلفنا: ما مضى من الدنيا، وما بين ذلك: من حياتنا، أي هو المدبر لنا في الأوقات الماضية والآتية والذاهبة. وقيل: ما بين أيدينا، أي الأرض عند نزولنا، وما خلفنا: السماوات إذ نزلنا منها، وما بين ذلك: السماء والأرض ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ قيل هذا تمام حكاية قول الملائكة، وقول أهل الجنة. وقيل: بل تم الكلام قبله. ثم أخبر الله سبحانه عن نفسه، ومعناه: أنه سبحانه ليس ممن ينسى ويخرج عن كونه عالماً لأنه عالم لذاته، وتقديره: وما نسيك يا محمد وإن أخر الوحي عنك. وقيل: ما كان ربك ناسياً لأحد حتى لا يبعثه يوم القيامة - عن أبي مسلم ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومدبرهما

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلائق والأشياء ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي اصبر على تحمل مشقة عبادته، ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي مثلاً وشبيهاً ـ عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج وسعيد بن جبير. وقيل: هل تعلم أحداً يستحق أن يسمى إلهاً إلا هو ـ عن الكلبي. وقيل: هل تعلم أحداً يسمى إلهاً خالقاً رازقاً محيياً مميتاً قادراً على الثواب والعقاب سواه حتى تعبده، فإذا لم تعلم ذلك فالزم عبادته، وهذا استفهام بمعنى النفي، أي لا تعلم من يسمى بلفظة الله.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وعاصم وابن عامر وروح وزيد عن يعقوب وسهل: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ خفيفاً، والباقون: ﴿أولا يذكر﴾ بالتشديد.

● **الحجة:** قال أبو علي: التذكر يراد به التدبر والتفكر، وليس تذكراً عن نسيان، والثقيلة كأنه في هذا المعنى أكثر، فمن ذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فإضافته إلى ﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يدل على أن المراد به النظر والتفكر، والحقيقة في هذا المعنى دون ذلك في الكثرة، وقد قال الله تعالى: ﴿**إن هذه تذكرة فمن شاء ذكره**﴾ وزعموا أنه في حرف أبيّ ﴿**أولا يتذكر**﴾ أما قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ فمعناه: لم يك شيئاً موجوداً، وليس يراد أنه قبل الخلق لم يقع عليه اسم شيء، وهذا كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ وقد قال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾.

● **اللغة:** الجِثيُّ جمع الجاثي، وهو الذي برك على ركبتيه، وأصله جُثوٌّ، فعول من جثى يجثو، وقد تقدم القول فيه في أوائل السورة. والشيعة: الجماعة المتعاونون على أمر واحد من الأمور، ومنه تشايع القوم إذا تعاونوا. والصليّ: مصدر صلى يصلي صلياً، مثل: لقي لقي لِقياً، وصلى يصلي صلياً، مثل: مضى يمضي مضياً.

● **الإعراب:** العامل في قوله: ﴿**أإذا ما مت**﴾ مضمر دل عليه قوله: ﴿**سوف أخرج حياً**﴾ والتقدير: أإذا ما مت بعثت؟ ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿أُخْرَجُ﴾ لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبله، كما أن ما بعد إن كذلك، وما بعد الاستفهام وحرف النفي، وقد ذكرنا ذلك في مواضع ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ يحتمل أن يكون منصوباً بأنه مفعول به، أي ونحشر الشياطين، ويحتمل أن يكون مفعولاً معه بمعنى: لنحشرنهم مع الشياطين. و ﴿جِثِيًّا﴾ منصوب على الحال. و ﴿عِتِيًّا﴾ منصوب على التمييز، وكذلك ﴿صِلِيًّا﴾. فأما الرفع في ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ قال الزجاج فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: قال سيبويه عن يونس أن لننزعن معلقة لم تعمل شيئاً، فكان قول يونس: ثم لننزعن من كل شيعة، ثم استأنف فقال: أيهم.

والثاني: حكي سيبويه عن الخليل أنه بمعنى الذين يقال لهم: أيُّهم أشد على الرحمٰن عتياً، ومثله قول الشاعر:

ولـقـد أبـيـت مـن الـفـتـاة بـمـنـزل فـأبـيـت لا حـرج ولا مـحـروم

والمعنى: فأبيت بمنزلة الذي يقال: لا هو حرج ولا محروم.

والثالث: قال سيبويه: إن أيُّهم مبنية على الضم لأنها خالفت أخواتها، بأن استعمل معها حذف الابتداء، تقول: اضرب أيُّهم أفضل، تريد أيُّهم هو أفضل، فيحسن الاستعمال كذلك بحذف هو، ولا يحسن أضرب من أفضل حتى تقول: من هو أفضل، ولا يحسن: كل ما أطيب، حتى تقول: كل ما هو أطيب. قال: فلما خالفت: من وما، والذي لا تقول فيه أيضاً: خذ الذي أفضل حتى تقول: خذ الذي هو أفضل، فلما خالفت هذا الخلاف بنيت على الضم في الإضافة، والنصب حسن وإن كنت قد حذفت «هو» لأن «هو» قد يجوز حذفها، وقد قرىء ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ﴾ على معنى: الذي هو أحسن.

قال أبو علي: ينبغي أن يكون مراد يونس بقوله: إن الفعل معلق أنه معمل في موضع ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ وليس يريد به أنه غير معمل في شيء البتة، بل يريد أنه معمل في موضع الجار والمجرور، لأن لفظ التعليق إنما يستعمل فيما يعمل في الموضع دون اللفظ، ولو أراد أنه لا عمل له في لفظ ولا موضع لقال: ملغىً، ولم يقل: معلق، كما تقول في: زيد ظننت منطلق: إنه ملغىً، وإذا كان كذلك كان قول الكسائي في الآية مثل قول يونس، لأن الكسائي قال: إن قوله ﴿لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ كقولك: أكلت من طعام، فإن كان كذلك كان أيُّهم منقطعاً من هذه الجملة، وكانت جملة مستأنفة.

فإن قال قائل: لم زعم سيبويه: أنه إذا حذف العائد من الصلة وجب البناء على الضم؟.

فالجواب: أن الصلة تبين الموصول وتوضحه، كما أن المضاف إليه يبين المضاف ويخصصه، فكما أن المضاف إليه لما حذف بني المضاف، فكذلك لما حذف العائد من الصلة إلى الموصول هنا بني، فإن قال من ينكر: ألا يكون حذف المبتدأ العائد من الصلة عوض حذف المضاف إليه من المضافات، لأن المحذوف هنا بعض الجملة، وفي المضاف قد حذف المضاف كله.

قيل: إن حذف العائد هنا نظير حذف المضاف إليه هناك، ألا ترى أن الذي يبين به الموصول ويتضح إنما هو الراجع الذي في الجملة، ولولا الراجع لم يبين، وإذا كان المبين له الراجع من الجملة فالحذف منها كان بمنزلة حذف المضاف إليه من المضاف.

● **النزول**: نزل قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الآية. في أبيّ بن خلف الجمحي، وذلك أنه أخذ عظماً بالياً فجعل يفتّه بيده ويُذريه في الريح ويقول: زعم محمد ﷺ أن الله يبعثنا بعد أن

نموت ونكون عظاماً مثل هذا، إن هذا شيء لا يكون أبداً ـ عن الكلبي. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة في رواية عطاء عن ابن عباس.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الوعد والوعيد، والبعث والنشور، حكي سبحانه عقيبه قول منكري البعث، ورد عليهم بأوضح بيان وأجلى برهان، فقال: **﴿ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً﴾** هذا استفهام المراد به الإنكار والاستهزاء، أي أإذا ما مت أعادني الله حياً؟ فقال سبحانه مجيباً لهذا الكافر: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ أي أولا يتذكر هذا الجاحد حال ابتداء خلقه فيستدل بالابتداء على الإعادة. وقيل: إن الإنسان هنا مفرد في اللفظ مجموع في المعنى، يريد جميع منكري البعث ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ معناه: ولم يك شيئاً كائناً أو مذكوراً.

سؤال: قيل: كيف تدل النشأة الأولى على النشأة الثانية، والواحد منا يقدر على أفعاله كالحركات والسكنات والأصوات وغيرها، ولا يقدر على إعادتها؟.

والجواب من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه خلق الأجسام والحياة فيها والبقاء جائز عليها فيجب أن يقدر على إعادتها بخلاف أفعالنا فإنها لا تبقى ولا يصح الإعادة عليها.

والثاني: أن الابتداء أصعب من الإعادة، فإذا كان قادراً على الابتداء فلأن يكون قادراً على الإعادة أولى.

والثالث: أنه سبحانه استدل بخلق الأجسام على أنه قادر لذاته، إذ القادر بقدرة لا يصح منه فعل الأجسام، وإذا كان قادراً لذاته ويقدر على إيجاد ما يصح وجوده وقتين قدر على إعادته.

ثم حقق سبحانه أمر الإعادة، فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي لنجمعنهم ونبعثنهم من قبورهم مقرنين بأوليائهم من الشياطين. وقيل: لنحشرنهم ولنحشرن الشياطين أيضاً ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أي مستوفزين على الركب ـ عن قتادة. والمعنى: يجثون حول جهنم متخاصمين، ويتبرأ بعضهم من بعض، لأن المحاسبة تكون بقرب جهنم. وقيل: جثياً، أي جماعات جماعات ـ عن ابن عباس. كأنه قيل: زمراً، وهو جمع جُثوة جَثوة، هي المجموع من التراب والحجارة. وقيل معناه: قياماً على الركب، وذلك لضيق المكان بهم لا يمكنهم أن يجلسوا ـ عن السدي ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي لنستخرجن من كل جماعة ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي الأعتى فالأعتى منهم. قال قتادة: لننزعنّ من كل أهل دين قادتهم ورؤوسهم في الشر، والعتيُّ ها هنا مصدر كالعتو، وهو التمرد في العصيان. وقيل: يبدأ بالأكثر جرماً فالأكثر ـ عن مجاهد وأبي الأحوص ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي لنحن أعلم بالذين هم أولى بشدة العذاب وأحق بعظيم العقاب وأجدر بلزوم النار.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ الكسائي وروح وزيد عن يعقوب: ﴿ثمّ ننجى﴾ بالتخفيف والباقون: ﴿نُنَجِّي﴾ بالتشديد. وقرأ ابن كثر: ﴿مُقاماً﴾ بضم الميم. والباقون: بفتحها. وقرأ أهل المدينة غير ورش وابن عامر والأعشى والبرجمي عن أبي بكر: ﴿وريًا﴾ بغير همز مشددة الياء، والباقون: ﴿وَرِءْيًا﴾ مهموزة. وفي الشواذ قراءة طلحة: ﴿ورياً﴾ خفيفة بلا همز، وقراءة سعيد بن جبير: «وزياً» بالزاي.

● **الحجة:** أنجاه ينجيه ونجاه ينجيه بمعنى، والمصدر واسم الموضع من باب يفعُل يجيء على مفعل، فالمقام بفتح الميم: يصلح أن يكون مصدراً من قام يقوم، ويصلح أن يكون اسم الموضع، والمُقامَ المصدر والموضع من أقام يقيم، فأما قول زهير:

وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعل(١)

فإنما هو على حذف المضاف، أي أهل مقامات ومشاهد. وروي عن الأصمعي أنه قال: المجلس: القوم، وأنشد:

(واستب بعدك يا كليب المجلس)(٢)

قال أبو علي: المجلس: موضع الجلوس، فالمعنى: على أهل المجلس، كما أن المعنى على أهل المقامات. قال السكري: المقامة المجلس، والمقام المنزل. وقوله: ﴿خيرٌ مُقاماً﴾ من ضم الميم جعله اسماً للمثوى، ومن فتح كان كذلك أيضاً، ألا ترى أن الندى والنادي هما المجلس، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ ويدل على ذلك قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ فإنه لا يراد به الحدث، إنما يراد به حسن الشارة والهيئة والمنظر، وهذا إنما يكون في الأماكن.

وأما قوله: ﴿وَرِءْيًا﴾ قال أبو علي: رُؤيٌ فُعلٌ من رأيت، فكأنه اسم لما ظهر وليس المصدر، وإنما المصدر الرأي والرؤية، يدل على ذلك قوله: ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾ فالرّيُّ الفعل، والرِّئيُ المرئي كالطحن والسِّقى والسَّقى والرِّعى والرَّعى، ومن خفف الهمزة من ﴿وَرِءْيًا﴾ لزم أن يبدل منها الياء لانكسار ما قبلها كما يبدل من ذئب وبئر، فإذا أبدل منها الياء

---

(١) أندية: جمع الندي بمعنى العطاء. وينتابها أي: يقصدها.

(٢) استب أي: سب كل واحد منهم الآخر.

وقعت ساكنة قبل حرف مثله فلا بد من الإدغام، وليس يجوز الإظهار في هذا كما جاز إظهار الواو في نحو: رؤياً ورؤية، يعني إذا خففت الهمزة فيها، لأن الياء في ريًّا قبل مثل، ووقعت في رؤياً قبل ما يجري مجرى المقارب.

قال ابن جني: من قرأ ﴿ورياً﴾ مشددة فإنه فعل، إما من رأيت، وأما من رويت، وأصله وهو من الهمزة، ورئياً كرعياً، فخففت الهمزة وأبدلت ياء وأدغمت في الياء الثانية.

ويجوز أن يكون من رويت، لأن للريان نضارة وحسناً، فيتفق معناه ومعنى «وزياً» بالزاي، وأصله على هذا «روى» فأبدلت الواو ياء وأدغمت في الياء. وأما «رياً» مخففة، فيحتمل أن يكون مقلوبة من فعل إلى فعل، فصار في التقدير: رئياً، ثم حذفت الهمزة وألقيت حركتها على الياء قبلها فصارت «رياً» ويحتمل أن يكون «رياً» من رويت، ثم خففت بحذف إحدى الياءين فصارت «رياً».

وأما الزيُّ بالزاي ففعل من زويت، أي جمعت، وذلك أنه لا يقال لمن له شيء واحد من آلته له زيٌّ حتى تكثر آلته المستحسنة، وأنشد ابن دريد:

أهاجتك الظعائن يوم باتوا ... بذي الزاي الجميل من الأثاث

● **اللغة:** الحتم: القطع بالأمر، والحتم والجزم والقطع بمعنى. والندِيّ والنادي: المجلس الذي قد اجتمع فيه أهله، ومنه دار الندوة، وهي دار قصي بمكة، وكانوا يجتمعون فيه للتشاور تيمناً به، وقد ندوت القوم أندوهم: إذا جمعتهم في مجلس، وأصل الندى: أنه مجلس أهل الندى، وهو الكرم، قال حاتم:

ودعيت في أولى الندى ولم ... ينظر إلي بأعين خزر(١)

والأثاث: المتاع من الفرش والثياب التي تزين بها، واحدها أثاثة، وقيل: لا واحد لها. والري: ما يراه الرجل من ظاهر أحوال القوم، وهو اسم للمرئي، كالذبح اسم للمذبوح.

● **الإعراب:** ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ تقديره: وما أحد ثابت منكم، فأحد مبتدأ ومنكم صفة وواردها خبر. وجثياً: منصوب على الحال. ﴿مقاماً ونديا﴾ منصوبان على التمييز. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ كم: نصب بأهلكنا، والتقدير: كم قرناً أهلكنا من جملة القرون، فحذف المميز بدلالة الكلام عليه. ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه خبر، والتقدير: فمد له الرحمٰن مداً، وباب الأمر والخبر يتداخلان، فكما أن قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ تقديره: فليتربصن، فجعل لفظ الخبر بمعنى الأمر، فكذا ها هنا جعل لفظ الأمر بمعنى الخبر، وقوله: ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ مفعول ﴿رَأَوْا﴾ و ﴿إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ بدل من ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ وقوله: ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ تعليق، فعلي هذا يكون ﴿هُوَ﴾ فصلًا، والفصل بين كلمة الاستفهام وخبره عزيز، فالأولى أن يكون ﴿مَنْ﴾ هنا بمعنى الذي وفي موضع نصب بـ ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ و ﴿هُوَ شَرٌّ﴾ مبتدأ وخبر والجملة صلة ﴿مَنْ﴾.

(١) الأخزر: الذي ينظر بمؤخر عينيه، يقال: قوم خزر.

أحدهما: أن ورودها هو الوصول إليها والإشراف عليها لا الدخول فيها، وهو قول ابن مسعود والحسن وقتادة، واختاره أبو مسلم، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ وبأنك تقول: وردت بلد كذا، وماء كذا، أي أشرفت عليه، دخلته أو لم تدخله، وفي أمثال العرب: أن ترد الماء بماء أكيس.(١) وقال زهير:

فلما وردن الماء زرقاً جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم(٢)

أراد: فلما بلغن الماء أقمن عليه. قال الزجاج: والحجة القاطعة في ذلك قوله سبحانه: ﴿**إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها**﴾ فهذا يدل على أن أهل الحسنى لا يدخلونها، قالوا: فمعناه أنهم واردون حول جهنم للمحاسبة، ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ثم يدخل النار من هو أهلها. وقال بعضهم: معناه أنهم واردون عرصة القيامة التي تجمع كل بر وفاجر.

والآخر: أن ورودها بمعنى دخولها بدلالة قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ وقوله: ﴿**وأنتم لها واردون**﴾، ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ وهو قول ابن عباس وجابر وأكثر المفسرين، ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ ولم يقل: وندخل الظالمين، وإنما يقال: نذر ونترك للشيء الذي قد حصل في مكانه. ثم اختلف هؤلاء، فقال بعضهم: إنه للمشركين خاصة، ويكون قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ المراد به منهم، كما قال سبحانه: ﴿**وسقاهم ربهم شراباً طهوراً إن هذا كان لكم جزاء**﴾ أي لهم. وروي في الشواذ عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿وَإِن مِّنْهُمْ﴾ وقال الأكثرون: إنه خطاب لجميع المكلفين، فلا يبقى بر ولا فاجر إلا ويدخلها، فيكون برداً وسلاماً على المؤمنين، وعذاباً لازماً للكافرين.

قال السدي: سألت مرة الهمداني عن هذه الآية، فحدثني أن عبد اللّه بن مسعود حدثهم عن رسول الله ﷺ قال: يرد الناس النار، ثم يصدرون بأعمالهم، فأولهم كلمع البرق، ثم كمر الريح، ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب، ثم كشد الرجل، ثم كمشيه.

وروى أبو صالح غالب بن سليمان عن كثير بن زياد عن أبي سمينة قال: اختلفا في الورود، فقال قوم: لا يدخلها مؤمن، وقال آخرون: يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد اللّه فسألته فأومى بإصبعيه إلى أذنيه وقال: صُمّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: الورود الدخول، لا يبقى بر ولا فاجر إلا يدخلها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ـ أو قال لجهنم ـ ضجيجاً من بردها، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً.

---

(١) يعني أن ترد الماء ومعك ماء أقرب إلى الحزم والكياسة من التفريط في حمله أي: لا تقصر في حمل الماء، ولو كنت وارداً على الماء.

(٢) يضرب في الأخذ بالحزم، والإحتياط في الأمور. ووضع العصي: كناية عن الإقامة، لأن المسافرين إذا أقاموا وضعوا عصيهم. والتخيم: ابتناء الخيمة.

وروي مرفوعاً عن يعلى بن منية عن رسول الله ﷺ قال: تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جزياً مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي.

وروي عن النبي ﷺ أنه سئل عن معنى الآية فقال: إن الله تعالى يجعل النار كالسمن الجامد ويجمع عليها الخلق، ثم ينادي المنادي: أن خذي أصحابك وذري أصحابي، قال ﷺ: فوالذي نفسي بيده لهي أعرف بأصحابها من الوالدة بولدها.

وروي عن الحسن أنه رأى رجلًا يضحك فقال: هل علمت أنك وارد النار؟ قال نعم، قال وهل علمت أنك خارج منها؟ قال لا، قال فيم هذا الضحك؟ وكان الحسن لم ير ضاحكاً قط حتى مات. وقيل: إن الفائدة في ذلك ما روي في بعض الأخبار أن الله تعالى لا يدخل أحداً الجنة حتى يطلعه على النار وما فيها من العذاب، ليعلم تمام فضل الله عليه وكمال لطفه وإحسانه إليه، فيزداد لذلك فرحاً وسروراً بالجنة ونعيمها، ولا يدخل أحد النار حتى يطلعه على الجنة وما فيها من أنواع النعيم والثواب، ليكون ذلك زيادة عقوبة له حسرة على ما فاته من الجنة ونعيمها.

وقال مجاهد: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فعلى هذا من حُم من المؤمنين فقد وردها. وقد ورد في الخبر أن الحمى من فيح جهنم. وروي أن رسول الله ﷺ عاد مريضاً فقال: أبشر، إن الله عز وجل يقول: الحمى هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا، لتكون حظه من النار.

وقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي كائناً واقعاً لا محالة، قد قضى بأنه يكون، و ﴿عَلَىٰ﴾ كلمة وجوب، فمعناه: أوجب الله ذلك على نفسه، وفيه دلالة على أنه يجب عليه سبحانه أشياء من طريق الحكمة خلافاً لما يذهب إليه أهل الجبر ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الشرك وصدقوا ـ عن ابن عباس ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ أي ونقر المشركين والكفار على حالهم ﴿فِيهَا﴾ أي في جهنم ﴿جِثِيًّا﴾ أي باركين على ركبهم. وقيل: جماعات على ما مر تفسيره. وقيل المراد بالظالمين كل ظالم وعاص، ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ ومعناه: وإذا يتلى على الكافرين آياتنا المنزلة في القرآن ظاهرات الحجج والأدلة يمكن تفهم معانيها ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ أي قال الذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا أنبياءه للذين صدقوا بذلك مستفهمين لهم وغرضهم الإنكاري: أي الفريقين أي أنحن أم أنتم خير منزلًا ومسكناً، أي موضع إقامة ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي مجلساً؟ وإنما تفاخروا بالمال وزينة الدنيا ولم يتفكروا في العاقبة، ولبّسوا على الضعفة بأن من كان ذا مال في الدنيا فكذلك يكون في الآخرة.

ثم نبههم سبحانه على فساد هذا الاعتقاد بأن قال: **﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورءياً﴾** قال ابن عباس: الأثاث: المتاع وزينة الدنيا، والري: المنظر والهيئة، والمعنى: أن الله تعالى قد أهلك قبلهم أمماً وجماعات كانوا أكثر وأحسن منظراً منهم، فأهلك أموالهم، وأفسد عليهم صورهم، ولم تغن عنهم أموالهم ولا جمالهم، كذلك لا يغني عن هؤلاء. وقيل:

إن المعني بالآية النضر بن الحارث وذووه، وكانوا يرجلون شعورهم ويلبسون خز ثيابهم ويفتخرون بشارتهم وهيآتهم على أصحاب النبي ﷺ.

ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ عن الحق والعدول عن اتباعه ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ هذا لفظ أمر معناه الخبر وتأويله: أن الله سبحانه جعل جزاء ضلالته أن يمد له بأن يتركه فيها، كما قال: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إلا أن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر، فكأن المتكلم يقول: افعل ذلك وأمر نفسي به، فالمعنى: فليعش ما شاء، وأضاف ذلك إلى نفسه لأنه سبحانه يبقيه في الدنيا، أي فليعش ما شاء الله من السنين والأعوام فإنه لا ينفعه طول عمره ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ أي عذاب الاستئصال ـ عن الأصم. وقيل: عذاب وقت البأس. وقيل: عذاب القبر. وقيل: عذاب السيف ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي القيامة وعذاب النار ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حين يرون العذاب ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي أهم أم المؤمنون؟ لأن مكانهم جهنم ومكان المؤمنين الجنة ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي ويعلمون أجندهم أضعف أم جند النبي ﷺ والمسلمين؟ وهذا رد لقولهم: أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي: ﴿وُلْداً﴾ بضم الواو وسكون اللام في هذه السورة أربعة مواضع، وفي الزخرف ﴿إن كانَ للرَّحمٰن﴾ وفي نوح ﴿وَوُلْدُه﴾ فهذه ستة مواضع. وقرأ أهل البصرة وابن كثير وخلف في سورة نوح بالضم فقط، وقرأ الباقون بفتح الواو واللام في جميع القرآن.

● **الحجة:** قال الفراء: من أمثال بني أسد: «وُلدك من دمي عقبيك»[(1)] قال: وكان معاذ الحرشي يقول: لا يكون الوُلد إلا جمعاً، وهذا واحد، يعني الذي في المثل، وأنشد:

فليت فلاناً كان في بطن أمه ... وليت فلاناً كان وُلد حمار

قال أبو علي: يجوز أن يكون جمعاً كأسد وأُسد، ويجوز أن يكون واحداً فيكون وَلد

---

(١) الخطاب لامرأة من بين القين أي: من نفست به فأدمى النفاس عقبيك، فهو ابنك، لا هذا الذي اتخذته ولداً بقولك إبني إبني.

وولد، كحَزن وحُزن، وعَرب وعُرب، فلا يكون كقول معاذ: إنه لا يكون إلا جمعاً، وما أنشده الفراء من قوله:

(ولـيـت فـلانـاً كـان ولـد حـمـار)

يدل على أنه واحد وليس بجمع، فهو مثل: الفلك الذي يكون مرة جمعاً، ومرة واحداً.

● **الإعراب:** ﴿**أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً**﴾ الموصول هو المفعول الأول ﴿**لرأيت**﴾ والاستفهام في موضع المفعول الثاني، وهو قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ الآية. قال الزجاج: ﴿كَلَّآ﴾ زجر وردع وتنبيه، أي هذا مما يرتدع به وينبه على وجه الضلالة فيه. وقال الفراء: يكون صلة لما بعدها، كقولك: كلا ورب الكعبة. وقال أبو حاتم: جاءت في القرآن على وجهين: بمعنى: لا يكون ذلك، وبمعنى «ألا» التي للتنبيه، وجاءت في مواضع متوجهة على التأويلين، ويدل على ذلك أنها قد تكون مبتدأة مثل قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ثم ابتدأ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ قال الأعشى:

كـلا زعـمـتـم بـأنـا لا نـقـاتـلـكـم ... إنـا لأمـثـالـكـم يـا قـومَـنـا قُـتُـل

وقال أبو العباس: لا يوقف على ﴿كَلَّآ﴾ لأنها جواب، والفائدة تقع فيما بعدها. وقيل: يجوز الوقف عليه، ومن مشكلات الوقف في القرآن الوقف على ﴿كَلَّآ﴾ وقد قسمه القراء على أربعة أقسام:

أحدها: ما يحسن الوقف عليه ويحسن الابتداء به.

والثاني: يحسن الوقف عليه ولا يحسن الابتداء به.

والثالث: يحسن الابتداء به ولا يحسن الوقف عليه.

والرابع: لا يحسن الوقف عليه ولا الابتداء به، وهو في القرآن في ثلاثة وثلاثين موضعاً، وليس في النصف الأول شيء منه.

فأما القسم الأول وهو ما يحسن الوقف عليه والابتداء به فعشرة مواضع: قوله: ﴿**أم اتخذوا عند الرحمن عهداً كلا**﴾ وقوله: ﴿**ليكونوا لهم عزاً كلا**﴾ وقوله تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا﴾ وقوله: ﴿**ثم ينجيه كلا**﴾ وقوله: ﴿**أن يدخل جنة نعيم كلا**﴾ وقوله: ﴿**أن أزيد كلا**﴾ وقوله: ﴿**صحفاً منشرة كلا**﴾ وقوله: ﴿**ربي أهانن كلا**﴾ وقوله: ﴿**أن ماله أخلده كلا**﴾ فمن جعل كلا في هذه المواضيع رداً للأول بمعنى لا، ليس الأمر كذلك، وقف عليه، ومن جعله بمعنى ألا التي للتنبيه أو بمعنى حقاً ابتدأ به، وهو يحتمل الوجهين في هذه المواضع.

وأما الثاني: وهو ما يحسن الوقف عليه ولا يحسن الابتداء به فموضعان: قوله: ﴿**فأخاف أن يقتلون قال كلا**﴾ وقوله: ﴿**إنا لمدركون قال كلا**﴾.

وأما الثالث: وهو ما يحسن الابتداء به ولا يحسن الوقف عليه، فتسعة عشر موضعاً. قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾، ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾، ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، ﴿كَلَّا بَلْ

تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، ﴿**كلا بل يحبون العاجلة**﴾، ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾، ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾، ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ﴾ ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾، ﴿**ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون**﴾ يحسن الابتداء بكلا في هذه المواضع ولا يحسن الوقف عليه، لأنه ليس بمعنى الرد للأول. وقال بعضهم: إنه يحسن الوقف على ﴿كَلَّا﴾ في جميع القرآن لأنه بمعنى انتبه، إلا في موضع واحد وهو قوله: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ لأنه موصول باليمين بمنزلة قوله: إي وربي.

وأما الرابع: فموضعان ﴿**كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون**﴾ لا يحسن الوقف على ﴿ثُمَّ﴾ لأنه حرف عطف، وعلى ﴿كَلَّا﴾ لأنه الفائدة فيما بعد هذين الحرفين.

● **النزول**: روي في الصحيح عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً غنياً وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لن أكفر به حتى تموت وتبعث، قال: فإني لمبعوث بعد الموت فسوف أقضيك دينك إذا رجعت إلى مال وولد. قال: فنزلت الآية ﴿**أفرأيت الذي كفر بآياتنا**﴾.

● **المعنى**: ثم بين سبحانه حال المؤمن، فقال سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ قيل معناه: ويزيد الله الذين اهتدوا بالمنسوخ هدى بالناسخ ـ عن مقاتل. وقيل: يزيدهم هدى بالمعونة على طاعاته، والتوفيق لابتغاء مرضاته، وهو ما يفتحه لهم من الدلالات، وما يفعله بهم من الألطاف المقربة من الحسنات. ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ قد مر تفسيره في سورة الكهف، وجملته أن الأعمال الصالحة التي تبقى ببقاء ثوابها، وتنفع صاحبها في الدنيا والآخرة، خير ثواباً من مقامات الكفارات التي يفتخرون بها كل الافتخار ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي خير عاقبة ومنفعة، يقال: هذا الشيء أرَدُّ عليك، أي أنفع وأعود، لأن العمل الصالح ذاهب عنه بفقده له، فيرده الله تعالى عليه بردِّ ثوابه إليه حتى يجده في نفسه ﴿**أفرأيت الذي كفر بآياتنا**﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ كلمة تعجيب، ومعناه: أرأيت هذا الكافر الذي كفر بأدلتنا من القرآن وغيره، وهو العاص بن وائل ـ عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: الوليد بن المغيرة ـ عن الحسن. وقيل: هو عام فيمن له هذه الصفة ـ عن أبي مسلم ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ استهزاء، أي لأعطين مالاً وولداً في الجنة ـ عن الكلبي. وقيل: أعطى في الدنيا، أي إن أقمت على دين آبائي وعبادة آلهتي أعطيت مالاً وولداً.

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ هذه همزة الاستفهام دخلت على همزة الوصل فسقطت همزة الوصل، ومعناه: أعلِم الغيب حتى يعلم أهو في الجنة أم لا؟ ـ عن ابن عباس ومجاهد. وقيل معناه: أنظر في اللوح المحفوظ؟ ـ عن الكلبي. وتأويله: أشرف على علم الغيب حتى علم أنه سنؤتيه مالاً وولداً، وأنه إن بعث رزق مالاً وولداً ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي اتخذ عند الله عهداً بعمل صالح قدمه ـ عن قتادة. وقيل معناه: أم عهد الله إليه أنه يدخل الجنة ـ عن الكلبي. وقيل معناه: أم قال: لا إله إلا الله فيرحمه الله بها ـ عن ابن عباس ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر على ما قال من أنه يؤتى المال والولد، ويجوز أن يكون المعنى: كلا إنه لم يطلع الغيب ولم يتخذ عند الله

عهداً ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي سنأمر الحفظة بإثباته عليه لنجازيه به في الآخرة ونوافقه عليه ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي نصل له بعض العذاب بالبعض، ونزيده عذاباً فوق العذاب فلا ينقطع عذابه أبداً، وأكد الفعل بالمصدر كما يؤكد بالتكرير ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إياه وإبطال ملكه ـ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي يأتي الآخرة وحيداً بلا مال ولا ولد ولا عدة ولا عدد.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ يعني أن هؤلاء الكفار الذين وصفتهم اتخذوا آلهة، أي أصناماً عبدوها ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ أي ليكونوا لهم شفعاء في الآخرة ـ عن الفراء. وهذا معنى قول ابن عباس: ليمنعوهم مني. وذلك أنهم رجوا منها الشفاعة والنصرة، والمراد: ليصيروا بهم إلى العز، قال الله سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا، بل صاروا بهم إلى الذل والعذاب ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي سيجحدون بأن يكونوا عبدوها ويتبرؤون منها لما يشاهدون من سوء عاقبة أمرهم، ويقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقيل معناه: أن المعبودين سيكفرون بعبادة المشركين لها ويكذبونهم فيها، كما قال حكاية عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ـ عن الجبائي ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال الأخفش: الضد يكون واحداً وجمعاً، كالرسول والعدو، ومعناه: ويكونون عوناً عليهم وأعداء لهم يخاصمونهم ويكذبونهم. وقيل: ويكونون قرناء لهم في النار، ويلعنونهم ويتبرؤون منهم ـ عن قتادة. وقيل: ويكونون أعداءهم يوم القيامة، وكانوا في الدنيا أولياءهم ـ عن القتيبي.

●●●

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ رواية قتادة عن الحسن: **﴿يُحشر المتقون ويساق المجرمون﴾** قال: فقلت: إنها بالنون يا أبا سعيد، قال: وهي للمتقين إذاً. وقراءة السلمي: **﴿شيئاً أداً﴾** بفتح الهمزة. وقرأ أبو جعفر وابن كثير وحفص: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ بالتاء وفتح الطاء مشددة، وفي عسق مثله. وقرأ نافع والكسائي ﴿يَكَادُ﴾ بالياء ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ في السورتين. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وهبيرة عن حفص ويعقوب ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء **﴿ينفطرن﴾** بالياء والنون وكسر الطاء في السورتين. وقرأ ابن عامر وحمزة وخلف ها هنا: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء **﴿ينفطرن﴾** بالنون، مثل أبي عمرو في عسق ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ بالتاء أيضاً.

● **الحجة:** حجة من قرأ: ﴿يحشر، ويساق﴾ قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ والأد بالفتح: القوة، قال:

(نضوتَ عني شِرةً وأدًا)(١)

فعلى هذا يمكن أن يكون المعنى: لقد جئتم شيئاً ذا أدّاي ذا قوة، وإن شئت وصفته بالمصدر، كقولهم: رجل عدلٌ وضيْف. والإنفطار: مطاوعة الفطر، يقال: فطره فانفطر، والتفطر: مطاوعة التفطير، يقال: فطرته فتفطر، وكأنه أليق بهذا الموضع لما فيه من معنى المبالغة وتكرير الفعل. وذهب أبو الحسن في معنى قوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ إلى أن معنى ﴿تَكَادُ﴾ تريد، وكذلك قال في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ أي أردنا له، وأنشد:

كادت وكدت وتلك خير إرادة … لو عاد من ذكر الصبابة ما مضى

وكذلك قوله في: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ أي أريد أخفيها، وعلى هذا فسر غيره قول الأفوه:

فإن تجمَّع أوتادٌ وأعمدة … وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

أي أرادوا. قال: المعنى: يردن لا أنهن ينفطرن ولا يدنون من ذلك، ولكن من هممن به إعظاماً لقول المشركين، ولا يكون على من هم بالشيء أن يدنو منه، ألا ترى أن رجلًا لو أراد أن ينال السماء لم يدن من ذلك، وقد كانت منه إرادة.

وقد قال بعض المتأولين في قوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ... هَدًّا﴾ مثل كانت العرب إذا سمعت كذباً أو منكراً تعاظمته وعظمته بالمثل الذي عندها عظيماً فقالت: كادت الأرض تنشق وأظلم عليّ ما بين السماء والأرض، فلما افتروا على الله الكذب ضرب مثل كذبهم بأهول الأشياء وأعظمها. قال أبو علي: ومما يقرب من هذا قول الشاعر:

ألم تر صدعاً في السماء مبيّناً … على ابن لبين الحرث بن هشام

وقول الآخر:

وأصبح بطن مكة مقشعرًا … كأن الأرض ليس بها هشام

وقال الآخر:

لما أتى خبر الزبير تواضعت … سور المدينة والجبال الخشع

● **اللغة:** الأز: الإزعاج إلى الأمر، يقال: أزّه يأزّه أزاً وأزيزاً إذا هزه بالإنزعاج إلى أمر من الأمور، وأزّت القدر أزيزاً إذا غلت. ومنه الحديث: أنه كان يصلي وأزيز جوفه كأزيز المرجل من البكاء. وأززت الشيء إلى الشيء: ضممته إليه. والوفد: جمع وافد، وقد يجمع وفوداً أيضاً وفد يفد وفداً، وأوفد على الشيء: أشرف عليه. والسوْق: الحث على السير ساقه يسوقه سوْقاً، ومنه الساق لاستمرار السير بها، أو لأن القدم يساقها، ومنه السُوق لأنه يساق بها البيع والشراء

(١) وفي اللسان: «نضون عني شدة وأداً» وبعده: «من بعدما كنت صمالاً نهداً».

شيئاً بعد شيء. والوِرد: الجماعة التي ترد الماء، يقال: ورد الماء يرد ورداً. والإِد: الأمر العظيم، قال الراجز:

قد لقي الأعداء مني نكراً داهية دهياء إداً إمراً

والانفطار: الانشقاق، والتفطر: التشقق. والهد: الهدم بشدة صوت.

● **الإعراب:** ﴿تؤزهم﴾ جملة في موضع الحال، ومفعول ﴿نعدُّ لهم﴾ محذوف، والتقدير: نعد أعمالهم عداً، و ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ ظرف قوله ﴿نعد لهم﴾ ويجوز أن ينتصب بقوله: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي لا يملكون في ذلك اليوم ﴿وَفْدًا﴾ منصوب على الحال من ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي وافدين، و ﴿ورداً﴾ كذلك، أي واردين ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ هو موصول وصلة في موضع رفع لأنه بدل من الواو في ﴿يَمْلِكُونَ﴾ ويجوز أن يكون في محل النصب لأنه استثناء منقطع، فإن من اتخذ عند الرحمٰن عهداً لا يكون من المجرمين. وقوله: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ جملة معطوفة على الجملة التي قبلها، وتقديره: وتكاد الأرض تنشق والجبال تخر، وهذا منصوب على المصدر في المعنى تقديره: تخر خروراً وتنهد هداً، ويجوز أن يكون في موضع الحال، و ﴿أَن دَعَوْا﴾ مفعول له والتقدير: لأن دعوا، أي لأجل ذلك.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي خلينا بينهم وبين الشياطين، إذا وسوسوا إليهم ودعوهم إلى الضلال حتى أغووهم ولم نحل بينهم وبينهم، بالإلجاء ولا بالمنع، وعبر عن ذلك بالإرسال على سبيل المجاز والتوسع، كما يقال لمن خلى بين الكلب وغيره: أرسل كلبه عليه ـ عن الجبائي. وقيل معناه: سلطناهم عليهم، ويكون في معنى التخلية أيضاً على ما ذكرناه ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي تزعجهم إزعاجاً من الطاعة إلى المعصية ـ عن ابن عباس. وقيل: تغريهم إغراء بالشر، تقول: امض امض في هذا الأمر حتى توقعهم في النار ـ عن سعيد بن جبير ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ معناه: فلتطب نفسك يا محمد، ولا تستعجل لهم العذاب، فإن مدة بقائهم قليلة، فإنا نعد لهم الأيام والسنين، وما دخل تحت العد فكأن قد نفد. وقيل معناه: نعد أنفاسهم في الدنيا فهي معدودة إلى الأجل الذي أجلناه لعذابهم ـ عن ابن عباس. وهذا من أبلغ الوعيد. وقيل معناه: نعدُّ أعمالهم على ما ذكرناه قبل ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي اذكر لهم يا محمد اليوم الذي نجمع فيه من اتقى الله في الدنيا بطاعته واجتنب معاصيه إلى الرحمٰن، أي إلى جنته ودار كرامته وفوداً وجماعات ـ عن الأخفش. وقيل: ركباناً يؤتون بنوق لم ير مثلها عليها رحائل الذهب وأزمتها الزبرجد فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام وابن عباس ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي ونحث المجرمين على المسير إلى جهنم عطاشاً، كالإبل التي ترد عطاشاً مشاة على أرجلهم ـ عن ابن عباس والحسن وقتادة، وسمي العطاش وِرداً، لأنهم يردون لطلب الماء. وقيل: الورد النصيب، أي هم نصيب جهنم من الفريقين، والمؤمنون نصيب الجنة ـ عن أبي مسلم ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة، فلا يشفعون ولا يشفع لهم حين شفع أهل الإيمان بعضهم لبعض، لأن مِلك الشفاعة على وجهين:

أحدهما: أن يشفع للغير.

والآخر: أن يستدعي الشفاعة من غيره لنفسه، فبين سبحانه أن هؤلاء الكفار لا تنفذ شفاعة غيرهم فيهم، ولا شفاعة لهم لغيرهم.

ثم استثنى سبحانه فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي لا يملكون الشفاعة إلا هؤلاء. وقيل: لا يشفع إلا هؤلاء، والعهد هو الإيمان والإقرار بوحدانية الله تعالى، وتصديق أنبيائه. وقيل: هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن يتبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله ـ عن ابن عباس. وقيل معناه: لا يشفع إلا من وعد له الرحمٰن بإطلاق الشفاعة كالأنبياء والشهداء والعلماء المؤمنين على ما ورد به الأخبار.

وقال علي بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره: حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن سليمان بن جعفر عليه السلام عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من لم يحسن وصيته عند الموت كان نقصاً في مروءته، قيل: يا رسول الله، وكيف يوصي الميت؟ قال: إذا حضرته وفاته واجتمع الناس إليه، قال: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، إني أعهد إليك في دار الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً صلى الله عليه وآله عبدك ورسولك، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن البعث حق، والحساب حق، والقدر والميزان حق، وأن الدين كما وصفت، وأن الإسلام كما شرعت، وأن القول كما حدثت، وأن القرآن كما أنزلت، وأنك أنت الله الحق المبين، جزى الله محمداً عنا خير الجزاء، وحيَّ الله محمداً وآله بالسلام، اللهم يا عدتي عند قربتي، ويا صاحبي عند شدتي، ويا وليّ نعمتي، إلهي وإله آبائي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، فإنك إن تكلني إلى نفسي أقرب من الشر وأبعد من الخير، وآنس في القبر وحشتي، وأجعل له عهداً يوم ألقاك منشوراً، ثم يوصي بحاجته، وتصديق هذه الوصية في سورة مريم في قوله: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ فهذا عهد الميت، والوصية حق على كل مسلم، وحق عليه أن يحفظ هذه الوصية ويُعلمها، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: علمنيها رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: علمنيها جبرائيل عليه السلام.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ إخبار عن اليهود والنصارى ومشركي العرب، فإن اليهود قالوا: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال مشركو العرب: الملائكة بنات الله ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ ها هنا حذف تقديره: قل لهم يا محمد: لقد جئتم بشيء منكر عظيم شنيع فظيع، فلما حذف الباء وصل الفعل إليه فنصبه ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي أرادت السماوات أن تنشق لعظم فريتهم إعظاماً لقولهم، ومعناه: لو انشقت السماوات بشيء عظيم لكانت تنشق من هذا ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ أي وكادت الأرض تنشق ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ﴾ أي كادت الجبال تسقط ﴿هداً﴾ أي كسراً شديداً ـ عن ابن عباس. وقيل: هدماً ـ عن عطاء ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ أي لأن دعوا للرحمٰن ولداً، أو مِن أن دعوا للرحمٰن ولداً، أي بسبب دعوتهم أو تسميتهم له ولداً ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي ما يصلح للرحمٰن ولا يليق به اتخاذ الولد، وليس من

صفته ذلك، لأن إثبات الولد له يقتضي حدوثه وخروجه من صفة الإلهية، واتخاذ الولد يدل على الحاجة، تعالى عن ذلك وتقدّس.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

● **اللغة:** اللدد: شدة الخصومة، وفي التنزيل: ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ أي أشد الخصام خصومة، وجمع الألد: لُدٌّ، قال الشاعر:

إن تحت الأشجار حزماً وعزماً وخصيماً ألدَّ ذا معلاق

أي شديد الخصومة. والركز: الصوت الخفي، وأصل الركز الحسُّ، ومنه الركاز لأنه يحَسُّ به مالٌ من تقدم بالكشف عنه، قال ذو الرمة:

وقد توجس ركزاً من سنابكها أو كان صاحب أرض أو به المومُ

الأرض: الرعدَةُ: والموم: البِرْسام. وأصل الإحساس: الإدراك بالحاسة.

● **الإعراب:** ﴿كُلُّ﴾ مبتدأ، و﴿مَن﴾ في موضع خبر والجار والمجرور من صلته، و﴿آتي الرحمن﴾ في موضع رفع خبر ﴿كُلُّ﴾ وهو مضاف إلى المفعول ووحد ﴿كلاًّ﴾ على اللفظ، و ﴿عَبْدًا﴾ في موضع الحال من الضمير من ﴿وَءَاتِي﴾ و ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من الأولى يتعلق بـ ﴿تُحِسُّ﴾ والثانية مزيدة، ويجوز أن يكون تقديره: هل تحس أحداً منهم؟ ويكون ﴿مِّنْهُمْ﴾ في موضع الصفة لأحد، فلما قدم على الموصوف انتصب على الحال.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ أي ما كل من في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن إلا ويأتي الله سبحانه عبداً مملوكاً خاضعاً ذليلاً، ومثله قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ والمعنى: أن الخلق عبيده، خلقهم ورباهم وجرى عليهم حكمه، وأن عيسى وعزيراً والملائكة من جملة العبيد، وفي هذا دلالة على أن النبوة والعبودية لا يجتمعان، وأنه إذا ملك الإنسان ابنه عتق عليه ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي علم تفاصيلهم وأعدادهم، فكأنه سبحانه عدهم، إذ لا يخفى عليه شيء من أحوالهم ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي كل واحد منهم يأتي المحشر والموضع الذي لا يملك الأمر فيه إلا الله فرداً وحيداً مفرداً ليس له مال ولا ولد ولا ناصر، مشغولاً بنفسه لا يهمه هم غيره، ثم ذكر سبحانه المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: أنها خاصة في علي بن أبي طالب عليه السلام، فما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة لعلي عليه السلام - عن ابن عباس. وفي تفسير أبي حمزة الثمالي: حدثني أبو جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: قل: اللهم اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي في قلوب المؤمنين وُدًا فقالهما علي عليه السلام فنزلت هذه الآية، وروي نحوه عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري.

والثاني: أنها عامة في جميع المؤمنين، يجعل الله لهم المحبة والالفة والمقة في قلوب الصالحين. قال هرم بن حبان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم ومحبتهم. وقال الربيع بن أنس: إن الله إذا أحب مؤمناً قال لجبرائيل: إني أحببت فلاناً فأحبه، فيحبه جبرائيل، ثم ينادي في السماء: ألا إن الله أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له قبول في أهل الأرض، فعلى هذا يكون المعنى يحبهم الله ويحببهم إلى الناس.

والثالث: إن معناه: يجعل الله لهم محبة في قلوب أعدائهم ومخالفيهم، ليدخلوا في دينهم ويعتزوا بهم.

والرابع: يجعل بعضهم يحب بعضاً، فيكون كل واحد منهم عضداً لأخيه المؤمن، ويكونون يداً واحدة على من خالفهم.

والخامس: إن معناه: سيجعل لهم ودًا في الآخرة، فيحب بعضهم بعضاً كمحبة الوالد لولده في ذلك أعظم السرور وأتم النعمة - عن الجبائي. ويؤيد القول الأول ما صح عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: لوضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدنيا بجملتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنه قضى فانقضى على لسان النبي الأمي أنه قال: لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق.

ثم قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي يسرنا القرآن بأن أنزلناه بلسانك وهي لغة العرب، ليسهل عليهم معرفته، ولو كان بلسان آخر ما عرفوه - عن أبي مسلم. وقيل معناه: يسرناه قراءة القرآن على لسانك ومكناك من قراءته - عن الجبائي ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي لتبشر بالقرآن الذين يتقون الشرك والكبائر، أي تخبرهم بما تسرهم مما أعده الله لهم ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي شداداً في الخصومة - عن ابن عباس. يعني قريشاً. وقيل: قوماً ذوي جدل مخاصمين - عن قتادة.

ثم أنذرهم سبحانه وخوفهم بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي قبل هؤلاء من قرن مكذبين للرسل، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وآله، والمعنى: لا يهمنك كفرهم وشقاقهم، فإن وبال ذلك راجع إليهم، وقد أهلكنا قبلهم من كان مثلهم ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي هل تبصر منهم أحداً ﴿أو تسمع له ركزاً﴾ أي صوتاً - عن ابن عباس وقتادة. وقيل: حساً - عن ابن زيد. والمعنى: أنهم ذهبوا فلا يرى لهم عين، ولا يسمع لهم صوت، وكانوا أكثر أموالاً، وأعظم أجساماً، وأشد خصاماً من هؤلاء، فلم يغنهم ذلك لما أردنا إهلاكهم، فحكم هؤلاء الكفار حكم أولئك في إنه لا يبقى منهم عين ولا أثر. والحمد لله رب العالمين.

تم الجزء السادس من تفسير «مجمع البيان» للعلامة الطبرسي
ويتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع،
وأوله سورة طه

الفهرس

سورة الرعد ٥
سورة إبراهيم ٤٢
سورة الحجر ٧٤
سورة النحل ١٠٣
سورة الإسراء ١٦٢
سورة الكهف ٢٣٣
سورة مريم ٣٠٤
الفهرس ٣٥١

بسم الله الرحمن الرحيم